http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

والذي يفعل ظلماً سيتلقى عقاباً عليه ، وحين يتأخر العقاب يتساءل الذين رَأَوْا فِعْل الظُّلم فهم يتهامسون : تُرَى هل تَمَّ نسيان الظلم الذي ارتكبه فلان؟ هل هناك غفلة في الأمر؟

وهم في تساؤلاتهم هذه يريدون أن يعلنوا موقفهم من مرتكب الذنب؛ وضرورة عقابه ، وعلى ذلك نفهم كلمة :

{ غَافِلاً } [إبراهيم : 42] .

في هذه الآية بمعنى « مُؤَجِّل العقوبة » .

ولمن يتساءلون عليهم أنْ يتذكَّروا قول الحق سبحانه : { وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } [الأعراف : 183] .

وعلى ذلك فليست هناك غفلة؛ ولكن هناك تأجيل للعقوبة لهؤلاء الظالمين؛ ذلك أن الظلم يعني أَخْذ حقٍّ من صاحبه وإعطاءه للغير؛ أو أَخْذه للنفس .

وإذا كان الظلم في أمر عقديّ فهو الشرك؛ وهو الجريمة العظمى ، وإنْ ظلمتَ في أمر كبيرة من الكبائر فهذا هو الفِسْق ، وإنْ ظلمتَ في صغيرة فهو الظلم .

ولذلك نجد الحق – سبحانه وتعالى – يُورِد كل حكم يناسب الثلاثة مواقف؛ فيقول عن الذي تغاضى عن تجريم الشرك : { وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ الله فأولئك هُمُ الكافرون } [المائدة : 44] .

ويقول عن تجريم كبيرة من الكبائر : { وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ الله فأولئك هُمُ الفاسقون } [المائدة : 47] .

ويقول عمَّنْ يتغاضى عن تجريم صغيرة بما يناسبها من أحكام الدين : { وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أنزَلَ الله فأولئك هُمُ الظالمون } [المائدة : 45] .

وإذا وُجِد محكوم عليه ، وهو واحد – بأحكام متعددة فالحكم مُتوقِّف على ما حكم به .

وحين ننظر في مسألة الظلم هذه نجد أن الظالم يقتضي مظلوماً ، فإنْ كان الظُّلْم – والعياذ بالله – هو ظُلم القمة وهو الشرك بالله ، فهذا الظلم ينقسم – عند العلماء – إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : وهو إنكار وجود الله وألوهيته دون أن ينسبها لأحد آخر؛ وهذا هو الإلحاد ، وهو ظُلْم في واجب وجوديته سبحانه .

والنوع الثاني : هو الاعتراف بألوهية الله وإشراك آخرين معه في الألوهية ، وهذا الشرك ظُلْم للحق في ذاتية وواحدية تفرُّده .

والنوع الثالث : هو القول بأن الله مُكوَّن من أجزاء؛ وهذا ظُلْم لله في أحدية ذاته .

ويقول بعض العارفين : أن أول حقٍّ في الوجود هو وجوده سبحانه .

ومنهم الشاعر الذي قال :

وأوَّل حَقٍّ في الوُجُودِ وُجُوده ... وكُلُّ حُقوقِ الكوْنِ منه استمدَّت

فَلا هُو جَمْعٌ كمَا قال مُشْركٌ ... ولاَ هُوَ في الأَجْزاءِ يَا حُسْن مِلَّتي

والظلم الذي ورد في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، و ظلم القمة؛ ظُلْم في العقيدة الإلهية ، ومعه ظلم آخر هو ظلم الرسول صلى الله عليه وسلم . ويُلخِّص الشاعر ظُلْمهم للرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

لَقَّبتمُوه أَمِيناً في صِغَرٍ ... وَمَا الأمينُ على قَوْل بِمُتَّهِمِ

وهم قد سَمَّوا الرسول من قبل الرسالة بالأمين؛ وبعد الرسالة نزعوا منه هذا الوصف ، وكانوا يَصِفونه قبل الرسالة بالصادق ، ولم يقولوا عنه مرة قبل الرسالة إنه ساحر ، ولم يتهموه من قبل الرسالة بالجنون .

فكيف كانت له أوصاف الصِّدق والنطق بالحق؛ والتحدث عن رجاحة قدرته في الحكم؟

كيف كانت له تلك الصفات قبل الرسالة؛ وتنزعونها منه من بعد الرسالة؟

إن هذا هو ظلم سلْب الكمال ، فقد كان للرسول صلى الله عليه وسلم كما قبل أن يُرسلَ؛ فظلمتموه بعد الرسالة وأنكرتم عليه هذا الكمال؛ وهو ظُلْم مُزْدَوج .

فقد سبق أن اعترفتم له من قبل الرسالة بالأمانة؛ ولكن من بعد الرسالة أنكرتُم أمانته ، وكان صادقاً من قبل الرسالة؛ وقلتم إنه غَيْر صادق بعدها .

ولم تكن له صفة نَقْص قبل الرسالة؛ فجئتم أنتم له بصفة نقص؛ كقولكم : ساحر؛ كاهن؛ مجنون ، وفي هذا ظُلْم للرسول صلى الله عليه وسلم .

وهذا أيضاً ظُلْم للمجتمع الذي تعيشون فيه ، لأن مَنْ يريد استمرار الاستبداد بكلمة الكفر ، ويريد أن يستمرَّ في السيادة والاستغلال والتحكُّم في الغير؛ فكُلُّ ذلك ظُلْم للمجتمع؛ وفوق ذلك ظُلْم للنفس؛ لأن مَنْ يفعل ذلك قد يأخذ متعة بسيطة؛ ويحرم نفسه من متعة كبيرة؛ هي متعة الحياة في ظِلِّ منهج الله ، وينطبق عليه قول الحق الرحمن : { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [النحل : 118] .

وفوق ظُلْم النفس وظُلْم المجتمع هناك ظُلْم يمارسه هذا النوع من البشر ضد الكون كُلِّه فيما دون الإنسان؛ من جماد وحيوان ونبات؛ ذلك أن الإنسانَ حين لا يكون على منهج خالقه؛ والكون

كله مُسخَّر لمنهج الخالق؛ فلن يرعى الإنسانُ ذلك في تعامله مع الكون ، وسبحانه القائل : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ . . . } [الإسراء : 44] .

حين يُسبِّح كل ما في الكون يشذّ عن ذلك إنسانٌ لا يتبع منهج الله؛ فالكون كله يكرهه ، وبذلك يظلم الإنسان نفسه ويظلم الكون أيضاً .

وهكذا عرفنا ظُلْم القمة في إنكار الألوهية؛ أو الشرك به سبحانه ، أو توهُّم أنه من أجزاء ، وظُلْم نزع الكمال عن الرسول؛ وهو الواسطة التي جاءت بخبر الإيمان؛ وظُلْم الكون كله؛ لأن الكون بكل أجناسه مُسبّح لله .

وقول الحق سبحانه :

{ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون . . } [إبراهيم : 42] .

نجد فيه كلمة « يعمل » . ونعلم أن هناك فَرْقاً بين « عمل » و « فعل » ، والفعل هو أحداث كل الجوارح ، ما عدا اللسان الذي يقال عن حدثه « القول » .

فكل الجوارح يأخذ الحادث منها اسماً؛ وحدث اللسان يأخذ اسماً بمفرده ، ذلك أن الذي يكب الناس على مناخرهم في النار إنما هو حصائد ألسنتهم ، والفعل والقول يجمعهما كلمة « عمل » .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه « يعمل » ، ذلك أن المشركين الذين استقبلوا القرآن كانوا يُرْجِفون بالإسلام وبالرسول صلى الله عليه وسلم بالكلام؛ وكل الأفعال التي قاموا بها نشأتْ عن طريق تحريض بالكلام .

وتأتي هذه الآية الكريمة التي يُؤكّد فيها سبحانه أنه يُمكّن لهم الذنوب ليُمكِّن لهم العقوبة أيضاً؛ ويأتي قوله :

{ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار } [إبراهيم : 42] .

ونعلم أنه قد حدثتْ لهم بعضٌ من الظواهر التي تؤكد قُرْب انتصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فَقُتل صناديدهم وبعض من سادتهم في بدر؛ وأُسِر كبراؤهم ، وهكذا شاء سبحانه أنْ يأتيَ بالوعد أو الوعيد؛ جاء بالأمر الذي يدخل فيه كُلُّ السامعين ، وهو عذابُ الآخرة؛ إنْ ظَلُّوا على الشرك ومقاومة الرسالة .

و : { تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار } [إبراهيم : 42] .

يعني : تفتح بصورة لا يتقلَّب بها يَمْنة أو يَسْرة من هَوْل ما يرى؛ وقد يكون عدم تقلُّب البصر من فَرْط جمال ما يرى ، والذي يُفرّق بينهما سِيَال خاص بخَلْق الله فقط؛ وهو سبحانه الذي يخلقه .

فحين ترى إنساناً مذعوراً من فَرْط الخوف؛ فسِحْنته تتشكَّل بشكل هذا الخوف ، أما مَنْ نظر إلى شيء جميل وشَخصتْ عيناه له ، يصبح لملامحه انسجامُ ارتواء النظر إلى الجمال؛ ولذلك

يقول الشاعر :

جَمَالُ الذي أهْواهُ قَيْد نَاظِريّ ... فَلْيتَ لِشَيءٍ غيرِهِ يتحوَّلِ

ويمكننا أن نفرق بين الخائف وبين المستمتع بملامح الوجه المنبسطة أو المذعورة .

ونعلم أن البصر ابن للمرائي؛ فساعة تتعدّد المرائي؛ فالبصر يتنقّل بينها؛ ولذلك فالشخص المُبصر مُشتَّت المرائي دائماً؛ ويتنقل ذِهْنه من هنا إلى هناك .

أما مَنْ أنعم الله عليهم بنعمة حَجْز أبصارهم – المكفوفين – فلا تشغله المرائي؛ ولذلك نجدهم أحرصَ الناس على العِلْم؛ فأذهانهم غير مشغولة بأيّ شيء آخر ، وبُؤْرة شعور كل منهم تستقبل عن طريق الأذن ما يثبت فيها .

ولذلك يقال عنهم « صناديق العلم » إنْ أرادوا أنْ يعلموا؛ فلا أحدَ من الذين يتعلمون منهم يكون فارغاً أبداً؛ مثَلة مِثل الصندوق الذي لا يفرغ .

ولا أحد يتحكم في العاطفة الناشئة عن الغرائز إلا الله؛ فأنت لا تقول لنفسك « أغضب » أو « أضحك »؛ لأنه هو سبحانه الذي يملك ذلك ، وهو القائل : { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى } [النجم : 43] .

والضحك والبكاء مسائل قَسْرية لا دخلَ لأحد بها .

ونجد الحق سبحانه يقول في موقع آخر من القرآن : { وَإِذْ زَاغَتِ الأبصار . . . } [الأحزاب : 10] .

فمرّة تشخص الأبصار ، ويستولي الرعب على أصحابها فلا يتحولون عن المشهد المُرْعِب ، ومرَّة تزوغ الأبصار لعله يبحث لنفسه عن مَنْفذ أو مَهْربٍ فلا يجد .

ويكمل الحق سبحانه صورة هؤلاء الذين تزوغ أبصارهم ، فيقول : { مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ . . . } .

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (43)

والمُهْطع هو مَنْ يظهر من فَرْط تسرُّعه وكأن رقبته قد طالتْ ، لأن المُهْطع هو مَنْ فيه طُول ، وكأن الجزاء بالعذاب يجذب المَجْزيّ ليقربه ، فَيُدفَع في شدة وجفوة إلى العذاب ، يقول الحق سبحانه : { يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا } [الطور : 13] .

وكأن هناك مَنْ يدفعهم دَفْعاً إلى مصيرهم المُؤْلم . وهم :

{ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ . . . } [إبراهيم : 43] .

أي : رافعين رءوسهم من فَرْط الدهشة لِهَوْل العذاب الذي ينتظرهم .

وفي موقع آخر يُصوّرهم الحق سبحانه : { إِنَّا جَعَلْنَا في أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِىَ إِلَى الأذقان فَهُم مُّقْمَحُونَ } [يس : 8] .

وهكذا تكون صورتهم مُفْزعة من فَرْط المهانة؛ فبصَرُ الواحد منهم شَاخِص إلى العذاب مُنجذب إليه بسرعة لا يتحكَّم فيها؛ ورأسه مرفوعة من فَرْط الهَوْل؛ ومُقْمَح بالأغلال .

ولا يستطيع الواحد منهم أن تجفل جفونه ، وكأنها مفتوحةٌ رَغْماً عنه؛ وفؤاده هواء بمعنى : أنْ لا شيءَ قادرٌ على أن يدخله .

ونحن نلحظُ ذلك حين نضع زجاجة فارغة في قلب الماء؛ فتخرج فقاقيع الهواء مقابلَ دخولِ الماء من فُوهتها .

ونعلم أن قَلْب المؤمن يكون ممتلئاً بالإيمان؛ أما الكافر المُلْحد فهو في مثل تلك اللحظة يستعرض تاريخه مع الله ومع الدين؛ فلا يجد فيها شيئاً يُطمئِن ، وهكذا يكتشف أن فؤاده خَالٍ فارغ؛ لا يطمئن به إلى ما يُواجه به لحظة الحساب .

ونجد بعضاً مِمَّنْ شاهدوا لحظات احتضار غيرهم يقولون عن احتضار المؤمن « كان مُشرِق الوجه متلألئ الملامح » . أما ما يقولونه عن لحظة احتضار الكافر؛ فهم يحكُونَ عن بشاعة ملامحه في تلك اللحظة .

والسبب في هذا أن الأنسان في مثل هذه اللحظات يستعرض تاريخه مع الله ، ويرى شريط عمله كله؛ فمَنْ قضي حياته وهو يُرضِي الله؛ لا بُدَّ أن يشعر بالراحة ، ومَنْ قضى حياته وهو كافر مُلْحد فلا بُدّ أن يشعرَ بالمصير المُرْعب الذي ينتظره .

ولذلك يقول الحق سبحانه : { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ } [القيامة : 22-25] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَأَنذِرِ الناس يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب . . . } .

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (44)

وهذا خطاب من الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يُنذِرهم بضرورة الاستعداد ليوم القيامة ، وأنه قادمٌ لا محالةَ .

وكلمة « يوم » هي ظَرْف زمان ، وظرف الزمان لا بُدَّ له من حَدثٍ يقع فيه ، ويوم القيامة ليس محلَّ إنذار أو تبشير؛ لأن الإنذار أو البشارة لا بُدّ أنْ يكونا في وقت التكليف في الحياة الدنيا .

وهكذا يكون المُنْذر به هو تخويفهم مِمّا يحدث لهم في هذا اليوم ، فما سوف يحدث لهم هو العذاب؛ وكأنه قنبلة موقوتة ما إنْ يأتي يوم القيامة حتى تنفجر في وجوههم .

وهنا يقول أهل ظُلْم القمة في العقيدة ، وظُلْم الرسالة بمقاومتها؛ وظلم الكون المُسبّح لله :

{ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل . . . } [إبراهيم : 44] .

وهم يطلبون تأجيل العذاب لِمُهْلة بسيطة ، يُثبتون فيها أنهم سيُجيبون الدعوة ويطيعون الرسول

، وهم يطلبون بذلك تأجيل قيامتهم .

فيكون الجواب من الحق سبحانه :

{ أَوَلَمْ تكونوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ } [إبراهيم : 44] .

فأنتم قد سبق وأنْ أقسمتُم بأن الله لا يبعث مَنْ يموت؛ وقد قال الحق سبحانه ما قلتم : { وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ . . . } [النحل : 38] .

وساعة ترى كلمة « بلى » بعد نَدْب ، فهذا يعني تكذيب ما جاء قبلها ، وهم في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ظَنُّوا أنهم لن يُبعثُوا ، وظنُّوا أنهم بعد الموت سيصيرون تراباً؛ وهم الذين قالوا : { إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ } [المؤمنون : 37] .

وهكذا أكَّدوا لأنفسهم أنه لا بَعْث من بَعْد الحياة ، ومن بعد البعث سنسمع من كل فرد فيهم : { ياليتني كُنتُ تُرَاباً } [النبأ : 40] .

أو : أنهم ظَنُّوا أن الذين أنعَم الله عليهم في الدنيا؛ لن يحرمهم في الآخرة ، كما أورد الحق سبحانه هذا المَثل ، في قوله تعالى : { واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً * كِلْتَا الجنتين آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَراً * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً * وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً } [الكهف : 32-36] .

والذي يقول ذلك فَهِم أنه سوف يموت؛ لكنه توهّم أن جنته تلك ستظل على ما هي عليه ، وأنكر قيام الساعة ، وقال : « حتى لو قامت الساعة ، ورُدِدتُ إلى الله فسأجد أفضل من جنتي تلك » .

وهو يدعي ذلك وهو لم يُقدّم إيماناً بالله ليجده في الآخرة ، فهو إذن مِمَّنْ أنكروا الزوال أي البعث من جديد ، ووقع في دائرة مَنْ لم يُصدّقوا البعث ، وسبق أنْ قال الحق سبحانه ما أورده على ألسنتهم :

{ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [السجدة : 10] .

والذين أنكروا البعث يُورِد الحق سبحانه لنا حواراً بينه وبينهم ، فيقول سبحانه وتعالى : { قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين فاعترفنا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ } [غافر : 11] .

فيرد الحق سبحانه عليهم : { ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ الله وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُواْ فالحكم للَّهِ العلي الكبير } [غافر : 12] .

وفي موقع آخر من القرآن نجد حواراً واستجداءً منهم لله؛ يقولون : { رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً . . . } [السجدة : 12] .

ويأتي رَدُّ الحق سبحانه عليهم : { فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هاذآ إِنَّا نَسِينَاكُمْ . . . } [السجدة : 14] .

وفي موقع ثالث يقول الواحد منهم عند الموت : { رَبِّ ارجعون * لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ } [المؤمنون : 99-100] .

فيأتي ردّ الحق سبحانه : { كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا . . . } [المؤمنون : 100] .

وبعد دخولهم النار يقولون : { رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ } [المؤمنون : 107] .

فيقول الحق سبحانه : { قَالَ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ } [المؤمنون : 108] .

وفي موضع آخر يقولون عند اصطراخهم في النار : { رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ . . . } [فاطر : 37] .

فيأتي الرد من الحق سبحانه : { أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النذير فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ } [فاطر : 37] .

ونلحظ أنهم في كل آيات التوسُّل لله كي يعودوا إلى الحياة الدنيا يقولون (ربنا) ، وتناسَوْا أنهم مأخوذون إلى العذاب بمخالفات الألوهية؛ ذلك أن الربوبية عطاؤها كان لكم في الدنيا ، ولم ينقصكم الحق سبحانه شيئاً على الرغم من كفركم .

هكذا يكون حال هؤلاء الذين أقسموا أن الحق سبحانه لن يبعثهم ، وأنكروا يوم القيامة ، وأنه لا زوال لهم . أي : لا بَعْث ولا نشور .

ويتابع الحق سبحانه القول الكريم : { وَسَكَنتُمْ فِي مساكن الذين . . . } .

وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (45)

والسكون هو الاطمئنان إلى الشيء من عدم الإزعاج ، ونعلم أن المرأة في الزواج تعتبر سكناً ، والبيت سكن ، وهنا يتكلم الحق سبحانه عن مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، أي : أنكم لم تتعِظُوا بالسوابق التي ما كان يجب أن تغيبَ عنكم ، فأنتم تمرون في رحلات الصيف والشتاء على مدائن صالح ، وترون آثار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك ، وتمرون على الأحقاف؛ وترون ماذا حاقَ بقوم عاد .

وكُلُّ أولئك نالوا العقاب من الله ، سواء بالريح الصرصر العاتية ، أو : أنه سبحانه قد أرسل عليهم حاصباً من السماء ، أو : أنزل عليهم الصيحة؛ أو : أغرقهم كآل فرعون ، وأخذ كل قوم من هؤلاء بذنبه .

وصدق الله وَعْده في عذاب الدنيا؛ فلماذا لم تأخذوا عِبْرة من ذلك؛ وأنه سبحانه وتعالى صادق حين تحدَّث عن عذاب الآخرة؟

وهنا قال الحق سبحانه :

{ وَسَكَنتُمْ فِي مساكن الذين ظلموا أَنفُسَهُمْ . . . } [إبراهيم : 45] .

وفي آية أخرى يقول سبحانه : { وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [الصافات : 137-138] .

أي : أنكم تمرُّون على تلك الأماكن التي أقامها بعضٌ مِمَّنْ سبقُوكم وظلمُوا أنفسهم بالكفر؛ وأنزل الحق سبحانه عليهم العقَاب؛ ولذلك يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

{ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأمثال } [إبراهيم : 45] .

نعم؛ فحين تمشي في أرض قوم عاد ، وترى حضارتهم التي قال عنها الحق سبحانه : { إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد } [الفجر : 7-8] .

وهي حضارة لم نكشف آثارها بعد؛ وما زالت في المطمورات وكل مطمور في الأرض بفعل من غضب السماء؛ تضع السماءُ ميعادَ كشف له ليتعظَ أهلُ الأرض؛ ويحدث هذا الكشف كلما زاد الإلحاد واستشرى .

قد حدث أن اكتشفنا حضارة ثمود ، وكذلك حضارة الفراعنة؛ وهي الحضارة التي سبقتْ كل الحضارات في العلوم والتكنولوجيا ، ورغم ذلك لم يعرف أصحاب تلك الحضارة أن يصونوها من الاندثار الذي شاءه الله .

وما زال الناس يتساءلون : لماذا لم يترك المصريون القدماء خبرتهم الحضارية مكتوبة ومُسجّلة في خطوات يمكن أن تفهمها البشرية من بعد ذلك؟

{ وَسَكَنتُمْ فِي مساكن الذين ظلموا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأمثال } [إبراهيم : 45] .

أي : أن الحق سبحانه يوضح هنا أن مشيئته في إنزال العقاب قد وَضْحَتْ أمام الذين عاصروا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم في مساكن الأقوام التي سبقتهم؛ وكفروا برسالات الرسل ، وسبق أن ضرب لهم الحق سبحانه الأمثال بهؤلاء القوم وبما حدث لهم . والمَثَلُ إنما يضربه الله لِيُقرّب بالشيء الحسي ما يُقرّب إلى الأذهانِ الشيءَ المعنوي .

ويستمر قوله الحق من بعد ذلك : { وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ . . . } .

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46)

والمكْر – كما نعلم – هو تبييت الكَيْد في خفاء مستورٍ ، ومأخوذ من الشجرة المكمورة؛ أي : الشجرة التي تُداري نفسها . ونحن نرى في البساتين الكبيرة شجرةً في حجم الإصْبع؛ وهي مجدولةٌ على شجرة أخرى كبيرة . ولا تستطيع أن تتعرف على ورقة منها ، أو أن تنسب تلك الورقة إلى مكان خروجها ، ومن أيّ فرع في الشجرة المُلْتفة إلا إذا نزعتها من حول الشجرة التي تلتفّ من

حولها .

ومَنْ يُبيّت إنما يشهد على نفسه بالجُبْن والضعف وعدم القدرة على المواجهة ، قد يصلح أن تُبيّت مُسَاوٍ لك؛ أما أنْ تُبيّت على الحي القيوم الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؛ فتلك هي الخيبة بعينها .

ولذلك يقول الحق سبحانه في مواجهة ذلك : { والله خَيْرُ الماكرين } [آل عمران : 54] .

وقال عن مَكْر هؤلاء : { وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ } [فاطر : 43] .

ونعلم أننا حين ننسب صِفةً لله فنحن نأخذها في إطار : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . } [الشورى : 11] .

وعادة ما ننسب كل فعل من الله للخير ، كقوله سبحانه : { وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين } [الأنبياء : 89] . { والله خَيْرُ الماكرين } [آل عمران : 54] .

وقوله هنا : { وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ . . . . } [إبراهيم : 46] .

أي : قاموا بالتبييت المناسب لحيلتهم ولتفكيرهم ولقوتهم؛ فإذا ما قابل الحق سبحانه ذلك؛ فلسوف يقابله بما يناسب قوته وقدرته المطلقة ، وهو سبحانه قد علم أزلاً بما سوف يمكرونه ، وتركهم في مَكْرهم .

فانتصارات الرسالات مرهونٌ بقوة المُرْسَل وأتباعه ، وهم يقابلون خصوماً هُم حيثية وجود الرسالة؛ ذلك أنهم قد ملأوا الأرض بالفساد ، ويريدون الحفاظ على الفساد الذي يحفظ لهم السلطة؛ والدين الجديد سيدُكُّ سيادتهم ويُزلزلها؛ لذلك لا بُدَّ ألاّ يدخروا وُسْعاً في محاولة الكَيْد والإيقاع بالرسول للقضاء على الرسالة .

وقد حاولوا ذلك بالمواجهة وقت أنْ كان الإسلام في بدايته؛ فأخذوا الضعاف الذين أسلموا ، وبدءوا في تعذيبهم؛ ولم يرجع واحد من هؤلاء عن الدين .

وحاولوا بالحرب؛ فنصر الله الذين آمنوا ، ولم يَبْق لهم إلا المكْر ، وسبحانه القائل : { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الماكرين } [الأنفال : 30] .

وحاولوا أن يفسدوا خليّة الإيمان الأولى ، وهي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وظنُّوا أنهم إنْ نجحوا في ذلك؛ فسوف تنفضُّ الرسالة . فحاولوا أن يشتروه بالمال؛ فلم يُفلحوا .

وحاولوا أن يشتروه بالسيادة والمُلْك فلم ينجحوا ، وقال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته » .

ثم قرروا أن يقتلوه وأن يُوزِّعوا دمه بين القبائل ، وأخذوا من كل قبيلة شاباً ليضربوا محمداً صلى الله عليه وسلم بالسيوف ضَرْبة رجلٍ واحد ولكنه صلى الله عليه وسلم يهاجر في تلك الليلة ،

وهكذا لم ينجح تبييتهم :

{ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ .

. . } [إبراهيم : 46] .

أي : أنه سبحانه يعلم مكرهم .

ويتابع سبحانه قائلاً :

{ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال } [إبراهيم : 46] .

أي : اطمئن يا محمد ، فلو كان مكرهم يُزيل الجبال فلنْ ينالوك ، والجبال كانت أشد الكائنات بالنسبة للعرب ، فلو كان مكرهم شديداً تزول به الجبال ، فلن يُفلِحوا معك يا رسول الله ، ولن يُزَحزِحوك عن هدفك ومهتمك .

والحق سبحانه يقول : { لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرآن على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الحشر : 21] .

وإذا كان مكرهم يبلغ من الشدة ما تزول به الجبال؛ فاعلم أن الله أشدُّ بَأْساً .

ويُقدِّم سبحانه من بعد ذلك حيَثْية عدم فاعلية مَكْرهم ، فيقول : { فَلاَ تَحْسَبَنَّ الله مُخْلِفَ . . . {

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47)

ولو كان لمكرهم مفعولٌ أو فائدة لَمَا قال الحق سبحانه أن وعده لرسله لن يُخْلفَ ، ولكن مكرَهم فاسدٌ من أوله وبلا مفعول ، وسبحانه هو القائل : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } [الصافات : 171-173] .

إذن : فوَعْد الله لرُسله لا يمكن أن يُخْلفَ .

الوعود في القرآن كثيرة؛ فهناك وَعْد الشيطان لأوليائه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

{ الشيطان يَعِدُكُمُ الفقر وَيَأْمُرُكُم بالفحشآء والله يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً . . . } [البقرة : 168]

وهناك وَعْد من الله للمؤمنين : { وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض . . . } [النور : 55] .

فإذا كان الحق سبحانه لا يُخلِف وَعْده لأتباع الرسول؛ أيُخلِف وَعْده للرسول؟

طبعاً لا؛ لأن الوعد على إطلاقه من الله؛ مُوفّى؛ فكيف إذا كان للرسل وللمؤمنين؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد } [غافر : 51] والنصر يقتضي هزيمة المقابل ، ويحتاج النصر لصفة تناسبه؛ والصفة المناسبة هي صدوره

من عزيز لا يُغلب؛ والهزيمة لمن كفروا تحتاج إلى صفة؛ والصفة المناسبة هي تحقُّق الهزيمة بأمر مُنتقِم جبّار .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض . . . } .

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48)

ويُخوّفهم الحق سبحانه هنا من يوم القيامة بعد أن صَوّر لهم ما سوف يدّعونه ، بأن يُؤخّر الحق حسابهم ، وأنْ يُعيدهم إلى الدنيا لعلّهم يعملون عملاً صالحاً ، ويجيبوا دعوة الرسل .

ويوضح سبحانه هنا أن الكون الذي خلقه الله سبحانه ، وطرأ عليه آدم وخلفتْه من بعده ذريته؛ قد أعدّه سبحانه وسخَّره في خدمة آدم وذريته من بعده؛ وهم يعيشون في الكون بأسباب الله المَمْدودة في أنفسهم ، والمنثورة في هذا الكون لكل مخلوق لله ، مؤمنهم وكافرهم؛ فمَنْ يأخذ بتلك الأسباب هو مَنْ يغلب .

وسبحانه القائل : { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ } [الشورى : 20] .

وهكذا شاء الله أنْ يهبَ عباده الارتقاء في الدنيا بالأسباب؛ أما حياة الآخرة فنحن نحياها بالمُسبِّب؛ وبمجرد أنْ تخطرَ على بال المؤمن رغبةٌ في شيء يجده قد تحقق .

وهذا أمر لا يحتاج إلى أرض قَدَّر فيها الحق أقواتها ، وجعل فيها رواسي؛ وأنزل عليها من السماء ماء ، إذن : فهي أرض غير الأرض؛ وسماء غير السماء؛ لأن الأرض التي نعرفها هي أرض أسباب؛ والسماء التي نعرفها هي سماء أسباب .

وفي جنة الآخرة لا أسبابَ هناك؛ لذلك لا بُدّ أن تتبدَّل الأرض ، وكذلك السماء .

وقوله الحق :

{ وَبَرَزُواْ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ } [إبراهيم : 48] .

فهو يعني ألا يكون هناك أحد معهم سوى ربهم؛ لأن البروز هو الخروج والمواجهة .

والمؤمن وجد ربه إيماناً بالغيب في دُنْياه؛ وهو مؤمن به وبكل ما جاء عنه؛ كقيام الساعة ، ووجود الجنة والنار .

وكلنا يذكر « حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أحد أصحابه حين سأله الرسول صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحتَ؟ فقال الصحابي : أصبحت مؤمناً بالله حقاً . فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : لكل حق حقيقة؛ فما حقيقة إيمانك؟ قال الصحابي : عزفتْ نفسي عن الدنيا ، فاستوى عندي ذهبها ومدرها – أي : تساوي الذهب بالتراب – وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون . فقال له الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : » عرفت فالزم « .

هذا هو حال المؤمن ، أما الكافر فحاله مختلف . فهو يبرز ليجد الله الذي أنكره ، وهي مواجهة لم يَكُنْ ينتظرها ، ولذلك قال الحق سبحانه في وَصْف ذاته هنا :

{ الواحد الْقَهَّارِ } [إبراهيم : 48] .

وليس هناك إله آخر سيقول له » اتركهم من أجل خاطري « .

وفي آية أخرى يقول عن هؤلاء : { والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ . . . } [النور : 39] .

أي : أنه يُفَاجأ بمثل هذا الموقف الذي لم يستعِد له .

وقوله :

{ الواحد الْقَهَّارِ } [إبراهيم : 48] .

أي : القادر على قَهْر المخلوق على غير مُرَاده .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { وَتَرَى المجرمين . . . . } .

وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49)

والمجرم هو مَن ارتكب ذنباً ، وهو هنا مَنِ ارتكب ذنب القِمّة . وهو الكفر بالله ، ومن بعدهَ مَنِ ارتكب الذنوب اليت دون الكفر ، وتراهم جميعاً مجموعين بعضهم مع بعض في « قرنٍ » وهو الحبل أو اليَد الذي يُقيَّدون .

والأصفاد جمع صَفَد ، وهو القيد الذي يوضع في الرِّجلْ؛ وهو مِثْل الخُلْخال؛ وهناك مَنْ يُقيّدون في الأصفاد أي : من أرجلهم ، وهناك مَنْ يقيد بالأغلال . أي : أنْ توضع أيديهم في سلاسل ، وتُعلَّق تلك السلاسل في رقابهم أيضاً .

وكلُّ أصحاب جريمة مُعيّنة يجمعهم رباط واحد ، ذلك أن أهل كل جريمة تجمعهم أثناء الحياة الدنيا – في الغالب – مودَّة وتعاطف ، أما هنا فسنجدهم متنافرين ، وعلى عداء ، ويلعن كل منهم الآخر؛ وكل منهم يناكف الآخر ويضايقه ، ويعلن ضِيقة منه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : { الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين } [الزخرف : 67] .

وكأن كلاً منهم يُعذّب الآخر من قبل أنْ يذوقوا جميعاً العذاب الكبير .

ولذلك نجدهم يقولون : { رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين } [فصلت : 29] .

ويقولون : { رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا * رَبَّنَآ آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب والعنهم لَعْناً كَبِيراً } [الأحزاب : 67-68] .

ويستكمل الحق سبحانه صورة هؤلاء المُذْنبين : فيقول : { سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ . . . . } .

سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50)

و « السرابيل » جمع « سِرْبال » وهو ما يلي الجسد ، وهو ما نسميه في عصرنا « قميص » .
وإذا كان السِّرْبال من قطران؛ فهو أسود لاذع نتن الرائحة سريع الاشتعال؛ وتلك صفات القطران ، وهو شيء يسيل من بعض أشجار البادية وتلك صفاته ، وهم يستخدمونه لعلاج الجمال من الجرب .
وعادة يضرب الحق سبحانه المثل من الصورة القريبة إلى الذِّهن من التي يراها العربي في بيئته .
ويقول عنهم الحق سبحانه أيضاً :
{ وتغشى وُجُوهَهُمُ النار } [إبراهيم : 50] .
والإنسان إذا ما تعرّض لأمر يصيبه بالعطب ، فأوَّل ما يحاول الحفاظ عليه هو وجهه ، ذلك أن الوجه هو أشرف شيء في الإنسان ، فما بالنا حين تغشى وجوه الكفرةِ النارُ؟ إن مجرد تخيُّل ذلك أمر مؤلم .
وسبحانه يقول في آية اخرى : { أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سواء العذاب يَوْمَ القيامة . . . } [الزمر : 24] .
وكأن الواحد منهم من فَرْط شدة العذاب يحاول أن يدفَع هذا العذاب بوجهه ، وهكذا نجد أحاسيسَ شتَّى لهذا العذاب؛ وهو مُؤلِم أشدّ الألم .
ويقول سبحانه في موقع آخر : { يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النار على وُجُوهِهِمْ . . . } [القمر : 48] .
وهكذا نجد أن الوجه قد جاء في أكثر من صورة؛ من صور هذا العذاب .
ويقول سبحانه من بعد ذلك : { لِيَجْزِيَ الله كُلَّ نَفْسٍ . . . } .

لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51)

والجزاء أمر طبيعي في الوجود ، وحتى الذين لا يؤمنون بإله؛ ويديرون حركة حياتهم بتقنينات من عندهم قد وضعوا لأنفسهم قوانين جزاء تحدد كل جريمة والعقاب المناسب لها .
وبطبيعة الحال لا يكون أمراً غريباً أن يضع خالق الكون نظاماً للجزاء ثواباً وعقاباً ، ولو لم يَضَعْ الحق سبحانه نظاماً للجزاء بالثواب والعقاب؛ لَنالَ كل مُفسدِ بُغْيته من فساده؛ ولأحسّ أهل القيم أنهم قد خُدِعُوا في هذه الحياة .
وما دام الجزاء أمراً طبيعياً؛ فلا ظُلْم فيه إذن؛ لأنه صادر عَمَّنْ قال : { لاَ ظُلْمَ اليوم . . . } [غافر : 17] .
ولا يجازي الحق سبحانه الجزاء العنيف إلا على الجريمة العنيفة :

وقوله سبحانه :

{ لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ . . . } [إبراهيم : 51] .

يعني أن المؤمن أو الكافر سَيلْقي جزاء ما فعل؛ إنْ ثواباً أو عقاباً .

والكسب – كما نعلم – هو أن تأخذ زائداً عن الأصل ، فأنت حين تحرم نفسك من شيء في الدنيا؛ ستأخذ جزاء هو الثواب وما يزيد عن الأصل .

ومَنْ كسب سيئة سيأخذ عقاباً عليها ، ويُقَال « كسب السيئة » ولا يقال « اكتسبها » ذلك أن ارتكابه للسيئة صار دُرْبة سلوكية؛ ويفرح بارتكابها ، ولا بُدَّ إذن من الجزاء؛ والجزاء يحتاج حساباً ، والحساب يحتاج ميزاناً .

وقد يقول المؤمن : إنّي أُصدِّق ربي ، ولن يظلم ربّي أحداً . ونقول : إن المقصود بالميزان هو إقامة الحجة؛ ولذلك نجده سبحانه يقول : { فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ } [القارعة : 6–7] .

ويقول أيضاً : { وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ } [القارعة : 8–9] .

ونجد القسمة العقلية في الميزان واضحة فهي مرة « ثَقُلَت » ومرة « خَفّت » . أما مَنْ تساوت كِفَّتا ميزانه؛ فَفَسرت حالته سورة الأعراف التي قال فيها الحق سبحانه : { وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ . . . } [الأعراف : 46] .

وما دام الحق سبحانه سيحاسب كل نَفْس بما كسبتْ؛ فقد يظنُّ البعض أن ذلك سيستغرق وقتاً؛ ولذلك يتابع سبحانه :

{ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحساب } [إبراهيم : 51] .

ليبين لنا أنه سبحانه سُيحاسِب كل الخَلْق من لَدُن آدم إلى أنْ تقومَ الساعة بسرعة تناسب قدرته المطلقة .

وحين سأل الناسُ الإمام – علياً – كرَّم الله وجهه – : كيف سيحاسب الله الخلق كلهم دفعة واحدة؟ أجاب الإجابة الدَّالة الشافية ، وقال : « كما يرزقهم جميعاً » .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { هذا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ . . . . } .

هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (52)

وهذه الآية هي مِسْك الختام لسورة إبراهيم ، ذلك أنها ركَّزَتْ الدعوة؛ بلاغاً صدر عن الله ليبلغه لرسوله الذي أُيِّد بالمعجزة؛ لِيحمِلَ منهج الحياة للإنسان الخليفة في الأرض .

وإذا ما صدرتْ قوانينُ حركة الحياة للإنسان الخليفة في الأرض المخلوق لله ، وجب ألاَّ يتزيّد عليها أحدٌ بإكمال ولا بإتمام؛ لأن الذي خلق هو الذي شرَّع ، وهذه مسألة يجب أن تكون على ذِكْر من بَالِ كل إنسان مُكلَّف .

وحين تقرأ هذا القَوْل الحكيم :

{ هذا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ . . . } [إبراهيم : 52] .

تجد أنه يحمل إشارة إلى القرآن كله؛ ذلك أن حدود البلاغ هو كل شيء نزل من عند الله .

وقول الحق سبحانه :

{ هذا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ . . . } [إبراهيم : 52] .

قد أعطانا ما يعطيه النص القانوني الحديث ، ذلك أن النصَّ القانوني الحديث يوضح أنه لا عقوبةَ إلا بنصٍّ يُجرّم الفعل ، ولا بُدَّ من إعلان النصّ لكافَّة الناس؛ ولذلك تُنشَر القوانين في الجريدة الرسمية للدولة ، كي لا يقولَ أحد : أنا أجهل صدور القانون .

وكلنا يعلم أن الحق سبحانه قد قال : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً } [الإسراء : 15] .

فمهمة الرسول – إذنْ – هي البلاغ عن الله لمنهج الحياة الذي يصون حركة الحياة .

ويقول سبحانه عن مهمة الرسول : { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب } [الرعد : 40] .

ويقول سبحانه : { الذين يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ الله . . . } [الأحزاب : 39] .

ويقول الحق سبحانه على لسان الرسول : { لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي . . . } [الأعراف : 93] .

ويقول أيضاً : { أَبْلَغْتُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ . . . } [هود : 57] .

وهكذا لا توجد حُجّة لقائل : إني أُخِذْتُ بذنب لم أعرف أنه ذنبٌ وقْتَ التكليف . لا حُجّة لقائلِ هذا القول؛ لأن الحق سبحانه يقول في نفس الآية :

{ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ . . } [إبراهيم : 52] .

والإنذار : تخويف بشرٍّ سوف يقع من قبل زمنه ، ليوضح لك بشاعة المخالفة ، وكذلك التبشير هو تنبيه لخير قادم لم يَأتِ أوانه كي تستعدّ لاستقباله .

وقَوْل الحق سبحانه :

{ هذا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ . . . } [إبراهيم : 52] .

يتضمن البشارة أيضاً؛ ولكنه يرتكز ويؤكد من بعد ذلك في قوله :

{ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ . . . } [إبراهيم : 52] .

لأن الخيبة ستقع على مرتكب الذنوب .

وأقول : إن الإنذار هنا هو نعمة؛ لأنه يُذكّر الإنسان فلا يُقدِم على ارتكاب الذنب أو المعصية ، فساعةَ تُقدم للإنسان مغبة العمل السيء؛ فكأنك تُقدم إليه نعمة ، وتُسدي إليه جميلاً ومعروفاً .

ويتابع سبحانه :

{ وليعلموا أَنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ . . } [إبراهيم : 52] .

وهذه هي القضية العقدية الأولى ، والتي تأتي في قِمّة كل القضايا؛ فهو إله واحد نصدر جميعاً عن أمره؛ لأن الأمر الهام في هذه الحياة أن تتضافر حركة الأحياء وتتساند؛ لا أن تتعاند . ولا يرتقي بنيان ، ما إذا كنتَ أنت تبني يوماً ليأتي غيرك فيهدم ما بنيتَ .

ومهمة حركة الحياة أن نُؤدِّي مهمتنا كخلفاء لله في الأرض؛ بأن تتعاضدَ مواهبنا ، لا أن تتعارضَ ، فيتحرك المجتمع الإنساني كله في اتجاه واحد؛ لأنه من إله واحد وأمر واحد .

وحين يقول الحق سبحانه :

{ هذا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ . . . } [إبراهيم : 52] .

فهو يحدد لنا قِوَام الدين بعد تلقّيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ يُبلّغه مَنْ سمعه لمن لم يسمعه .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « نضَّر الله امْرءاً سمع مقالتي فوعاها ، وأداها إلى مَنْ لم يسمعها » .

وذلك لتبقى سلسلة البلاغ متصلة ، وإنْ لم يُبلغ قوم فالوِزْر على مَنْ لم يُبلّغ ، وبذلك يحرم نفسه من شرف التبعية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فَمنْ يعلم حكماً من أحكام الدين؛ فالمطلوب منه هو تبليغه للغير؛ مثلما طلب الحق سبحانه من رسوله أن يُبلّغ أحكامه .

والحق سبحانه هو القائل : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً . . . } [البقرة : 143] .

وهكذا شهد الرسول صلى الله عليه وسلم أنه بلَّغكم وبَقِي على كل مسلم يعلم حُكْما من أحكام الدين أن يُبلِّغه لِمَنْ لا يعرفه؛ فقد ينتفع به أكثر منه؛ وبعد أن سمع الحكم قد يعمل به ، بينما مَنْ أبلغه الحكم لا يعمل به .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « رُبَّ مُبلَّغٍ أوْعَى من سامع » .

ولذلك أقول دائماً : إياك أن تخلط بين المعلومة التي تُقال لك : وبين سلوك مَنْ قالها لك ، ولنسمع الشاعر الذي قال :

خُذْ عِلْمي ولاَ تركَنْ إلى عَملِي ... وَأجْنِ الثمارَ وخَلِّ العُودَ للحطَبِ

وهكذا يتحمل المسلم مسئولية الإبلاغ بما يعرف من أحكام الدين لمن لا عِلْمَ لهم بها؛ لتظل الرسالة موصولة ، وكلنا نعلم أن الحق سبحانه قد قال : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر . . . } [آل عمران : 110] .

أي : أنكم يا أمة محمد ، قد أخذتم مهمة الأنبياء .

ولأن البلاغ قد جاء من الله على الرسول صلى الله عليه وسلم ، والرسول أمين في تبليغه؛ لذلك

لا يمكن أنْ يصدرَ عن الواحد الحكيم أوامر متضاربة ، ولكن التضارب إنما ينشأ من اختلاف الآخر؛ أو من عدم حكمة الآمر ، ولْنُدقِّق جيداً في قول الحق سبحانه :

{ وليعلموا أَنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ . . . } [إبراهيم : 52] .

فكلمة « واحد » جاءت لتمنع مجرّد تصوُّر الشراكة؛ فلا أحدَ مثله ، وهو أحدٌ غير مُركَّب من أجزاء؛ فليس له أجهزة تشبه أجهزة البشر مثلاً؛ فلو كان له أجهزة لَكانَ في ذاته يحتاجُ لأبعاضه ، وهذا لا يصِحُّ ولا يمكن تخيُّله مع الله سبحانه وتعالى .

وتلك هي القضية الأساسية التي يعيها أولو الألباب الذين يستقبلون هذا البلاغ . وأولو الألباب هي جمع ، ومفرد « ألباب » هو « لُبّ » ، ولُبّ الشيء هو حقيقة جوهره؛ لأن القشرةَ توجد لتحفظَ هذا اللُّب ، والمحفوظ دائماً هو أنفَسُ من الشيء الذي يُغلّفه لِيحفظه .

وهكذا يكون أولو الألباب هم البشر الذين يستقبلون القضية الإيمانية بعقولهم؛ ويُحرِّكون عقولهم ليتذكروها دائماً؛ ذلك أن مشاغل الحياة ومُتعتها وشهواتها قد تَصْرِف الإنسان عن المنهج؛ ولذلك قال الحق سبحانه هنا :

{ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الألباب } [إبراهيم : 52] .

أي : يتذكر أصحاب العقول أن الله واحدٌ أحد؛ فلا إلهَ إلا هو؛ ولذلك شهد سبحانه لنفسه قبل أنْ يشهدَ له أيُّ كائن آخر ، وقال : { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ . . . } [آل عمران : 18] .

وهذه شهادةُ الذات للذاتِ ، ويُضيف سبحانه : { والملائكة وَأُوْلُواْ العلم } [آل عمران : 18] .

وشهادة الملائكة هي شهادة المُواجهة التي عايشوها ، وشهادة أُولي الألبابِ هي شهادة الاستدلال .

وشهد الحق سبحانه أيضاً لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أنه رسول : وكذلك شهد الرسول لنفسه ، فهو يقول مثلنا جميعاً : « أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » .

وهكذا فعَلى أُولي الألباب مهمة . أنْ يتذكَّروا ويُذكِّروا بأنه إله واحد أحدٌ .

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1)

السورة التي نبدأ خواطرنا عنها هي سورة الحجر تبدأ بالكلام عن جامع البلاغ ، ومنهج لحياة الحياة وهو القرآن الكريم الذي قد جاء بالخبر اليقين في قضية الألوهية الواحدة ، والتي ذكرنا في آخر السورة السابقة بأن أُولِي الألباب يستقبلونها بتعقولهم .

ويقول الحق سبحانه في مُسْتهل السورة :

{ الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ } [الحجر : 1]

والسورة كما نرى قد افْتُتِحَتْ بالحروف التوفيقية؛ والتي قلنا : إن جبريل عليه السلام نزل وقرأها هكذا؛ وحفظها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبلغها لنا هكذا؛ وهي نزلتْ أوَّل ما نزلت على قوم برعوا في اللغة؛ وهم أهل فصاحة وبيان ، ولم نجد منهم مَنْ يستنكرها .

وهي حروف مُقطّعة تنطَق بأسماء الحروف لا مُسمَّياتها ، ونعلم أن لكل حرف اسماً ، وله مسمى؛ فحين نقول أو نكتب كلمة « كتب »؛ فنحن نضع حروفاً هي الكاف والباء والتاء بجانب بعضها البعض ، لتكون الكلمة كما ننطقها أو نقرؤها .

ويقال عن ذلك إنها مُسمَّيات الحروف ، أما أسماء الحروف؛ فهي « كاف » و « باء » و « تاء » . ولا يعرف أسماء الحروف إلا المُتعلِّم؛ ولذلك حين تريد أن تختبر واحداً في القراءة والكتابة تقول له : تَهَجَّ حروف الكلمة التي تكتبها ، فإن نطق أسماءَ الحروف؛ عرفنا أنه يُجيد القراءة والكتابة .

وهذا القرآن كما نعلم نزل مُعجِزاً للعرب الذين نبغوا في اللغة ، وكانوا يقيمون لها أسواقاً؛ مثل المعارض التي نقيمها نحن لصناعاتنا المتقدمة .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن تأتي معجزة القرآن من نفس الجنس الذي نبغوا فيه ، فلو كانت المعجزة من جنسٍ غير ما نبغوا فيه ولم يألفوه لَقَالوا : لو تعلمنا هذا الأمر لَصنعْنَا ما يفوقه .

وجاءتهم معجزة القرآن من نفس الجنس الذي نبغُوا فيه؛ وباللغة العربية وبنفس المُفْردات المُكوّنة من الحروف التي تُكوّنون منها كلماتكم ، والذي جعل القرآن مُعْجِزاً أن المُتكلّم به خالق وليس مخلوقاً . وفي « الر » نفس الخامات التي تصنعون منها لُغَتكم .

وهذا بعض ما أمكن أن يلتقطه العلماء من فواتح السور . علينا أن نعلم أن لله في كلماته أسراراً؛ فهو سبحانه : { هُوَ الذي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكتاب مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابتغاء الفتنة وابتغاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله والراسخون في العلم يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا . . . } [آل عمران : 7]

أي : أن القرآن به آيات مُحْكمات ، هي آيات الأحكام التي يترتب عليها الثواب والعقاب ، أما الآيات المتشابهات فهي مثل تلك الآيات التي تبدأ بها فواتح بعض السور؛ ومَنْ في قلوبهم زَيْغ يتساءلون : ما معناها؟

وهم يقولون ذلك لا بَحْثاً عن معنى؛ ولكن رغبةً للفتنة .

ولهؤلاء نقول : أتريدون أنْ تفهموا كل شيء بعقولكم؟ إن العقل ليس إلا وسيلةَ إدراك؛ مِثْله مِثْل العين ، ومِثْل الأذن .

فهل ترى عيناك كل ما يمكن أن يُرَى؟ طبعاً لا؛ لأن للرؤية بالعين قوانينَ وحدوداً ، فإنْ كنتَ بعيداً بمسافة كبيرة عن الشيء فلن تراه؛ ذلك أن العين لا ترى أبعد من حدود الأفق .

وكل إنسان يختلف أُفْقه حسب قوة بصره؛ فهناك مَنْ أنعم الله عليه ببصر قوي وحادٍّ؛ وهناك مَنْ هو ضعيفُ البصرِ؛ ويحتاج إلى نظارة طبية تساعده على دِقّة الإبصار .

فإذا كانت للعين وهي وسيلة إدراك المرائي حدود ، وإذا كانت للأذن ، وهي وسيلة إدراك الأصوات بحد المسافة الموجية للصوت؛ فلابُدَّ أن تكون هناك حدود للعقل ، فهناك ما يمكن أن تفهمه؛ وهناك مَا لا يمكن أن تفهمه .

والرسول صلى الله عليه وسلم قال عن آيات القرآن : « ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه منه فآمنوا به » .

وذلك حفاظاً على مواقيت ومواعيد ميلاد أيّ سِرٍّ من الأسرار المكنونة في القرآن الكريم ، فلو أن القرآن قد أعطى كل أسراره في أول قَرْن نزل فيه؛ فكيف يستقبل القرونَ الأخرى بدون سِرٍّ جديد؟

إذن : فكُلَّما ارتقى العقل البشري؛ كلما أَذِن الله بكشف سِرٍّ من أسرار القرآن . ولا أحد بقادر على أن يجادل في آيات الأحكام .

ويقول الحق سبحانه عن الآيات المتشابهة : { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله والراسخون فِي العلم يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا . . . } [آل عمران : 7]

وهناك مَنْ يقرأ هذه الآية كالآتي : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم م » وتناسى مَنْ يقرأ تلك القراءة أن مُنْتهى الرسوخ في العلم أن تؤمن بتلك الآيات كما هي .

والحق سبحانه يقول : { الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ } [الحجر : 1]

و (تلك) إشارة لما سبق ولِمَا هو قادم من الكتاب ، و (آيات) جمع « آية » . وهي : الشيء العجيب الذي يُلْتفت إليه . والآيات إما أنّ تكونَ كونية كالليل والنهار والشمس والقمر لتثبت الوجود الأعلى ، وإما أنْ تكونَ الآيات المُعْجزة الدالة على صِدْق البلاغ عن الله وهي معجزات الرسل ، وإما أن تكونَ آيات القرآن التي تحمل المنهج للناس كافّة .

ويضيف الحق سبحانه : { . . . قُرْآنٍ مُّبِينٍ } [الحجر : 1]

فهل الكتاب هو شيء غير القرآن؟ ونقول : إن الكتاب إذا أُطلِق؛ فهو ينصرف إلى كل ما نزل من الله على الرسل؛ كصحف إبراهيم ، وزبور داود ، وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى؛ وكل تلك كتب ، ولذلك يسمونهم « أهل الكتاب » .

أما إذا جاءت كلمة « الكتاب » مُعرَّفة بالألف واللام؛ فلا ينصرف إلا للقرآن ، لأنه نزل كتاباً خاتماً ، ومُهيْمناً على الكتب الأخرى .

وبعد ذلك جاء بالوصف الخاص وهو (قرآن) ، وبذلك يكون قد عطف خاصاً على عامٍّ ، فالكتاب هو القرآن ، ودلَّ بهذا على أنه سيكتب كتاباً ، وكان مكتوباً من قبل في اللوح المحفوظ .

وإن قيل : إن الكتب السابقة قد كُتِبت أيضاً؛ فالردّ هو أن تلك الكتب قد كُتِبت بعد أن نزلتْ بفترة طويلة ، ولم تُكتب مِثْل القرآن ساعة التلقّي من جبريل عليه السلام ، فالقرآن يتميز بأنه قد كُتب في نفس زمن نُزوله ، ولم يُترك لقرون كبقية الكتب ثم بُدئ في كتابته .

والقرآن يُوصف بأنه مُبِين في ذاته وبين لغيره؛ وهو أيضاً مُحيط بكل شيء .

وسبحانه القائل : { مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ . . . } [الأنعام : 38]

وأيُّ أمر يحتاج لحكم؛ فإما أن تجده مُفصَّلاً في القرآن ، أو نسأل فيه أهل الذكر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : { . . . فاسئلوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } [الأنبياء : 7]

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ . . . }

رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (2)

و « رُبَّ » حرف يستعمل للتقليل ، ويُستعمل أيضاً للتكثير على حَسْب ما يأتي من بعده ، وهو حَرْفٌ الأصل فيه أن يدخلَ على المفرد . ونحن نقول « رُبَّ أخٍ لك لم تلدْه أمك » وذلك للتقليل ، مثلما نقول « ربما ينجح الكسول » .

ولكن لو قُلْنا « ربما ينجح الذكي » فهذا للتكثير ، وفي هذا استعمال للشيء في نقيضه ، إيقاظاً للعقل كي ينتبه .

وهنا جاء الحق سبحانه :

ب « رُب » ومعها حرف « ما » ومن بعدهما فعل . ومن العيب أن تقول : إن « ما » هنا زائدة؛ ذلك أن المتكلم هو ربُّ كل العباد .

وهنا يقول الحق سبحانه : { رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ } [الحجر : 2]

فهل سيأتي وقت يتمنى فيه أهل الكفر أنْ يُسلموا؟ إن « يودّ » تعني « يحب » و « يميل » و « يتمنى » ، وكل شيء تميل إليه وتتمناه يسمى « طلب » .

ويقال في اللغة : إن طلبت أمراً يمكن أن يتحقق ، ويمكن ألاّ يتحقق؛ فإنْ قُلْتَ : « يا ليت الشبابَ يعود يوماً » فهذا طَلَبٌ لا يمكن أن يتحققَ؛ لذلك يُقال إنه « تمني » . وإنْ قلت « لعلّي أزور فلاناً » فهذا يُسمّى رجاء؛ لأنه من الممكن أن تزور فلاناً . وقد تقول : « كم عندك؟ » بهدف أن تعرف الصورة الذهنية لمَنْ يجلس إليه مَنْ تسأله هذا السؤال ، وهذا يُسمّى استفهاماً .

وهكذا إنْ كنت قد طلبتَ عزيزاً لا يُنال فهو تمنٍّ؛ وإن كنت قد طلبتَ ما يمكن أن يُنَال فهو الترجي ، وإن كنتَ قد طلبتَ صورته لا حقيقته فهو استفهام ، ولكن إنْ طلبت حقيقة الشيء؛ فأنت تطلبه كي لا تفعل الفعل .

والطلب هنا في هذه الآية؛ يقول : { رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ } [الحجر : 2]

فهل يتأتَّى هذا الطلب؟

وَلنر متى يودُّون ذلك . إن ذلك التمنِّي سوف يحدث إنْ وقعتْ لهم أحداثٌ تنزع منهم العناد؛ فيأخذون المسائل بالمقاييس الحقيقية .

والحق سبحانه هو القائل : { وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتهآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً . . . } [النمل : 14]

وقد حدث لهم حين وقعت غزوة بدر ، ونال منهم المسلمون الغنائم أنْ قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين ، وأخذنا تلك الغنائم .

أي : أن هذا التمنِّي قد حدث في الدنيا ، ولسوف يحدث هذا عند موت أحدهم .

يقول الحق سبحانه : { حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ رَبِّ ارجعون * لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ . . . } [المؤمنون : 100]

ويعلق الحق سبحانه على هذا القول : { كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا . . . } [المؤمنون : 100]

وسيتمنون أيضاً أن يكونوا مسلمين ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : { وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ }

[السجدة : 12]

إذن : فسيأتي وقت يتمنّى فيه الكفار أن يكونوا مسلمين ، إذَا مَا عاينوا شيئاً ينزع منهم جحودهم وعنادهم ، ويقول لهم : إن الحياة التي كنتم تتمسَّكون بها فانية؛ ولكنكم تطلبون أن تكونوا مسلمين وقت أنْ زال التكليف ، وقد فات الأوان .

ويكفي المسلمين فَخْراً أن كانوا على دين الله ، واستمسكوا بالتكليف ، ويكفيكم عاراً أنْ خَسِرْتم هذا الخسران المبين ، وتتحسروا على أنكم لم تكونوا مسلمين .

وفي اليوم الآخر يُعذِّب الحق سبحانه العصاة من المسلمين الذين لم يتوبوا من ذنوبهم ، ولم يستغفروا الحق سبحانه ، أو ممَّنْ لم يغفر لهم سبحانه وتعالى ذنوبهم؛ لعدم إخلاص النية وحُسْن الطوية عند الاستغفار ، ويدخل في ذلك أهل النفاق مصداقاً لقوله تعالى : { استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ . . . } [التوبة : 80]

فيدخلون النار ليأخذوا قدراً من العذاب على قدر ما عَصَوْا وينظر لهم الكفار قائلين : ما أغنتْ عنكم لا إله إلا الله شيئاً ، فأنتم معنا في النار .

ويطلع الحق سبحانه على ذلك فيغار على كل مَنْ قال لا إله إلا الله؛ فيقول : أخرجوهم وطهِّروهم وعُودوا بهم إلى الجنة ، وحينئذ يقول الكافرون : يا ليتنا كنا مسلمين ، لنخرج من النار ، ونلحق بأهل الجنة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ . . . }

ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3)

و (ذرهم) أمْر بأن يدعَهم ويتركهم . وسبحانه قال مرة (ذرهم) ، ومرة قال : { وَذَرْنِي والمكذبين أُوْلِي النعمة . . . } [المزمل : 11]

أي : اتركهم لي ، فأنا الذي أعاقبهم ، وأنا الذي أعلم أجلَ الإمهال ، وأجل العقوبة .

ويستعمل من « ذَرْهم » فعل مضارع هو « يَذَر » ، وقد قال الحق سبحانه : { وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ . . } [الأعراف : 127]

ولم يستعمل منها في اللغة فِعْل ماضٍ ، إلا فيما رُوِى من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذروا اليمن ما ذروكم » ، أي : اتركوهم ما تركوكم .

ويشارك في هذا الفعل فعل آخر هو « دَعْ » بمعنى « اترك » . وقيل : أهملت العرب ماضي « يدع » و « يذر » إلا في قراءةٍ في قول الحق سبحانه : { مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى } [الضحى : 3]

وهنا يقول الحق سبحانه : { ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ . . . } [الحجر : 3]

ونحن أيضاً نأكل ، وهناك فرْق بين الأكل كوقود للحركة وبين الأكل كلذّة وتمتُّع ، والحيوانات تأكل لتأخذ الطاقة بدليل أنها حين تشبع؛ لا يستطيع أحد أنْ يُجبرها على أكل عود برسيم زائد .

أما الإنسان فبعد أن يأكل ويغسل يديه؛ ثم يرى صِنْفاً جديداً من الطعام فهو يمدُّ يده ليأكلَ منه؛ ذلك أن الإنسان يأكل شهوةً ومتعةً ، بجانب أنه يأكل كوقود للحركة .

والفرق بيننا وبينهم أننا نأكل لتتكوَّن عندنا الطاقة ، فإنْ جاءت اللذة مع الطعام فأهلاً بها؛ ذلك أننا في بعض الأحيان نأكل ونتلذذ ، لكن الطعام لا يمري علينا؛ بل يُتعِبنا؛ فنطلب المُهْضِمات من مياه غازية وأدوية .

ولذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه » .

أي : أنه صلى الله عليه وسلم ينهانا عن أن نأكل بالشهوة واللذة فقط .

ولنلحظ الفارق بين طعام الدنيا وطعام الجنة في الآخرة؛ فهناك سوف نأكل الطعام الذي نستلذّ به ويَمْري علينا؛ بينما نحن نُضطر في الدنيا في بعض الأحيان أن نأكلَ الطعام بدون مِلْح ومسلوقاً كي يحفظ لنا الصحة؛ ولا يُتعِبنا؛ وهو أكل مَرِىء وليس طعاماً هنيئاً ، ولكن طعام الآخرة هَنِيءٌ ومَرِيءٌ .

وعلى ذلك نفهم قول الحق سبحانه : { ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ . . . } [الحجر : 3]

أي : أن يأكلوا أكْلاً مقصوداً لذات اللذَّة فقط .

ويقول الحق سبحانه متابعاً : { وَيُلْهِهِمُ الأمل . . . } [الحجر : 3]

أي : أن يَنصبوا لأنفسهم غايات سعيدة؛ تُلهِيهم عن وسيلة ينتفعون بها؛ ولذلك يقول المثل

العربي : « الأمل بدون عمل تلصُّص » فما دُمْت تأمل أملاً؛ فلا بُدَّ أن تخدمه بالعمل لتحققه .
ولكن المثل على الأمل الخادع هو ما جاء به الحق سبحانه على لسان مَنْ غَرَّتْه النعمة ، فقال :
{ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً * وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً . . . } [الكهف : 3536]
ولكن الساعة ستقوم رَغْماً عن أَنْف الآمال الكاذبة ، والسراب المخادع .

ويقول الحق سبحانه : { . . . وَيُلْهِهِمُ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [الحجر : 3]
وكلمة (سوف) تدل على أن الزمن مُتراخٍ قليلاً؛ فالأفعال مثل « يعلم » تعني أن الإنسان قد يعلم الآن؛ ويعلم من بَعْد الآن بوقت قصير ، أما حين نقول « سوف يعلم » فتشمل كل الأزمنة .
فالنصر يتحقق للمؤمنين بإذن من الله دائماً؛ أما غير المؤمنين فلسوف يتمنَّوْنَ الإيمان؛ كما قُلْنا وأوضحنا من قبل .
وهكذا نرى أن قوله : { . . . فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [الحجر : 3]
يشمل كُلّ الأزمنة . وقد صنع الحق سبحانه في الدنيا أشياء تُؤذِن بصِدْق وَعْده ، والذين يظنُّون أنهم يسيطرون على كُلِّ الحياة يُفاجِئهم زلزال؛ فيهدم كل شيء ، على الرغم من التقدُّم فيما يُسمّى « الاستشعار عن بعد » وغير ذلك من فروع العلم التطبيقي .
وفي نفس الوقت نرى الحمير التي نتهمها بأنها لا تفهم شيئاً تَهُبُّ وهي الماشية من قبل الزلزال لتخرج إلى الخلاء بعيداً عن الحظائر التي قد تتهدم عليها ، وفي مثل هذا التصرُّف الغريزي عند الحيوانات تحطيمٌ وأدبَ للغرور الإنساني ، فمهما قاده الغرور ، وادعى أنه مالك لناصية العلم ، فهو مازال جاهلاً وجهولاً .
وكذلك نجد مَنْ يقول عن البلاد المُمطرة : إنها بلاد لا ينقطع ماؤها ، لذلك لا تنقطع خُضْرتها . ثم يصيب تلك البلاد جفافٌ لا تعرف له سبباً ، وفي كل ذلك تنبيهٌ للبشر كي لا يقعوا أسْرى للغرور .
ويقول سبحانه من بعد ذلك ضارباً لهم المثل : { وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ . . . }

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4)

أي : أنه سبحانه لا يأمر بهلاك أيّ قرية إلا في الأجل المكتوب لها . ويجعلها من المُثل التي يراها مَنْ يأتي بعدها لعله يتعظ ويتعرَّف على حقيقة الإيمان .
وقد قال الحق سبحانه : { وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ } [النحل : 112]
والمثل القريب من الذاكرة « لبنان » التي عاشت إلى ما قبل الخمسينات كبلد لا تجد فيه فندقاً

لائقاً ، ثم ازدهرتْ وانتعشتْ في الستينات والسبعينات؛ واستشرى فيها الفساد؛ فقال أهل المعرفة بالله : « لابُدَّ أن يصيبها ما يصيب القرى الكافرة بأنعُمِ الله » .

وقد حدث ذلك وقامت فيها الحرب الأهلية ، وانطبق عليها قول الحق سبحانه : { وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ . . . } [الأنعام : 65]

وهذا ما يحدث في الدنيا ، وهي مُقدّمات تُؤكّد صدْق ما سوف يحدث في الآخرة .

وسبحان القائل : { وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القيامة أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذلك فِي الكتاب مَسْطُوراً } [الإسراء : 58]

وبطبيعة الحال؛ فهذا ما يحدث لأيّ قرية ظالم أهلُها؛ لأن الحق سبحانه لا يظلم مِثْقال ذرة .

وأذكر أن تفسير النسفي قد صُودِر في عصر سابق؛ لأن صاحب التفسير قال عند تفسيره لهذه الآية : « حدثني فلان عن فلان أن البلد الفلاني سيحصل فيه كذا؛ والبلد الآخر سوف يحدث فيه كذا إلى أن جاء إلى مصر وقال بالنص : ويدخل مصر رجل من جهينة ، فويْل لأهلها ، ووَيْل لأهل سوريا ، ووَيْل لأهل الرَّمْلة ، ووَيْل لأهل فلسطين ، ولا يدخل بيت المقدس » .

ومادام الحق سبحانه قد قال : { . . . كَانَ ذلك فِي الكتاب مَسْطُورا } [الإسراء : 58]

فهو يُعلّم بعضاً من خلقه بعضاً من أسراره ، فلا مانعَ من أن نرى بعضاً من تلك الأسرار على ألسنتهم . وحين ذاعت تلك الحكاية ، وقالوها للرئيس الذي كان موجوداً ، وقالوا له : أنت من جهينة وهم يقصدونك . صُودِر تفسير النسفي .

إذن : فقد ترك الحق سبحانه لنا في الدنيا مثلاً يؤكد صِدْقه فيما يحكيه عن الوعيد لبعض القرى حتى نُصدّق ما يمكن أن يكون بعد يوم القيامة . وحين يقول الحق سبحانه : { وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ } [الحجر : 4]

فليس لأحد أن يقول : « إن ذلك لم يحدث للبلد الفلاني » لأن كُلَّ أَمْر له أجَل .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ }

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (5)

أي : أنه سبحانه قد جعل لكل أمة أجلاً ، وغاية ، فإذا ما انتهى الأجل المعلوم جاءتْ نهايتها؛ فلا كائنَ يتقدّم على أجله ، ولا أحدَ يتأخر عن موعد نهايته .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَقَالُواْ ياأيها الذي نُزِّلَ . . . }

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6)

وهم هنا يسخرون من الرسول ومن القرآن؛ ذلك أنهم لو كانوا يؤمنون بالقرآن وبالرسول؛ لَمَا وصفوه صلى الله عليه وسلم بالجنون . والذين قالوا ذلك هم أربعة من كبار الكفار : عبد الله بن أبي أمية ، والنضر بن الحارث ، ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة . وقيل عن ابن عباس : إنهم الوليد بن المغيرة المخزومي؛ وحبيب بن عمرو الثقفي . وقيل عن مجاهد : إنهم عتبة بن ربيعة ، وكنانة بن عبد ياليل .

والظاهر من قولهم هو التناقض الواضح؛ فَهُمْ شاءوا أم أبَوْا يعترفون بالقرآن بأنه « ذِكْر » ، والذِّكْر في اللغة له عدة مَعَانٍ ، منها الشرف ، وقد أُطلِق على القرآن ، كما قال الحق سبحانه : { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ } [الزخرف : 44]

وسبق لهم أن تلمَّسُوا في هذا القرآن هناتٍ؛ فلم يجدوا ، فكيف يَصِفون مَنْ نُزِّل عليه هذا القرآن بالجنون؛ وهم الذين شهدوا له من قَبْل بالصدق والأمانة .

وقد شاء الحق سبحانه أن يُنصِف رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : { وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم : 4]

وهم في اتهامهم للرسول صلى الله عليه وسلم لم يلتفتوا إلى أنهم قد خاطبوه بقولهم : (يا أيها) ، وهو خطاب يتطابق مع نفس الخطاب الذي يخاطبه به الله؛ وهكذا أجرى الحق سبحانه على ألسنتهم توقيراً واحتراماً للرسول صلى الله عليه وسلم دون أنْ يشعروا ، وذلك من مشيئته سبحانه حين يُنطِق أهل العناد بالحق دون أن يشعروا .

فقد قال الحق سبحانه عن المنافقين أنهم قالوا : { لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّواْ . . . } [المنافقون : 7]

أي : لا تنفقوا على مَنْ عند النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى يجوعوا ، فينفضوا من حوله . وهم يقولون عنه « رسول الله » ، فهل آمنوا بذلك؟ أم أن هذا من غلبة الحق؟

ويتابع سبحانه ما جاء على ألسنتهم : { لَّوْ مَا تَأْتِينَا بالملائكة . . . }

لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7)

ونعلم أن في اللغة ألفاظاً تدل على الحَثِّ وعلى رغبة المُتكلِّم في أن يُوجد السامع ما بعدها ، ومن هذه الألفاظ « لولا » و « لوما » . و « لولا » تجئ للتمنِّي ورغبة ما يكون بعدها ، وإن كان ما بعدها نفياً فهو رغبة منك ألا يكون ، مثل قولك « لو جاء زيد لأكرمته » لكن لمجيء لم يحدث ، وكذلك الإكرام .

وقد قال الكفار هنا ما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم : { لَّوْ مَا تَأْتِينَا بالملائكة . . . } [الحجر : 7]

وسبق لهم أنْ قالوا : { . . . لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً } [الفرقان : 7]

وكأنهم يطلبون نزول ملَك مع الرسول ليُؤنسه وليُصدّقوا أنه رسول من عند الله ، فهل كان تصديقهم المُعلَّق على هذا الشرط؛ تصديقاً للرسول ، أم تصديقاً للملك؟

وسبق أن تناول القرآنُ هذا الأمر في قول الحق سبحانه : { وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً } [الإسراء : 94]

وكأنهم علقوا الإيمان بالرسول على شرط أنه ليس ملكاً؛ بل من صنف البشر ، وجاء الرد عليهم : { قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً } [الإسراء : 95]

إذن : فلو نزل رسول من السماء ملَكاً؛ لَمَا استطاع أن يمشي في الأرض مطمئناً؛ فضلاً عن أنه لا يمكن أن يكون أُسْوة وقدوة للبشر؛ لأنه من جنس آخر غير البشر .

ولو نزل عليهم ملك كما زعموا ، وقال لهم : افعل ولا تفعل ، واستقيموا واستغفروا ، وسبِّحوه بُكْرة وأصيلا ، لردُّوا عليه قائلين أنت ملَكَ ينطبق عليك قول الحق : { . . . لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم : 6]

وأنت لا تصلح أُسْوة لنا . ثم كيف تتكلمون مع ملَك وهو من طبيعة مختلفة ، ولن يستطيع البشر أن يرتفعوا إلى مُسْتواه ليأخذوا منه ، وهو لن يستطيع أن ينزلَ إلى مستوى البشرية ليأخذوا منه؛ ولذلك شاء الحق سبحانه أن يرسل الرسول من جنس البشر .

وهكذا أبطل الحق سبحانه حُجّتهم في عدم الإيمان بالرسول؛ لأنه لم يأْتِ من جنس الملائكة؛ وأبطل حُجّتهم في طلبهم أن ينزل مع الرسول ملائكة؛ لِيُؤيّدوه في صِدْق بلاغه عن الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { مَا نُنَزِّلُ الملائكة إِلاَّ بالحق . . . }

مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (8)

وهكذا يُعلِّمنا الحق سبحانه أنه لا يُنزّل الملائكة إلا بمشيئة حكمته سبحانه ، ولو نزل الملَك كما طلبوا لمساعدة رسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن الله ، فالملَك إما أن يكون على هيئة البشر؛ فلن يستطيعوا تمييز المَلَك من البشر ، وإما أن يكون على هيئة الملك ، فلا يستطيع البشر أنْ يروْه؛ وإلاَّ هلكوا .

ذلك أن البشر لا تستطيع تحمُّل التواصل مع القوة التي أودعها الله في الملائكة .

والحق سبحانه هو القائل : { . . . وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمر ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ } [الأنعام : 8]

ولو جعله الحق سبحانه في هيئة البشر وتواصلوا معه لالتبس عليهم الأمر ، ولَظنّوا أن الملَك بشرٌ مثلهم .

وفي هذا يقول الحق سبحانه : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ } [الأنعام : 9]

لم يُنزِل الحق سبحانه الملائكة؛ لأنه لم يَشَأْ أن يُهلكهم ورسولُ الله فيهم ، فالحق سبحانه قد قال : { وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الأنفال : 33] وقد آمن معظمهم ودخلوا في دين الله من بعد ذلك واستغفروا لذنوبهم ، وكان الله غفوراً رحيماً؛ لأن الإسلام يجُبُّ ما قبله .

وحين ننظر إلى صَدْر الآية نجد أنه سبحانه قال : { مَا نُنَزِّلُ الملائكة إِلاَّ بالحق . . . } [الحجر : 8]

فلو نزلت الملائكة لكان عذاباً لهم ، فالحق سبحانه إذا أعطى قوماً آية طلبوها ، فإما أن يؤمنوا ، وإما أن يهلكهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه : { وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون . . . } [الإسراء : 59]

فالحق سبحانه لم يُجبهم إلى الآيات والمعجزات التي طلبوها؛ لأن السابقين لهم ، كذَّبوا بها قبل ذلك ، وهم يريدون أن يُكذّبوا أيضاً ، فحتى لو نزلت الآية فسيكذبونها ، وحين يكذبون في آية مقترحة من عندهم ، فلا بُدَّ أن نهلكهم . أما لو كذبوا في آية مُنزّلة من عند الله فإن الله يمهلهم .

إذن : فلو نزلنا الملائكة كما يريدون فسننزلهم بالحق ، والحق هو أن نهلكهم إذا كذَّبوا .

ويذيل الحق سبحانه الآية بقوله : { . . . وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ } [الحجر : 8]

أي : ما كان أجَلُ المشركين قد حانَ ليُنزل الله لهم الملائكة لإهلاكهم ، كما سبق وأهلك الأمم السابقة التي طلبتْ الآيات ، فنزلت لهم كما طلبوها ، ولَمّا لم يُصدِّقوا ويؤمنوا أهلكهم الله .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر . . . }

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)

والقرآن قد جاء بعد كُتب متعددة ، وكان كل كتاب منها يحمل منهج الله؛ إلا أن أيَّ كتاب منها لم يَكُنْ معجزة؛ بل كانت المُعْجزة تنزل مع أيِّ رسول سبق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعادة ما تكون المعجزة من صنف ما نبغ فيه القوم الذين نزل فيهم .

وما دام المنهج مفصولاً عن المعجزة؛ فقد طلب الحق سبحانه من الحاملين لكتب المنهج تلك أنْ يحافظوا عليها ، وكان هذا تكليفاً من الحق سبحانه لهم . والتكليف كما نعلم عُرْضة أنْ يُطَاع ، وعُرْضة أنْ يُعصى ، ولم يلتزم أحد من الأقوام السابقة بحفظ الكُتب المنزّلة إليهم .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول : { إِنَّآ أَنزَلْنَا التوراة فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النبيون الذين أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ والربانيون والأحبار بِمَا استحفظوا مِن كِتَابِ الله . . . } [المائدة : 44]

أي : أن الحق سبحانه وتعالى قد كلّفهم وطلب منهم أنْ يحفظوا كتبهم التي تحمل منهجه؛ وهذا التكليف عُرْضة أنْ يطاع ، وعُرْضة أنْ يُعصى؛ وهم قد عَصَوا أمر الحق سبحانه وتكليفه بالحفظ؛ ذلك أنهم حرّفوا وبدلوا وحذفوا من تلك الكتب الكثير .

وقال الحق سبحانه عنهم : { . . . وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [البقرة : 146]

بل وأضافوا من عندهم كلاماً وقالوا : هو من عند الله؛ لذلك قال فيهم الحق سبحانه : { فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ } [البقرة : 79]

وهكذا ارتكبوا ذنوب الكذب وعدم الأمانة ، ولم يحفظوا الكتب الحاملة لمنهج الله كما أنزلها الله على أنبيائه ورُسله السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك لم يَشَأ الحق سبحانه أن يترك مهمة حفظ القرآن كتكليف منه للبشر؛ لأن التكليف عُرْضة أن يطاع وعُرْضة أنْ يُعصى ، فضلاً عن أن القرآن يتميز عن الكتب السابقة في أنه يحمل المنهج ، وهو المعجزة الدالة على صِدْق بلاغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفس الوقت .

ولذلك قال الحق سبحانه : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9]

والذِّكْر إذا أُطلِق انصرف المعنى إلى القرآن؛ وهو الكتاب الذي يحمل المنهج؛ وسبحانه قد شاء حِفْظه؛ لأنه المعجزة الدائمة الدالة على صدق بلاغ رسوله صلى الله عليه وسلم .

وكان الصحابة يكتبون القرآن فَوْرَ أن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجدنا في عصرنا من هم غير مؤمنين بالقرآن؛ ولكنهم يتفنّنون في وسائل حفْظه؛ فهناك مَنْ طبع المصحف في صفحة واحدة؛ وسخَّر لذلك مواهب أُناسٍ غير مؤمنين بالقرآن .

وحدث مثل ذلك حين تَمّ تسجيل المصحف بوسائل التسجيل المعاصرة . وفي ألمانيا على سبيل المثال توجد مكتبة يتم حِفْظ كل ما يتعلق بكل آية من القرآن في مكان مُعيّن مُحدّد .

وفي بلادنا المسلمة نجد مَنْ ينقطع لحفظ القرآن منذ الطفولة ، ويُنهي حِفْظه وعمره سبع سنوات؛ وإنْ سألته عن معنى كلمة يقرؤها فقد لا يعرف هذا المعنى .

ومن أسرار عظمة القرآن أن البعض مِمَّنْ يحفظونه لا يملكون أية ثقافة ، ولو وقف الواحد من هؤلاء عند كلمة؛ فهو لا يستطيع أن يستكملها بكلمةٍ ذات معنى مُقَارب لها؛ إلى أنْ يردّه حافظٌ آخر للقرآن .

ولكي نعرف دِقّة حِفْظ الحق سبحانه لكتابه الكريم؛ نجد أن البعض قد حاول أن يُدخِل على القرآن ما ليس فيه ، وحاول تحريفه من مدخل ، يرَوْنَ أنه قريب من قلب كل مسلم ، وهو توقير الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وجاءوا إلى قول الحق سبحانه : { مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . . } [الفتح : 29]

وأدخلوا في هذه الآية كلمة ليست فيها ، وطبعوا مصحفاً غيَّروا فيه تلك الآية بكتابتها « محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » وأرادوا بذلك أن

يسرقوا عواطف المسلمين ، ولكن العلماء عندما أمسكوا بهذا المصحف أمروا بإعدامه وقالوا : « إن به شيئاً زائداً » ، فردَّ مَنْ طبع المصحف « ولكنها زيادة تحبونها وتُوقّرونها » ، فردَّ العلماء : « إن القرآن توقيفيّ؛ نقرؤه ونطبعه كما نزل » .

وقامت ضَجَّة؛ وحسمها العلماء بأن أيّ زيادة حتى ولو كانت في توقير رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبته لا تجوز في القرآن ، لأن علينا أن نحفظ القرآن كما لقَّنه جبريل لمحمد صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ . . . }

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10)

وهنا يُسلّي الحق سبحانه رسوله الكريم ، ويوضح له أن ما حدث له من إنكار ليس بِدعاً ، بل حدث له من إنكار ليس بدعاً ، بل حدث مثله مع غيره من الرسل سواء من إنكار أو تجاهل أو سخرية .

وإذا كنت أنت سيد الرسل وخاتم الأنبياء؛ فلابُدَّ أن تكون مشقتك على قَدْر مهمتك ، ولابُدَّ أن يكون تعبُك على قَدْر جسامة الرسالة الخاتمة .

و { شِيَعِ . . . } [الحجر : 10]

تعني الجماعة الذين اجتمعوا على مذهب واحد؛ سواء كان ضلالاً أم حقاً . والمثَل على مَنِ اجتمعوا على باطل هو قوله الحق : { أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً . . . } [الأنعام : 65]

والمثَل على مَنْ اجتمعوا على الحق قوله سبحانه : { وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ } [الصافات : 83]

وهكذا تكون كلمة (شِيع) تعني الجماعة التي اجتمعت على الحق أو الباطل .

وقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأولين } [الحجر : 10]

يعني أنك لن تكون أقلّ من الرُّسل السابقين عليك ، بل قد تكون رحلتك في الرسالة شاقّة بما يناسب مهمتك ، ويناسب إمامتك للرسل وختامك للأنبياء .

ويُكمِل سبحانه ما حدث للرسل السابقين على رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : { وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ . . . }

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (11)

ونجد كلمة : { . . . يَسْتَهْزِئُونَ } [الحجر : 11]

ونجد أن الحق سبحانه قد أوضح هذا الاستهزاء حين قالوا : { . . . يأيها الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر

إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } [الحجر : 6]

وكأن الحق سبحانه يُوضّح له أن الاستهزاء قد يزيد ، وذلك دليلٌ على أنك قد بلغتَ منهم مَبْلغ الكَيْد ، ولو كان كيدُك قليلاً لخفّفوا كَيْدهم؛ ولكنك جئتَ بأمر قاس عليهم ، وهدمت لهم مذاهبهم ، وهدمت حتى سيادتهم وكذلك سطوتهم ، ولم يجدوا غير الاستهزاء ليقاوموك به .

ومعنى ذلك أنهم عجزوا عن مقاومة منهجك؛ ويحاولون بالاستهزاء أن يحققوا لك الخور لتضعف؛ معتمدين في ذلك على أن كل إنسان يحب أن يكون كريماً في قومه ومعززاً مكرماً .

وهنا يريد الحق سبحانه من رسوله أن يُوطِّن نفسه على أنه سيُستهزأ به وسيُحارب؛ وسيُؤْذَى؛ لأن المهمة صعبة وشاقَّة ، وكلما اشتدت معاندتك وإيذاؤك ، فاعلم أن هذه من حيثيات ضرورة مهمتك .

ولذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يتأكد من مهمته؛ أخذته زوْجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها عند ورقة بن نوفل؛ وعرف ورقة أنه سَيُؤذَى ، وقال ورقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ليتني أكون حياً حين يُخرِجك قومك . فتساءل الرسول صلى الله عليه وسلم : أمُخرِجِيّ هُم؟ قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئتَ به إلا عُودِي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يصحب نزول الرسالة أن يُحصِّنه ضد ما سيحصل له ، ليكون عنده المناعة التي تقابل الأحداث؛ فمادام سيصير رسولاً ، فليعلم أن الطريق مَحْفوف بالإيذاء ، وبذلك لا يُفاجأ بوجود مَنْ يؤذيه .

ونحن نعلم أن المناعة تكون موجودة عند مَنْ وبها يستعد لمواجهة الحياة في مكان به وباء يحتاج إلى مَصْل مضاد من هذا الوباء؛ لِيقيَ نفسه منه ، وهذا ما يحدث في الماديات ، وكذلك الحال في المعنويات .

ولهذا يُوضِّح سبحانه هذا الأمر لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولتزداد ثقته في الحق الذي بعثه به ربُّه ، ويشتدّ في المحافظة على تنفيذ منهجه .

والاستهزاء كما نعلم لَوْنٌ من الحرب السلبية؛ فهم لم يستطيعوا مواجهة ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجد ، ولا أنْ يردّوا منهجه الراقي؛ لذلك لجئوا إلى السُّخْرية من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تنفعهم سخريتهم في النَّيْل من الرسول ، أو النَّيْل من الإسلام وفي هذا المعنى ، يقول لنا الحق سبحانه عن مصير الذين يسخرون من الرسول صلى الله عليه وسلم : { كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ . . . }

كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12)

و « سلك الشيء » أي : أدخله ، كما نُدخِل الخيط في ثقب الإبرة .

والحق سبحانه يقول : { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين } [المدثر : 42-43]

أي : ما أدخلكم في النار؛ فتأتي إجابتهم : { لَمْ نَكُ مِنَ المصلين } [المدثر : 43]

وهنا يقول الحق سبحانه : { كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ المجرمين } [الحجر : 12]

أي : كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء في قلوب شيع الأولين ، كذلك نُدخِله في قلوب المجرمين .

يعني : مشركي مكّة ، لأنهم أدخلوا أنفسهم في دائرة الشرك التي دعتهم إلى هذا الفعل ، فنالوا جزاءَ ما فعلوا مثل ما سبق من أقوام مثلهم؛ وقد يجد من تلك القلوب تصديقاً يكذبونه بألسنتهم ، مثلما قال الحق سبحانه : { وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتهآ أَنفُسُهُمْ . . . } [النمل : 14]

فهم أمة بلاغة ولغةٍ وبيانٍ؛ وقد أثّر فيهم القرآن بحلاوته وطلاوته؛ ولكنه العناد ، وها هو واحد منهم يقول :

« إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لَمُثمِر ، وإن أسفله لمغدق » .

لقد قال ذلك كافر بالرسول والرسالة .

ونعلم أن الذين استمعوا إلى القرآن نوعان؛ والحق سبحانه هو القائل عن أحدهما : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ } [محمد : 16]

أي : أن قوله لا يعجبهم وما يتلوه عليهم لا يستحق السماع ، فقال الحق سبحانه رداً عليهم : { . . . قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ في آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى } [فصلت : 44]

وهي مسألة كما أقول دائماً تتعلق بالقابل الذي يستقبل الحدث؛ إما أنْ يُصفّي قلبه ليستقبل القرآن؛ وإما أنْ يكون قلبه والعياذ بالله مُمْتلِئاً بالكفر ، فلا يستقبل شيئاً من كتاب الحق .

وقد حدث أن ادخل الحق سبحانه كتبه السماوية في قلوب الأقوام السابقة على رسول الله ، ولكنهم لفساد ضمائرهم وظُلْمة عقولهم؛ سخروا من تلك الكتب ، ولم يؤمنوا بها .

ويَصِف الحق سبحانه هؤلاء المجرمين بقوله : { لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ . . . }

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13)

وهكذا يوضح الحق سبحانه أن قلوب الكفرة لا تلين بالإيمان؛ ولا تُحسِن استقبال القرآن ، ذلك أن قلوبهم مُمْتلئة بالكفر ، تماماً كما حدث من الأقوام السابقة ، فتلك سُنة مَنْ سبقوهم إلى الكفر .

والسُّنة هي الطريقة التي تأتي عليها قضايا النتائج للمُقدّمات وهي أولاً وأخيراً قضايا واحدة .

ومرة نجد الحق سبحانه يقول : { سُنَّةَ الله فِي الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً } [الأحزاب : 62]

ونعلم أن الإضافة تختلف حَسْب ما يقتضيه التعبير . ف (سنة الأولين) تعني الأمور الكونية التي قدرها الله لعباده . و (سنة الله) تعني سُنّة منسوبة لله ، ومن سنن الحق سبحانه أن يُهلك المُكذّبين للرسل إنْ طلبوا آية فجاءتهم ، ثم واصلوا الكفر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السماء . . . }

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15)

وهم قد طلبوا أن ينزل إليهم مَلَكٌ من السماء؛ لذلك نجد الحق سبحانه هنا يأتيهم بدليل أقوى مِمَّا طلبوا ، ذلك أن نزول مَلَك من السماء هو أسهل بكثير من أن يُنزِلَ من السماء سُلَّماً يصعدون عليه ، وفي هذا ارتقاء في الدليل؛ لكنهم يرتقون أيضاً في الكفر ، وقالوا : إن حدث ذلك فَلَسوفَ يكون من فعل السحر .

ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم ساحراً لَسحرهم ، وجعلهم جميعاً مؤمنين ، وعلى الرغم من أن مثْل هذا الأمر كان يجب أن يكون بديهياً بالنسبة لهم ، لكنهم يتمادوْنَ في الكفر ، ويقولون : إنه لو نزَّل سُلَّماً من السماء وصعدوا عليه؛ لَكانَ ذلك بفعل السحر؛ ولكانَ رسول الله هو الذي سحرهم؛ وأعمى أبصارهم ، ولَجعلهم يتوهمون ذلك .

وكأن معنى هذا القول الكريم : لو ارتقينا في مطلبهم ، وأنزلنا لهم سُلَّماً يصعدون به إلى أعلى؛ ليقولوا : إن الحق هو الذي بعث محمداً بالرسالة ، بدلاً من أن ينزل إليهم ملك حسب مطلبهم؛ لَمَا آمنوا بل لقالوا : إن هذا من فعل سحر قام به محمد ضدهم . وهكذا يرتقون في العناد والجحود .

ولابُدَّ أن نلحظ أن الحق سبحانه قد جاء هنا بكلمة : { فَظَلُّواْ . . . } [الحجر : 14] ولم يقل « وكانوا » ، ذلك أن « كان » تُستخدم لِمُطلْق الزمن ، و « ظل » للعمل نهاراً ، و « أمسى » للعمل ليلاً ، أي : أن كل كلمة لها وَقْت مكتوب ، والمقصود من « ظَلُّوا » هنا أن الحق سبحانه لن ينزل لهم السُّلَّم الذي يعرجُون عليه إلا في منتصف النهار ، ولكنهم أصرُّوا على الكفر .

لذلك قال سبحانه : { . . . فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ } [الحجر : 14]

أي : لن نأخذهم بالليل ، حتى لا يقولوا إن الدنيا كانت مظلمة ولم نر شيئاً ، ولكنه سيكون في وضح النهار . أي : أن الله حتى لو فتح باباً في السماء يصعدون منه إلى الملأ الأعلى في وضح النهار لكذَّبوا .

وبعد ذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى الكون لِيُرِينَا عجيبَ آياته ، فيقول : { وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السماء . . . }

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16)

والبروج تعني المباني العالية ، والحق سبحانه هو القائل : { أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الموت وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ . . . } [النساء : 78]

وهو سبحانه القائل : { والسمآء ذَاتِ البروج } [البروج : 1]

والمعنى الجامع لكل هذا هو الزينة المُلْفتة بجِرْمها العالي؛ وقد تكون مُلْفِتة بجمالها الأخَّاذ .

والبروج هي جمع بُرْج؛ وهي منازل الشمس والقمر؛ فكلما تحركت الشمس في السماء تنتقل من برج إلى آخر؛ وكذلك القمر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : { . . . كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [الأنبياء : 33]

وهو سبحانه القائل : { هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب . . . } [يونس : 5]

أي : لنضبط كل التوقيتات على ضَوْء تلك الحركة لكل من الشمس والقمر ، ونحن حين نفتح أيَّ جريدة نقرأ ما يُسمَّى بأبواب الطالع ، وفيه أسماء الأبراج : برج الحَمَل ، وبرج الجدي ، وبرج العذراء؛ وغيرها ، وهي أسماء سريانية للمنازل التي تنزلها أبراج النجوم . ويقول الشاعر :

حَمَلَ الثورُ جَوْزَة السرطَانِ ... ورعَى اللّيْثُ سُنبل المِيزَانِ

عقربَ القوس جَدي دَلْو ... وحُوت ما عرفنَا من أُمة السّريّانِ .

وهم اثنا عشر برجاً ، ولكل برج مقاييس في الجو والطقس . وحين نقرأ القرآن نجد قول الحق سبحانه : { وَعَلاَمَاتٍ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ } [النحل : 16]

والبعض يحاول أن يجد تأثيراً لكل برج على المواليد الذين يُولدون أثناء ظهور هذا البرج ، ولعل مَنْ يقول ذلك يصل إلى فَهْم لبعض من أسرار الله في كونه؛ ذلك أنه سبحانه قد أقسم بمواقع النجوم ، وقال : { فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ } [الواقعة : 75-76]

وهناك مَنْ يقول : إن لكل إنسان نجماً يُولَد معه ويموت معه؛ لذلك يُقَال « هوى نجم فلان » ، ونحن لا نجزم بصِحة أو عدم صِحّة مثل هذه الأمور؛ لأنه لم تثبُت علمياً ، والحق سبحانه أعلم بأسراره ، وقد يُعلمها لبعضٍ من خَلْقه .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد قول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السماء بُرُوجاً . . . } [الحجر : 16]

أي : أن هناك تأكيداً لوجود تلك البروج في السماء ، وليس هذا الجَعْل لتأثيرها في الجو ، أو

لأنها علامات نهتدي بها ، فضلاً عن تأثيرها على الحرارة والرطوبة والنباتات ، ولكنها فوق كل ذلك تؤدي مُهمة جمالية كبيرة ، وهي أن تكون زينة لكل مَنْ ينظر إليها .

لذلك قال الحق سبحانه : { وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ } [الحجر : 16]

ذلك أن الشيء قد يكون نافعاً؛ لكن ليس له قيمة جمالية؛ وشاء الحق سبحانه أن يجعل للنجوم قيمة جمالية ، ذلك أنه قد خلق الإنسان ، ويعلم أن لنفسه مَلكاتٍ مُتعددة ، وكُلّ مَلَكةٍ لها غذاء .

فغذاءُ العين المنظر الجميل؛ والأذن غذاؤها الصوت الجميل ، والأنف غذاؤه الرائحة الطيبة؛ واللسان يعجبه المذاق الطيب ، واليد يعجبها المَلْمَس الناعم؛ وهذا ما نعرفه من غذاء المَلَكات للحواس الخمس التي نعرفها .

وهناك مَلَكات أخرى في النفس الإنسانية؛ تحتاج كل منها إلى غذاء معين ، وقد يُسبّب أخذ مَلَكة من مَلَكات النفس لأكثر المطلوب لها من غذاء أن تَفْسد تلك المَلَكة؛ وكذلك قد يُسبِّب الحرمان لِمَلَكة ما فساداً تكوينياً في النفس البشرية .

والإنسان المتوازن هو مَنْ يُغذّي مَلَكاته بشكل مُتوازن ، ويظهر المرض النفسي في بعض الأحيان نتيجةً لنقص غذاء مَلَكة ما من المَلَكات النفسية ، ويتطلب علاجُ هذا المرض رحلةً من البحث عن المَلَكة الجائعة في النفس البشرية .

وهكذا نجد في النفس الإنسانية مَلَكة لرؤية الزينة ، وكيف تستميل الزينة النفس البشرية؟ ونجد المثَل الواضح على ذلك هو وجود مهندسي ديكور يقومون بتوزيع الإضاءة في البيوت بأشكال فنية مختلفة .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن أبراج النجوم : { . . . وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ } [الحجر : 16]

ونجده سبحانه يقول عن بعض نِعَمه التي أنعم بها علينا : { والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً . . . } [النحل : 8]

وهكذا يمتنُّ علينا الحق سبحانه بجمال ما خلق وسخَّره لنا ، ولا يتوقف الأمر عند ذلك ، بل هي في خدمة الإنسان في أمور أخرى : { وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأنفس إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 7]

وهو سبحانه وتعالى الذي جعل تلك الدواب لها منظر جميل؛ فهو سبحانه القائل : { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } [النحل : 6]

وهو سبحانه لم يخلق النعم لنستخدمها فقط في أغراضها المتاحة؛ ولكن بعضاً منها يروي أحاسيس الجمال التي خلقها فينا سبحانه . وكلما تأثرنا بالجمال وجدنا الجميل ، وفي توحيده

تفريد لجلاله .

ويقول سبحانه عن السماء والبروج : { وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ . . . }

وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (17)

ونعلم أن الشياطين كانوا يسترقون السمع لبعض من منهج الله الذي نزل على الرسل السابقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكانوا يحاولون أن يُضيفوا لها من عندهم ما يُفسِد معناها ، وما أنْ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى منع كل هذا بأمر من الحق سبحانه ، ويقول جل عُلاَه : { وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ . . . } [الأنعام : 121]

ولذلك نجد الشياطين تقول ما ذكره الحق سبحانه على ألسنتهم في كتابه العزيز : { وَأَنَّا لَمَسْنَا السمآء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً * وَأَنَّا لاَ ندري أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأرض أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً } [الجن : 8-10]

وهكذا علمنا أنهم كانوا يسترقون السمع؛ ويأخذون بِضْعاً من كلمات المنهج ويزيدون عليها؛ فتبدو بها حقيقة واحدة وألف كذبة . وشاء الحق سبحانه أن يُكّذب ذلك؛ فقال : { وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ } [الحجر : 17]

والشيطان كما نعلم هو عاصي الجن .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { إِلاَّ مَنِ استرق . . . }

إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (18)

وكلمة : { استرق . . . } [الحجر : 18]

تُحدِّد المعنى بدقة ، فهناك مَنْ سرق؛ وهناك مَنْ استرق؛ فالذي سرق هو مَنْ دخل بيتاً على سبيل المثال ، وأخذ يُعبّئ ما فيه في حقائب ، ونزل من المنزل على راحته لينقلها حيث يريد . لكن إنْ كان هناك أحد في المنزل؛ فاللص يتحرك في استخفاء؛ خوفاً من أن يضبطه مَنْ يوجد في المنزل ليحفظه؛ وهكذا يكون معنى « استرقَ » الحصول على السرقة مقرونة بالخوف .

وقد كان العاصون من الجِنّ قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسترقون السمع للمنهج المُنزّل على الرُّسُل السابقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ واختلف الأمر بعد رسالته الكريمة؛ حيث شاء الحق سبحانه أنْ يحرسَ السماء؛ وما أنْ يقترب منها شيطان حتى يتبعه شهاب ثاقب .

والشهاب هو النار المرتفعة؛ وهو عبارة عن جَذْوة تشبه قطعة الفحم المشتعلة؛ ويخرج منه اللهب . وهو ما يُسمّى بالشهاب .

أما إذا كان اللهب بلا ذؤابة من دخان؛ فهذا اسمه « السَّمُوم » . وإنْ كان الدخان مُلْتوياً ، ويخرج منه اللهب ، ويموج في الجو فيُسمى « مارج » حيث قال الحق سبحانه : { . . . مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ } [الرحمن : « 15]

وهكذا نجد السماء محروسة بالشهب والسَّمُوم ومارج من نار .

ويقول سبحان من بعد ذلك : { والأرض مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا . . . }

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19)

وحين نسمع كلمة الأرض فنحن نتعرف على المقصود منها ، ذلك أنه ليس مع العين أَيْن . والمَدُّ هو الامتداد الطبيعي لِمَا نسير عليه من أيّ مكان في الأرض .

وهذه هي اللفتة التي يلفتنا لها الحق سبحانه؛ فلو كانت الأرض مُربعة؛ أو مستطيلة؛ أو مُثلثة؛ لوجدنا لها نهاية وحَافّة ، لكِنّا حين نسير في الأرض نجدها مُمْتدة ، ولذلك فهي لابُد وأن تكون مُدوَّرة .

وهم يستدلون في العلم التجريبي على أن الأرض كُروية بأن الإنسان إذا ما سار في خط مستقيم؛ فلسوف يعود إلى النقطة التي بدأ منها ، ذلك أن مُنْحنى الأرض مصنوعٌ بدقة شديدة قد لا تدرك العين مقدارَ الانحناء فيه ويبدو مستقيماً .

وحين يقول الحق سبحانه : { وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ . . . } [الحجر : 19]

يعني أشياء تثبتها . ولقائل أنْ يتساءل : مادامت الأرض مخلوقةً على هيئة الثبات فهل كانت تحتاج إلى مثبتات؟

ونقول : لابد أن الحق سبحانه قد خلقها مُتحركة وعُرْضة لأنْ تضطربَ؛ فخلق لها المُثقّلات ، وهكذا نكون قد أخذنا من هذه الآية حقيقتين؛ التكوير والدوران .

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه : { وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب . . . } [النمل : 88]

ونفهم من هذا القول الكريم أن حركة الجبال ليست ذاتيةً بل تابعة لحركة الأرض؛ كما يتحرك الحساب تبعاً لحركة الرياح .

وشاء سبحانه أن يجعل الجبال رواسي مُثّبتات للأرض كي لا تميدَ بنا؛ فلا تميل يَمْنة أو يَسْرة أثناء حركتها .

ويقول الحق سبحانه : { . . . وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ } [الحجر : 19]

وأنبت سبحانه من الأرض كُلَّ شيء موزون بدقّة تناسب الجو والبيئة ، ويضم العناصر اللازمة لاستمرار الحياة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ . . . }

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20)

في هذا القول يمتنُّ علينا سبحانه بأنه جعل لنا في الأرض وسائل للعيش؛ ولم يكتَفِ بذلك ، بل جعل فيها رزقَ ما نطعمه نحن من الكائنات التي تخدمنا؛ ومن نبات وحيوان ، ووقود ، وما يلهمنا إياه لنطور حياتنا من أساليب الزراعة والصناعة؛ وفوق ذلك أعطانا الذرية التي تَقَرُّ بها العين ، وكل ذلك خاضع لمشيئته وتصرُّفه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا . . . }

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21)

وقوله الحق : { وَإِن مِّن شَيْءٍ . . . } [الحجر : 21]

أي : أنه لا يوجد جنس من الأجناس إلا وله خزائنُ عند الله سبحانه ، فالشيء الذي قد تعتبره تافهاً له خزائن؛ وكذلك الشيء النفيس ، وهو سبحانه يُنزِل كل شيء بقدَرٍ؛ حتى الاكتشافات العلمية يُنزِلها بقدَرٍ .

وحين نحتاج إلى أيّ شيء مخزون في أسرار الكون؛ فنحن نُعمِل عقولنا الممنوحة لنا من الله لنكتشف هذا الشيء . والمثل هو الوقود وكُنا قديماً نستخدم خشب الأشجار والحطب .

وسبحانه هو القائل : { أَفَرَأَيْتُمُ النار التي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ المنشئون } [الواقعة : 71-72]

واتسعت احتياجات البشر فاكتشفوا الفحم الذي كان أصله نباتاً مطموراً أو حيواناً مطموراً في الأرض؛ ثم اكتُشِف البترول ، وهكذا .

أي : أنه سبحانه لن يُنشِئ فيها جديداً ، بل أعدَّ سبحانه كل شيء في الأرض ، وقدَّر فيها الأقوات من قبل أنْ ينزِل آدم عليه السلام إلى الأرض من جنة التدريبِ لِيعمُرَ الأرض ، ويكون خليفة لله فيها ، هو وذريته كلها إلى أن تقومَ الساعة .

فإذا شكوْنَا من شيء فهذا مَرْجعه إلى التكاسل وعدم حُسْن استثمار ما خلقه الله لنا وقدَّره من أرزاقنا في الأرض . ونرى التعاسة في كوكب الأرض رغم التقدُّم العلمي والتِّقني؛ ذلك أننا نستخدم ما كنزه الحق سبحانه ليكون مجال سعادة لنا في الحروب والتنافر .

ولو أن ما يُصرف على الحروب؛ تم توجيهه إلى تنمية المجتمعات المختلفة لَعاشَ الجميع في وفرة حقيقية . ولكن سوء التنظيم وسوء التوزيع الذي نقوم به نحن البشر هو المُسبِّب الأول لتعاسة الإنسان في الأرض؛ ذلك أنه سبحانه قد جعل الأرض كلها للأنام ، فمن يجد ضيقاً في موقع ما من الأرض فليتجه إلى موقع آخر .

ولكن العوامل السياسية وغير ذلك من الخلافات بين الناس تجعل في أماكن في الأرض؛ رجالاً بلا

عمل؛ وتجعل في أماكن أخرى ثروة بلا استثمار؛ ونتجاهل قوله سبحانه : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ . . . } [الحجر : 21]

فلكل شيء في الأرض خزائن؛ والخزينة هي المكان الذي تُدَّخر فيه الأشياء النفيسة ، والكون كله مخلوق على هيئة أن الحق سبحانه قدَّر في الأرض أقواتاً لكل الكائنات من لَدُن آدم إلى أن تقومَ الساعة .

فإنْ حدث تضييق في الرزق فاعلموا أن حقاً من حقوق الله قد ضُيّع ، إما لأنكم أهملتم استصلاحَ الأرض وإحياء مواتها بقدر ما يزيد تعداد السكان في الأرض ، وإما أنكم قد كنزتُم ما أخذتُم من الأرض ، وضننتُم بِمَا اكتنزتموه على سواكم .

فإنْ رأيتَ فقيراً مُضيَّعاً فاعلم أن هناك غنياً قد ضَنَّ عليه بما أفاض الله على الغني من رزق ، وإنْ رأيت عاجزاً عن إدراك أسباب حياته فاعلم أن واحداً آخر قد ضَنَّ عليه بقُوتِه .

وإنْ رأيت جاهلاً فاعلم أن عالماً قد ضَنَّ عليه بعلمه . وإنْ رأيت أخْرقَ فاعلم أن حكيماً قد ضَنَّ عليه بحكمته؛ فكُلّ شيء مخزون في الحياة؛ حتى تسلم حركة الحياة؛ سلامةً تؤدي إلى التسانُد والتعاضُد؛ لا إلى التعانُد والتضارب .

ونعلم أنه سبحانه قد أَعدَّ لنا الكون بكُل ما فيه قبل أنْ يخلقنا؛ ولم يُكلِّفنا قبل البلوغ؛ ذلك أنه عَلِم ألاَّ أن التكليف يُحدّد اختيار الإنسان لكثير من الأشياء التي تتعلق بكل ملَكاتِ النفس؛ قُوتاً ومَشْرباً ومَلْبساً ومسكناً وضَبْطاً للأهواء ، كي لا ننساقَ في إرضاء الغرائز على حساب القِيمَ .

وشاء سبحانه ألاَّ يكون التكليف إلا بعد البلوغ؛ حتى يستوفي ملكاتُ النفس القوةَ والاقتدارَ ، ويكون قادراً على إنجاب مثيل له ، ولكي يكون هذا التكليف حُجَّة على الإنسان ، هذا الذي طَمَر له الحق سبحانه كل شيء إمَّا في الأرض؛ أو كان طمراً في النوع ، أو في الجنس .

وكُلُّ شيء في الكون موزون ، إما أن يكون جِنْساً ، أو نَوْعاً ، أو أفراداً؛ والميزان الذي توجد به كل تلك العطاءات؛ إنما شاء به الحق سبحانه أن يهبَ الرب للكل؛ وليوافق الكثرة؛ وليعيش الإنسان في حضْن الإيمان . وهكذا يكون عطاء الله لنا عطاءَ ربوبيةٍ ، وعطاءَ ألوهيةٍ ، والذكيّ حقاً هو مَنْ يأخذ العطاءين معاً لتستقيم حياته .

والحق سبحانه هو القائل : { قُل لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنفاق وَكَانَ الإنسان قَتُوراً } [الإسراء : 100]

وذلك ليوضح لنا الحق سبحانه أن الإنسان يظنُّ أن ذاتيته هي الأصل ، وأن نفعيته هي الأصل ، وحتى في قضايا الدين؛ قد يتبع العبد قوله الحق : { وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . . . } [الحشر : 9]

ومَنْ يفعل ذلك إنما يفعل في ظاهر الأمر أنه يُؤْثِر الغيرَ على نفسه؛ ولكن الواقع الحقيقي أنه يطمع فيما أعدَّه الله له من حُسْن جزاء في الدنيا وفي الآخرة .

إذن : فأَصْل العملية الدينية أيضاً هو الذات؛ ولذلك نجد مَنْ يقول : أنا أُحِب الإيمان؛ لأن فيه الخيرية ، يقول الحق سبحانه : { وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير لَشَدِيدٌ } [العاديات : 8]

وفيه أنانية ذكية تتيح لصاحبها أَخْذ الثواب على كل عمل يقوم به لغيره ، وهذا لون من الأنانية الذكية النافعة؛ لأنها انانية باقية ، ولها عائد إيماني .

ونعلم أن الحق سبحانه لو شاء لجعل الناس كلهم أثرياء؛ ولم يجعل يداً عليا ويداً سفلي ، لكنه سبحانه لم يشأ ذلك؛ ليجعل الإنسان ابْنَ أغيار؛ ويعدل فيه ميزان الإيمان ، ولِيدُكّ غرور الذات على الذات ، وليتعلم الإنسان أن غروره على ربّه لن ينال من الله شيئاً ، ولن يأتي للإنسان بأي شيء .

وكل مظاهر القوة في الإنسان ليست من عند الإنسان ، وليست ذاتية فيه ، بل هي موهوبة له من الله؛ وهكذا شاء الحق سبحانه أنْ يُهذّب الناس لِيُحسِنوا التعامل مع بعضهم البعض .

ولذلك أوضح سبحانه أن عنده خزائنَ كل شيء ، ولو شاء لألقى ما فيها عليهم مرة واحدة؛ ولكنه لم يُرد ذلك ليؤكد للإنسان أنه ابْنُ أغيارٍ؛ ولِيلفتَهم إلى مُعْطي كل النعم .

كما أن رتابة النعمة قد تُنسِي الإنسانَ حلاوة الاستمتاع بها ، وعلى سبيل المثال أنت لا تجد إنساناً يتذكّر عَيْنه إلا إذا آلمتْه؛ وبذلك يتذكر نعمة البصر ، بل وقد يكون فَقْد النعمة هو المُلفِت للنعمة ، وذلك لكي لا ينسي أحد أنه سبحانه هو المُنعِم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ . . . }

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22)

والإرسال هو الدَّفْع للشيء من حَيّز إلى حَيّز آخر ، وحين يقول سبحانه إنه أرسل الرياح؛ نجد أنها مُرْسلَة من كُلّ مكان إلى كُلّ مكان؛ فهي مُرْسَلة من هنا إلى هناك ، ومن هناك إلى هنا .

وهكذا يكون كل مكان؛ هو موقع لإرسال الرياح؛ وكل مكان هو موقع لاستقبالهم؛ ولذلك نجد الرياح وهي تسير في دَوْرة مستمرة؛ ولو سكنتْ لَمَا تحرَّك الهواء ، ولأُصِيبتْ البشرية بالكثير من الأرض؛ ذلك أن الرياح تُجدّد الهواء ، وتُنظِّف الأمكنة من الرُّكود الذي يُمكِن أن تصيرَ إليه .

ونعلم أن القرآن حين يتكلم عن الرياح بصيغة الجمع فهو حديث عن خير ، والمثل هو قول الحق سبحانه : { وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ . . . } [الأعراف : 57]

أما إذا أُفرد وجاء بكلمة « ريح » فهي للعذاب ، مثل قوله : { وَأَمَا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ } [الحاقة : 6]

وهنا يقول الحق سبحانه : { وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ . . . } [الحجر : 22]

ولواقح جمع لاقحة ، وتُطلَق في اللغة مرَّة على الناقة التي في بطنها جنين؛ ومرة تُطلَق على اللاقح الذي يلقح الغير ليصير فيه جنين؛ لأن الحق سبحانه شاء أن يتكاثر كل ما في الكون؛ وجعل من كُلِّ زوجين اثنين؛ إما يتكاثر أو تتولد منه الطاقة؛ كالسالب والموجب في الكهرباء .

وهو القائل سبحانه : { سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا . . . } [يس : 36]

ثم عَدَّد لنا فقال : { . . . مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ } [يس : 22]

وهناك أشياء لا يُدركها الإنسان مثل شجرة الجُمَّيز؛ التي لا يعلم الشخص الذي لم يدرس علم النبات كيف تتكاثر لتنبت وتُثمِر ، ويعلم العالِم أن هناك شجرةَ جُميز تلعب دور الأنثى ، وشجرةً أخرى تلعب دور الذَّكَر .

وكذلك شجرة التوت؛ وهناك شجرة لا تُعرَف فيه الأنثى من الذَّكر؛ لأنه مكمور توجد به الأُنثى والذَّكَر ، وقد لا تعرف أنت ذلك؛ لأن الحق سبحانه جعل اللُّقاحةَ خفيفةً للغاية؛ لتحملَها الريحُ من مكان إلى مكان .

ونحن لم نَرَ كيف يتم لقاح شجرة الزيتون؛ أو شجرة المانجو ، أو شجرة الجوافة ، وذلك لنأخذ من ذلك عبرةً على دِقّة صَنْعته سبحانه .

والمثَل الذي أضربه دائماً هو المياه التي تسقط على جبلٍ ما؛ وبعد أيام قليلة تجد الجبل وقد امتلأ بالحشائش الخضراء؛ ومعنى هذا أن الجبل كانت توجد به بذور تلك الحشائش التي انتظرتْ الماء لِتُنبت .

وتعرّف العلماء على أن الذكورة بعد أن تنضج في النبات فهي تنكشف وتنتظر الرياح والجو المناسب والبيئة المناسبة لتنقلها من مكان إلى مكان .

ولهذا نجد بعضاً من الجبال وهي خضراء بعد هبوب الرياح وسقوط المطر؛ ذلك أن حبوب اللقاح انتقلت بالرياح ، وجاء المطر لتجد النباتات فرصةً للنمو .

وقد تجد جبلاً من الجبال نصفه أخضر ونصفه جَدْب؛ لأن الرياحَ نقلتْ للنصف الأخضر حبوبَ اللقاح ، ولم تنقل الحبوب للنصف الثاني من الجبل؛ ولذلك نجد الحق سبحانه قد جعل للرياح دورةً تنتقل بها من مكان لمكان ، وتدور فيها بكل الأماكن .

ويتابع سبحانه في نفس الآية : { فَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَاءً . . . } [الحجر : 22]

وقد تبيّن لنا أن المياه نفسها تنشأ من عملية تلقيح؛ وبه ذكورة وأنوثة .

وفي هذا المعنى يقول الحق سبحانه : { . . . فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَآ أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ } [الحجر : 22]

أي : أنكم لن تخزنوا المياه لأنكم غير مأمونين عليه ، وإذا كان الله قد هدانا إلى أن نخزنَ المياه ، فذلك من عطاء الله؛ فلا يقولنّ أحد : لقد بنينا السدود؛ بل قُلْ : هدانا الله لِنبنيها؛ بعد أن

يسقطَ المطر؛ ذلك أن المطر لو لم يسقط لَمَا استطعنا تخزينَ المياه .
وعلى هذا يكون سبحانه هو الذي خزنَ المياه حين أنزله من السماء بعد أنْ هدانا لنبنيَ السدود .
وأنت حين تريد كوباً من الماء المُقطّر؛ تذهب إلى الصيدلي لِيُسخِّن الماء في جهاز مُعيّن؛ ويُحوّله إلى بخار ، ثم يُكثّف هذا البخار لِيصِيرَ ماء مُقطّراً ، وكل ذلك يتمّ في الكون ، وأنت لا تدري به .
ويقول سبحانه من بعد ذلك : { وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ . . . }

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23)

وفي ظاهر الأمر كان من المُمْكِن أن يقول الحق : « إنّا نُميت ونُحيي »؛ لأنه سبحانه يخاطبنا ونحن أحياء ، ولكن الحق سبحانه أراد بهذا القول أن يلفتنا أن ننظر إلى الموت الأول ، وهو العدم المَحْض الذي أنشأنا منه ، وهو سبحانه القائل : { وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [البقرة : 28]
والكلام في تفصيل الموت يجب أن نُفرّق فيه بين العدم المَحْض والعدم بعد وجود؛ فالعدم المَحْض هو ما كان قبل أن نُخلَق؛ ثم أوجدنا الله لنكون أحياء؛ ثم يميتنا من بعد ذلك ، ثم يبعثنا من بعد ذلك للحساب .
وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يكون الكلام عن الموت الذي يحدث بعد أن يهبَنا اللهُ الحياةُ ، ثم نقضي ما كتبه لنا من أجَل .
ثم يُذيّل الحق سبحانه الآية بقوله : { . . . وَنَحْنُ الوارثون } [الحجر : 23]
وهذا القول يعني أن هناك تركة كبيرة؛ وهي هذا الكون الذي خلقه سبحانه ليستخلفنا فيه .
ونحن لم نُضِفْ شيئاً لهذا الكون الذي خلقه الله؛ لأنك إنْ نظرتَ إلى كمية المياه أو الغذاء التي في الكون ، وكُل مقومات الحياة لَمَا وجدتَ شيئاً يزيد أو ينقص؛ فالماء تشربه لِيروِيكَ ، ثم يخرج عرقاً وبولاً؛ ومن بعد الموت يتحلّل الجسم ليتبخرَ منه الماء ، وهذا يجري على كل الكائنات .
وحين يتناول الحق سبحانه في هذه الآية أَمْر الموت والحياة وعودة الكون في النهاية إلى مُنْشئِه سبحانه؛ فهو يُحدّثنا عن أمرين يعتوران حياة كل موجود؛ هما الحياة والموت ، وكلاهما يجري على كُلِّ الكائنات؛ فكُلّ شيء له مدة يَحْياها ، وأجل يقضيه .
وكل شيء يبدأ مهمة في الحياة فهو يُولّد؛ وكل شيء يُنهِي مهمته في الحياة بحسب ما قدره الله له فهو يموت؛ وإنْ كنا نحن البشر بحدود إدراكنا لا نعي ذلك .
وهو سبحانه القائل : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . } [القصص : 88]
إذن : فكُلّ شيء يُطلَق عليه « شيء » مصيره إلى هلاك؛ ومعنى ذلك أنه كان حياً؛ ودليلنا على أنه كان حياً هو قول الحق : { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . . } [

الأنفال : 42]

وهكذا نعلم أن كل ما له مهمة في الحياة له حياة تناسبه؛ وفَوْر أن تنتهي المهمة فهو يهلك ويموت ، والحق سبحانه وتعالى يرث كل شيء بعد أن يهلك كل مَنْ له حياة ، وهو سبحانه القائل : { إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [مريم : 40]

وهو بذلك يرث التارك والمتروك؛ وهو الخالق لكل شيء . ويختلف ميراث الحق سبحانه عن ميراث الخَلْق؛ بأن المخلوق حين يرث آخر؛ فهو يُودِعه التراب أولاً ، ثم يرث ما ترك؛ أما الحق سبحانه فهو يرث الاثنين معاً ، المخلوق وما ترك .

ولذلك نحن نرى مَنْ يعز عليهم ميت؛ قد يُمسِكون بالخشبة التي تحمل الجثة ، ويرفضون من فَرْط المحبة أن تخرج من منزله؛ ولو تركناه لهم لمدة أسبوع ورمّت الجثة؛ سيتوسّلون لِمَنْ يحمل الجثث أن يحملَه لِيُواريه التراب ، ثم يبدأون في مناقشة ما يرثونه من الفقيد .

وهم بذلك يَرِثون المتروك بعد أن أودعوا التارك للتراب ، وإذا كان التارك من الذين أحسنوا الإيمان والعمل فيدخل حياة جديدة هي أرغد بالتأكيد من حياته الدنيا؛ ولَسوفَ يأكل ويشرب دون أن يتعبَ ، وكل ما تمر على ذهنه رغبة فهي تتحقّق له ، فهو في ضيافة المُنعِم الأعلى .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين . . . }

وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24)

والمُستقدم هو مَنْ تقدّم بالحياة والموت؛ وهم مَنْ قبلنا من بشر وأُمَم . والمُسْتأخِر هو مَنْ سيأتي من بعدنا . وسبحانه يعلَمُنَا بحكم أنه علم من قَبْل كلّ مستأخر؛ أي : أنه عَلِم بنا من قبل أنْ نُوجد؛ ويعلم بنا من بَعْد أن نرحلَ؛ فعِلْمه كامل وأزليّ؛ وفائدة هذا العلم أنه سيترتب عليه الجزاء؛ فنحن حين أخذنا الحياة والرزق لم نُفلت بهما بعيداً؛ بل نجد الله قد عَلم أزلاً بما فعل كل مِنّا .

وهناك مَنْ يقول إن هناك معنًى آخر؛ بأن الحق سبحانه يكتب مَنْ يسرع إلى الصلاة ويتقدم إليها فَوْر أن يسمع النداء لها ، ويعلم مَنْ يتأخر عن القيام بأداء الصلاة ، ذلك أن تأثير كلمة « الله اكبر » فيها من اليقظة والانتباه ما يُذكّرنا بأن الله أكبر من كُلِّ ما يشغلك .

ونعلم أن من إعجازات الأذان أنه جعل النداء باسم « الله أكبر »؛ ولم يَقُلْ : الله كبير؛ وذلك احتراماً لما يشغلنا في الدنيا من موضوعات قد نراها كبيرة؛ ذلك أن الدنيا لا يجب أن تُهَان؛ لأنها المَعْبر إلى الجزاء القادم في الآخرة .

ولذلك أقول دائماً : إن الدنيا أهم من أن تُنسَى؛ وفي نفس الوقت هي أتفه من أنْ تكون غاية ، فأنت في الدنيا تضرب في الأرض وتسعى لِقُوتِك وقُوتِ مَنْ تعول؛ وليُعينك هذا القوتُ على العبادة .

لذلك فلا يحتقر أحد الدنيا؛ بل ليشكر الله ويدعوه أنْ يوُفّقه فيها ، وأن يبذلَ كل جَهْد في سبيل نجاحه في عمله؛ فالعمل الطيب ينال عليه العبدُ حُسْن الجزاء؛ وفَوْر أن يسمعَ المؤمن « الله أكبر »؛ فعليه أن يتجهَ إلى مَنْ هو أكبر فعلاً ، وهو الحق سبحانه ، وأن يؤدي الصلاة . هذا هو المعنى المُستقى من المستقدِم للصلاة والمُسْتأخِر عنها .

وهناك من العلماء مَنْ رأى ملاحظَ شقَّ في الآية الكريمة فمعناها قد يكون عاماً يشمل الزمن كله؛ وقد تكون بمعنى خاص كمعنى المستقدم للصلاة والمستأخِر عنها .

وقد يكون المعنى أشدَّ خصوصية من ذلك؛ فنحن حين نُصلّي نقف صفوفاً ، ويقف الرجال أولاً؛ ثم الأطفال؛ ثم النساء؛ ومن الرجال مَنْ يتقدّم الصفوف كَيْلا تقع عيونه على امرأة؛ ومنهم مَنْ قد يتحايل ويقف في الصفوف الأخيرة ليرى النساء؛ فأوضح الحق سبحانه أن مثل هذه الأمور لا تفوت عليه ، فهو العالم بالأسرار وأخفى منها .

أو : أن يكون المعنى هو المُستقدمين إلى الجهاد في سبيل الله أو المتأخرين عن الجهاد في سبيله .

ومَنْ يموت حَتْف أنفه أي : على فراشه لا دَخْلَ له بهذه المسألة .

أما إنْ دعا داعي الجهاد ، ويُقدِّم نفسه للحرب ويُقاتل وينال الشهادة ، فالحق سبحانه وتعالى يعلم مَنْ تقدّم إلى لقائه محبةً وجهاداً لِرفعة شأن الدين .

وقد يكون في ظاهر الأمر وفي عيون غيره مِمَّنْ يكرهون الحياة؛ ولكنه في حقيقة الأمر مُحِبّ للحياة بأكثر مِمَّنْ يدّعون حُبّها؛ لأنه امتلك اليقين الإيماني بأن خالقَ الدنيا يستحق أن ينالَ الجهاد في سبيل القِيم التي أرادها منهاجاً ينعدل به ميزان الكون؛ وإن استشهد فقد وعده سبحانه الخُلْد في الجنة ونعيمها .

« ونجد أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادْعُ لي يا رسول الله أن أستشهد؛ فيردّ عليه النبي الكريم : » متعنا بنفسك يا أبا بكر « .

وعلى ذلك لا يكون المستأخر هنا محلَّ لَوْم؛ لأن الإيمان يحتاج لِمَنْ يصونه ويُثبّته؛ كما يحتاج إلى مَنْ يؤكد أن الإيمان بالله أعزُّ من الحياة نفسها؛ وهو المُتقدّم للقتال ، وينال الشهادةَ في سبيل الله .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ . . . }

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25)

أي : أن المُتولّي تربيتك يا محمد لن يترك مَنْ خاصموك وعاندوك ، وأهانوك وآذوْكَ دون عقاب .

وكلمة : { يَحْشُرُهُمْ } [الحجر : 25]

تكفي كدليل على أن الله يقفُ لهم بالمرصاد ، فهم قد أنكروا البعث؛ ولم يجرؤ أحدهم أن يُنكِر

الموت ، وإذا كان الحق سبحانه قد سبق وعبَّر عن البعث بقوله الحق : { ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ } [المؤمنون : 15-16]

فهم كانوا قد غفلوا عن الإعداد لِمَا بعد الموت ، وكأنهم يشكُّون في أنه قادم ، وجاء لهم بخبر الموت كأمر حتميّ ، وسبقتْه (هو) لتؤكد أنه سوف يحدث ، فالحشر منسوب لله سبحانه ، وهو قادر عليه ، كما قدر على الإحياء من عدم ، فلا وَجْهَ للشك أو الإنكار .

ثم جاء لهم بخبر البعث الذي يشكُّون فيه؛ وهو أمر سبق وأنْ ساق عليه سبحانه الأدلة الواضحة .

ولذلك جاء بالخبر المصحوب بضمير الفصل : { يَحْشُرُهُمْ . . . } [الحجر : 25]

وسبحانه يُجرِي الأمور كلها بحكمة واقتدار ، فهو العليم بما تتطلبه الحكمة عِلْماً يحيط بكل الزوايا والجهات .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان . . . }

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26)

وسبحانه يتكلّم هنا عن خَلْق الإنسان من بعد أن تكلم عن خَلْق الكون وما أعدَّه له فيه ، وليستقبل الكون الخليفةَ لله؛ فيوضح أنه قد خلقه من الصَّلصال ، وهو الطين اليابس .

وجاء سبحانه بخبر الخَلْق في هذه السورة التي تضمنت خبر مَدِّ الأرض؛ ومَجِيء الرياح ، وكيفية إنزال الماء من السماء؛ وكيف قَدَّر في الأرض الرزق ، وجعل في الأرض رواسي ، وجعل كُلّ شيء موزوناً .

وهو سبحانه قد استهلَّ السورة بقوله : { . . . تِلْكَ آيَاتُ الكتاب وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ } [الحجر : 1]

أي : أنه افتتح السورة بالكلام عن حارس القِيم للحركة الإنسانية؛ ثم تكلّم عن المادة التي منها الحياة؛ وبذلك شمل الحديثُ الكلام عن المُقوِّم الأساسي للقيم وهو القرآن ، والكلام عن مُقوِّم المادة؛ وكان ذلك أمراً طبيعياً؛ ودَلّلْتُ عليه سابقاً بحديثي عن مُصمِّم أي جهاز من الأجهزة الحديثة؛ حيث يحدد أولاً الغرض منه؛ ثم يضع جدولاً وبرنامجاً لصيانة كل جهاز من تلك الأجهزة .

وهكذا كان خَلْق الله للإنسان الذي شاء له سبحانه أن يكون خليفته في الأرض ، ووضع له مُقوِّمات مادة ومُقوّمات قِيم؛ وجاء بالحديث عن مُقوِّمات القِيَم أولاً؛ لأنها ستمدّ حياة الإنسان لتكون حياة لا تنتهي ، وهي الحياة في الدنيا والآخرة .

وهذا القول يُوضِّح لنا أن آدم ليس هو أول من استعمر الأرض؛ بل كان هناك خَلْق من قَبْل آدم ، فإذا حدَّثنا علماء الجيولوجيا والحفريات عن أن هناك ما يدل على وجود بعض من

الكائنات المطمورة تثبت أنه كانت هناك حياة منذ خمسين ألف قرن من الزمان .
فنحن نقول له : إن قولك صحيح .
وحين يسمع البعض قَوْل هؤلاء العلماء يقولون : لا بُدَّ أن تلك الحيوانات كانت موجودة في زمن آدم عليه السلام ، وهؤلاء يتجاهلون أن الحق سبحانه لم يَقُلْ لنا أن آدم هو أول مَنْ عَمَر الأرض ، بل شاء سبحانه أن يخلقنا ويعطينا مهمة الاستخلاف في الأرض .
والحق سبحانه هو القائل : { إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى الله بِعَزِيزٍ } [فاطر : 16-17]
أي : أن خَلْق غيرنا أمر وارد ، وكذلك الخَلْق من قبلنا أمرٌ وارد .
ونعلم أن خَلْق آدم قد أخذ لقطات متعددة في القرآن الكريم؛ تُؤدّي في مجموعها إلى القصة بكل أحداثها وأركانها ، ولم يكُنْ ذلك تكراراً في القرآن الكريم ، ولكن جاء القرآن بكل لَقْطة في الموقع المناسب لها؛ ذلك أنه ليس كتاب تاريخ للبشر؛ بل كتاب قِيَم ومنهج ، ويريد أن يُؤسّس في البشر القيم التي تحميهم وتصونهم من أيّ انحراف ، ويريد أن يُرِيّ فيهم المهابة .
وقد تناول الحق سبحانه كيفية خَلْق الإنسان في الكثير من سُور القرآن : البقرة؛ الأعراف؛ الحجر؛ الإسراء؛ الكهف؛ وسورة ص .
قال سبحانه على سبيل المثال في سورة البقرة :

{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدمآء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [البقرة : 30]
وجاء هذا القول من الله للملائكة ساعةَ خَلْق الله لآدم ، من قبل أن تبدأ مسألة نزول آدم للأرض .
وقد أخذتْ مسألة خَلْق الإنسان جدلاً طويلاً من الذين يريدون أن يستدركوا على القرآن متسائلين : كيف يقول مرة : إن الإنسان مخلوق من ماء؛ ومرة من طين؛ ومرة من صلصال كالفخار؟
ونقول : إن ذلك كله حديث عن مراحل الخَلْق ، وهو سبحانه أعلم بمَنْ خلق ، كما خلق السماوات والأرض ، ولم يُشهِد الحق أحداً من الخلق كيف خلق المخلوقات : { مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً } [الكهف : 51]
ومن رحمته سبحانه أنه ترك في مُحسَّات الحياة وماديتها ما يُثبِت صِدْقه في غيبيّاته؛ فإذا قال مرّة : إنه خلق كل شيء من الماء؛ فهو صادق فيما قال؛ لأن الماء يُكوِّن أغلبَ الجسد البشري على سبيل المثال .
وإذا أوضح أنه خلق الإنسان من طين ، فالتراب إذا اختلط بالماء صار طيناً ، وإذا مرّ على

الطين وقتٌ صار صلصالاً ، وإذا قال : { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ } [الحجر : 29]

وكُلُّ هذا من الأمور الغيبية؛ التي يشرحها لنا نقضُها في الواقع المادي الملموس ، فحين يحدث الموت وهو نَقْض الحياة نجد الروح هي أول ما يخرج من الجسم؛ وكانت هي آخر ما دخل الجسم أثناء الخَلْق .

ومن بعد ذلك تبدأ الحيوية في الرحيل عن الجثمان؛ فيتحول الجثمان إلى ما يشبه الصَّلْصال؛ ثم يتبخّر الماء من الجثمان؛ ليصير من بعد ذلك تراباً .

وهكذا نشهد في الموت نقض الحياة كيفية بَدْء مراحل الخَلْق وهي معكوسة؛ فالماء أولاً ثم التراب؛ ثم الطين؛ ثم الصلصال الذي يشبه الحمأ المسنون؛ ثم نَفْخ الروح .

وقد صدق الحق سبحانه حين أوضح لنا في النقيض المادي ، ما أبلغنا عنه في العالم الغيب .

وعلى ذلك أيضاً نجد أن الذين يضعون التكهنات بأن الشمس خُلِقَتْ قبل الأرض؛ وكانت الأرض جزءاً من الشمس ثم انفصلت عنها؛ على هؤلاء أن يعلموا أن ما يقولونه هو أمر لم يشاهدوه ، وهي أمور لا يمكن أن يدرسها أحد في معمل تجريبي؛ وقد قال القرآن عن أهل هذا اللغو : { مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً } [الكهف : 51]

وهم قد أعانوا على تأكيد إعجازية القرآن الذي أسماهُم المُضلِّين؛ لأنهم يغوون الناس عن الحق إلى الباطل .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { والجآن خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ . . . }

وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27)

ونعلم أن كلمة (السَّمُوم) هي اللهب الذي لا دُخانَ له ، ويُسمّونه « السَّموم » لأنه يتلصَّص في الدخول إلى مسَامّ الإنسان .

وهكذا نرى أن للعنصر تأثيراً في مُقوّمات حياة الكائنات ، فالمخلوق من طين له صفات الطينية ، والمخلوق من نارٍ له صفات النارية؛ ولذلك كان قانون الجن أخفَّ وأشدَّ من قانون الإنس .

والحق سبحانه يقول : { إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ . . . } [الأعراف : 27]

وهكذا نعلم أن قانون خَلْق الجن من عنصر النار التي لا لهبَ لها يوضح لنا أن له قدرات تختلف عن قدرات الإنسان .

ذلك أن مهمته في الحياة تختلف عن مهمة الإنسان ، ولا تصنع له خيريةً أو أفضلية ، لأن المهام حين تتعدد في الأشياء؛ تمنع المقارنة بين الكائنات .

والمَثَلُ على ذلك هو غلبة مَنْ عنده عِلْم بالكتاب على عفريت الجن؛ حين سأل سليمان عليه

السلام عمَّن يأتيه بعرش بلقيس : { قَالَ ياأيها الملأ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } [النمل : 38]

وقال عفريت من الجن : إنه قادر على أن يأتي بالعرش قبل أن يقومَ سليمان من مُقَامه ، ولكن مَنْ عنده عِلْم بالكتاب قال : إنه قادر أنْ يأتيَ بعرش بلقيس قبل أن يرتدَّ طَرْف سليمان؛ وهكذا غلب مَنْ عنده علم بالكتاب قدرة عفريت الجن .

وقد قصَّ علينا الحق سبحانه هذا في كتابه الكريم ، فقال : { قَالَ عِفْرِيتٌ مِّن الجن أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هذا مِن فَضْلِ رَبِّي . . . } [النمل : 39-40]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ . . . }

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28)

وعرفنا في مواقع متفرقة من خواطرنا كيف نفهم هذه الآية . ونعلم أن البشر في زماننا حين يريدون صُنْع تمثال ما ، فَهُم يَخْلِطون التراب بالماء ليصير طيناً؛ ثم يتركونه إلى أنْ يختمرَ ، ويصيرَ كالصَّلْصَال ، ومن بعد ذلك يُشكل المَثَّالُ ملامح مَنْ يُريد أن يصنع له تمثالاً .

والتماثيل تكون على هيئة واحدة ، ولا قدرةَ لها ، عَكْس الإنسان المخلوق بيد الله ، والذي يملك بفعل النفْخ فيه من روح الله ماَ لاَ يملكه أيُّ كائن صنعتْه مهارة الإنسان؛ ذلك أن إعجازَ وطلاقةَ قدرةِ الخالق لا يمكن أن تستوي مع قدرة المخلوق المحدودة .

وهناك حديث يقول فيه صلى الله عليه وسلم : « خلق الله عز وجل آدم على صورته ، ستون ذراعاً » .

واختلف العلماء في مرجع الضمير في هذا الحديث؛ أيعود إلى صورة آدم؟ أم يعود إلى آدم؟

فمن العلماء من قال : إن الضمير يعود إلى آدم؛ بمعنى أن الله لم يخلقه طفلا ، ثم كبر؛ بل خلقه على الصورة الناضجة؛ وتلفَّت آدم فوجد نفسه على تلك الصورة الناضجة؛ وأنه لم يكُنْ موجوداً من قبل ذلك بساعة؛ لذلك تلفَّت إلى المُوجِد له .

والذين قالوا : إن الحق سبحانه خلق الإنسان على صورته ، وأن الضمير يعود إلى الله؛ فذلك لأن الحق قد جعل الإنسان خليفة له في الأرض؛ وأعطاه من قدرته قدرةً؛ ومن عِلْمه علماً؛ ومن حكمته حكمة ، ومن قاهريته قهراً .

ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « تخلقوا بأخلاق الله » .

فخلق آدم داخلٌ في كينونته . يقول الحق : { إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [آل عمران : 59]

وأمام الكينونة ينتفي التعليل ، ولم يبق إلا الإيمان بالخالق .
ويقول سبحانه من بعد ذلك : { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ . . . }

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29)

والتسوية تعني جَعْل الشيء صالحاً للمهمة التي تُرَاد له . وشاء سبحانه أن يُسوِّيَ الإنسان في صورة تسمح لنفخ الروح فيه . والنفخ من روح الله لا يعني أن النفخ قد تَمَّ بدفع الحياة عن طريق الهواء في فَمِ آدم ، ولكن الأمر تمثيلٌ لانتشار الروح في جميع أجزاء الجسد .
وقد اختلف العلماء في تعريف الروح ، وأرى أنه من الأسلم عدم الخوض في ذلك الأمر؛ لأن الحق سبحانه هو القائل : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ العلم إِلاَّ قَلِيلاً } [الإسراء : 85]
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { فَسَجَدَ الملائكة . . . }

فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30)

وقد سجدوا جميعاً في حركة واحدة؛ ذلك أنه لا اختيارَ لهم في تنفيذ ما يُؤمرون به ، فمن بَعْد أن خلق اللهُ آدمَ جاء تكريم الحق سبحانه له بقوله للملائكة : { اسجدوا لأَدَمَ . . . } [طه : 116]
وسجدت الملائكة التي كلَّفها الله برعاية وتدبير هذا المخلوق الجديد ، وهم المُدبِّرات أمراً والحفظة ، ومَنْ لهم علاقة بهذا المخلوق الجديد .
وقوله الحق : { . . . فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ } [الحجر : 29]
يعني أن عملية السجود قد حدثت بصورة مباشرة وحاسمة وسريعة ، وكان سجودهم هو طاعة للآمر الأعلى؛ لا طاعة لآدم .
وقول الحق سبحانه : { فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ } [الحجر : 30]
يعني الملائكة الأعلى من البشر ، ذلك أن هناك ملائكةً أعلى منهم؛ وهم الملائكة المُهِيمون المتفرّغون للتسبيح فقط .
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى أَن . . . }

إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31)

وهكذا جاء الحديث هنا عن إبليس؛ بالاستثناء وبالعقاب الذي نزل عليه؛ فكأن الأمرَ قد شَمله ، وقد أخذتْ هذه المسألة جدلاً طويلاً بين العلماء .

وكان من الواجب أن يحكمَ هذا الجدلَ أمران :

الأمر الأول : أن النصَّ سيد الأحكام .

والأمر الثاني : أن شيئاً لا نصَّ فيه؛ فنحن نأخذه بالقياس والالتزام . وإذا تعارض نصٌّ مع التزام؛ فنحن نُؤول الالتزام إلى ما يُؤول النص .

وإذا كان إبليس قد عُوقِب؛ فذلك لأنه استثنى من السجود امتناعاً وإباءً واستكباراً؛ فهل هذا يعني أن إبليس من الملائكة؟

لا . ذلك أن هناك نصاً صريحاً يقول في الحق سبحانه : { فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ . . . } [الكهف : 50]

وهكذا حسم الحق سبحانه الأمر بأن إبليس ليس من الملائكة؛ بل هو من الجنّ؛ والجن جنس مختار كالإنس؛ يمكن أن يُطيع ، ويمكن أن يَعصِي .

وكونه سَمِع الأمر بالسجود؛ فمعنى ذلك أنه كان في نفس الحَضْرة للملائكة؛ ومعنى هذا أنه كان من قبل ذلك قد التزم التزاماً يرفعه إلى مستوى الحضور مع الملائكة؛ ذلك أنه مُخْتار يستطيع أن يطيع ، ويملك أن يعصي ، ولكن التزامه الذي اختاره جعله في صفوف الملائكة .

وقالت كتب الأثر : إنهم كانوا يُسمُّونه طاووس الملائكة مختالاً بطاعته ، وهو الذي وهبه الله الاختيار ، لأنه قدر على نفسه وحمل نفسه على طاعة ربه ، لذلك كان مجلسه مع الملائكة تكريماً له؛ لأنه يجلس مع الأطهار ، لكنه ليس مَلاكاً .

وبعض العلماء صَنَّفوه بمُسْتوًى أعلى من الملائكة؛ والبعض الآخر صَنَّفه بأنه أقلُّ من الملائكة؛ لأنه من الجنّ؛ ولكن الأمر المُتفق عليه أنه لم يكُنْ ملاكاً بنصّ القرآن ، وسواء أكان أعلى أم أَدْنى ، فقد كان عليه الالتزام بما يصدر من الحق سبحانه .

ونجد الحق سبحانه وهو يعرض هذه المسألة ، يقول مرة (أبَىَ) ، ومرة (استكبر) ، ومرة يجمع بين الإباء والاستكبار .

والإباء يعني أنه يرفض أن ينفذ الأمر بدون تعال . والاستكبار هو التأبّي بالكيفية ، وهنا كانت العقوبة تعليلاً لعملية الإباء والاستكبار ، وكيف ردّ أمر الحق أورده سبحانه مرة بقول إبليس : { . . . لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ } [الحجر : 33]

وقوله : { قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } [ص : 76]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { قَالَ ياإبليس مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ الساجدين }

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32)

وتقول « ما لك؟ » في الشيء العجيب الذي تريد أن تعرف كيف وقع ، وكأن هذا تساؤلٌ عن أمر مخالف لِمَا اختاره إبليس؛ الذي وهبه الله خاصية الاختيار ، وقد اختار أن يكون على الطاعة

.

ولنلحظ أن المتكلم هنا هو الله؛ وهو الذي يعلم أنه خلق إبليس بخاصية الاختيار؛ فله أن يطيعَ ، وله أنْ يعصيَ . وهو سبحانه هنا يُوضّح ما علمه أزلاً عن إبليس؛ وشاء سبحانه إبراز هذا ليكون حجة على إبليس يوم القيامة .

ويتابع سبحانه : { قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ . . . }

قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33)

وهكذا أفصح إبليس عما يُكِنّه من فَهْم خاطئ لطبيعة العناصر؛ فقد توهَّم أن الطينَ والصلصال أقلُّ مرتبة من النار التي خلقه منها الله . وامتناع إبليس عن السجود إذن امتناع مُعلَّل؛ وكأن إبليس قد فَهِم أن عنصر المخلوقية هو الذي يعطي التمايز؛ وتجاهل أن الأمر هو إرادة المُعنصِر الذي يُرتّب المراتب بحكمته ، وليس على هَوى أحدٍ من المخلوقات .

ثم من قال : إن النارَ أفضلُ من الطين؟ ونحن نعلم أنه لا يُقال في شيء إنه أفضل من الآخر إلا إذا استوتْ المصلحة فيهما؛ والنار لها جهة استخدام ، والطين له استخدام مختلف؛ وأيٌّ منهما له مهمة تختلف عن مهمة الآخر .

ومن توجيه الله في فضائل الخَلْق أن مَنْ يطلي الأشياء بالذهب لا يختلف عنده سبحانه عن الذي يعجن الطين ليصنعَ منه الفخار ، فلا يفضلُ أحدهما الآخرَ إلا بإتقان مهمته .

وهكذا أفصح إبليس أن الذي زَيَّن له عدم الامتثال لأمر السجود هو قناعته بأن هناك عنصراً افضل من عنصر .

ويأتي الأمر بالعقاب من الحق سبحانه؛ فيقول تعالى : { قَالَ فاخرج مِنْهَا . . . }

قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34)

وهكذا صدر الأمر بطرْدِ إبليس من حضرة الله بالملأ الأعلى؛ وصدر العقاب بأنه مطرود من كل خَيْر ، وأَصْل المسألة أنها الرَّجْم بالحجارة .

وقد حدث ذلك لردِّه أمر الله سبحانه ، واستكباره ، ولقناعته أن النار التي خُلِق منها أفضلُ من الطين الذي خُلِق منه آدم ، ولم يلتفت إلى أن لكل مخلوق مُهمة ، وكل كائن يؤدي مُهِمته هو مُساوٍ للآخر .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ليزاول كل كائن الأسباب التي وُجِد من أجلها؛ فآدم قد خلقه الله ليجعله خليفة في الأرض؛ ذلك أنه سبحانه يباشر الأمر في السَّببيات بواسطة ما خلق .

فالنار على سبيل المثال تتسبَّب في إنضاج الطعام؛ لأنه سبحانه هو الذي شاء ذلك ، وجعلها

سبباً في إنضاج الطعام . ومزاولة الحق سبحانه لأشياء كثيرة في المُسبِّبات معناه أن المخلوقات تُؤدِّي المهامَّ التي أرادها سبحانه لها في الوجود .

والمؤمن الحق هو مَنْ يرى في الأسباب التي في الكون؛ أنها عطاء من الله ، وأن يده مَمْدودة له بتلك الأسباب .

وبعد أن طرد الحق سبحانه إبليس من حضرته سيُقرر سبحانه الحكم الذي أصدره عليه في قوله : { وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة . . . }

وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35)

وفي هذا القول ما يؤكد أن الجن أيضاً يموتون؛ ولهم آجَال مثلنا ، وفي هذا الحكم بالطرد تأكيدٌ على أنه سبحانه لن يُوفِّقه إلى توبة ، ولا يعفو عنه في النهاية .

ولكن إبليس يحاول الالتفاف؛ فيأتي ما جاء على لسانه : { قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي . . . }

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36)

وكأن إبليس بهذا القول أراد أن يُفْلِتَ من الموت ، ولكن مثل هذا المَكْر لا يجوز على الله أو معه ، فإذا كان إبليس قد أراد أنْ يظلَّ في الدنيا إلى يوم بَعْث البشر؛ فذلك دليلٌ على أمنيته بالهروب من الموت .

ويقول الحق سبحانه رداً على دعاء إبليس : { قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ . . . }

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37)

ولحظةَ أنْ يسمعَ إبليسُ ذلك يظن أنه قد أفلتَ من الموت؛ إذ لا مَوْتَ بعد البعث ، ويتوهم أن دعوته قد أُجيبت ، وكأنه قد أفلتَ بغروره الذي ظَنَّ به أن يتسع له الوقت ليأخذ الثأر من بني آدم؛ فعدم سجوده لآدم هو الذي وضعه في هذا الموقف العصيب .

ولو كان إبليس يملك ذرة من وَعْي لَعِلم أن الاستكبار والتوهم بأن عنصر النار افضل من الطين هما السبب وراء ما حاق به من الطرد .

ولكن تأتي من بعد ذلك مباشرة الآية التي تتضمن عدم إفلاته من الموت؛ فيقول سبحانه : { إلى يَوْمِ الوقت . . . }

إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38)

أي : أن إبليس سيذوق الموت أيضاً؛ لأن كل المخلوقات ستذوق الموت من قبل أن تقوم القيامة ، مصداقاً لقوله الحق : { وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله . . . } [الزمر : 68]

وكذلك قوله : { كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ } [الرحمن : 26]

وهكذا لم يُفلتْ إبليس من الموت .

ولقائل أنْ يسألَ : كيف كلّمه الله؟

ونقول : لم يُكلِّمه الله تشريفاً أو تكريماً؛ بل غلَّظ له العقاب ، كما أن للحق سبحانه ملائكة يمكنهم أن يُبلِّغوا ما شاء لمَنْ شاء .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ . . . }

قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39)

وقول الشيطان : { رَبِّ . . . } [الحجر : 39]

هو إقرار بالربوبية؛ ولكن هذا الإقرار متبوع بعد الاعتراف بأنه قد سبّب لنفسه الطَّرد واللعنة؛ فقد قال : { بِمَآ أَغْوَيْتَنِي . . . } [الحجر : 39]

والحق سبحانه لم يُغوِه؛ بل أعطاه الاختيار الذي كان له به أن يؤمن ويطيع ، أو يعصي ويُعاقب ، فسبحانه قد مَكّن إبليس من الاختيار بين الفعل وعدم الفعل؛ فخالف إبليسُ أمرَ الله وعصاه .

ويتابع إبليس : { لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأرض . . . } [الحجر : 39]

وفي هذا إيضاح أن كُلّ وسوسة للشيطان تقتصر فقط على الحياة المترفة . وفي الأشياء التي تُدمّر العافية ، كمَنْ يشرب الخمر ، أو يتناول المخدرات ، أو يتجه إلى كل ما يُغضب الله بالانحراف .

ولذلك نجد أن مَنْ يحيا بدخْلٍ يكفيه الضرورات؛ فهو يأْمن على نفسه من الانحراف . ونقول أيضاً لمَنْ يحاولون أن يضبطوا موازينهم المالية : إن الاستقامة لا تُكلّف؛ ولن تتجه بك إلى الانحراف .

وتزيين الشيطان لن يكون في الأمور الحلال؛ لأن كل الضرورات لم يُحرّمها الحق سبحانه؛ بل يكون التزيين دائماً في غير الضرورات ، ولذلك فالاستقامة عملية اقتصادية ، تُوفّر على الإنسان مشقة التكلفة العالية من ألوان الإنحراف .

ولذلك نجد المسرفين على أنفسهم يحسدون مَنْ هم على الاستقامة ، ويحاولون أَخْذهم إلى طريق الانحراف؛ لأن كل منحرف إنما يلوم نفسه متسائلاً : لماذا أخيب وحدي؛ ولا يخيب معي مثل هذا المستقيم؟ وتمتلئ نفسه بالاحتقار لنفسه .

وكذلك كان إبليس في حُمْق رده على الله ، ولكنه ينتبه إلى مكانته ومكانة ربه؛ أيدخل في معركة مع الله ، أم مع أبناء آدم الذي خلقه سبحانه كخليفة ليعمر الأرض؟

لقد حدّد إبليس موقعه من الصراع ، فقال : { . . . فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [الحجر : 36]

وهذا يعني أن مجالَ معركته مع الخَلْق لا مع الخالق؛ لذلك قال : { . . . وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [الحجر : 39]

وكلمة (أجمعين) تفيد الإحاطةَ لكل الأفراد ، وهذا فوق قدرته بعد أنْ عرف مُقَامه من نفسه ومن ربه ، فقال ما جاء به الحق سبحانه في الآية التالية : { إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ . . . }

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40)

فهؤلاء العباد الذين خلَّصتهم لنفسك يا ربّ؛ فلن أقدر عليهم؛ لأنك أخذتهم من طريق الغواية؛ لأنهم أحسنوا الإيمان ، وقد وصلوا إلى مرتبة من الإخلاص التعبُّدي درجةً يصعب بها على الشيطان غوايتهم .

ويقول أهل المعرفة والإشراق : « أنت تصل بطاعة الله إلى كرامة الله » .

ولو شاء الله أن يكون جميع خَلْقه مهديين ما استطاع أحد أنْ يُضلّهم ، ولكن عِزَّة الله عن خَلْقه هي التي أفسحت المجالَ للإغواء ، ولذلك نجد إبليس يُقِرّ بعجزه عن غواية مَنْ أخلصوا لله العبادة .

ونجد رد الحق سبحانه على إبليس واضحاً لا لَبْس فيه ، ولا قبول لِمَا قد يظنُّه إبليس مجاملةً منه لله ، فيقول سبحانه في الآية التالية : { قَالَ هَذَا صِرَاطٌ . . . }

قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41)

وهكذا أوضح الحق سبحانه أن صراطه المستقيم هو الذي يقود العباد إلى الطاعة؛ فليس في الأمر تفضُّل من إبليس الذي سبق له أنْ حدَّد المواقع والاتجاهات التي سيأتي منها لغواية البشر ، حيث قال الحق سبحانه ما جاء على لسان إبليس : { ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } [الأعراف : 17]

في ذلك القول حدَّد إبليس جهات الغواية التي يأتي منها وترك « الفَوْق » و « التَّحْت » ، لذلك نقول : إن العبد إذا استحضر دائماً عُلُوَّ عِزّة الربوبية ، وذُلّ العبودية؛ فالشيطان لا يدخل له أبداً .

ويواصل الحق سبحانه قوله المبلغ عنه لنا : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ . . . }

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42)

وهكذا أصدر الحق سبحانه حُكْمه بألاَّ يكون لإبليس سلطان على مَنْ أخلص لله عبادة ، وأمر إبليس ألاَّ يتعرض لهم؛ فسبحانه هو الذي يَصُونهم منه؛ إلا مَنْ ضَلَّ عن هدى الله سبحانه ، وهم مَنْ يستطيع إبليس غوايتهم .

وهكذا نجد أن « الغاوين » هي ضد « عبادي » ، وهم الذين اصطفاهم الله من الوقوع تحت سلطان الشيطان؛ لأنهم أخلصوا وخَلَّصوا نفسهم لله ، وسنجد إبليس وهو ينطق يوم القيامة أمام الغاوين : { إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ . . . } [إبراهيم : 22]

ومن نِعَم الله علينا أن أخبرنا الحق سبحانه بكلّ ذلك في الدنيا ، ولسوف يُقِر الشيطان بهذا كله في اليوم الآخر؛ ذلك أنه لم يملك سلطاناً يقهرنا به في الدنيا ، بل مجرد إشارة ونَزْغ؛ ولا يملك سلطانَ إقناع ليجعلنا نفعل ما ينزغ به إلينا .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما يُؤكّد أن جزاء الغاوين قَاسٍ أليم : { وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ . . }

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43)

ولأن المصير لهؤلاء هو جهنم؛ فعلى العبد الذكيّ أن يستحضرَ هذا الجزاء وقتَ الاختيار للفعل؛ كي لا يرتكب حماقةَ الفعل الذي يُزيّنه له الشيطان ، أو تُلِح عليه به نفسه . ولو أن المُسرِف على نفسه استحضر العقوبة لحظةَ ارتكاب المعصية لَمَا أقدم عليها ، ولكن المُسْرف على نفسه لا يقرِن المعصية بالعقوبة؛ لأنه يغفل النتائج عن المقدمات .

ولذلك أقول دائماً : هَبْ أن إنساناً قد استولتْ عليه شراسة الغريزة الجنسية ، وعرف عنه الناس ذلك ، وأعدّوا له مَا يشاء من رغبات ، وأحضروا له أجملَ النساء؛ وسهّلوا له المكان المناسب للمعصية بما فيه من طعام وشراب .

وقالوا : هذا كله ذلك ، شَرْط أن تعرف أيضاً ماذا ينتظرك . وأضاءوا له من بعد ذلك قَبْواً في المنزل؛ به فرن مشتعل . ويقولون له : بعد أنْ تَفْرُغ من لَذّتِك ستدخل في هذا الفرن المشتعل .

ماذا سيصنع هذا الإنسان؟

لابُدّ أنه سيرفض الإقدام على المعصية التي تقودهم إلى الجحيم .

وهكذا نعلم أن مَنْ يرتكب المعاصي إنما يستبطِئ العقوبة ، والذكيّ حقاً هو مَنْ يُصدِّق حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه « الموت القيامة ، فمن مات فقد قامت قيامته » .

ولا أحدَ يعلم متى يموت .

ويُبيّن الحق سبحانه من بعد ذلك مراتبَ الجحيم ، فيقول : { لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ . . . }

لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44)

وفي جهنمَ يكون مَوْعِد هؤلاء الغَاوين ، ومعهم إبليس الذي أَبَى واستكبر ، وصَمَّم على غواية البشر ، وألوان العذاب ستختلف ، ولكن جماعة لهم جريمة يُقْرنون بها معاً . فمَنْ يشربون الخمر سيكونون معاً؛ ومَنْ يلعبون الميسر يكونون معاً .

ولكُلّ باب من أبواب جهنم جماعة تدخل منه ربطَتْ بينهم في الدنيا معصيةٌ ما؛ وجمعهم في الدنيا وَلاءٌ ما ، وتكوّنتْ من بينهم صداقاتٌ في الدنيا ، واشتركوا بالمخالطة؛ ولذلك فعليهم الاشتراك في العقوبة والنكال . وهكذا يتحقق قول الحق سبحانه : { الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين } [الزخرف : 67]

وفي الجحيم أماكن تَأويهم؛ فقِسْم يذهب إلى اللظى؛ وآخر إلى الحُطَمة؛ وثالث إلى سَقَر ، ورابع إلى السَّعير ، وخامس إلى الهاوية .

وكل جُزْء له قِسْم مُعيَّن به؛ وفي كل قسم دَرَكَات ، لأن الجنة درجات ، والنار دركات تنزل إلى أسفل .

ويأتي الحق سبحانه بالمقابل؛ لأن ذِكْر المقابل كما نعلم يُعطي الكافر حَسْرة؛ ويعطي المؤمن بشارةً بأنه لم يكُنْ من العاصين ، ويقول : { إِنَّ المتقين فِي . . . }

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45)

والمُتقِي هو الذي يحولُ بين ما يُحبّ وما يكره؛ ويحاول ألاَّ يصيب مَنْ يحب ما يكره . وتتعدى التقوى إلى متقابلاتٍ ، فنجد الحق سبحانه يقول : { اتقوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله . . . } [البقرة : 282]

ويقول أيضاً : { فاتقوا النار التي وَقُودُهَا الناس والحجارة . . . } [البقرة : 24]

وقلنا من قَبْل : إن الحقَّ سبحانه له صفاتُ جلال ، وصفات كمال وجمال . يَهَبُ بصفات الكمال والجمال العطايا ، ويهَبُ بصفات الجلال البَلايا؛ فهو غفّار ، وهو قهار ، وهو عَفْو ، وهو مُنْتقِم .

وعلينا أن نجعلَ بيننا وبين صفات الجلال وقاية؛ وأن نجعل بيننا وبين صفات الجمال قُرْبى؛ والطريق أن نتبعَ منهجه؛ فلا ندخل النار التي هي جُنْد من جنود الله .

وهنا يقول الحق سبحانه : { إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } [الحجر : 45]

وهم الذين لم يرتكبوا المعاصي بعد أن آمنوا بالله ورسوله واتبعوا منهجه . وإنْ كانت المعصية قد غلبتْ بعضهم ، وتابوا عنها واستغفروا الله؛ فقد يغفر الله لهم ، وقد يُبدّل سيئاتِهم حسناتٍ .

ومَنْ يدخل الجنة سيجد فيها العيون والمقصود بها الأنهار؛ والحق سبحانه هو القائل : { فِيهَآ

أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ . . . } [محمد : 15]
ولعل هناك عيوناً ومنابعَ لا يعلمها إلا الحق سبحانه .
ويقول الحق سبحانه : { ادخلوها . . . }

ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (46)

وهنا يدعوهم الحق سبحانه بالدخول إلى الجنة في سلام الأمن والاطمئنان . ونحن نعلم أن سلامَ الدنيا والاطمئنان فيها مُختلِف عن سلام الجنة؛ فسلامُ الدنيا يعكره خوف افتقاد النعمة ، أو أن يفوت الإنسانُ تلك النعمة بالموت . ونعلم أن كل نعيم في الدنيا إلى زوال .
أما نعيم الآخرة فهو نعيم مقيم .
ويتابع سبحانه ما ينتظر أهل الجنة : { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ . . . }

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (47)

وهكذا يُخرِج الحق سبحانه من صدورهم أيَّ حقد وعداوة . ويرون أخلاء الدنيا في المعاصي وهم مُمْتلئون بالغِلّ ، بينما هم قد طهَّرهم الحق سبحانه من كل ما كان يكرهه في الآخرة ، ويحيا كل منهم مع أزواج مُطهَّرة . ويجمعهم الحق بلا تنافس ، ولا يشعر أيٌّ منهم بحسد لغيره .
والغِلُّ كما نعلم هو الحقد الذي يسكُن النفوس ، ونعلم أن البعض من المسلمين قد تختلف وُجهات نظرهم في الحياة ، ولكنهم على إيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم .
والمثل أن علياً كرم الله وجهه وأرضاه دخل موقعه الجمل ، وكان في المعسكر المقابل طلحةُ والزبير رضي الله عنهما؛ وكلاهما مُبشَّر بالجنة ، وكان لكل جانب دليل يُغلّبه .
« ولحظةَ أنْ قامت المعركة جاء وَجْه علي كرَّم الله وجهه في وَجْه الزبير؛ فيقول علي رضي الله عنه : تذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتما تمرَّان عليَّ ، سلَّم النبي وقلْتَ أنت : لا يفارق ابنَ أبي طالب زَهْوُه ، فنظر إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لك : » إنك تقاتل علياً وأنتَ ظالم له « . فرمى الزبير بالسلاح ، وانتهى من الحرب .
ودخل طلحة بن عبيد الله على عليٍّ كرم الله وجهه ؛ فقال عليٌّ رضوان الله عليه : يجعل لي الله ولأبيك في هذه الآية نصيباً » فقال أحد الجالسين : إن الله أعدل من أنْ يجمعَ بينك وبين طلحة في الجنة . فقال عليٌّ : وفيما نزل إذنْ قوله الحق :
{ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ } [الحجر : 47] .
وكلمة « نزعنا » تدل على أن تغلغل العمليات الحِقْدية في النفوس يكون عميقاً ، وأن خَلْعها في اليوم الآخر يكون خَلْعاً من الجذور ، وينظر المؤمن إلى المؤمن مثله؛ والذي عاداه في الدنيا نظرتُه

إلى مُحسِن له؛ لأنه بالعداوة والمنافسة جعله يخاف أن يقع عَيْب منه .

ذلك أن المؤمن في الآخرة يذكر مُعْطيات الأشياء ، ويجعلهم الحق سبحانه إخواناً؛ فَرُبَّ أخٍ لك لم تَلِدْه أمُّك ، والحق سبحانه هو القائل في موقع آخر : { واذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النار فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا } [آل عمران : 103] .

وقد يكون لك أخ لا تكرهه ولا تحقد عليه؛ ولكنك لا تُجالسه ولا تُسامره؛ لأن الأخوة أنواع .

وقد تكون أخوة طيبة ممتلئة بالاحترام لكن أياً منكما لا يسعى إلى الآخر ، ويجمعكم الحق سبحانه في الآخرة على سُرُر متقابلين .

وسأل سائل : وماذا لو كانت منزلة أحدهما في الجنة أعلى من منزلة الآخر؟ ونقول : إن فَضل الحق المطلق يرفع منزلة الأَدْنى إلى منزلة الأعلى ، وهما يتزاوران .

وهكذا يختلف حال الآخرة عن حال الدنيا ، فالإنسان في الدنيا يعيش ما قال عنه الحق سبحانه : { ياأيها الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ } [الانشقاق : 6] .

ولكن الحال في الآخرة يختلف ، وينطبق عليه قول الحق سبحانه في الآية التالية : { لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا . . . } .

لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48)

وحياتُكَ في الآخرة إنْ أصلحتَ عملك وكنت من المؤمنين – تختلف عن حياتك في الدنيا؛ فأنت تعلم أنك في الدنيا تَحْيا مع أسباب الله المَمْدودة لك؛ وتضرب في الأرض من أجل الرزق ، وتجتهد وتتعب من أجل أَنْ يهبكَ اللهُ ما في الأسباب من عطاء .

وحينئذ تصبح من المُفْلِحين الذين يهديهم الله جنته . يقول الحق جل عُلاَه : { والذين يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وبالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ * أولئك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وأولئك هُمُ المفلحون } [البقرة : 4-5] .

وشاء الحق سبحانه أن يأتي بلفظ المُفْلِح كصفة للمؤمن في الجنة ، لأن المؤمن قد حرثَ الدنيا بالعمل الصالح وبذل جهده ليقيمَ منهج الله في الأرض ، ونصَبَ قامته ، ونعلم أن نَصْب القَامَة يدلُّ على أن مَنْ يعمل قد أصابه التعب ، وذلك في الحياة الدنيا .

أما في الجنة ، فيقول الحق :

{ لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ } [الحجر : 48] .

أي : لا يصيبهم فيها تعب ، ولا يُخْرَجون من الجنة ، ذلك أنهم قد نَالُوا فيها الخلود .

وهكذا تكلَّم سبحانه عن الغَاوين ، وقد كانوا أخلاَّء في الدنيا يمرحُون فيها بالمعاصي؛ وهم مَنْ ينتظرهم عقابُ الجحيم . وتكلَّم عن العباد المُخلصين الذين سيدخلون الجنة؛ ومنهم مَنِ اختلفتْ

رُؤَاه في الدنيا ، ولم يربط بينهم تآلفٌ أو محبّة؛ لكنهم يدخلون الجنة ، وتتصافَى قلوبهم من أيِّ خلاف قد سبق في الدنيا .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { نَبِّئْ عِبَادِي . . . } .

نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49)

والخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . والإنباء هو الإخبار بأمر له خطورته وعظمته؛ ولا يقال (نبيء) في خبر بسيط . وسبق أن قال الحق سبحانه عن هذا النبأ : { عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النبإِ العظيم } [النبأ : 1-2] .

وقال سبحانه أيضاً عن النبأ : { قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ } [ص : 67-68] .

ونفهم من القول الكريم أنه الإخبار بنبأ الآخرة ما سوف يحدثُ فيها ، وهنا يأتي سبحانه بخبر غُفْرانه ورحمته الذي يختصُّ به عباده المخلصين المُتقِين الذين يدخلون الجنة ، ويتمتَّعون بخيْراتها خالدين فيها .

ولقائل أنْ يسأل : أليستْ المغفرة تقتضي ذَنْباً؟

ونقول : إن الحق سبحانه خلقنا ويعلم أن للنفس هواجسَ؛ ولا يمكن أنْ تسلمَ النفس من بعض الأخطاء والذنوب والوسوسة؛ بدليل أنه سبحانه قد حَرَّم الكثير من الأفعال على المسلم؛ حمايةً للفرد وحمايةً للمجتمع أيضاً ، ليعيش المجتمع في الاستقرار الآمن .

فقد حرَّم الحق سبحانه على المسلم السرقة والزِّنَا وشُرْب الخمر ، وغيرها من المُوبِقات والخطايا ، والهواجس التي تقوده إلى الإفساد في الأرض ، وما دام قد حرَّم كل ذلك فهذا يعني أنها سوف تقع ، ونزل منهجه سبحانه مُحرِّماً ومُجَرِّماً لمن يفعل ذلك ، كما يُلزم كل المؤمنين به بضرورة تجنُّب هذه الخطايا .

وهنا يُوضِّح سبحانه أن مَنْ يغفل من المؤمنين ويرتكب معصية ثم يتوب عنها ، عليه ألاَّ يُؤرِّق نفسه بتلك الغفلات؛ فسبحانه رءوفٌ رحيم .

ونحن حين نقرأ العربية التي قد شرَّف اللهُ أهلَها بنزول القرآن بها ، نجد أقسامَ الكلام إما شِعْراً أو نَثْراً ، والشعر له وَزْن وقافية ، وله نَغَم وموسيقى ، أما النثر فليس له تلك الصِّفات ، بل قد يكون مَسْجوعاً أو غَيْرَ مسجوع .

وإنْ تكلمتَ بكلام نثريٍّ وجِئْتَ في وسطه ببيت من الشعر ، فالذي يسمعك يُمكِنه أن يلحظ هذا الفارقَ بين الشعر والنثر . ولكن القرآن كلامُ ربٍّ قادر؛ لذلك أنت تجد هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها وتقرؤها وكأنها بَيْتٌ من الشعر فهي موزونة مُقفَّاة :

« نَبِّيء عِبَادِي أَنِّي أنَا الغفورُ الرَّحيمُ »

ووزنها من بَحْر المُجْتث ولكنها تأتي وَسْط آيات من قبلها ومن بعدها فلا تشعر بالفارق ، ولا

تشعر أنك انتقلتَ من نثرٍ إلى شعرٍ ، ومن شعر إلى نثر؛ لأن تضامن المعاني مع جمال الأسلوب يعطينا جلال التأثير المعجز ، وتلك من أسرار عظمة القرآن .

ثم يقول الحق سبحانه فيما يخص الكافرين أهل الغواية : { وَأَنَّ عَذَابِي . . . } .

وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50)

وهكذا يكتمل النبأ بالمغفرة لِمَن آمنوا؛ والعذاب لِمَنْ كفروا ، وكانوا من أهل الغواية . ونلحظ أنه سبحانه لم يُشدِّد في تأكيد العذاب ، ذلك أن رحمته سبقتْ غضبه ، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائةَ رحمة ، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة ، وأرسل في خلَقْه كلِّهم رحمةً واحدةً ، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييئس من الجنة؛ ولو يعلم المسلم بكل الذي عند الله من العذاب؛ لم يأمن من النار » .

ونلحظ أن الآيتين السابقتين يشرحهما قَوْل الحق سبحانه : { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب } [الرعد : 6] .

ولذلك نرى أن الآيتين قد نبَّهتا إلى مَقَامي الرجاء والخوف ، وعلى المؤمن أنْ يجمعَ بينهما ، وألاَّ يُؤجِّل العمل الصالح وتكاليف الإيمان ، وأن يستغفر من المعاصي؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعامل الناس بالفضل لمن أخلص النية وأحسن الطوية . لذلك يقول الحديث : « لمَّا قضى الله الخَلْق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي » .

ثم ينقلنا الحق سبحانه من بعد الحديث عن الصفات الجلالية والجمالية في الغفران والرحمة والانتقام إلي مسألة حسّية واقعية تُوضّح كل تلك الصفات ، فيتكلم عن إبراهيم عليه السلام ويعطيه البُشْرى ، ثم ينتقل لابن أخيه لوط فيعطيه النجاة ، ويُنزِل بأهله العقاب .

يقول الحق سبحانه : { وَنَبِّئْهُمْ عَن . . } .

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51)

وكلمة (ضيف) تدلُّ على المائل لغيره لقِرَىً أو استئناس ، ويُسمونه « المُنْضوي » لأنه ينضوي إلى غيره لطلب القِرَى ، ولطلب الأمن . ومن معاني المُنْضوي أنه مالَ ناحية الضَّوْء .

وكان الكرماء من العرب من أهل السماحة؛ لا تقتصر سماحتهم على مَنْ يطرقون بابهم ، ولكنهم يُعلِنون عن أنفسهم بالنار ليراها مَنْ يسير في الطريق ليهتدي إليهم .

وكلنا قرأنا ما قال حاتم الطائي للعبد الذي يخدمه :

أَوْقِد النارَ فإنَّ الليْلَ لَيْل قُرّ ... والريحُ يَا غُلامُ ريحُ صِرّ ... إنْ جلبت لنَا ضَيْفاً فأنت حُر ...

وهكذا نعرف أصلَ كلمة انضوى . أي : تَبِع الضوء .

وكلمة (ضيف) لفظ مُفْرد يُطلَق على المفرد والمُثنَّى والجمع ، إناثاً أو ذكوراً ، فيُقال : جاءني ضيف فأكرمته ، ويقال : جاءني ضيف فأكرمتها ، ويقال : جاءني ضيف فأكرمتهما ، وجاءني ضيف فأكرمتهم ، وجاءني ضيف فأكرمتهُنَّ .

وكلُّ ذلك لأن كلمة « ضيف » قامت مقام المصدر . ولكن هناك من أهل العربية مَنْ يجمعون « ضيف » على « أضياف »؛ ويجمعون « ضيف » على « ضيوف » ، أو يجمعون « ضيف » على « ضِيفان » .

ولننتبه إلى أن الضيفَ إذا أُطلِق على جَمْع؛ فمعناه أن فرداً قد جاء ومعه غيره ، وإذا جاءت جماعة ، ثم تبعتْهَا جماعة أخرى نقول : وجاءت ضيف أخرى .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نعلم أنهم ليسوا ضيفاً من الآية التي تليها؛ التي قال فيها الحق سبحانه : { إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ . . . } .

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52)

ونلحظ أن كلمة (سلاماً) جاءت هنا بالنَّصبْ ، ومعناها نُسلّم سلاماً ، وتعني سلاماً متجدداً .

ولكنه في آية أخرى يقول : { إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ } [الذاريات : 25] .

ونعلم أن القرآن يأتي بالقصة عَبْر لقطات مُوّزعة بين الآيات؛ فإذا جمعتَها رسَمَتْ لك ملامح القصة كاملة .

ولذلك نجد الحق سبحانه هنا لا يذكر أن إبراهيم قد رَدَّ سلامهم؛ وأيضاً لم يذكر تقديمه للعجل المَشْويّ لهم؛ لأنه ذكر ذلك في موقع آخر من القرآن .

إذن : فمِنْ تلك الآية نعلم أن إبراهيم عليه السلام قد ردَّ السلام ، وجاء هذا السلام مرفوعاً ، فلماذا جاء السلام في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها منصوباً؟

أي : قالوا هم : { سَلاماً } [الحجر : 52] .

وكان لا بُدَّ من رَدٍّ ، وهو ما جاءتْ به الآية الثانية : { قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ } [الذاريات : 25] .

والسلام الذي صدر من الملائكة لإبراهيم هو سلام مُتجدّد؛ بينما السلام الذي صدر منه جاء في صيغة جملة اسمية مُثْبتة؛ ويدلُّ على الثبوت .

إذا رَدَّ إبراهيم عليه السلام أقوى من سلام الملائكة؛ لأنه يُوضّح أن أخلاق المنهج أنْ يردَّ المؤمنُ التحيةَ بأحسنَ منها؛ لا أنْ يردّها فقط ، فجاء رَدُّه يحمل سلاماً استمرارياً ، بينما سلامُهم كان سلاماً تجددياً ، والفرق بين سلام إبراهيم عليه السلام وسلام الملائكة : أن سلام الملائكة يتحدد بمقتضى الحال ، أما سلام إبراهيم فهو منهج لدعوته ودعوة الرسل .

ويأتي من بعد ذلك كلام إبراهيم عليه السلام :

{ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ } [الحجر : 52] .

وجاء في آية أخرى أنه : { وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً } [هود : 70] .

وفي موقع آخر من القرآن يقول : { قَوْمٌ مُّنكَرُونَ } [الذاريات : 25] .

فلماذا أوجسَ منهم خِيفةً؟ ولماذا قال لهم : إنهم قومٌ مُنْكَرون؟ ولماذا قال :

{ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ } [الحجر : 52] .

لقد جاءوا له دون أن يتعرّف عليهم ، وقدَّم لهم الطعام فرأى أيديهم لا تصل إليه ولا تقربه كما قال سبحانه : { فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ } [هود : 70] .

ذلك أن إبراهيم عليه السلام يعلم أنه إذا قَدِم ضَيْفاً وقُدِّم إليه الطعام ، ورفض أن يأكل فعلَى المرء ألاَّ يتوقع منه الخير؛ وأن ينتظر المكاره .

وحين عَلِم أنهم قد أرسلوا إلى قوم لوط؛ وطمأنوه بالخبر الطيب الذي أرسلهم به الله اطمأنتْ نفسه؛ وفي ذلك تأتي الآية القادمة : { قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ . . } .

قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53)

هكذا طمأنت الملائكة إبراهيم عليه السلام ، وهَدَّأَتْ من رَوْعه ، وأزالتْ مخاوفه ، وقد حملوا له البشارة بأن الحق سبحانه سيرزقه بغلام سيصير إلي مرتبة أن يكون كثير العِلْم .

ويستقبل إبراهيم عليه السلام الخبر بطريقة تحمل من الاندهاش الكثيرَ ، فيقول ما ذكره الحق سبحانه : { قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي . . } .

قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54)

ونعلم أن الحق – سبحانه وتعالى – يخلق الخَلْق على أنحاء مُتعدّدة؛ حتى يعلمَ المخلوق أن خَلْقه لا ضرورة أن يكونَ بطريقة محددة؛ بل طلاقة القدرة أن يأتي المخلوق كما يشاء الله .

والشائع أن يُولَد الولد من أبٍ وأم؛ ذكر وأنثى . أو بدون الأمرين معاً مثل آدم عليه السلام ، ثُمَّ خلق حواء من ذكر فقط ، وكما خلق عيسى من أم فقط ، وخلق محمداً صلى الله عليه وسلم من ذكرٍ وأنثى .

وفي الآية التي نحن بصددها نجد إبراهيم عليه السلام يتعجب كيف يُبشِّرونه بغلام ، وهو على هذه الدرجة من الكِبَر ، في قوله تعالى :

{ على أَن مَّسَّنِيَ الكبر } [الحجر : 54] .

يعني أن « على » هنا جاءت بمعنى « مع » أي : أنه يعيش مع الكِبَر؛ ويرى أنه من الصعب أنْ يجتمعَ الكِبَر مع القدرة على الإنجاب .

وأقول دائما : إن كلمة (على) لها عطاءاتٌ واسعة في القرآن الكريم ، فهي تترك مرة ويأتي الحق سبحانه بغيرها لتؤدي معنًى مُعيناً؛ مثل قوله تعالى : { وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل } [طه : 71] .

والصَّلْب إنما يكون على جذوع النخل؛ ولكن الحق سبحانه جاء ب (في) بدلاً من (على) ليدلَّ على أن الصَّلْبَ سيكون عنيفاً ، بحيث تتدخل الأيدي والأرجُل المَصْلوبة في جذوع النخل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ أَبَشَّرْتُمُونِي على أَن مَّسَّنِيَ الكبر } [الحجر : 54] .

أي : أَتُبشِّرونني بالغلام العليم مع أنِّي كبير في العمر؛ والمفهوم أن الكِبَر والتقدُّم في العمر لا يتأتَّى معه القدرة على الإنجاب .

وهكذا تأتي « على » بمعنى « مع » . أي : كيف تُبشِّرونني بالغلام مع أنِّي كبير في العمر ، وقد قال قولته هذه مُؤمناً بقدرة الله؛ فإبراهيم أيضاً هو الذي أورد الحق سبحانه قَوْلاً له : { الحمد للَّهِ الذي وَهَبَ لِي عَلَى الكبر إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدعآء } [إبراهيم : 39] .

وكأن الكِبَر لا يتناسب مع الإنجاب ، ويأتي رَدُّ الملائكة على إبراهيم خليل الرحمن : { قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ } .

قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55)

وكأن الملائكة تقول له : لسنا نحن الذين صنعنا ذلك ، ولكِنَّا نُبلغك ببشارة شاءها الله لك؛ فلا تكُنْ من اليائسين .

ونفس القصة تكررتْ من بعد إبراهيم مع ذكريا – عليه السلام – في إنجابه ليحيى ، حين دعا زكريا رَبّه أن يهبَه غلاماً : { يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجعله رَبِّ رَضِيّاً } [مريم : 6] .

وجاءته البشارة بيحيى ، وقد قال زكريا لربه : { قَالَ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً } [مريم : 8] .

وإن شئت أن تعرفَ سِرَّ عطاءات الأسلوب القرآني فاقرأ قَوْل الحق سبحانه رداً على زكريا : { فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ } [الأنبياء : 90] .

ولم يَقُلِ الحق سبحانه أصلحناكم أنتم الاثنين؛ وفي ذلك إشارة إلي أن العطبَ كان في الزوجة؛ وقد أثبت العلم من بعد ذلك أن قدرة الرجل على الإخصاب لا يُحدِّدها عمر ، ولكن قدرةَ المرأة على أن تحمل مُحدّدة بعمر مُعين .

ثم إذا تأملنا قوله الحق : { وَوَهَبْنَا } [الأنبياء : 90] .
نجد أنها تُثبِت طلاقةَ قدرة الله سبحانه فيما وَهَب؛ وفي إصلاح مَا فسد؛ فسبحانه لا يُعْوِزِه شيء؛ قادر جَلَّ شأنه على الوَهْب؛ وقادر على أن يُهيئَ الأسباب ليتحققَ ما يَهبه .
وهنا تقول الملائكة لإبراهيم :
{ بَشَّرْنَاكَ بالحق } [الحجر : 55] أي : أنهم ليسوا المسئولين عن البشارة ، بل عن صدق البشارة؛ ولذلك قالوا له من بعد ذلك :
{ فَلاَ تَكُن مِّنَ القانطين } [الحجر : 55] .
ويأتي الحق سبحانه بما رَدَّ به إبراهيم عليه السلام : { قَالَ وَمَن يَقْنَطُ . . } .

قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56)

وهنا يعلن إبراهيم – عليه السلام – أنه لم يقنط من رحمة ربه؛ ولكنه التعجب من طلاقة التعجب من طلاقة القدرة التي توحي بالوحدانية القادرة ، لا لذات وقوع الحَدث؛ ولكن لكيفية الوقوع ، ففي كيفية الوقوع إعجاب فيه تأمل ، ذلك أن إبراهيم – عليه السلام – يعلم عِلْم اليقين طلاقة قدرة الله؛ فقد سبق أن قال له : { أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموتى . . } [البقرة : 260] .
ولنلحظ أنه لم يسأله « أتحيي الموتى » ، بل كان سؤاله عن الكيفية التي يُحْيِي بها الله المَوْتى؛ ولذلك لسأله الحق سبحانه : { أَوَلَمْ تُؤْمِن . . . } [البقرة : 260] .
وكان رَدّ إبراهيم –عليه السلام – : { بلى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } [البقرة : 260] .
وحدثتْ تجربة عندما أُمر إبراهيم بأن يأخذ أربعة من الطير ثم يقطعهن ويلقي على كل جبل جزءاً ، ثم يدعوهن فيأتينه سعياً ، لذلك فلم يكُنْ إبراهيم قانطاً من رحمة ربه ، بل كان متسائلاً عن الكيفية التي يُجرِي الله بها رحمته .
ولم تكن تلك المحادثة بين إبراهيم والملائكة فقط ، بل اشتركت فيه زَوْجه سارة؛ إذ أن الحق سبحانه قد قال في سورة هود : { ياويلتى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قالوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله رَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ } [هود : 72–73] .
وهكذا نجد أن القرآن يُكمِل بعضُه بعضاً؛ وكل لَقْطة تأتي في موقعها؛ وحين نجمع اللقطات تكتمل لنا القصة .
وهنا في سورة الحجر نجد سؤالاً من إبراهيم – عليه السلام – للملائكة التي حملتْ له بُشْرى الإنجاب عن المُهمَّة الأساسية لمجيئهم ، الذي تسبَّب في أن يتوجَّس منهم خِيفةً؛ فقد نظر إليهم ، وشعر أنهم قد جاءوا بأمر آخر غير البشارةَ بالغلام؛ لأن البشارةَ يكفي فيها مَلَكٌ واحد .

أما هؤلاء فهم كثيرون على تلك المُهِمة ، فيقول سبحانه هذا السؤال الذي سأله إبراهيم – عليه السلام – : { قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ . . . } .

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57)

أي : ما هو الأمر العظيم الذي جِئْتم من أجله؛ لأن الخَطْب هو الحَدث الجَلل الذي ينتاب الإنسان؟ وسُمِّي خَطْباً لأنه يشغل بال الناس جميعاً فيتخاطبون به ، وكلما التقتْ جماعة من البشر بجماعة أخرى فَهُمْ يتحدثون في هذا الأمر .

ولذلك سُمِّيتْ رغبة الزواج بين رجل وامرأة وَتَقدّمه لأهلها طَلباً لِيَدها « خِطْبة »؛ لأنه أمر جلَلَ وهَامّ؛ ذلك أن أحداً لو نظر إلى المرأة؛ ورآه واحدٌ من أهلها لَثَار من الغَيْرة؛ ولكن ما أن يدقَّ البابَ طالباً يدَها ، فالأمر يختلف؛ لأن أهلها يستقبلون مَنْ يتقدّم للزواج الاستقبالَ الحسن؛ ويقال : « جدعَ الحلالُ أنْفَ الغَيْرة » .

وهنا قال إبراهيم عليه السلام للملائكة : ما خَطْبكم أيها المُرْسلون؟ أي : لأيِّ أمر جَلَلٍ أتيتُم؟ ويأتي الجواب من الملائكة في قول الحق سبحانه : { قَالُواْ إِنَّآ . . . } .

قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (58)

ونعلم أن كلمة « القوم » مأخوذةٌ من القيام ، وهُم القوم الذين يقومون للأحداث؛ ويُقصد بهم الرجال ، دون النساء لأن النساء لا يَقُمْنَ للأحداث؛ والحق سبحانه هو الذي يُفصّل هذا الأمر في قوله : { لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ } [الحجرات : 11] .

فلو أن كلمة « القوم » تُطلَق على النساء؛ لَوصفَ بها الحق سبحانه النساء أيضاً؛ وذلك كي نعلم أن الرجال فقط هم الذين يقومون للأحداث؛ ولنعلم أن للمرأة منزلتها في رعاية أسرتها؛ فلا تقوم إلا بما يخصُّ هذا البيت .

وهنا أخبرتْ الملائكة إبراهيم عليه السلام أنهم مُرْسَلون إلى قوم مُجرمين؛ وهم قوم لوط الذين أرهقوا لوطاً بالتكذيب وبالمعاصي التي أدمنوها .

ولكن الحق سبحانه يستثني آل لوط من جريمة قوم لوط ، فقد كانت أغلبية قوم لوط من الفاسدين ، فيقول سبحانه : { إِلاَّ آلَ لُوطٍ . . } .

إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59)

وهذا استثناءٌ لآل لُوطٍ من المجرمين . والمُجرِم هو المُنقطِع عن الحق ، والجريمة هي الانقطاع عن الحق لانتصار الباطل ، غلب اسم القوم على الجماعة المُجْرمين ، وهكذا كان الاستثناء من هؤلاء المجرمين . الذين أجرموا في حق منهج الله ، والقيم التي نادى بها لوط عليه السلام .

وهكذا كان الإرسال للإنجاء لمن آمن والإهلاك لمن أعرض ونأى بجانبه في مهمة واحدة .

ثم يأتي استثناء جديد؛ حيث يقرر الحق سبحانه أن امرأة لوط سيشملها الإهلاك ، فيقول سبحانه : { إِلاَّ امرأته . . } .

إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (60)

ونعلم في اللغة أنه إذا توالتْ استثناءات على مُستثنى منه؛ نأخذ المُسْتثنى الأول من المُسْتثنى منه ، والمستثنى الثاني نأخذه من المستثنى الأول ، والمستثنى الثالث نأخذه من المستثنى الثاني .

والمثل أن يقول لك من تدينه « لك عشرة جنيهات إلا أربعة » أي : أنه أقرَّ بأن لك ستة جنيهات؛ ولكنك تنظر إليه لعلَّه يتذكر كم سدَّد إليك؟ فيقول : « لك إلا درهماً » وهكذا يكون قد أقرَّ بسبعة دراهم كَدَيْن؛ بعد أنْ كان قد أقرَّ بستة؛ ذلك أنه قال : « لك عشرة جنيهات إلا أربعة » ، ثم أضاف : « إلا درهماً » .

وهكذا يكون قد استثنى من الأربعة الجنيهات التي قال إنه سَدَّدها لك جنيهاً آخر؛ وبذلك يكون ما سدده من دين ثلاث جنيهات ، وبقي عنده سبعة جنيهات .

والحق سبحانه هنا يستثني امرأة لوط من الذين استثناهم من قبل للنجاة ، وهم آل لوط ، والملائكة التي تقوم ذلك لم تُقدِّر الأمر بإهلاك امرأة لوط؛ بل هي تُنفِّذ التقدير الأعلى؛ فسبحانه هو مَنْ قدَّر وأمر :

{ إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين } [الحجر : 60] .

والغابر هنا بمعنى داخل؛ أو هو من أسماء الأضداد؛ وهي لن تنجو؛ لأن مَنْ تقررتْ نجاتهم سيتركون القرية؛ وسيهلك مَنْ يبقى فيها ، وامرأة لُوط من الباقين في العذاب والاستثناء من النفي إثبات؛ ومن الإثبات نفي ، فاستثناء امرأة لوط من الناجين يلحقها بالهالكين .

وتنتقل السورة من إبراهيم إلى لوط – عليه السلام – فيقول الحق سبحانه : { فَلَمَّا جَآءَ آلَ لُوطٍ . . } .

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62)

وهكذا قال لوط عليه السلام للملائكة عندما وصلوا إليه ، فقد كان مشهدهم غايةً في الجمال؛ ويعلم أن قومه يُعَانُون من الغلمانية ، ويحترفون الفاحشة الشاذة؛ لذلك نجد الحق سبحانه يقول

عن معاملته للملائكة في موقع آخر من القرآن : { سياء بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً } [هود : 77] .

ذلك أن لوطاً عَلِم أن قومه سيطمعون في هؤلاء المُرْد ، لذلك ما أنْ جاءوه حتى أعلن لهم أنه غَيْر مرغوب فيهم؛ ولم يرحب بهم ، ذلك أنهم قد دخلوا عليه في صورة شبان تضيء ملامحهم بالحُسْن الشديد؛ مما قد يُسبِّب غواية لقومه .

كما أنهم قد دخلوا عليه ، وليس على ملامحهم أيّ أثر للسفر؛ كما أنهم ليسوا من أهل المنطقة التي يعيش فيها؛ لذلك أنكرهم .

ويقول سبحانه ما جاء على لسان الملائكة لحظةَ أن طمأنوا لوطاً كشفوا له عن مهمتهم : { قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ . . . } .

قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63)

وهكذا أعلنوا للوط سبب قدومهم إليه؛ كي يُنزِلوا العقابَ بالقوم الذين أرهقوه ، وكانوا يشكُّون في قدرة الحق سبحانه أنْ يأخذهم أَخْذَ عزيز مُقْتدر ، وفي هذا تَسْرية عنه .

ثم يُؤكِّدون ذلك بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم : { وَآتَيْنَاكَ بالحق . . . } .

وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (64)

أي : جِئْنا لك بأمر عذابهم الصادر من الحقِّ سبحانه؛ فلا مجالَ للشكِّ أو الامتراء ، ونحن صادقون فيما نُبلِّغك به .

ويقولون له من بعد ذلك : { فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ . . . } .

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65)

أي : سِرْ أنت وأهلك في جزء من الليل . ومرة يُقَال « سرى » ، ومرة يُقال « أسرى »؛ ويلتقيان في المعنى . ولكن « أسرى » تأتي في موقع آخر من القرآن ، وتكون مُتعدِّية مثل قول الحق : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً } [الإسراء : 1] .

وقولهم هنا (أسر بأهلك) هو تعبير مُهذّب عن صُحْبة النساء والأبناء . ونجد في ريفنا المصري مَنْ لا يتكلم أبداً في حديثه عن المرأة أو البنات؛ فيقول الواحد منهم « قال الأولاد كذا » ، فكأن اسم المرأة مبنيٌّ على السَّتْر دائماً ، وكذلك نجد كثيراً من الأحكام تكون المرأة مَطْمورة في حكم الرجل إلا في الأمر المُتعلِّق بها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اليل . . . } [الحجر : 65] .

وكلمة « قطع » هي اسم جمع ، والمقصود هو أن يخرج لوطٌ بأهله في جُزْء من الليل ، أو من آخر الليل ، فهذا هو منهج الإنجاء الذي أخبر به الملائكة لوطاً ، ليتبعه هو وأهله والمؤمنون به ، وأوصوه أن يتبعَ أدبار قومه بقولهم :

{ واتبع أَدْبَارَهُمْ . . . } [الحجر : 65] .

أي : أن يكون في المُؤخّرة ، وفي ذلك حَثٌّ لهم على السُّرعة .

وكان من طبيعة العرب أنهم إذا كانوا في مكان ويرحلون منه؛ فكل منهم يحمل رَحْلَه على ناقته؛ وأهله فيها فوق الناقة ويبتدئون السير ، ويتخلف رئيس القوم ، واسمه « مُعقِّب » كي يرقُب إنْ كان أحد من القوم قد تخلَّف أو تعثَّر أو ترك شيئاً من متاعه ، ويُسمُّون هذا الشخص « مُعقِّب » .

وهنا تأمر الملائكة لوطاً أن يكون مُعقّباً لأهله والمؤمنين به؛ لِيحثّهم على السير بسرعة؛ ثم لِينفذ أمراً آخرَ يأمره به الحق سبحانه :

{ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ . . . } [الحجر : 65] .

وتنفيذ الأمر بعدم الالتفات يقتضي أن يكون لوط في مُؤخّرة القوم؛ ذلك أن الالتفاتَ يأخذ وَقْتاً ، ويُقلّل من سرعة مَنْ يلتفت؛ كما أن الالتفاتَ إلى موقع انتمائهم من الأرض قد يُثير الحنين إلى مواقع التَّذكار وأرض المَنْشأ ، وكل ذلك قد يُعطّل حركة القوم جميعهم؛ لذلك جاء الأمر الإلهي : { وامضوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ } [الحجر : 65] .

أو : أن الحق سبحانه يريد ألاَّ يلتفت أحدٌ خَلْفه حتى لا يشهدَ العذاب ، أو مقدمة العذاب الذي يقع على القوم ، فتأخذه بهم شفقة .

ونحن نعلم قول الحق سبحانه في إقامة أيّ حدٍّ من الحدود التي أنزلها : { وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ الله } [النور : 2] .

فلو أن أحداً قد التفتَ إلى العذاب ، أو مُقدِّمة العذاب؛ فقد يحِنّ إليهم ، أو يعطف عليهم رغم أن عذابهم بسبب ذنب كبير ، فقد ارتكبوا جريمة كبيرة؛ ونعلم أن بشاعة الجريمة تبهت؛ وقد يبقى في النفس عِظَم أَلَمِ العقوبة لحظة توقيعِها على المُجرم .

أو : أن الحق سبحانه يريد أن يعجل بالقوم الناجين قبل أنْ يوجد ، ولو التفزيع الذي هو مقدمة تعذيب القوم الذين كفروا من هَوْل هذا العذاب القادم .

وهكذا كان الأمر بالإسراء بالقوم الذين قرر الحق سبحانه نجاتهم ، والكيفية هي أن يكون الخروج في جزء من الليل ، وأنْ يتبعَ لوطٌ أدبارهم ، وألا يلتفتَ أحد من الناجين خَلْفه؛ ليمضي هؤلاء الناجون حيث يأمرهم الحق سبحانه . وقيل : إن الجهة هي الشام .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه : { وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ . . . } .

وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66)

وقوله الحق : { وَقَضَيْنَآ . . } [الحجر : 66] .

أي : أوحينا . وسبحانه تكلَّم من قَبْل عن الإنجاء للمؤمنين من آل لوط؛ ثم تكلَّم عن عذاب الكافرين المنحرفين؛ والأمر الذي قضى به الحق سبحانه أنْ يُبيدَ هؤلاء المنحرفين . وقَطْع الدَّابر هو الخَلْع من الجذور .

ولذلك يقول القرآن : { فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ } [الأنعام : 45] .

وهكذا نفهم أن قَطْع الدابر هو أنْ يأخذَهم الحق سبحانه أَخْذ عزيز مقتدر فلا يُبقِي منهم أحداً . وموعد ذلك هو الصباح ، فبعد أنْ خرج لوط ومَنْ معه بجزء من الليل وتَمَّتْ نجاتهم يأتي الأمر بإهلاك المنحرفين في الصباح .

والأَخْذ بالصُّبح هو مبدأ من مبادئ الحروب؛ ويُقال : إن أغلب الحروب تبدأ عند أول خيط من خيوط الشمس .

والحق سبحانه يقول : { فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ المنذرين } [الصافات : 177] .

وهكذا شاء الحق سبحانه أنْ يأخذَهم وهُمْ في استرخاء؛ ولا يملكون قُدْرة على المقاومة .

وقَوْل الحق سبحانه هنا :

{ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ } [الحجر : 66] .

لا يتناقض مع قوله عنهم في موقع آخر : { فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة مُشْرِقِينَ } [الحجر : 73] .

فكأن بَدْء الصيحة كان صُبْحاً ، ونهايتهم كانت في الشروق . وهكذا رسم الحق سبحانه الصورة واضحة أمام لُوطٍ من قبل أنْ يبدأ التنفيذ؛ فهكذا أخبرتْ الملائكة لوطاً بما سوف يجري .

ويعود الحق سبحانه بعد ذلك إلى قوم لوط الذين لا يعرفون ما سوف يحدث لهم ، فيقول سبحانه : { وَجَآءَ أَهْلُ المدينة . . . } .

وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67)

وعندما عَلِم أهل المدينة من قوم لُوطٍ بوصول وَفْد من الشبان الحِسَان المُرْد عند لوط جاءوا مُستبشرين فَرِحين . وكان حُسْنهم مضربَ الأمثال؛ وكأن كُلاً منهم ينطبق عليه قَوْله الحق عن يوسف عليه السلام : { مَا هذا بَشَراً إِنْ هاذآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ } [يوسف : 31] .

وقوله سبحانه :

{ وَجَآءَ أَهْلُ المدينة يَسْتَبْشِرُونَ } [الحجر : 67] .

يجمع لقطات مُركّبة عن الأمر الفاحش الشائع فيما بينهم ، وكانوا يستبشرون بفعله ويَفْرحون به؛ فهم مَنْ ينطبق عليهم قوله الحق : { كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ }

[المائدة : 79] .

وكان لوط يعلم هذا الأمر فيهم ، ويعلم ما سوف يَحيق بهم؛ وأراد أنْ يجعل بينهم وبين فِعْل الفاحشة مع الملائكة سَدّاً؛ فهم في ضيافته وفي جواره ، والتقاليد تقتضي أنْ يأخذَ الضيف كرامة المُضيف ، وأيّ إهانة تلحق بالضيف هي إهانة للمُضيف ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان لوط : { قَالَ إِنَّ هَؤُلآءِ . . } .

قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (68)

والفضيحة هي هَتْك المساتير التي يستحيي منها الإنسان ، فالإنسان قد يفعل أشياءَ يستحي أنْ يعملها عنه غيره . والحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا أن نتخلَّق بخُلُقه؛ جعل من كُلِّ صفات الجمال والجلال نصيباً يعطيه لخَلْقه .

ولكن هناك بعضاً من صفاته يذكرها ولا يأتي بمقابل لها؛ فهو قد قال مثلاً « الضَّارّ » ومقابلها « النافع » وقال « الباسط » ومقابلها « القابض » وقال « المُعِزّ » ومقابلها « المُذِلّ » . ومن أسمائه « الستار » ولم يَأْتِ بالمقابل وهو « الفاضح »؛ لماذا لم يَأْتِ بهذا المقابل؟

لأنه سبحانه شاء أنْ يحميَ الكون؛ لكي يستمتع كُلّ فَرْد بحسنات المُسيء ، لأنك لو علمتَ سيئاته قد تبصُق عليه؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يستر المُسيء ، ويُظهِر حسناته فقط .

وقد قال لوط لقومه بعد أن نهاهم عن الاقتراب الشائن من ضيوفه : { واتقوا الله . . . } .

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (69)

أي : ضَعوا بينكم وبين عقاب الحق لكم وقاية؛ ولا تكونوا سبباً في إحساسي بالخِزي والعار أمام ضيوفي بسبب ما تَرغبُون فيه من الفاحشة .

والاتقاء من الوقاية ، والوقاية هي الاحتراس والبعد من الشر ، لذلك يقول الحق سبحانه : { يأيها الذين آمَنُواْ قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا الناس والحجارة } [التحريم : 6] .

أي : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ، واحترسوا من أن تقعوا فيها ، بالابتعاد عن المحظورات ، فإن فِعْل المحذور طريق إلى النار ، والابتعاد عنه وقاية منها ، ومن عجيب أمر هذه التقوى أنك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم والقرآن كله كلام الله .

يقول : { واتقوا الله } [البقرة : 194] .

ويقول : { واتقوا النار } [آل عمران : 131] .

كيف نأخذ سلوكاً واحداً تجاه الحق سبحانه وتعالى وتجاه النار التي سيعذب فيها الكافرون؟

والمعنى : لا تفعلوا ما يغضب الله حتى لا تُعذَّبوا في النار ، فكأنك قد جعلت بينك وبين النار

وقاية بأن تركت المعاصي ، وإن فعلتَ المأمورات ، ورضيتَ بالمقدورات ، وابتعدت عن المحذورات ، فقد اتقيت الله .

ولكنهم لم يستجيبوا له ، بدليل أنهم تَمادَوْا في غِيّهم وقالوا ما أورده الحق سبحانه : { قَالُواْ أَوَ لَمْ نَنْهَكَ . . . } .

قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (70)

أي : أَلَمْ نُحذِّرك من قَبْل من ضيافة الشبان الذين يتمَّيزون بالحُسْن ، ولأنك قُمْتَ باستضافة هؤلاء الشبان؛ فلا بُدَّ لنا من أنْ نفعلَ معهم ما نحب من الفاحشة ، وكانوا يتعرَّضون لكل غريب بالسوء .

وحاول لوط أن ينهاهم قَدْر استطاعته؛ ولكنهم رفضوا أنْ يُجِير ضيوفه من عدوانهم الفاحش ، وطلبوا منه أن يتركهم وشأنهم ، ليفسدوا في الكون كما يشاءون ، فلا تتكلم ولا تعترض على شيء مما نفعل ، وهذه لغة أهل الضلال والفساد .

وحاول لوط عليه السلام أنْ يُثنيهم عن ذلك بأن قال لهم ، ما جاء به الحق سبحانه : { قَالَ هَؤُلآءِ بَنَاتِي . . . } .

قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (71)

أي : أنكم إنْ كُنتم مُصرِّين على ارتكاب الفاحشة؛ فلماذا لا تتزوجون من بناتي؟ ولقد حاول البعضُ أن يقولوا : إنه عرض بناته عليهم ليرتكبوا معهن الفاحشة؛ وحاشا الله أن يصدر مثل هذا الفعل عن رسول ، بل هو قد عرض عليهم أن يتزوجوا النساء .

ثم إن لوطاً كانت له ابنتان اثنتان ، وهو قد قال :

{ هَؤُلآءِ بَنَاتِي . . } [الحجر : 71] .

أي : أنه تحدث عن جمع كثير؛ ذلك أن ابنتيه لا تصلحان إلا للزواج من اثنين من هذا الجمع الكثيف من رجال تلك المدينة ، ونعلم أن بنات كل القوم الذين يوجد فيهم رسول يُعتبرْنَ من بناته .

ولذلك يقول الحق سبحانه ما يُوضّح ذلك في آية أخرى . { أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ } [الشعراء : 165-166] .

أي : أن لوطاً أراد أنْ يردَّ هؤلاء الشواذ إلى دائرة الصواب ، والفعل الطيب . وذيَّل كلامه : { إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } [الحجر : 71] .

ليوحي لهم بالشكِّ في أنهم سيُهينون ضيوفه بهذا الأسلوب المَنْجوج والمرفوض .
ويقول سبحانه من بعد ذلك : { لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ . . . } .

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72)

والخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . و « عَمْرُك » معناها السنُّ المُحدَّد للإنسان لاستقامة الحياة ، ومرة تنطق « عُمْرك » ومرة تنطق « عَمْرك » ، ولكنهم في القَسَم يختارون كلمة « عَمْرك » ، وهذا يماثل قولنا في الحياة اليومية « وحياتك » .
ومن هذا القول الكريم الذي يُحدِّث به الحق سبحانه رسوله استدلَّ أهل الإشراق والمعرفة أن الحق سبحانه قد كرَّم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بأنه حين ناداه لم يُنَادِهِ باسمه العلنيّ « يا محمد » أو « يا أحمد » كما نادى كل رُسُله ، ولكنه لم يُنَادِ الرسول صلى الله عليه وسلم إلا بقوله : { يأيها الرسول } [المائدة : 67] .
أو : { يأيها النبي } [الممتحنة : 12] .
وفي هذا تكريمٌ عظيم ، وهنا في هذه الآية نجد تكريماً آخر ، فسبحانه يُقسِم بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم . ونعلم أن الحق سبحانه يُقسِم بما شاء على ما شاء ، أقسم بالشمس ومواقع النجوم وبالنجم إذا هَوَى .
فهو الخالق العليم بكل ما خلق؛ ولا يعرف عظمة المخلوق إلا خالقه ، وهو العالم بمُهمة كل كائن خلقه ، لكنه أمرنا ألاَّ نُقسِم إلاَّ به؛ لأننا نجل حقائق الأشياء مُكْتملةً .
وقد أقسم سبحانه بكل شيء في الوجود ، إلا أنه لم يُقسِم أبداً بأيِّ إنسان إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقال هنا :
{ لَعَمْرُكَ } [الحجر : 72] بحياتك يا محمد إنهم في سَكْرة يعمهون .
والسكرة هي التخديرة العقلية التي تحدث لمن يختلّ إدراكهم بفعل عقيدة فاسدة ، أو عادة شاذة ، أو بتناول مادة تثير الاضطراب في الوعي .
و { يَعْمَهُونَ . . } [الحجر : 72] .
أي : يضطربون باختيارهم .
ويأتي العقاب؛ فيقول الحق سبحانه : { فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة . . . } .

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73)

وسبق أنْ أخبرنا سبحانه أنه سيقطع دابرهم وهم مصبحون ، وهنا يخبرنا أن الصيحة أخذتهم وهم مُشْرقون ، ونحن نرى هذه الأيام بعضاً من الألعاب كلعبة « الكاراتيه » تصدر صيحة من

اللاعب في مواجهة خَصْمه لِيُزيد من رُعبْه .
كما نرى في تدريبات الصاعقة العسكرية؛ نوعاً من الصرخات ، هدفها أنْ يُدخِل المقاتل الرُّعْب في قلب عدوه .
وكل ما يتطلب إرهاب الخَصْم يبدأ بصيحة تُفقِده توازنه الفكري؛ ولذلك قال الحق سبحانه في موقع آخر : { إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ المحتظر } [القمر : 31] .
ومرّة يُسمّيها الحق سبحانه بالطاغية؛ فيقول : { فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية } [الحاقة : 5] .
ويقول سبحانه من بعد ذلك : { فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا . . . } .

فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74)

وما دام عاليها قد صار أسفلها ، فهذا لَوْنٌ من الانتقام المُنظّم المُوجّه؛ ولو لم يكن انتقاماً مُنظّماً؛ لانقلب بعضُ ما في تلك المدينة على الجانب الأيمن أو الأيسر .
ولكن شاء الحق سبحانه أن يأتي لنا بصورة ما حدث ، لِيدلَنا على قدرته على أنْ يفعلَ ما شاء كما يشاء . وأمطرهم الحق سبحانه بحجارة من سجيل؛ كتلك التي أمطر بها مَنْ هاجموا الكعبة في عام ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وهي حجارة صُنِعَتْ من طين لا يعلم كُنْهَه إلا الله سبحانه ، والطين إذا تحجَّر سُمّي « سجيلاً » .
والحق سبحانه هو القائل عن نفس هذا الموقف في سورة الذاريات : { لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ } [الذاريات : 33] .
وقد أرسل الحق سبحانه تلك الحجارة عليهم لِيُبيدهم ، فلا يُبقِي منهم أحداً .
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ . . . } .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (75)

وهكذا كان العذاب الذي أنزله الحق سبحانه بقوم لوط آية واضحة للمُتوسِّمين . والمُتوسِّم هو الذي يُدرك حقائق المَسْتور بمكْشُوف المظهور . ويُقال « توسَّمْتُ في فلان كذا » أي : أخذ من الظاهر حقيقة الباطن .
ولذلك يقول الحق سبحانه : { سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود } [الفتح : 29] .
أي : ساعةَ تراهم ترى أن الملامح تُوَضّح ما في الأعماق من إيمان .
ويقول سبحانه أيضاً : { تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ الناس إِلْحَافاً } [البقرة : 273] .
وهكذا نعرف أن المُتوسِّم هو صاحب الفَراسة التي تكشف مكنون الأعماق . وها هو صلى الله عليه وسلم يقول : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

وتحمل الذاكرة العربية حكاية الأعرابي الذي فقد جمله ، فذهب إلى قيم الناحية أي : عمدة المكان وقال له : « ضاع جملي ، وأخشى أن يكون قد سرقه أحد » . وبينما هو يُحدِّث القيِّم جاء واحد ، وقال له : أجملك أعور؟ أجاب صاحب الجمل : نعم ، وقال له : أجملك أبتَر؟ أي : لا ذَيْل له ، أجاب صاحب الجمل : نعم . فسأل الرجل سؤالا ثالثاً : أجملك أشول؟ أي : يعرج قليلاً عندما يسير؛ فأجاب الرجل : نعم ، والله هو جَمَلِي .

وأراد قيِّم الحي أن يعلم كيف عرف الرجل الذي حضر كل هذه العلامات التي في الجمل ، فسأله : وما أدراك بكل تلك العلامات؟

قال الرجل : لقد رأيتُه في الطريق ، وعرفتُ أنه أعورُ ، ذلك أنه كان يأكل العُشبْ الجاف من جهة ، ولا يلتفت إلى العُشْب الأخضر في الجهة الأخرى ، ولو كان يرى بعينيه الاثنتين لرأى العُشْب الأخضر .

وعرفت أنه أبتر مقطوع الذيل نتيجة أن بَعْره لم يتبعثر مثل غيره من الجمال التي لها ذَيْل غير مقطوع .

وعرفت أنه أشول؛ لأن أثر ساقه اليمنى أكثر عُمْقاً في الأرض من أثر ساقه اليسرى . وهكذا شرحت الذاكرة العربية معنى كلمة « المتوسم » .

ثم يُبيّن الحق سبحانه مكان مدينة قوم لوط ، فيقول من بعد ذلك : { وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ . . . } .

وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (76)

أي : أنها على طريق ثابت تمرُّون عليه إنْ ذهبتُم ناحية هذا المكان ، وفي آية أخرى يقول سبحانه : { وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ } [الصافات : 137] .

فهذه المدينة إذنْ في طريق ثابت؛ لن تُضيّعه عوامل التَّعْرية أو الأغيار ، ولن تضيعه تلك العوامل إلا إذا شاء الحق سبحانه له أن يكون مُحْكَم التكوين ومُحكمَ التثبيت . وهو ما يُسمَّى « سدوم » .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً . . . } .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77)

وقد قال من قبل : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ } [الحجر : 75] .

فكأن من مسئوليات المؤمن أنْ يتفحَّص في أدبار الأشياء ، وأنْ يتعرّف على الأشياء بسيماها ، وأن يمتلكَ فراسة الإيمان التي قال عنها صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسةَ المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » .

وهكذا يُنهِي الحق سبحانه هنا قصة لوط؛ وما وقع عليهم من عذاب يجب أن يتعظَ به المؤمنون؛ فقد نالوا جزاءَ ما فعلوا من فاحشة .

وينقلنا الحق سبحانه من بعد ذلك نَقْلة أخرى؛ إلى أهل مَدْين ، وهم قوم شُعَيب . وهم أصحاب الأيكة ، يقول سبحانه : { وَإِن كَانَ أَصْحَابُ . . . } .

وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78)

و « الأَيْك » هو الشجر المُلْتف الكثير الأغصان . ونعلم أن شعيباً عليه السلام قد بُعِث لأهل مدين وأصحاب الأيكة ، وهي مكان قريب من مدين ، وكان أهل مدين قد ظلموا أنفسهم بالشرك .

وقد قال الحق سبحانه : { وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً } [الأعراف : 85] .

وقال عن أصحاب الأيكة : { كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيكة المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ } [الشعراء : 176-177] .

وهكذا نعلم أن شعيباً قد بُعِث لأُمتين مُتجاورتين .

ويقول سبحانه عن هاتين الأُمتين : { فانتقمنا مِنْهُمْ . . . } .

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (79)

ويُقال : إن ما كان يفصل بين مدين وأصحاب الأيكة هو هذا الشجر المُلْتف الكثيف القريب من البحر . ولذلك نجد هنا الدليل على أن شعيباً عليه السلام قد بُعِث إلى أُمتين هو قوله الحق :

{ وَإِنَّهُمَا . . } [الحجر : 79] .

وقد انتقم الله من الأُمتين الظالمتين؛ مَدْين وأصحاب الأيكة .

ويقول الحق سبحانه :

{ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ } [الحجر : 79] .

والإمام هو ما يُؤتَمّ به في الرأي والفتيا ، أو في الحركات والسَّكنات؛ أو : في الطريق المُوصِّل إلى الغايات ، ويُسمَّى « إمام » لأنه يدلُّ على الأماكن أو الغايات التي نريد أن نصل إليها ، ذلك أنه يعلم كل جزئية من هذا الطريق .

وفيما يبدو أن أصحاب الأَيْكة قد تَمادَوْا في الظُّلْم والكفر ، وإذا كان سبحانه قد أخذ أهل مَدْين بالصيحة والرجفة؛ فقد أخذ أصحاب الأيكة بأن سلط عليهم الحَرَّ سبعة أيام لا يُظِلهم منه ظِلٌّ؛ ثم أرسل سحابة وتمنَّوْا أن تُمطر ، وأمطرتْ ناراً فأكلتهم ، كما قالت كتب الأثر .

وهذا هو العذاب الذي قال فيه الحق سبحانه : { فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [الشعراء : 189] .

وهكذا تكون تلك العِبَر بمثابة الإمام الذي يقود إلى التبصُّر بعواقب الظلم والشرك .

وينقلنا الحق سبحانه إلى خبر قوم آخرين ، فيقول تعالى : { وَلَقَدْ كَذَّبَ . . } .

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80)

وأصحاب الحِجْر هم قوم صالح ، وكانت المنطقة التي يقيمون فيها كلها من الحجارة؛ ولا يزال مُقَامهم معروفاً في المسافة بين خيبر وتبوك . وقال فيهم الحق سبحانه : { أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ } [الشعراء : 128-129] .

وهم قد كذّبوا نبيهم « صالح » وكان تكذيبهم له يتضمن تكذيب كل الرسل ، ذلك أن الرسل يتواردون على وحدانية الله ، ويتفقون في الأحكام العامة الشاملة ، ولا يختلف الأنبياء إلا في الجزئيات المناسبة لكل بيئة من البيئات التي يعيشون فيها .

فبيئة : تعبد الأصنام ، فيُثبِت لهم نبيُّهم أن الأصنام لا تستحق أن تُعبد .

وبيئة أخرى : تُطفِّف الكيْل والميزان؛ فيأتي رسولهم بما ينهاهم عن ذلك .

وبيئة ثالثة : ترتكب الفواحش فيُحذِّرهم نبيهم من تلك الفواحش .

وهكذا اختلف الرسل في الجزئيات المناسبة لكل بيئة؛ لكنهم لم يختلفوا في المنهج الكُليّ الخاص بالتوحيد والمنهج ، وقد قال الحق سبحانه عن قوم صالح أنهم كذَّبوا المُرْسلين؛ بمعنى أنهم كذّبوا صالحاً فيما جاء به من دعوة التوحيد التي جاء بها كل الرسل .

ويقول الحق سبحانه عنهم من بعد ذلك : { وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا . . . } .

وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (81)

وهنا يُوجِز الحق – سبحانه وتعالى – ما أرسل به نبيهم صالح من آيات تدعوهم إلى التوحيد بالله ، وصِدْق بلاغ صالح عليه السلام الذي تمثَّل في الناقة ، التي حذَّرهم صالحَ أنْ يقربوها بسوء كَيْلا يأخذهم العذاب الأليم .

لكنهم كذَّبوا وأعرضوا عنه ، ولم يلتفتوا إلى الآيات التي خلقها الحق سبحانه في الكون من ليل ونهار ، وشمس وقمر ، واختلاف الأَلْسُنِ والألوان بين البشر .

ونعلم أن الآيات تأتي دائماً بمعنى المُعْجزات الدَّالة على صدْق الرسول ، أو : آيات الكون ، أو : آيات المنهج المُبلَّغ عن الله ، تكون آية الرسول من هؤلاء من نوع ما نبَغ فيه القوم المُرْسَل إليهم؛ لكنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثلها .

وعادةً ما تثير هذه الآية خاصيَّة التحدِّي الموجودة في الإنسان ، ولكن أحداً من قوم الرسل أيّ رسول لا يُفلِح في أن يأتي بمثل آية الرسول المرسل إليهم .

ويقول الحق سبحانه عن قوم صالح :

{ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ } [الحجر : 81] .

أي : تكبَّروا وأعرضوا عن المنهج الذي جاءهم به صَالح ، والإعراض هو أنْ تُعطِي الشيء عَرْضك بأن تبتعدَ عنه ولا تُقبِل عليه ، ولو أنك أقبلتَ عليه لَوجدتَ فيه الخير لك .

وأنت حين تُقبِل على آيات الله ستجد أنها تدعوك للتفكُّر ، فتؤمن أن لها خالقاً فتلتزم بتعاليم المنهج الذي جاء به الرسول .

وأنت حين تُفكِّر في الحكمة من الطاعة ستجد أنها تُريحك من قلق الاعتماد على أحد غير خالقك ، لكن لو أخذتَ المسائل بسطحية؛ فلن تنتهي إلى الإيمان .

ولذلك نجده سبحانه يقول في موقع آخر من القرآن الكريم : { وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف : 105] .

وفي هذا تكليفٌ للمؤمن كُل مؤمن أن يُمعِنَ النظر في آيات الكون لعلَّه يستنبط منها ما يفيد غيره .

وأنت لو نظرتَ إلى كل المُخْترعات التي في الكون لوجدتَّها نتيجةً للإقبال عليها من قِبَل عالم أراد أنْ يكتشفَ فيها ما يُريح غيره به .

والمثل في اكتشاف قُوَّة البخار التي بدأ بها عَصْر من الطاقة واختراع المُعدات التي تعمل بتلك الطاقة ، وحرّك بها القطار والسفينة؛ مثلما سبقها إنسان آخر واخترع العجلة لِيُسهّل على البشر حَمْل الأثقال .

وإذا كان هذا في أمر الكَوْنيّات؛ فأنت أيضاً إذا تأملتَ آيات الأحكام في « افعل » و « لا تفعل » ستجدها تفيدُك في حياتك ومستقبلك ، والمَثَل على ذلك هو الزكاة؛ فأنت تدفع جزءً يسيراً من عائد عملك لغيرك مِمَّنْ لا يَقْوَى على العمل ، وستجد أن غيرك يعطيك إنْ حدث لك احتياج؛ ذلك أنك من الأغيار .

ويتابع الحق سبحانه قوله عن قوم صالح : { وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ . . } .

وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82)

وهنا يمتنُّ عليهم بأن منحهم حضارةً ، ووهبهم مهارة البناء والتقدُّم في العمارة؛ وأخذوا في بناء بيوتهم في الأحجار ، ومن الأحجار التي كانت توجد بالوادي الذي يقيمون فيه ، وقطعوا تلك الأحجار بطريقة تُتيح لهم بناء البيوت والقُصور الآمنة من أغيار التقلُّبات الجوية وغيرها .

ونعلم أن مَنْ يعيش في خَيْمة يعاني من قِلَّة الأمن؛ أما مَنْ يبني بيته من الطوب اللَّبن؛ فهو اكثر

أمْناً مِمَّنْ في الخيمة ، وإنْ كان أقلَّ أماناً من الذي يبني بيته من الأسمنت المُسلَّح ، وهكذا يكون أَمنُ النفس البشرية في سكنها واستقرارها من قوة الشيء الذي يحيطه .

وإذا كان قوم صالح قد أقاموا بيوتهم من الحجارة فهي بالتأكيد اكثر أَمْناً من غيرهم ، ونجد نبيهم صالحاً ، وقد قال لهم ما أورده الحق سبحانه في كتابه الكريم : { واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأرض تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الجبال بُيُوتاً فاذكروا آلآءَ الله وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ } [الأعراف : 74] .

ولكنهم طَغَوْا وبَغَوْا وأنكروا ما جاء به صالح – عليه السلام – فما كان من الحق سبحانه إلا أنْ أرسلَ عليهم صيحةً تأخذهم .

وقال الحق سبحانه : { فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة . . . . } .

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83)

وهم إذا كانوا قد اتخذوا من جبليّة الموقع أَمْناً لهم؛ فقد جاءت الصيحة من الحق سبحانه لِتدكَّ فوق رؤوسهم ما صنعوا ، وقد قال الحق سبحانه عنهم من قبل في سورة هود : { وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [هود : 67] .

وقال سبحانه عنهم أيضاً : { فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [الأعراف : 78] .

والرَّجْفة هي الزلزلة ، والصَّيْحة هي بعض من توابع الزلزلة ، ذلك أن الزلزلة تُحدِث تموجاً في الهواء يؤدي إلى حدوث أصوات قوية تعصف بمَنْ يسمعها .

وهم حسب قَوْل الحق سبحانه قد تمتَّعوا ثلاثة أيام قبل أنْ تأخذهم الصَّيْحة كَوَعْد نبيهم صالح عليه السلام لهم : { فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ } [هود : 65] .

ويقول الحق سبحانه عن حالهم بعد أنْ أخذتهم الصَّيْحة : { فَمَآ أغنى . . . } .

فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (84)

وهكذا لم تنفعهم الحصون في حمايتهم من قدَر الله ، ونعلم أن قدر الله أو عقابه لا يمكن أنْ يمنعه مانعٌ مهما كان؛ فهو القائل : { أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الموت وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ } [النساء : 78] .

وهكذا لا يمكن أن يحميَ الإنسانُ نفسَه مما قَدَّره الله له ، أو مِمَّا يشاء الحق أن يُنزِله على الإنسان كعقاب .

وسبحانه القائل : { قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الذين كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتل إلى مَضَاجِعِهِمْ } [آل عمران : 154] .

وهكذا خَرُّوا جميعاً في قاع الهلاك ، ولم تَحْمِهِم حصونهم من العذاب الذي قدَّره سبحانه .

وبعد ذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى الآيات الكونية؛ فيقول : { وَمَا خَلَقْنَا السماوات . . } .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85)

والحقُّ هو الشيء الثابت الذي لا تَعْتوره الأغيار ، والمثَل هو نظام المجرَّات وحركة الشمس والقمر؛ تجدها مُنْضبِطة؛ ذلك أن الإنسان لا يتدخَّل فيها ، وليس للإنسان – صاحب الأغيار – معه أيُّ اختيار .

ولذلك نجد أن الفسادَ لا ينشأ في الكون من النواميس العُلْيا ، ولكن من الأمور التي يتدخَّل فيها الإنسان ، وليس معنى ذلك أنْ يتوقفَ الإنسانُ عن الحركة في الأرض؛ ولكن عليه أنْ يرعى منهج الله ، ويمتنع عَمَّا نهى عنه وأنْ يطيعَ ما أمره به .

وأنت لو طبَّقْتَ أوامر الحق سبحانه في « افعل » و « لا تفعل » لاستقامتْ الدنيا في الأمور التي لكَ دَخْل فيها كانتظام الأمور التي ليس لك دَخْل فيها .

واقرأ إنْ شِئْتَ قَوْله الحق : { الرحمن * عَلَّمَ القرآن * خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان * الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ * والنجم والشجر يَسْجُدَانِ * والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان * أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الميزان } [الرحمن : 1–8] .

فإن كنتم تريدون أن تنتظمَ أموركم في الحياة الدنيا؛ فلا تطغَوْا في ميزان أيّ شيء .

وهنا يُذكِّرنا الحق سبحانه ألاَّ نقعَ في خطأ الوهم بأننا سنأخذ نِعَم الدنيا دون ضابط أو رابط؛ فالحساب قادم لا محالة ، ولذلك قال الحق سبحانه : { فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الذي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ } [الزخرف : 41–42] .

أي : مَا قدّره الله سيقع دون أنْ يَصُدَّه شيء مهما كان ، وإمَّا ترى ذلك في حياتك ، أو تراه لحظة البَعْث .

والدليل هو ما حاق بمَنْ كفروا وظلموا وكذَّبوا الرسل ، وعاثوا في الأرض مُفْسدين . وأهلكهم الحق سبحانه بعذابه تطهيراً للأرض مِنْ فسادهم ، هذا جزاؤهم في الدنيا ، وهناك جزاء آخر في اليوم الآخر .

وفي هذا القول تَسلْية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو حين يُعْلِمه الله ما حاقَ بالأمم السابقة التي كذَّبت الرسل؛ هانتْ عليه المتاعب والمشاقّ التي عاناها من قومه ، وليسهُلَ عليه من بعد ذلك أن يتذرَّع بالصبر الجميل ، حتى يأتي وَعْدُه سبحانه ، وليس عليك يا محمد أنْ تُحمّل

نفسك ما لاَ تطيق .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ . . . . } .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86)

وقد جاء سبحانه هنا بالاسم الذي خلق به من عَدَم ، وأمدَّ من عُدْم . وقيُّومية الربوبية هي التي تمدُّ كل الكون برزقه وترعاه؛ فسبحانه هو الذي استدعى الإنسان إلى الكون ، وهو الذي يرعاه .

وكلمة : { رَبَّكَ . . } [الحجر : 86] .

تُوحي بأنه إنْ أصابك شيءٌ بسبب دعوتك ، وبسبب كنود قومك أمامك وعدائهم لك ، فربُّكَ يا محمد لن يتركهم .

والرب كما نعلم هو مَنْ يتولَّى تربية الشي إلي ما يعطيه مناط الكمال ، ولا يقتصر ذلك على الدنيا فقط ، ولكنه ينطبق على الدنيا والآخرة .

وقوله : { الخلاق } [الحجر : 86] .

مبالغة في الخَلْق ، وهي امتداد صفة الخَلْق في كل ما يمكن أنْ يخلق ، لأنه سبحانه هو الذي أعدَّ كل مادة يكون منها أيّ خَلْق ، وأعدّ العقل الذي يُفكِّر في أيّ خلق ، وأعدَّ الطاقة التي تفعل ، وأعدَّ التفاعل بين الطاقة والمادة والعقل المُخطَّط لذلك .

وما يفعله الإنسان المخلوق هو التوليف بين ما خلقه الله من مواد ، وإنْ وُجِد خلاق من البشر؛ فهو وحده سبحانه الذي يهب إنساناً ما أفكاراً لينفذها ، ثم يأتي مَنْ هو أذكى منه لِيُطوِّرها .

ولذلك قال الحق سبحانه : { وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ } [يوسف : 76] .

وهكذا رأينا كل المخترعات البشرية تتطوَّر؛ والمثَل على ذلك هو آلة الحياكة التي صارت تعمل الآن آلياً بعد أن كانت المرأة تجلس عليها لِتكدَّ في ضَبْطها ، وكذلك غسَّالة الملابس ، وغسالة الأطباق والسيارات والطائرات .

ونلحظ أن كل ما خلقه الله يمكن أن يُستفاد من عادمه مثل رَوَث البهائم؛ الذي يُستخدم كسماد ، أما عادم السيارات مثلاً فهو يُلوِّث الجو . وشاشة التلفزيون تُصدِر من الإشعاعات مَا يضر العين ، وتَمَّ بحْثُ ذلك لتلافي الآثار الجانبية في مثل تلك الأدوات التي يسهل الإنسان بها حياتها .

أما ما يخلقه الله فلا توجد له آثار جانبية؛ فسبحانه ليس صاحب عِلْم مُكْتسب أو ممنوح؛ بل العلم صفة ذاتية فيه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً . . . } .

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87)

وهنا يمتنُّ الحق سبحانه على رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه يكفيه أنْ أنزلَ عليه القرآن الكتاب المعجزة ، والمنهج الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه . فالقرآن يضمُّ كمالاتِ الحق التي لا تنتهي؛ فإذا كان سبحانه قد أعطاك ذلك ، فهو أيضاً يتحمَّل عنك كُلَّ ما يُؤلِمك .

والحق سبحانه هو القائل : { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ } [الحجر : 97] .

ويقول له الحق أيضاً : { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ } [الأنعام : 33] .

وأزاح الحق سبحانه عنه هموم اتهامهم له بأنه ساحر أو مجنون؛ وقال له سبحانه : { فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ولكن الظالمين بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ } [الأنعام : 33] .

ويكشف له سبحانه : إنهم يؤمنون أنك يا محمد صادق ، ولكنهم يتظاهرون بتكذيبك .

ويتمثَّل امتنانُ الحق سبحانه على رسوله أنه أنزل عليه السَّبْع المثاني ، واتفق العلماء على أن كلمة « المثاني » تعني فاتحة الكتاب ، فلا يُثنَّى في الصلاة إلا فاتحة الكتاب .

ونجده سبحانه يَصِف القرآنَ بالعظيم؛ وهو سبحانه يحكم بعظمة القرآن على ضَوْء مقاييسه المُطْلقة؛ وهي مقاييس العظمة عنده سبحانه .

والمثَل الآخر على ذلك وَصفُه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : { وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم : 4] .

وهذا حُكْم بالمقاييس العُلْيا للعظمة ، وهكذا يصبح كُلّ متاع الدنيا أقلَّ مِمَّا وهبه الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فلا ينظرَنَّ أحدٌ إلى ما أُعطِيَ غيره؛ فقد وهبه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد عطف القرآن على السَّبْع المثاني ، وهو عَطْف عام على خَاصٍّ؛ كما قال الحق سبحانه : { حَافِظُواْ عَلَى الصلوات والصلاة الوسطى } [البقرة : 238] .

ونفهم من هذا القول أن الصلاة تضمُّ الصلاة الوُسْطى أيضاً ، وكذلك مثل قول الحق ما جاء على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم : { رَّبِّ اغفر لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات } [نوح : 28] .

وهكذا نرى عَطْف عام على خاص ، وعَطْف خاص على عام .

أو : أنْ نقولَ : إن كلمة « قرآن » تُطلَق على الكتاب الكريم المُنزَّل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول آية في القرآن إلى آخر آية فيه ، ويُطلق أيضاً على الآية الواحدة من القرآن؛ فقول الحق سبحانه : { مُدْهَآمَّتَانِ } [الرحمن : 64] .

هي آية من القرآن؛ وتُسمَّى أيضاً قرآناً .

ونجده سبحانه يقول : { إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً } [الإسراء : 78] .

ونحن في الفجر لا نقرأ كل القرآن ، بل بعضاً منه ، ولكن ما نقرؤه يُسمَّى قرآناً ، وكذلك يقول الحق سبحانه : { وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً } [الإسراء : 45] .

وهو لا يقرأ كُلَّ القرآن بل بعضه ، إذن : فكلُّ آية من القرآن قرآن .

وقد أعطى الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم السَّبْع المثاني والقرآن العظيم ، وتلك هي قِمَّة العطايا؛ فلله عطاءاتٌ متعددة؛ عطاءات تشمل الكافر والمؤمن ، وتشمل الطائع والعاصي ، وعطاءات خاصة بمَنْ آمن به؛ وتلك عطاءات الألوهية لمَنْ سمع كلام ربِّه في « افعل » و « لا تفعل » .

وسبحانه يمتد عطاؤه من الخَلْق إلى شَرْبة الماء ، إلى وجبة الطعام ، وإلى الملابس ، وإلى المَسْكن ، وكل عطاء له عُمْر ، ويسمو العطاء عند الإنسان بسُمو عمر العطاء ، فكل عطاء يمتدُّ عمره يكون هو العطاء السعيد .

فإذا كان عطاء الربوبية يتعلَّق بمُعْطيات المادة وقوام الحياة؛ فإن عطاءات القرآن تشمل الدنيا والآخرة؛ وإذا كان ما يُنغِّص أيَّ عطاء في الدنيا أن الإنسانَ يُفارقه بالموت ، أو أن يذوي هذا العطاء في ذاته؛ فعطاء القرآن لا ينفد في الدنيا والآخرة .

ونعلم أن الآخرة لا نهايةَ لها على عكس الدنيا التي لا يطول عمرك فيها بعمرها ، بل بالأجل المُحدَّد لك فيها .

وإذا كانت عطاءاتُ القرآن تحرس القيم التي تهبُك عطاءات الحياة التي لا تفنَى وهي الحياة الآخرة؛ فهذا هو أَسْمى عطاء ، وإياك أن تتطلعَ إلى نعمة موقوتة عند أحد منهم من نِعَم الدنيا الفانية؛ لأن مَنْ أُعطِي القرآن وظنَّ أن غيره قد أُعْطِي خيراً منه؛ فقد حقر ما عَظَّم الله .

وما دام الحق سبحانه قد أعطاك هذا العطاء العظيم ، فيترتب عليه قوله : { لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ . . } .

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88)

والمَدُّ : هو مَطُّ الشيء وزيادته . وللعيْن مسافات تُرَى فيها المرائي؛ كُل عَيْن حَسْب قدرتها ، فهناك مَنْ يتمتع ببصر قوي وحادّ ، وهناك مَنْ ليس كذلك .

ويتراوح الناس في قدرة إبصارهم حسب توصيف وضعه الأطباء؛ ليعالجوا ذلك على قَدْر استطاعتهم العلمية . وفي المثَل اليومي نسمع مَنْ يقول « فلان عنده بُعْد نظر » أي : يملك قدرة على أن يقيسَ رُدود الأفعال ، ويتوقّع ما سوف يحدث ، وما يترتَّب على نتائج أيِّ فعل .

والمراد بمَدِّ العين ليس إخراج حبة العين ومدِّها؛ ولكن المراد إدامة النظر والإمعان ، ولكن الحق

سبحانه عبَّر في القرآن هذا التعبير ، وكأن الإنسان سيخرج حبَّة عينه ليجري بها ، وليُمعِن النظر ، وهذا ما يفهم من منطوق الآية ، والمنطوق يشير إلى المفهوم المراد ، وهذا عين الإعجاز .

وكلمة « متاع » تفيد أن شيئاً يُتمتَّع به وينتهي ، ولذلك يُوصَف متاع الدنيا في القرآن بأنه متَاعُ الغرور ، أي : أنه متاع موقوت بلحظة .

وقول الحق سبحانه :

{ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ . . . } [الحجر : 88] .

هي جَمْع زَوْج ، وسبق أنْ أوضحنا أن كلمة « زوج » هي مفرد ، والذكَر والأنثى حين يتلاقيان يصبح اسمهما زوجين ، والحق سبحانه هو القائل : { سُبْحَانَ الذي خَلَق الأزواج كُلَّهَا } [يس : 36] .

والأزواج كلُّها تعني الفرد ، ومعه الفرد من كل صنف من الأصناف . المراد بكلمة أزواج هنا أن المخالفين لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا شِلَلاً شِللاً؛ ضال ومضل؛ وضال آخر معه مُضِل .

ولحظة الحساب سيقول كل منهم : { قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ } [الصافات : 51] .

وهكذا كانت كلمة « أزواج » تدل على أصناف متعددة من الذين يقفون معاندين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومُنكِرين لمنهجه .

وفي موقع آخر من القرآن يكشف سبحانه عَمَّنْ أغوتْهم الشياطين ، ويحشرهم الحق سبحانه مع الشياطين في نار جهنم : { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ الجن قَدِ استكثرتم مِّنَ الإنس } [الأنعام : 128] .

أي : يا معشرَ الجنِّ قد استطعتُم أنْ تُوحوا لكثير من الإنس بالغواية والمعصية ، ليكونوا أولياءكم ، وهكذا نجد أن كل جماعة تتفق على شيء نُسمِّيهم أزواجاً .

وهنا يُوضِّح الحق سبحانه : إياكَ أنْ تَمُدَّ عينيك إلى ما متَّعنا به أزواجاً منهم ، لأننا أعطيناك أعلى عطاءٍ ، وهو معجزة القرآن حارس القيم ، والذي يضمُّ النَّهْج القويم .

ويتابع سبحانه :

{ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ } [الحجر : 88] .

ويُقال : حزنت منه ، وحَزِنت عليه ، وحَزِنت له؛ فمَنْ ناله ما يُحزن ، ولم يَصْدُر عنك هذا السبب في حزنه؛ فأنت تقول له « حَزِنت لك » .

وآخر ارتكب فِعْلاً يُسِيء إلى نفسه؛ فأنت تحزن عليه . ورسول الله صلى الله عليه وسلم حَزِن عليهم؛ فقد كان يُحِبّ أنْ يؤمنوا ، وأنْ يتمتعوا بالنعمة التي يتمتع هو بها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عن رسوله صلى الله عليه وسلم :

{ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [التوبة : 128] .

فمِنْ رأفته صلى الله عليه وسلم صَعُبَ على نفسه أنْ ينَال قومه مشقةٌ؛ فالرحمة والرأفة مصدرها ما وهبه الله إياه من فَهْم لقيمة نعمة الإيمان .

وفي آية أخرى يقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً } [الكهف : 6] .

أي : أنه لن ينقصَ منك شيء في حالة عدم إيمانهم ، ولن يزيدك إيمانهم أجراً؛ ذلك أن عليك البلاغَ فقط؛ فلماذا تحزن على عدم إيمانهم؟

وقول الحق سبحانه هنا :

{ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ } [الحجر : 88] .

دليل على أن رسول الله صل الله عليه وسلم كان حريصاً على أن يُؤمِن قومه ، محبةً فيهم ، وليتعرَّفوا على حلاوة الإيمان بالله . وكان صلى الله عليه وسلم يتألم ويحز في نفسه عدم إيمانهم ، لدرجة أن الحق سبحانه قال له في آية أخرى : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 3-4] .

وهنا يُوضِّح الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم أن إيمانهم ليس أمراً صعباً عليه سبحانه؛ ذلك أنه قادر أنْ ينزِّل آية من السماء تجعلهم خاضعين؛ مؤمنين؛ لكنه سبحانه يحب أن يأتيه خَلْقُه محبةً ، وأن يُحسِنوا استخدام ما وهبهم من خاصية الاختيار .

فسبحانه لا يقهر أحداً على الإيمان به؛ فالإيمان عَمَل قلوب ، وسبحانه لا يريد قوالب ، وإنما يريد قلوباً خاشعة ، ولو شاء سبحانه من خَلْقه أنْ يأتوه طواعية؛ فالقهر من القاهر يُثبِت له القدرة ، ولكن أنْ يأتيَ الخَلْق إلى خالقهم طواعية؛ فهذا يُثبت له المحبوبية .

والحق سبحانه يريد أن يكون الإيمان نابعاً من محبوبية العابد للمعبود؛ ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم :

{ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ . . . } [الحجر : 88] .

ثم يُوجِّه له الأمر بأنْ يُوجّه طاقة الحنان والمودَّة التي في قلبه إلى مَنْ يستحقها ، وهم المؤمنون برسالته صلى الله عليه وسلم ؛ وعليه أنْ يخفضَ جناحه للمؤمنين .

فكُلُّ حركة من الإنسان هي نزوع يتحرَّك من بعد وُجدْان ، والوُجْدان يُولِّد طاقة داخلية تُهيئ للنزوع وتدفع إليه ، فإن حزن الرسول صلى الله عليه وسلم لعدم إيمان صناديد قريش برسالته؛ فهذا الحُزْن إنما يخصم ويأخذ من طاقته؛ فيأتيه الأمر من الحق سبحانه أن يُوفِّر طاقته ، وأنْ يُوجِّهها لمَنْ آمن به؛ وأن يخفِضَ جناحه لهم .

وخَفْض الجناح هو التواضُع؛ ذلك أن الجناحَ هو الجانب ، فحين يأتيك إنسانٌ تريد أنْ تتكبَّر

عليه؛ فهو يقول « فلان لَوَى عنِّي جانبه » .
وهكذا يأمر الحق سبحانه رسوله أن يتواضع مع المؤمنين؛ وأنْ يتوجه إليهم لا باستقامة قالبه ، بل أن ينزل هذا القالب قليلاً
وكلمة : { واخفض جَنَاحَكَ .

. . } [الحجر : 88] مأخوذة من خَفْض جناح الطائر ، فالطائر يرفع جناحه عند الطيران ، ولكن ما أنْ يلمسَ هذا الطائر فَرْخَه الصغير حتى يَخفِض جناحه له ليضمه إليه .
إذن : فالطاقة التي كنتَ تُوجِّهها يا رسول الله إلى مَنْ لا يستحق؛ عليك أنْ تُوجِّهها لِمَنْ يستحقها ، فيكفيك أن تُبلِّغ الناس جميعاً برسالتك؛ ومَنْ يؤمن منهم هو مَنْ يستحق طاقةَ حنانِك ورحمتك .
وخَفْض الجناح لِمَنْ آمن برسالتك لا يورثه كِبْراً عليك؛ بل يزيده أدباً معك .
وقد جاء في الأثر : « إذا عَزَّ أخوك فَهُنْه » أي : أنك إذا رأيتَ أخاك في وضع يعِزّ عليك ، فَهُنْ له أنت .
ومن قبل الإسلام قال الشاعر العربي :
صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهْلٍ ... وقُلْنا القَوْمُ إخْوانُ
عَسَى الأيامُ أنْ يَرْجِعْ ... نَ قَوْماً كَالذِي كَانُوا
فَلمَّا صَرَّح الشَّر ... فَأَمْسَى وَهْوَ عُرْيَانُ
مَشَيْنَا مِشْيَةَ اللَيْثِ ... غَدا واللَيْثُ غَضْبَان
بِضَرْبٍ فِيهِ تَوْهِينٌ ... وتَخْضِيعٌ وإقرانُ
وَطَعْنٍ كَفَمِ الزِّقِّ ... غَدَا والزِّق مَلآنُ
وَفِي الشَّرِّ نَجَاة حِي ... ينَ لاَ يُنجِيكَ إحسَانُ
وَبعضُ الحلمِ عِنْدَ الجَه ... لِ لِلْذلةِ إذْعَانُ
ونجد القرآن حينما يطبع خلق المؤمن بالله وبالمنهج؛ لا يطبعه بطابع واحد يتعامل به مع كل الناس ، بل يجعل طَبْعه الخُلقي مطابقاً لموقف الناس منه ، فيقول : { أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين } [المائدة : 54] .
ويقول أيضاً في وصف المؤمنين : { أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ } [الفتح : 29] .
وهكذا لم يطبع المؤمن على الشدة والعزة ، بل جعله يتفاعل مع المواقف؛ فالموقف الذي يحتاج إلى الشدة فهو يشتد فيه؛ والموقف الذي يحتاج إلى لِينٍ فهو يلين فيه .
والحكمة الشاعرة تقول :

وَوَضْعُ النَّدى في مَوضْعِ السَّيف بالعلي مضر ... كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضعِ النَّدَى

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَقُلْ إني . . . } .

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89)

ونعلم أن الرسل مُبشرّين ومُنذرِين؛ ولسائل أنْ يقولَ : ولماذا تأتي صيغة الإنذار دائماً؟ وأقول : إن مَنْ يؤمن هو مَنْ يتلقَّى البشارة؛ أما مَنْ عليه أنْ يتوقَّع النِّذارة فهو الكافر المُنكِر .

وفي الإنذار تخويفٌ بشيء ينالُ منك في المستقبل؛ وعليك أنْ تَعُد العُدَّة لتبتعد بنفسك أن تكون فيه ، والتبشير يكون بأمر تتمناه النَّفْس . وبالإنذار والتبشير يتضح الموقف بجلاء ، ويُحَاط الإنسان بكل قضايا الحياة؛ ويتضح مسَار كُل أمرٍ من الأُمورِ .

وبذلك يكون الحق سبحانه في الآيتين السابقتين قد امتنَّ على رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه قد آتاه السبع المثاني والقرآن العظيم؛ ولذلك يوصيه ألاَّ تطمح نفسه إلى ما أوتي بعضٌ من الكفار من جاه ومال ، فالقرآن عزُّ الدنيا والآخرة .

ويوصيه كذلك بألا يحزنَ عليهم نتيجة انصرافهم عن دعوته ، فليس عليه إلا البلاغ ، وأن يتواضعَ صلى الله عليه وسلم للمؤمنين ليزداد ارتباطهم به ، فهم خير من كل الكافرين برسالته صلى الله عليه وسلم . ثم يُوصيه الحق سبحانه أن يُبلغ الجميع أنه نذير وبشير ، يوضح ما جاء في القرآن من خير يعُمَّ على المؤمنين ، وعقاب ينزل على الكافرين .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إنما مثَلي ومثَل ما بعثني اللهُ به كمثَلِ رجلٍ أتى قوماً فقال : يا قوم ، إني رأيتُ الجيشَ بعينيَّ ، وإني أنا النذير العُرْيان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فَأدْلجوا فانطلقوا على مهلهِم فَنجَوْا ، وكذَّبت طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثَل مَنْ أطاعني فاتَّبع ما جِئْتُ به ، ومثَل مَنْ عصاني وكذَّب بما جئتُ به من الحقِّ » .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : {كَمَآ أَنْزَلْنَا . . . } .

كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90)

ونعلم أنه سبحانه قد أنزل كتابه على رسوله صلى الله عليه وسلم ، واستقبله الناس استقباليْنِ : فمنهم مَنِ استمع إلى القرآن فتبصَّر قول الحق وآمن ، وفي هؤلاء قال الحق سبحانه : { وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرسول ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فاكتبنا مَعَ الشاهدين } [المائدة : 83] .

والصنف الآخر استمع إلى القرآن ، فكانت قلوبهم كالحجارة ، وفيهم قال الحق سبحانه : {

وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ } [محمد : 16] .

ذلك أن قلوبهم مُمْتلئة بالكفر؛ وقد دخلوا ومعهم حكم مُسْبق ، فلم يقيموا ميزانَ العدل ليقيسوا به فائدة ما يسمعون .

ولذلك أوضح الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ألا يحزن ، فالمسألة لها سوابق مع غيرك من الرسل؛ فقد نزل كل رسول بكتاب يحمل المنهج ، ولكن الناس استقبلوا تلك الكتب كاستقبال قومك لِمَا نزل إليك بين كافر ومؤمن ، واختلفوا في أمور الكُتب المنزَّلة إلى رسلهم .

وكان انقسامهم كانقسام قومك حول الكتاب المُنزَّل إليك ، فلا تحزنْ إنِ اتهموك بأنك ساحرٌ ، أو أن ما نزل إليك كتابُ شعر ، أو أنك تمارس الكهانة؛ أو فقدوا القدرة على الحكم عليك واتهموك بالجنون .

وهكذا قَسَّموا القرآن المُنزَّل من الله سبحانه إلى أقسام هي : السِّحْر ، والكهانة ، والشعر ، والجنون ، كما فعل من قبلهم أقوام أخرى :

فمنهم مَنْ قال ، وأثبته القرآن عليهم : { إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } [الشعراء : 27] .

وهكذا تعلم يا رسول الله أنك لست بِدْعاً من الرسل ، ذلك أن الرسل لا يأتون أقوامهم إلا وقد طَمَّ الفساد والبلاء ، ولا يوجد فساد إلا بانتفاع واحد بالفساد بينما يضرُّ بالآخرين .

وإذا ما جاء رسول ليصلح هذا الفساد يهُبُّ أهل الاستفادة من الفساد ليقاوموه ويضعوا أمامه العراقيل؛ مثلما حدث معك يا رسول الله حين قال بعضهم : { لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ } [فصلت : 26] .

ومثل هذا القول إنما يدلُّ على أنهم لو صَفُّوا نفوسهم ، واستمعوا للقرآن لاهتدوا؛ لذلك يقول لهم سادتهم : { والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [فصلت : 26] .

أي : شَوِّشوا عليه .

وهكذا فالاقتسام الذي استقبل به الكفار القرآن سبق وأنْ حدث مع الرسل الذين سبقوك .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { الذين جَعَلُواْ . . . } .

الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91)

وكلمة (عضين) تعني القطع؛ فيُقال للجزار حين يذبح الشاة أو العجل أنه قد جعله عِضين .

أي : فصَل كُلَّ ذراع عن الآخر ، وكذلك قطع الفخذ؛ أي : أنه جعل الذبيحة قِطَعاً قِطَعاً بعد أنْ كانت أعضاء مُتصلة .

وكذلك كان القرآن حينما نزل كياناً واحداً؛ فأراد بعض من الكفار أن يُقطِّعوه إلى أجزاء .

والمقصود هنا هم جماعة من اليهود وجماعة من النصارى الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا أنْ يُقطِّعوا القرآن كما فعلوا مع الكتابين اللذين نزلا على موسى ، وهما التوراة؛ والإنجيل الذي جاء به عيسى .

وقد قال الحق سبحانه فيهما : { وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ } [المائدة : 13] .

أي : أن بعضاً من اليهود قد نَسُوا بعضاً من التوراة ، وكذلك نسى البعض من أتباع عيسى بعضاً من الإنجيل الذي نزل عليه .

وإنْ وجدنا لهم العذر في النسيان؛ فماذا عن الذي كتموه من تلك الكتب؟ وماذا عن الذي بدَّلوه وحرَّفوه من كلمات تلك الكتب؟ وماذا عن الذي أضافوه عليه ، ولم ينزل من عند الله؟ وقد فضح سبحانه كل ذلك في القرآن .

أو : أن اليهود استقبلوا القرآن استقبالَ مَنْ يُصدِّق بعضه مِمَّا لا يتعبهم ، وكذَّبوه في البعض الذي يتعبهم ، فقد كذَّبوا مثلاً أن كتابهم قد بشَّرهم بمحمد عليه الصلاة والسلام .

وهكذا نرى كيف حاولوا أن يجعلوا القرآن عِضين ، أي : قطعاً مفصولة عن بعضها البعض ، وقد حاولوا ذلك بعد أن تبيَّن لهم أن القرآن مُؤثِّر وفاعل .

وشاء الحق سبحانه للقرآن أن يحمل النذارة والبشارة؛ فالرسول نذير بالقرآن المبين الواضح لِمَنِ اقتسموا الأمر بالنسبة لمحمد – عليه الصلاة والسلام – فقِسْم منهم تفرَّغ للاستهزاء بمحمد ومَنْ آمنوا معه؛ وجماعة أخرى قسَّمتْ أعضاءها ليجلسوا على أبواب مكة أثناء موسم الحج ، ويستقبلون القادمين للحج من البلاد المختلفة ليحذروهم من الاستماع لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ومن هؤلاء مَنْ وصف الرسولَ صلى الله عليه وسم بالجنون؛ ومنهم مَنْ وصف القرآن بأنه شِعْر؛ ومنهم مَنْ وصفَ الرسول بأنه ساحر .

ثم يقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ . . . } .

فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92)

وهنا يُقسِم الحق سبحانه بصفة الربوبية التي تعهدتْ رسوله بالتربية والرعاية ليكون أهلاً للرسالة أنه لن يُسلِمه لأحد ، وهو سبحانه مَنْ قال : { وَلِتُصْنَعَ على عيني } [طه : 39] .

أي : أن كل رسول هو مصنوع ومَحْميّ بإرادته سبحانه؛ وتلك عناية الحماية للمنهجية الخاصة ، وعناية المصطفين الذين يحملونَ رسالته إلى الخَلْق؛ فقد رزق سبحانه خَلْقه جميعاً؛ والرسل إنما يأتون لمهمة تبليغ المنهج الذي يُدير حركة الحياة؛ لذلك لا بُدَّ أن يُوفِّر لهم الحق سبحانه عناية من نوع خاص .

وقَوْل الحق سبحانه هنا :

{ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [الحجر : 92] .

يُبيّن لنا أنه سيسألهم سبحانه عن أدقِّ التفاصيل؛ ومجرد توجيه السؤال إليهم فيه لَوْن من العذاب .

ويحاول البعض مِمَّنْ يريدون أنْ يعثروا على تعارض في القرآن أن يقولوا : كيف يقولَ الله مرة : { فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ } [الرحمن : 39] .

ويقول في اكثر من موقع بالقرآن أنه سيسأل هؤلاء المُكذِّبين؛ فكيف يُثبِت السؤالَ مرة ، وينفيه مرة أخرى؟

ونقول لهؤلاء : أنتم تستقبلون القرآن بسطحية شديدة ، فهذا الذي تقولون إنه تعارض إنما هو مجرد ظاهر من الأمر ، وليس تعارضاً في حقيقة الأمر .

ونحن نعلم أن السؤال أيّ سؤال له مُهِمتان ، المُهِمة الأولى : أن تعلم ما تجهل . والمهمة الثانية : لتقرَّ بما تعلم .

والحق سبحانه حين ينفي سؤالاً فهو ينفي أن أحداً سيُخبره بما لا يعلم سبحانه؛ وحين يثبت السؤال؛ فهذا يعني أنه سيسألهم سؤالَ الإقرار .

وهكذا نعلم أن القرآن إذا أثبت حدثاً مرة ونفَاهُ مرة أخرى ، فاعلم أن الجهة مُنفكّة ، أي : أن جهة النفي غَيْر جهة الإثبات ، وكُلٌّ منهما لها معنًى مختلف .

وقوله هنا :

{ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [الحجر : 92] .

يعني أن الضَّال والمُضِلْ ، والتابع والمتبوع سَيُسألون عَمَّا عملوا . ثم يقول الحق سبحانه : { عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } .

عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93)

والعمل كما نعلم هو اتجاه جارحة إلى مُتعلّقها؛ فجارحةُ العين مُتعلِّقها أنْ ترى؛ وجارحةُ اللسان مُتعلِّقها أن تتكلم ، وجارحةُ اليد إما أنْ تُربّت ، وإما أنَ تبطشَ .

وهكذا فكُلُّ ما تصنعه ملكَاتُ الإدراك في النفس البشرية نُسمِّيه عملاً . وسبق أن علمنا أن العمل ينقسم إلى قول وفعل .

ويقول الحق سبحانه : { وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [البقرة : 74] .

أي : تذكَّروا أن الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء ، وأن كل ما تعملونه يعلمه ، وأنكم ملاقونه يوم القيامة ومحتاجون إلى رحمته ومغفرته .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ . . . } .

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94)

أي : افرغ لِمُهمتك؛ فالصّدع تصنع شقاً في متماسك ، كما نشق زجاجاً بالمشرط الخاص بذلك ، أو ونحن نصنع شقاً في حائط . والرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء لِيشقَّ الكفر ويهدم الفساد القوي المتماسك الذي يَقْوي بقوة صناديد قريش .

وقد شاع ذلك المصطلح « الصدع » في الزجاج؛ لأن أيَّ شقٍّ في أيّ شيء من الممكن أنْ يلتئمَ إلا في الزجاج؛ لأنه يصعب أن يجمع الإنسان الفتافيت والقطع الصغيرة التي تنتج من صدعه ، وقد جاء الإيمان ليصدع بنيان الكفر والفساد المتماسك .

وقول الحق سبحانه :

{ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين } [الحجر : 94] .

أي : أَعْطِهم عرض كتفيك ، ولا تسأل عنهم؛ فَهُم لن يُسلِموا لك ، ذلك أنهم مستفيدون من الفساد الذي جِئْتَ أنت لتهدمه ، ولكنهم سيأتون لك تباعاً بعد أن تتثبت دعوتُك ، وتصل قلوبهم إلى تيقُّن أن ما جئتَ به هو الحق .

والمثَل هو إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص؛ فقد قالا : « لقد استقر الأمر لمحمد ، ولم تَعُدْ معارضتنا له تفيد أحداً » ، ودخلاَ الإسلام .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { إِنَّا كَفَيْنَاكَ . . . } .

إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95)

فبعد أنْ قال له : { وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين } [الحجر : 94] .

وبعد أن ثبت لكل مَنْ عاش تلك الفترة أن كل مُستهزيء بمحمد صلى الله عليه وسلم قد ناله عقاب من السماء . فها هو ذا الوليد بن المغيرة الذي يتبختَّر في ثيابه؛ فيسير على قطعة من الحديد ، فيأنَفُ أن ينحنيَ لِيُخلّص ثوبه الذي اشتبك بقطعة الحديد؛ فتُجرح قدمه وتُصاب بالغرغرينا ويقطعونها له ، ثم تنتشر الغرغرينا في كُلِّ جسده إلي أنْ يموتَ .

وها هو الثاني الأسود بن عبد يغوث يُصاب بمرض في عينيه؛ ويُصاب بالعمَى ، وكذلك الحارث بن الطلاطلة ، والعاصي بن وائل .

وكل مستهزيء برسول الله صلى الله عليه وسلم قد ناله عقابٌ ما ، ومَنْ لم تُصِبْه عاهة أو آفة صرعتْه سيوف المسلمين في بدر ، لدرجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حدد المواقع التي سيلْقى فيها كل واحد من صناديد قريش حَتْفه؛ فقال : هنا مصرع فلان ، وهناك مصرع فلان .

وقد أوضح صلى الله عليه وسلم تلك المواقع من قبل أن تبدأ المعركة ، ونعلم أن الحرب تتطلب

كَراً وفَراً ، ولكن ما تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حدث بالضبط .
ويُحدِّد الحق سبحانه نوعية هؤلاء المستهزئين بقوله : { الذين يَجْعَلُونَ مَعَ الله . . . } .

الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96)

أي : أن هؤلاء المشركين الذين يَهْزءون بك لهم عذابهم؛ ذلك أنهم أشركوا بالله سبحانه ، وحين يقول الحق سبحانه :
{ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [الحجر : 96] .
ففي هذا القول استيعاب لكل الأزمنة ، أي : سيعلمون الآن ومن بعد الآن ، فكلمة « سوف » تتسع لكل المراحل ، فالحق سبحانه لم يأخذهم جميعاً في مرحلة واحدة ، بل أخذهم على فترات . فحين يأخذ المُتطرِّف في الإيذاء؛ قد يرتدع مَنْ يُؤذِي ، ويتراجع عن الاستمرار في الإيذاء ، وقد يتحوّل بعضهم إلى الإيمان؛ فمَنْ كانت شِدّته على رسول الله صلى الله عليه وسلم تصبح تلك الشدة في جانب الرسول صلى الله عليه وسلم .
وها هو المَثَلُ واضح في عكرمة بن أبي جهل؛ يُصَاب في موقعة اليرموك؛ فيضع رأسه على فَخذِ خالد بن الوليد ويسأله : يا خالد ، أهذه ميتة تُرضِي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيرد خالد : « نعم » . فيُسلِم الروح مُطْمئناً .
وهؤلاء المستهزئون؛ قد أشركوا بالله؛ فلم تنفعهم الآلهة التي أشركوها مع الله شيئاً ، وحين يتأكد لهم ذلك؛ فَهُمْ يتأكدون من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أبلغ عن الحق سبحانه .
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ . . . } .

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97)

وفي هذا القول الكريم يتجلَّى تقدير الحق سبحانه لمشاعر النبوة ، فالحق يُكلِّفه أنْ يفعلَ كذا وكذا ، وسبحانه يعلم أيضاً ما يعانيه صلى الله عليه وسلم في تنفيذ أوامر الحق سبحانه .
ورد هذا المعنى أيضاً في قوله سبحانه : { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ولكن الظالمين بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ } [الأنعام : 33] .
فأنت يا رسولَ الله أكرم من أنْ تكذبَ ، فقد شهدوا لك بحُسْن الصدق عبر معايشتهم لك من قبل الرسالة .
وهنا يقول سبحانه :
{ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ } [الحجر : 97] .
ومعنى ضيق الصدر أنْ يقِلّ الهواء الداخل عَبْر عملية التنفُّس إلى الرئتين؛ فمن هذا الهواء

تستخلص الرئتان الأوكسجين؛ وتطرد ثاني أوكسيد الكربون؛ ويعمل الأكسجين على أنْ يُؤكسِدَ الغذاء لِينتجَ الطاقة؛ فإنْ ضاق الصَّدْر صارت الطاقة قليلة .

والمثَل يتضح لِمَنْ يصعدون السُّلَّم العالي لأيّ منزل أو أيّ مكان؛ ويجدون أنفسهم ينهجون؛ والسبب في هذا النهجَ هو أن الرئة تريد أنْ تُسرِع بالتقاط كمية الهواء أكبر من تلك التي تصل إليها ، فيعمل القلب بشدة اكثر كي يُتيح للرئةِ أن تسحبَ كمية أكبر من الهواء .

أما مَنْ يكون صدره واسعاً فهو يسحب ما شاء من الهواء الذي يتيح للرئة أن تأخذَ الكمية التي تحتاجها من الهواء ، فلا ينهج صاحب الصدر الواسع .

فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان يُكذِّبه أحد ، أو يستهزيء به أحد كان يضيق صَدْره فتضيق كمية الهواء اللازمة للحركة؛ ولذلك يُطمئِنه الحق سبحانه أن مَدَده له لا ينتهي .

وأنت تلحظ عملية ضيق الصدر في نفسك حين يُضايقك أحد فتثور عليه؛ فيقول لك : لماذا يضيق صدرك؟ وَسِّع صدرك قليلاً .

والحق سبحانه يقول في موقع آخر : { فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ } [الأنعام : 125] .

أي : يُوسّع صدره ، وتزداد قدرته على فَهْم المعاني التي جاء بها الدين الحنيف .

ويقول أيضاً : { وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السمآء } [الأنعام : 125] .

وهنا نجد أن الحق سبحانه يشرح عملية الصعود وكأن فيها مجاهدةً ومكابدةً ، وهذا يخالف المسألة المعروفة بأنك إذا صعدتَ إلى أعلى وجدتَ الهواء اكثرَ نقاءً .

وقد ثبت أن الإنسان كلما صعد إلى أعلى في الفضاء فلن يجد هواء .

ويدلُّ الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسم على علاج لمسألة ضيق الصدر حين يُحزنه أو يؤلمه مُكذّب ، أو مُسْتهزيء؛ فيقول سبحانه : { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ . . } .

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98)

وهكذا يمكن أن تُذْهب عنك أيَّ ضيق ، أن تسبح الله . وإذا ما جافاكَ البِشْر أو ضايقك الخَلْق؛ فاعلم أنك قادر على الأُنْس بالله عن طريق التسبيح؛ ولن تجد أرحم منه سبحانه ، وأنت حين تُسبِّح ربك فأنت تُنزِّهه عن كُلِّ شيء وتحمده ، لتعيش في كَنَف رحمته .

ولذلك نجده سبحانه يقول في موقع آخر : { فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [الصافات : 143-144] .

ولذلك إذا ضاق صدرك في الأسباب فاذهب إلى المُسبِّب .

ونحن دائماً نقرن التسبيح بالحمد ، فالتنزيه يكون عن النقائص في الذات أو في الصفات أو في

الأفعال ، وسبحانه كاملٌ في ذاته وصفاته وأفعاله ، فذاتُه لا تُشْبِه أيَّ ذات ، وصفاته أزلية مُطْلقة ، أما صفات الخَلْق فهي موهبة منه وحادثة .

وأفعال الحق لا حاكمَ لها إلا مشيئته سبحانه ، ولذلك نجده جَلَّ وعَلا يقول في مسألة التسبيح : { سُبْحَانَ الذي خَلَق الأزواج كُلَّهَا . . } [يس : 36] .

وهو القائل : { فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ } (الروم : 17] .

وكُلٌّ من المساء والصباح آية منه سبحانه؛ فحين تغيب الشمس ، فهذا إذْنٌ بالراحة ، وحين تصبح الشمس فهذا إذْنٌ بالانطلاق إلى العمل ، وتسبيح المخلوق للخالق هو الأمر الذي لا يشارك اللهَ فيه أحدٌ من خَلْقه أبداً .

فكأن سَلْوى المؤمن حين تضيق به أسباب الحياة أنْ يفزَع إلى ربه من قسوة الخَلْق؛ ليجد الراحة النفسية؛ لأنه يأْوي إلى رُكْن شديد .

ونجد بعضاً من العارفين بالله وهم يشرحون هذه القضية ليوجدوا عند النفس الإيمانية عزاءً عن جَفْوة الخَلْق لهم؛ فيقولون : « إذا أوحشك من خَلْقه فاعلم أنه يريد أن يُؤنسك به » .

وأنت حين تُسبّح الله فأنت تُقِرّ بأن ذاته ليستْ كذاتِك ، وصفاته ليست كصفاتك ، وأفعاله ليست كأفعالك؛ وكل ذلك لصالحك أنت؛ فقدرتك وقدرة غيرك من البشر هي قدرة عَجْز وأغيار؛ أما قدرته سبحانه فهي ذاتية فيه ومُطْلقة وأَزلية ، وهو الذي يأتيك بكُل النِّعم .

ولهذا فعليك أنْ تصحبَ التنزيه بالحمد ، فأنت تحمد ربك لأنه مُنزَّه عن أنْ يكونَ مثلك ، والحمد لله واجب في كل وقت؛ فسبحانه الذي خلق المواهب كلها لِتخدُمَك ، وحين ترى صاحب موهبة وتغبطه عليها ، وتحمد الله أنه سبحانه قد وهبه تلك الموهبة؛ فخيْرُ تلك النعمة يصِل إليك .

وحين تُسبّح بحمد الله؛ فسبحانه لا يُخلِف وَعْده لك بكل الخير؛ فَكُلُّنا قد نُخلِف الوعد رغماً عَنَّا ، لأننا أغيار؛ أما سبحانه فلا يُخلِف وعده أبداً؛ ولذلك تغمرك النعمة كلما سبَّحْتَ الله وحمدته .

وزِدْ خضوعاً للمُنْعِم ، فاسجُدْ امتثالاً لأمره تعالى :

{ وَكُنْ مِّنَ الساجدين } [الحجر : 98] .

فالسجود هو المَظْهر الواسع للخضوع ، ووجه الإنسان كما نعلم هو ما تظهر به الوجاهة؛ وبه تَلْقَى الناس؛ وهو أول ما تدفع عنه أيَّ شيء يُلوّثه أو ينال من رضاك عنه .

ومَنْ يسجد بأرقى ما فيه؛ فهذا خضوع يُعطي عِزّة ، ومَنْ يخضع لله شكراً له على نعمه فسبحانه يعطيه من العزة ما يكفيه كل أَوْجُه السجود ، وكُلُّنا نذكر قَوْل الشاعر :

وَالسُّجود الذِي تَجْتوِيه فِيهِ ... مِنْ أُلوفِ السُّجودِ نَجَاةٌ

والسجود هو قمة الخضوع للحق سبحانه . والإنسان يكره لفظ العبودية؛ لأن تاريخ البشرية حمل كثيراً من المظالم نتيجة عبودية البشر للبشر . وهذا النوع من العبودية يعطي كما نعلم خَيْر

العبد للسيد؛ ولكن العبودية لله تعطي خَيْره سبحانه للعباد ، وفي ذلك قِمَّة التكريم للإنسان .
ويقول سبحانه من بعد ذلك : { واعبد رَبَّكَ . . . } .

وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)

ونعرف أن العبادة هي إطاعة العابد لأوامر المعبود إيجاباً أو سَلْباً ، وتطبيق « افعل » و « لا تفعل » ، وكثيرٌ من الناس يظنون أن العبادة هي الأمور الظاهرية في الأركان الخمسة من شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقامة الصلاة؛ وإيتاء الزكاة؛ وصوم رمضان؛ وحِجّ البيت لِمَن استطاع إليه سبيلاً .
ونقول : لا ، فهذه هي الأُسس التي تقوم عليها العبادة . أي : أنها البِنْية التي تقوم عليها بقية العبادة ، وهكذا تصبح العبادة هي ، كُل ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب ، أي : أن حركة الحياة كلها حتى كَنْس الشوارع ، وإماطة الأذى عن الطريق هي عبادة ، كل ما يُقصد به نَفْع الناس عبادة ، كي لا يصبح المسلمون عالة على غيرهم .
وفي إقامة الأركان إظهارٌ لقوة المسلمين ، حين يُظهِرون كامل الولاء لله بإقامة الصلاة خمس مرات في اليوم الواحد ، فيترك المسلم عمله فَوْر أنْ يسمع النداء ب « الله أكبر » فيخرج المسلم من صراعات الحياة ، ويعلن الولاء للخالق المنعم .
وحين يصوم المسلم شهراً في السنة؛ فهو يُعلِن الولاء للخالق الأكرم ، ويصوم عن أشياء كثيرة كانت مُبَاحة؛ وأوَّل ما يأتي موعد الإمساك من قَبْل صلاة الفجر بقليل؛ فهو يمتنع فوراً .
وهذا الامتثال لأوامر الحق سبحانه يُذكِّرك بنعمه عليك؛ فأنت في يومك العادي لا تقرب المُحرَّمات التي أخذتْ وقتاً أثناء بدايات الدين إلى أن امتنع عنها المسلمون ، فلا أحدَ من المسلمين يُفكِّر في شُرْب الخمر؛ ولا أحدَ منهم يُفكِّر في لعب المَيْسِر ، وانطبعتْ تلك الأمور؛ وصارتْ عادة سلوكية في إلْف ورتَابة عند غالبية المسلمين مِمَّنْ يُنفِّذون شريعة الله ، ويُطبّقون « افعل » و « لا تفعل » .
وعندما يأتي الصوم فأنت تمتنع عن أشياء هي حلال لك طوال العالم ، وتقضي أي نهار في رمضان ونفسُك تستشرف سماع أذان المغرب لِتُفطر .
وهكذا تمتثل للأمر بالامتناع والإمساك والأمر بالإفطار ، وذلك لِيعُوّدك على الكثير من الطاعات التي تصير عند المؤمنين عادةً؛ وسبحانه يريد أنْ يُديم عليك لذَّة التكليف العبادي .
وبعْضٌ من الناس يذهبون مذاهب الخطأ عندما يفسرون بأهوائهم قوله الحق :
{ واعبد رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين } [الحجر : 99] .
ويقول الواحد من هؤلاء مخادعاً الغير « لقد وصلت إلى مرتبة اليقين » ، ويمتنع عن أداء الفروض من صلاة وصوم وزكاة وحِجّ إلى بيت الله الحرام رغم استطاعته ، ويدَّعِي أن التكليف قد سقط

عنه؛ لأن اليقين قد وصله .
ونقول لمن يدَّعي ذلك : أَتُخادع الله ورسوله؟ وكُلُّنا يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظَلَّ يُؤَدِّي الفرائض حتى آخر يوم في حياته . وكُلُّنا يعلم أن اليقين المُتفق عليه والمُتيقن من كل البشر ، ولا خلافَ عليه أبداً هو الموت .

أما اليقين بالغيبيات فهو من خُصوصيات المؤمن؛ فما أنْ بلغه أمرها من القرآن فقد صَدَّقها ، ولم يسأل كيف يتأتَّى أمرُها . والمثَلُ الواضح هو أبو بكر الصديق حينما كانوا يُحدِّثونه بالأمر الغريب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يقول « مادام قد قال فقد صدق » .
أما الكافر والعياذ بالله فهو يشكُّ في كل شيء غيبيّ أو حتى ماديّ ما لم يكن محسوساً لديه ، ولكن ما أنْ يأتيه الموت حتى يعلمَ أنه اليقين الوحيد .
ولذلك نجد عمر بن عبد العزيز يقول : « ما رأيت يقيناً أشبه بالشكِّ من يقين الناس بالموت » .
وكلنا نتيقن أننا سوف نموت؛ لكِنَّا نُزحزِح مسألة اليقين هذه بعيداً عَنَّا رَغْم أنها واقعةٌ لا محالةَ .
فإذا ما جاء الموت ، نقول : ها هي اللحظة التي لا ينفع فيها شيء إلا عمل الإنسان إنْ كان مؤمناً مُؤدِّياً لحقوق الله .
ولذلك أقول دائماً : إن اليقين هو تصديق الأمر تصديقاً مؤكداً ، بحيث لا يطفو إلى الذهن لِيُناقش من جديد ، بعد أن تكون قد علمته من مصادر تثق بصدق ما تَبلغك به .
أما عَيْن اليقين؛ فهي التي ترى الحدث فتتيقّنه ، أو هو أمر حقيقيّ يدخل إلى قلبك فَتُصدقه ، وهكذا يكون لليقين مراحل : أمر تُصدِّقه تَصديقاً جازماً فلا يطفو إلى الذهن لِيُناقَش من جديد ، وله مصادر عِلْم مِمَّنْ تثق بصدقه ، أو : إجماع من أناس لا يجتمعون على الكذب أبداً؛ وهذا هو « علم اليقين »؛ فإنْ رأيتَ الأمر بعينيك فهذا هو حق اليقين .
والمؤمن يُرتِّب تصديقه وتيقّنه على ما بلغه من رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وها هو الإمام عليّ كرَّم الله وجهه وأرضاه يقول : « ولو أن الحجاب قد انكشف عن الأمور التي حدثنا بها رسول الله غيباً ما ازددتُ يقيناً » .
« وها هو سيدنا حارثة رضي الله عنه يقول : » كأنِّي أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عرفت فالزم » .
وذلك هو اليقين كما آمنَ به صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1)

هكذا تبدأ السورة الجليلة؛ مُوضِّحةً أن قضاءَ الله وحُكْمه بنصر الرسول والمؤمنين لا شَكَّ فيه ولا محَالة؛ وأن هزيمة أهل الكفر قادمة ، ولا مَفرَّ منها إنْ هُم استمرُّوا على الكفر .

وقد سبق أنْ أنذرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بما نَزل عليه من آيات الكتاب؛ أنذرهم في السورة السابقة ببعض العذاب الدنيوي ، كنصر الإيمان على الكفر ، وأنذرهم مِنْ قَبْل أيضاً ببعض العذاب في الآخرة ، كقوْل الحق سبحانه : { فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [غافر : 77] .

وكذلك قوله الحق : { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } [القمر : 45] .

وهكذا وعد الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أنْ يهزِم معسكر الكفر ، وأنْ ينصرَ معسكر الإيمان؛ وإما أنْ يرى ذلك بعينيه أو إنْ قبض الحق أجلَه فسيراها في الآخرة .

وعن حال الرسول صلى الله عليه وسلم قال سبحانه : { إِنَّا كَفَيْنَاكَ المستهزئين } [الحجر : 95] .

وأنذر الحق سبحانه أهل الشرك بأنهم في جهنم في اليوم الآخر ، وهنا يقول سبحانه :

{ أتى أَمْرُ الله } [النحل : 1] .

وهذا إيضاحٌ بمرحلة من مراحل الإخبار بما يُنذِرون به ، كما قال مرة : { اقتربت الساعة وانشق القمر } [القمر : 1] .

أي : اقتربتْ ساعة القيامة التي يكون من بعدها حسابُ الآخرة والعذاب لِمَنْ كفر ، والجنة لِمَنْ آمنَ وعمِل صالحاً ، فاقترابُ الساعة غَيْر مُخيف في ذاته ، بل مُخيف لِمَا فيه من الحساب والعقاب .

وقيل : إن أهلَ الكُفْر لحظة أنْ سَمِعوا قول الحق سبحانه : { اقتربت الساعة } [القمر : 1] . قالوا : « فلننتظر قليلاً؛ فقد يكون ما يُبلِّغ به محمد صحيحاً » وبعد أن انتظروا بعضاً من الوقت ، ولم تَأْتِ الساعة كما بَشَّر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قالوا : انتظرنا ولم تَأْتِ الساعة ، فنزل قول الحق سبحانه : { اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ } [الأنبياء : 1] .

وهذا حديث عن الأمر الذي سيحدث فوْرَ قيام الساعة ، فَهَادنُوا وانتظروا قليلاً ، ثم قالوا : أيْنَ الحساب إذن؟ فنزل قوله تعالى :

{ أتى أَمْرُ الله . . } [النحل : 1] .

وساعة سَمِع الكُلُّ ذلك فَزِعوا؛ بمن فيهم من المسلمين؛ وجاء الإسعاف في قوله من بعد ذلك :

{ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ . . . } [النحل : 1] .

أي : أن الأمر الذي يُعلنه محمد صلى الله عليه وسلم لا يعلم ميعادَه إلا الله سبحانه؛ واطمأنَّ المسلمون .

وكُلُّ حدث من الأحداث كما نعلم يحتاج كُلٌّ منها لظرفيْن؛ ظرْفِ زمانٍ؛ وظرْفِ مكان . والأفعال التي تدلُّ على هذه الظروف إما فِعْل مَاض؛ فظرْفُه كان قبل أن نتكلَم ، وفعلٌ مضارع . أي : أنه حَلَّ ، إلا إنْ كان مقروناً ب « س » أو ب « سوف » .

أي : أن الفعل سيقع في مستقبل قريب إنْ كان مقروناً ب « س » أو في المستقبل غير المحدد والبعيد إن كان مسبوقاً ب « سوف » ، وهكذا تكون الأفعال ماضياً ، وحاضراً ، ومستقبلاً .

وكلمة (أتى) تدلُّ على أن الذي يُخبرك به وهو الله سبحانه إنما يُخبِرك بشيء قد حدث قبل الكلام ، وهو يُخبِر به ، والبشر قد يتكلَّمون عن أشياءَ وقعتْ؛ ويُخبِرون بها بعضَهم البعض .
ولكن المتكلِّم هنا هو الحقُّ سبحانه؛ وهو حين يتكلَّم بالقرآن فهو سبحانه لا ينقص عِلْمه أبداً ، وهو علم أَزَليٌّ ، وهو قادر على أن يأتيَ المستقبل وَفْق ما قال ، وقد أعدَّ توقيت ومكان كُل شيء من قبل أنْ يخلقَ؛ وهو سبحانه خالق من قبل أن يخلق أي شيء؛ فالخَلْق صفة ذاتية فيه؛ وهو مُنزَّه في كل شيء؛ ولذلك قال :
{ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ } [النحل : 1] .
أي : أنه العليمُ بزمن وقوع كُلِّ حدَث ، وقد ثبت التسبيح له ذاتاً من قَبْل أن يوجد الخَلْق؛ فهو القائل : { يُسَبِّحُونَ اليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ } [الأنبياء : 20] .
ثم خلق السماوات وخلق الأرض وغيرهما .
أي : أنه مُسبِّح به من قَبْل خَلْق السماوات والأرض ، وهو القائل سبحانه : { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض } [الحشر : 1] .
ولكن هل انتهى التسبيح؟ لا ، بل التسبيح مُستمِرٌّ أبداً ، فهو القائل : { يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض } [الجمعة : 1] .
إذن : فقد ثبتتْ له « السُّبْحَانية » في ذاته ، ثم وجد الملائكة يُسبِّحون الليلَ والنهارَ ولا يفترُون ، ثم خلق السماء والأرض ، فسبَّح ما فيهما وما بينهما؛ وجاء خَلْقه يُسبِّحون أيضاً فيا مَنْ آمنتَ بالله إلهاً سَبِّح كما سَبَّحَ كُلُّ الكون .
ولقائل أنْ يسألَ : وما علاقة « سبحانه وتعالى » بما يُشرِكون؟ ونعلم أنهم أشركوا بالله آلهةً لا تُكلِّفهم بتكليف تعبُّدي ، ولم تُنزِل منهجاً؛ بل تُحلِّل لهم كُلَّ مُحرَّم ، وتنهاهم عن بعضٍ من الحلال ، وتخلوْا بذلك عن اتباع ما جاء به الرُّسل مُبلِّغين عن الله من تكليف يحمل مشقَّة الإيمان .
وهؤلاء هم مَنْ سيلقوْنَ الله ، وتسألهم الملائكة : أين هم الشركاء الذين عبدتموهم مع الله؟ ولن يدفَع عنهم أحدٌ هَوْلَ ما يلاقونه من العذاب .
وهكذا تعرَّفْنا على أن تنزيه الله سبحانه وتعالى ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً هو أمر ثابتٌ له قَبْل أنْ يُوجَد شيء ، وأمرٌ قد ثبت له بعد الملائكة ، وثبتَ له بعد وجود السماوات والأرض . وهو أمر طلب الله من العبد المُخيَّر أن يفعله؛ وانقسم العبادُ قسمين ، قِسْم آمن وسبَّح ، وقِسْم له يُسبِّح فتعالى عنهم الحق سبحانه لأنهم مُشْركون .
ويقول سبحانه من بعد ذلك : { يُنَزِّلُ الملائكة . . . } .

يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (2)

وساعة نقرأ قوله { يُنَزِّلُ } فالكلمة تُوحِي وتُوضِّح أن هناك عُلواً يمكن أن ينزِلَ منه شيء على أسفل . والمَثَلُ الذي أُحِبّ أنْ أضربه هنا لأوضحَ هذا الأمر هو قَوْل الحق سبحانه : { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ } [الأنعام : 151] .

أي : أقبلوا لتسمعوا مِنِّي التكليفَ الذي نزل لكم مِمَّنْ هو أعلى منكم ، ولا تظلُّوا في حضيض الأرض وتشريعاتها ، بل تَساموا وخُذوا الأمر مِمَّنْ لا هَوى لَه في أموركم ، وهو الحق الأعلى .

أما مَنْ ينزلون فَهُم الملائكة ، ونعلم أن الملائكة خَلْق غيبيّ آمنَّا به؛ لأن الله سبحانه قد أخبرنا بوجودهم . وكُلَّ ما غاب عن الذِّهْن ودليله السماع مِمَّنْ تثق بصدقه ، وقد أبلغنا صلى الله عليه وسلم ما نزلَ به القرآن وأنبأنا بوجود الملائكة ، وأن الحق سبحانه قد خلقهم؛ ورغم أننا لا نراهم إلا أننا نُصدِّق ما جاء به البلاغ عن الحق من الصادق الصَّدُوق محمد صلى الله عليه وسلم .

وحين يقول الحق سبحانه :

{ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ } [النحل : 2] .

فنحن نعلم أنه لا يمكن أنْ ينزلَ شيءٌ من أعلى إلى الأدْنى إلا بواسطة المُقربات . وقد اختار الحق سبحانه ملكاً من الملائكة لِيُبلّغ رُسُله بالوحي من الله ، والملائكة كما أخبرنا الحق سبحانه : { عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ } [الأنبياء : 26-27] .

ويقول في آية أخرى : { لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم : 6] .

وهم من نور ، ولا تصيبهم الأغيار ، ولا شهوةَ لهم فلا يتناكحون ولا يتناسلون؛ وهم أقربُ إلى الصَّفَاء . وهم مَنْ يُمكِنهم التلقِّي من الأعلى ويبلغون الأَدْنى .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عن القرآن : { نَزَلَ بِهِ الروح الأمين } [الشعراء : 193] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ يُنَزِّلُ الملائكة } [النحل : 2] .

والآية الإجمالية التي تشرح ذلك هو قَوْلُ الحق سبحانه : { الله يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [الحج : 75] .

أي : أنه سبحانه يختار ملائكة قادرين على التلقّي منه لِيُعْطوا المصطفين من الناس؛ لِيُبلِّغ هؤلاء المُصْطفين عن الله لبقية الناس .

ذلك أن العُلْويات العالية لا يملك الكائن الأَدْنى طاقة ليتحمَّل ما تتنزَّل به الأمور العُلْوية مباشرة من الحق سبحانه .

وسبق أنْ شبَّهتْ ذلك بالمُحوّل الذي نستخدمه في الكهرباء لينقل من الطاقة العالية إلى الأَدْنى من المصابيح ، « وكُلّنا يعلم ما حدث للرسول صلى الله عليه وسلم حين تلقَّى الوحي عبر جبريل

عليه السلام » فَضمَّني حتى بلغ مِنِّي الجهد « وتفصد جبينه الطاهر عرقاً ، وعاد إلى بيته ليقول » زملوني زملوني « و » دثروني دثروني « .

ذلك أن طاقة عُلْوية نزلت على طاقة بشرية ، على الرغم من أن طاقة رسول الله هي طاقة مُصْطفاة . ثم يألف الرسول الوحي وتخفّ عنه مِثْل تلك الأعباء ، وينزل عليه قوله الحق :

{ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ العسر يُسْراً * إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً } [الشرح : 1-6] .

ثم يفتر الوحي لبعض من الوقت لدرجة أن النبي صلى الله عليه وسلم يشتاق إليه ، فلماذا اشتاق للوحي وهو مَنْ قال « دثّروني دثّروني »؟

لقد كان فُتور الوحي بسبب أنْ يتعوّد محمد صلى الله عليه وسلم على متاعب نُزول المَلَك؛ فتزولُ متاعب الالتقاء وتبقى حلاوة ما يبلغ به .

وقال بعض من الأغبياء : « إن ربَّ محمد قد قلاه » .

فينزل قوله سبحانه : { مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى } [الضحى : 3-5] .

وكلمة الروح وردتْ في القرآن بمعَانٍ متعددة ، فهي مرَّة الروح التي بها الحياة في المادة ليحدث بها الحسّ والحركة : { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ } [الحجر : 29] .

وهذا النفْخ في المادة يحدثُ للمؤمن والكافر ، وهناك رُوح أُخْرى تعطي حياةً أعلى من الحياة الموقوتة : { وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 64] .

إذن : فالملائكة تنزل بالبلاغ عن الله بما فيه حياة أَرْقى من الحياة التي نعيش بها ونتحرَّك على الأرض . وهكذا تكون هناك رُوحان لا روحٌ واحدة؛ رُوح للحِسّ والحركة؛ وروح تُعطي القِيم التي تقودنا إلى حياة أخرى أَرْقى من الحياة التي نحياها؛ حياةٌ لا فناءَ فيها .

ولذلك يُسمَّى الحق سبحانه القرآن روحاً؛ فيقول : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان } [الشورى : 52] .

ويُسمَّى الحق سبحانه المَلَكَ الذي ينزل بالقرآن روحاً ، فيقول : { نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين } [الشعراء : 193-194] .

ويشرح الحق سبحانه أن القرآن روحٌ تعطينا حياةً أَرْقى ، فيقول : { يأيها الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ } [الأنفال : 24] .

أي : يدخل بكم إلى الحياة الأبدية التي لا موْتَ فيها ولا خَوْف أن تفقد النعمة أو تذهب عنك النعمةُ .

وهنا يُبلّغنا سبحانه أن القرآن ينزل مع الملائكة :

{ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ } [النحل : 2] .

أي : تنزيلاً صادراً بأمره سبحانه ، ويقول الحق سبحانه في موقع آخر : { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله } [الرعد : 11] .

والسَّطْحيون لا يلتفتون إلى أنَّ معنى : { مِنْ أَمْرِ الله } [الرعد : 11] .

هنا تعني أنهم يحفظُونه بأمر من الله .

والأمر هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها هو ما جاء في الآية الأولى منها : { أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ } [النحل : 1] .

وهذا الأمر هو نتيجة لِمَا يشاؤه الله من حياة للناس على الأرض ، ونعلم أن الحق سبحانه له أوامر مُتعدِّدة يجمعها إبراز المعدوم إلى الوجود؛ فهو سبحانه القائل : { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }

[النحل : 40] .

فإذا شاء أمراً جزئياً فهو يقول له : كُنْ فيكون ، وإذا أراد منهجاً؛ فهو يُنزله ، وإذا أراد حساباً وعقاباً وساعةً؛ فهو القائل { أتى أَمْرُ الله } وهكذا نفهم أن معنى { أَمْرُ الله } هو { كُنْ فَيَكُونُ } أي : إخراج المعدوم إلى حَيِّز الوجود؛ سواء أكان معدوماً جزئياً ، أو معدوماً كلياً ، أو معدوماً أزلياً .

وكُلّ ذلك اسمه أمر ، ولحظةَ أنْ يأمرَ الله؛ فنحن نَثِقُ أن مأمور الله يبرز؛ ولذلك قال سبحانه : { إِذَا السمآء انشقت * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ } [الانشقاق : 1-2] .

أي : أنها لم تسمع الأمر فقط؛ بل نفّذتْه فَوْر صدوره؛ دون أَدْنى ذرة من تخلُّف ، فأمْر الله يُنفَّذ فَوْر صدوره من الحق سبحانه ، أما أَمْر البشر فهو عُرْضَة لأنْ يُطَاع ، وعُرْضَة لأنْ يُعصَى .

وسبحانه يُنزِّل الملائكة بالرُّوح على مَنْ يشاء لِيُنذِروا؛ ولم يَأْتِ الحق سبحانه بالبشارة هنا؛ لأن الحديث مُوجّه للكفار في قوله : { أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ . . . } [النحل : 1] .

ونزَّه ذاته قائلاً :

{ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [النحل : 1] .

أو : أن الحق يُنبّه رسوله ، إنْ دخلتَ عليهم فُفسِّر لهم مُبْهَم ما لا يعرفون . وهم لا يعرفون كيفية الاصطفاء . وهو الحق الأعلم بمَنْ يصطفي .

ومشيئته الاصطفاء والاجتباء والاختيار إنما تتِمّ بمواصفات الحق سبحانه؛ فهو القائل : { الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . . . } [الأنعام : 124] .

وعُلِم أن الكافرين قد قالوا : { لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] .

وقال الحق سبحانه في رَدّه عليهم : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ } [الزخرف : 32] .
فإذا كان الحق سبحانه قد قَسَّم بين الخَلْق أرزاقهم في معيشتهم المادية؛ وإذا كان سبحانه قد رفع بعضهم فوق بَعْض درجات؛ وهو مَنْ يجعل المرفوع مخفوضاً؛ ويجعل المخفوضَ مرفوعاً ، فكيف يأتي هؤلاء في الأمور القِيَميّة المُتعلّقة بالروح وبالمنهج ، ويحاولون التعديل على الله؛ ويقولون « نريد فلاناً ولا نريد فلاناً »؟
أو : أن الحق سبحانه يوضِّح لرسوله : بعد أنْ شرحتَ لهؤلاء أمر الوحي ، فعليك أنْ تُبلِّغهم كلمة الله :
{ لاَ إله إِلاَّ أَنَاْ فاتقون } [النحل : 2] .
وما دام لا يوجد إلهٌ آخر فعلى الرسول أن يُسْدِي لهم النصيحة؛ بأن يقصروا على أنفسهم حَيْرة البحث عن إله ، ويُوضِّح لهم أنْ لا إله إلا هو؛ وعليهم أنْ يتقوه .
وفي هذا حنان من الحق على الخَلْق ، وهو الحق الذي منع الكائنات التي تعجبتْ ورفضتْ كُفْر بَعْضٍ من البشر بالله؛ وطلبتْ أن تنتقمَ من الإنسان ، وقال لهم : « لو خلقتموهم لرحمتموهم ، دَعُوني وخَلْقي؛ إنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبُهم؛ وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .
وقَوْل الحق سبحانه :
{ أَنْ أنذروا أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ أَنَاْ فاتقون } [النحل : 2] .
هو جماعُ عقائدِ السماء للأرض؛ وجماعُ التعبُّداتِ التي طلبها الله من خَلْقه لِيُنظِّم لهم حركة الحياة مُتساندةً لا مُتعاندةً .
فكأن :
{ أَنْ أنذروا أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ أَنَاْ فاتقون } [النحل : 2] .

هي تفسيرٌ لِمَا أنزله الله على الملائكة من الرُّوح التي قُلْنا من قبل : إنها الروح الثانية التي يَجِيء بها الوَحْي؛ وتحمِلُ منهجَ الله ليضمن لِلْمُعتنِق حياة لا يزول نَعيمها ولا المُتنعِّم بها؛ وهي غَيْر الروح الأولى التي إذا نفخها الحق في الإنسان ، فالحياة تدبُّ فيه حركةً وحِساً ولكنها إلي الفناء .
وكأن الحق سبحانه من رحمته بخَلْقه أن أنزلَ لهم المنهج الذي يهديهم الحياة الباقية بدلاً من أنْ يظلُّوا أَسْرى الحياة الفانية وحدها .
ومن رحمته أيضاً أن حذرهم من المصير السيئ الذي ينتظر مَنْ يكفر به؛ ومثل هذا التحذير لا يصدر إلا مِنْ مُحبٍّ؛ فسبحانه يُحِب خَلْقه ، ويُحِب منهم أنْ يكونوا إليه مخلصين مؤمنين ، ويحب لهم أنْ ينعموا في آخرة لا أسبابَ فيها؛ لأنهم سيعيشون فيها بكلمة « كُنْ » من المُسبّب .
فإذا قال لهم { أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ أَنَاْ . . } [النحل : 2] فهو يُوضِّح أنه لا إله غيره ، فلا تشركوا بي شيئاً ، ولا تكذبوا الرسل وعليكم بتطبيق منهجي الذي يُنظِّم حياتكم وأُجازي عليه في الآخرة

.

وإياكم أنْ تغترُّوا بأنِّي خلقتُ الأسباب مُسخرة لكم؛ فأنا أستطيع أن أقبض هذه الأسباب؛ فقد أردتُ الحياة بلاءً واختباراً؛ وفي الآخرة لا سُلْطان للأسباب أبداً : { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] .

وظاهر الأمر أن المُلْك لله في الآخرة ، والحقيقة أن المُلْك لله دائماً في الدنيا وفي الآخرة؛ ولكنه شاء أنْ يجعلَ الأسباب المخلوقة بمشيئته تستجيب للإنسان؛ فإياك أنْ تظنَّ أنك أصبحتَ قادراً؛ فأنت في الحياة تملك أشياء ، ويملكك مَلِك أو حاكم مثلك؛ فسُنَّة الكون أنْ يوجدَ نظامٌ يحكم الجميع .

ولكن الآخرة يختلف الأمر فيها؛ فلا مُلْكَ لأحدٍ غير الله ، بل إن الأعضاء نفسها لا تسير بإرادة أصحابها بل بإرادة الحق ، تلك الأعضاء التي كانت تخضع لمشيئتك في الدنيا؛ لا حُكْمَ لك عليها في الآخرة ، بل ستكون شاهدة عليك .

فإن كان الله قد أعطاك القدرة على تحريك الأعضاء في الدنيا ، فإنْ وجَّهتها إلى مأمور الله؛ فأنت من عباده ، وإنْ لم تُوجهها إلى مطلوب الله ، فأنت من عبيده .

وبعد ذلك يُقدِّم لك سبحانه الحيثية التي تُعزِّز أمره بعبادته وحده ، وأنْ لا إله غيره؛ فإنه لم يطلب أن نعبده إلا بعد أنْ خلق لنا السماوات والأرض؛ وكل الكون المُعَد لاستقبال الإنسان بالحق؛ أي بالشيء الثابت؛ والقانون الذي ليس في اختيار أحد سواه سبحانه .

ويقول سبحانه : { خَلَقَ السماوات والأرض . . . } .

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3)

أي : تنزَّه سبحانه عَمَّا يشركون معه من آلهة ، فلا أحدَ قد ساعده في خَلْق الكون وإعداده؛ فكيف تجعلون أنتم معه آلهة غيره؟ وسبحان مُنزَّه عن أنْ يكون معه آلهة أخرى ، وسبحانه قد خلق لنَا من قبل أن يخلقنا؛ خلق السماوات والأرض وقدَّر الأرزاق ، ولو نظرتَ إلى خَلْقك أنت لوجدت العَالَمَ الكبير قد انطوى فيك؛ وهو القائل : { وفي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ } [الذاريات : 21] .

وأنت مخلوق من ماذا؟

ها هو الحق سبحانه يقول : { خَلَقَ الإنسان . . . . } .

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4)

والنطفة التي نجيء منها ، وهي الحيوان المَنويّ الذي يتزاوج مع البويضة الموجودة في رَحم المرأة فتنتج العلقة ، وسبحانه القائل : { أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى } [القيامة : 36-39] .

بل إن القَذْفة الواحدة من الرجل قد يوجد فيها من الأنسال ما يكفي خَلْق الملايين؛ ولا يمكن للعين المُجرَّدة أنْ ترى الحيوان المنويّ الواحد نظراً لِدقَّته المتناهية .

وهذه الدقَّة المُتناهية لا يمكن أنْ تُرى إلا بالمجاهر المُكَّبرة ، ومطمور في هذا الحيوان المنويّ كُل الخصائص التي تتحد مع الخصائص المَطْمورة في بُويْضة المرأة ليتكوَّن الإنسان .

وقد صدق العقاد يرحمه الله حين قال : « إن نصف كستبان الخياطة لو مُلِيء بالحيوانات المنوية لَوُلِد منه أنسال تتساوى مع تعداد البشر كلهم » .

وقد شاء الحق سبحانه ألا ينفُذَ إلى البويضة إلا الحيوانُ المنويّ القوي؛ لِيُؤَكِّد لنا أن لا بقاءّ إلا للأصلح ، فإنْ كان الحيوان المنويّ يحمل الصفات الوراثية لميلاد أنثى جاء المولد أنثى؛ وإنْ كان يحمل الصفات الوراثية لميلاد الذَّكَر جاء المولود ذكراً .

وأنت ترى مِثْل ذلك في النبات؛ فأوَّل حبَّة قمح كانت مثل آدم كأول إنسان بالطريقة التي نعرفها؛ وفي تلك الحبَّة الأولى أوجد الحق سبحانه مضمون كل حبوب القمح من بعد ذلك ، وإلى أنْ تقومَ الساعة ، وتلك عظمةُ الحق سبحانه في الخَلْق .

وقد أوضح لنا الحق سبحانه في اكثر من موضع بالقرآن الكريم مراحل خَلْق الإنسان؛ فهو : { مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ } [السجدة : 8] .

وهو من نطفة ، ومن علقة ، ثم مضغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة .

والحيوان المنويّ المُسمَّى « نُطْفة » هو الذي يحمل خصائص الأنوثة أو الذكورة كما أثبت العلم الحديث ، وليس للمرأة شَأْنٌ بهذا التحديد ، وكأن في ذلك إشارةً إلى مهمة المرأة كسكَنٍ؛ لأن البُويْضة تتلقَّى الحيوان المنويّ وتحتضنه؛ ليكتمل النمو إلي أنْ يصير كائناً بشرياً : { فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين } [المؤمنون : 14] .

وهو الحق سبحانه القائل : { أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً } [القيامة : 36-38] .

والعلقة جاء اسمها من مهمتها ، حيث تتعلق بجدار الرَّحِم كما أثبت العِلْم المعاصر ، يقول سبحانه : { فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً } [المؤمنون : 14] .

والمُضغْة هي الشيء المَمْضُوغ؛ ثم يَصِف سبحانه المضغة بأنها : { مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ } [الحج : 5] .

ولقائل أن يتساءل : نحن نفهم أن المُضْغة المُخلَّقة فيها ما يمكن أن يصير عيناً أو ذراعاً؛ ولكن ماذا عن غير المُخلّقة؟

ونقول : إنها رصيد احتياطيّ لصيانة الجسم ، فإذا كنتَ أيها المخلوق حين تقوم ببناء بَيْت فأنت تشتري بعضاً من الأشياء الزائدة من الأدوات الصحية على سبيل المثال تحسُّباً لما قد يطرأ من أحداث تحتاج فيها إلى قطع غيار؛ فما بالنا بالحق الذي خلق الإنسان؟

لقد جعل الله تلك المُضْغة غير المُخلَّقة رصيداً لصيانة ، أو تجديداً لما قد يطرأ على الإنسان من ظروف؛ وتكون زائدة في الجسم وكأنها مخزنٌ لقطع الغيار .

والمثل هو الجروح التي تصيب الإنسان ، ثم يتركها ليعالجها الجسمُ بنفسه ، نجدها تلتئم دون أنْ تتركَ نَدْبة أو علامة ، ذلك أنه قد تَمَّ علاجها من الصيدلية الداخلية التي أودعها الحق سبحانه في الجسم نفسه .

والمفاجأة هي أن هذا الإنسانَ المخلوق لله :

{ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ } [النحل : 4] .

ويتمرَّد على خالقه ، بل وينكر بعضٌ من الخَلْق أن هناك إلهاً؛ متجاهلين أنهم بقوة الله فيهم يتجادلون . والخصيم هو الذي يُجادل ويُنكِر الحقائق؛ فإذا حُدِّث بشيء غيبي ، يحاول أنْ يدحضَ معقوليته .

ويقول سبحانه في سورة يس : { أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ } [يس : 77] .

وقد يكون من المقبول أن تكون خَصْماً لمساويك؛ ولكن من غير المقبول أن تكون خصيماً لِمَنْ خلقك فسوَّاكَ فَعَدلك ، وفي أيِّ صورة ما شاء رَكَّبك .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ . . . . } .

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5)

والدِّفْءُ هو الحرارة للمبرود ، تماماً مثلما نعطي المحرور برودة ، وهذا ما يفعله تكييف الهواء في المنازل الحديثة . نجد الحق سبحانه هنا قد تكلَّم عن الدفء ولم يتكلم عن البرد ، ذلك أن المقابل معلوم ، وهو في آية أخرى يقول : { وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر . . . } [النحل : 81] .

وهذا ما يحدث عندما نسير في الشمس الحارة؛ فنضع مِظلة فوق رؤوسنا لتقينا حرارة الشمس الزاعقة الشديدة . ونحن في الشتاء نلبس قلنسوة أي : نلفّ شيئاً حول رؤوسنا ، وهكذا نعلم أن اللباس يفعل الشيء ومقابله ، بشرط أن يختار الإنسانُ اللباسَ المناسب للجوِّ المناسب .

وفي الأنعام منافع كثيرة؛ فنحن نشرب لبنها ، ونصنع منه الجُبْن والسمن؛ ونجزّ الصوف لنغزل وننسج منه ملابس صوفية ، وتحمل الأثقال ، ونستفيد من ذريتها؛ وكذلك نأكل لحومها .

ونحن نعلم أن الأنعام قد جاء تفصيلها في موقع آخر حين قال الحق سبحانه : { ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ . . . } [الأنعام : 143] .

وهي الضَّأن والمَعْز والإبل والبقر .

ونعلم أن الدِّفْءَ يأتي من الصُّوف والوَبَر والشَّعْر ، ومَنْ يلاحظ شعر المَعْز يجد كل شَعْرة بمفردها؛ لكن الوبر الذي نجزه من الجمل يكون مُلبداً؛ وهذا دليل على دِقّة فَتْلته ، أما الصوف فكل شعرة منه أنبوبة أسطوانية قَلْبُها فارغ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ . . . } .

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6)

وهنا نجد أن الحق سبحانه قد أعطانا الترف أيضاً بجانب الضروريات ، فالدِّفْء والمنافع والأكل ضروريات للحياة ، أما الجَمال فهو من تَرَف الحياة ، والجمال هو ما تراه العين ، فيتحقق السرور في النفس . والدِّفْء والمنافع والأكل هي أمور خاصة لِمَنْ يملك الأنعام؛ أما الجمال فمشاع عَامٌّ للناس ، فحين ترى حصاناً جميلاً؛ أو البقرة المَزْهُوة بالصحة؛ فأنت ترى نعمة الله التي خلقها لِتسُرّ الناظر إليها .

ونلحظ هذا الجمال في لحظات سروح البهائم ولحظات رواحها . ونقول في الريف « سرحت البهائم » أي : خرجتْ من الحظائر لترعى وتأكل . ونلحظ أن الحق سبحانه قد قدَّم الرَّواح أي العودة إلى الحظائر عن السُّروح؛ لأن البهائم حين تعود إلى حظائرها بعد أنْ ترعى تكون بطونُها ممتلئةً وضُروعها رابِية حافلة باللبن؛ فيسعد مَنْ يراها حتى قبل أنْ يطعمَ من ألبانها .

ومَنْ يخرج ببهائمه في الصباح من بيته ، ويصحبها من زرائبها إلى الحقل ، يجد جمالاً مع هيبة ومنعة مع أصوات تحقق للرجل المالك الهيبة ، ومَنْ لا يملك يمكن أنْ يشاهد جمال تلك الأنعام .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى . . . } .

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7)

ونعلم أن الإنسانَ في حياته بين أمرين؛ إما ظَاعن أي : مسافر . وإما مقيم . وفي حالة المقيم ، فالأنعامُ تُحقِّق له الدِّفْء والطعام والمَلْبس . وعادةً ما يكتفي متوسطُ الحال بأنْ يستقرّ في مكان إقامته وكذلك الفقير .

أما المُقْتدر الغنيّ؛ فأنت تجده يوماً في القاهرة ، وآخر في الإسكندرية ، أو طنطا ، وقد يسافر إلى الخارج ، وكلُّ ذلك ميسور في زمن المواصلات الحديثة . وقديماً كانت وسائل المواصلات شاقة ، ولا يقدر على السفر إلا مَنْ كانت لديه إبل صحيحة أو خيول قوية ، أما مَنْ لم يكن يملك إلا

حماراً أعجف فهو لا يفكر إلا في المسافات القصيرة .

ولذلك نجد القرآن حين تكلم عن أهل سبأ يقول : { فَقَالُواْ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وظلموا أَنفُسَهُمْ . . . } [سبأ : 19] .

وهم قد قالوا ذلك اعتزازاً بما يملكونه من خَيْل ووسائل سفر من دوابّ سليمة وقوية ، تُهيِّئ السفر المريح الذي ينمُّ عن العِزّ والقوة والثراء .

وقوله الحق :

{ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ . . . } [النحل : 7] .

يعني وضع ما يَثْقل على ما يُثَقّل؛ ولذلك فنحن لا نجد إنساناً يحمل دابته؛ بل نجد مَنْ يحمل أثقاله على الدابة ليُخفِّف عن نفسه حَمْل أوزانٍ لا يقدر عليها .

ونعلم أن الوزن يتبع الكثافة؛ كما أن الحجمَ يتبع المساحة؛ فحين تنظر إلى كيلوجرام من القطن ، فأنت تجد حجم كيلوجرام القطن أكبرُ من حجم الحديد؛ لأن كثافة الحديد مطمورة فيه ، أما نفاشات القطن فهي التي تجعله يحتاج حيزاً اكبر من المساحة .

ويتابع الحق سبحانه قوله في الآية الكريمة :

{ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأنفس . . . } [النحل : 7] .

ومَنْ يفتش في أساليب القرآن من المستشرقين قد يقول : « إن عَجُزَ الآية غَيْر متفق مع صَدْرها » .

ونقول لمثل صاحب هذا القول : أنت لم تفطن إلى المِنّة التي يمتنُّ بها الله على خَلْقه ، فهم لم يكونوا بالغين لهذا البلد دون أثقالَ إلا بمشقَّة؛ فما بالنا بِثِقَل المشقة حين تكون معهم أثقال من بضائع ومتاع؟

إنها نعمة كبيرة أنْ يجدوا ما يحملون عليه أثقالهم وأنفسهم ليصلوا إلي حيث يريدون .

وكلمة { بِشِقِّ } [النحل] مصدرها شَق وهو الصِّدْع بين شيئين؛ ويعني عَزْل متصلين؛ وسبحانه هو القائل : { فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ } [الحجر : 94] . وهناك « شَق » وهو الجهد ، و « شقَّة » . والإنسان كما نعلم هو بين ثلاث حالات : إمَّا نائم؛ لذلك لا يحتاج إلى طاقة كبيرة تحفظ له حياته؛ وأيضاً وهو مُتيقِّظ فأجهزته لا تحتاج إلى طاقة كبيرة؛ بل تحتاج إلى طاقة مُتوسِّطة لتعملَ؛ أما إنْ كان يحمل أشياءَ ثقيلة فالإنسان يحتاج إلى طاقة أكبر لتعمل أجهزته .

وكذلك نجد الحق سبحانه يقول : { لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ ولكن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشقة }

[التوبة : 42] .

والمعنىّ هنا بالشُّقة هي المسافة التي يشقُّ قطعُها ، ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

{ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 7] .

والصفتان هنا هما الرأفة والرحمة ، وكل منهما مناسب لِمَا جاء بالآية؛ فالربُّ هو المُتولِّي التربية والمَدَد ، وأيُّ رحلة لها مَقْصِد ، وأيُّ رحلة هي للاستثمار ، أو الاعتبار ، أو للاثنين معاً .

فإذا كانت رحلةَ استثمار فدابّتُك يجب أن تكون قويةً لتحمل ما معك من أثقال ، وتحمل عليها ما سوف تعود به من بضائع .

وإنْ كانت الرحلةُ للاعتبار فأنت تزيل بهذا السفر ألم عدم المعرفة والرغبة في الوصول إلى المكان الذي قصدته .

وهكذا تجد الرأفةَ مناسبةً لقضاء النفع وتحقيق الحاجة وإزالة الألم . وكلمة رحيم مناسبة لمنع الألم بتحقيق الوصول إلى الغاية .

وتوقَّفَ بعضٌ من العلماء عند مَقْصِد الرحلة؛ كأن تكون مسافراً للاتجار أو أن تكونَ مسافراً للاعتبار . ولكن هذا سفرٌ بالاختيار؛ وهناك سفر اضطراري؛ كالسفر الضروري إلى الحج مرة في العمرة .

والحق سبحانه يزيل ألم الحَمْل الثقيل ، وبذلك تتحقق رأفته؛ وهو رحيم لأنه حقَّق لكم أُمنية السفر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { والخيل والبغال . . . } .

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8)

وبعد أن ذكر لنا الحق سبحانه الأنعام التي نأخذ منها المأكولات ، يذكر لنا في هذه الآية الأنعام التي نستخدمها للتنقل أو للزينة؛ ولا نأكل لحومها وهي الخَيْل والبِغَال والحمير؛ ويُذكِّرنا بأنها للركوب والمنفعة مع الزينة؛ ذلك أن الناس تتزيَّن بما تَرْكب؛ تماماً كما يفخر أبناءُ عصرِنا بالتزيُّن بالسيارات الفارهة .

ونَسَقُ الآية يدلُّ على تفاوت الناس في المراتب؛ فكلُّ مرتبة من الناس لها ما يناسبها لِتركبه؛ فالخَيْل للسادة والفُرْسان والأغنياء؛ ومَنْ هم أقلُّ يركبون البغال ، ومَنْ لا يملك ما يكفي لشراء الحصان أو البغل؛ فيمكنه أنْ يشتريَ لنفسه حماراً .

وقد يملك إنسانٌ الثلاثة ركائب ، وقد يملك آخرُ اثنتين منها؛ وقد يملك ثالثٌ رُكوبة واحدة ، وهناك مَنْ لا يملك من المال ما يُمكِنه أنْ يستأجرَ ولو رُكوبة من أيّ نوع .

وشاء الحق سبحانه أن يقسم للناس أرزاق كل واحد منهم قِلَّةً أو كثرةً ، وإلا لو تساوى الناس في الرزق ، فمَنِ الذي يقوم بالأعمال التي نُسمِّيها نحن بالخطأ أعمالاً دُونية ، مَنْ يكنس الشوارع ، ومَنْ يحمل الطُّوب للبناء ، ومَنْ يقف بالشَّحْم وسط ورش إصلاح السيارات؟

وكما نرى فكلُّ تلك الأعمال ضرورية ، ولولا رغبةُ الناس في الرزق لَمَا حَلَتْ مثل تلك الأعمال

، وراقتْ في عُيون مَنْ يُمارِسونها ، ذلك أنها تَقِيهم شَرَّ السُّؤال .
ولولا أن مَنْ يعمل في تلك الأعمال له بطنٌ تريد أنْ تمتليءَ بالطعام ، وأولاد يريدون أنْ يأكلوا؛ لَمَا ذهب إلي مشقَّات تلك الأعمال . ولو نظرتَ إلى أفقر إنسان في الكون لوجدتَ في حياته فترة حقَّق فيها بعضاً من أحلامه .
وقد نجد إنساناً يكِدُّ عَشْرة سنين؛ ويرتاح بقية عمره؛ ونجد مَنْ يكِدّ عشرين عاماً فيُرِيح نفسه وأولاده من بعده ، وهناك مَنْ يتعب ثلاثين عاماً ، فيُرِيح أولاده وأحفاده من بعده . والمهم هو قيمة ما يُتقِنه ، وأن يرضَى بقدر الله فيه ، فيعطيه الله ما دام قد قَبِل قدره فيه .
وأنت إنْ نظرتَ إلى مَنْ فاء الله عليهم بالغِنَى والتَّرف ستجدهم في بداية حياتهم قد كَدُّوا وتَعِبوا ورَضُوا بقدر الله فيهم ، ولم يحقدوا على أحد ، نجده سبحانه يهديهم طمأنينةَ وراحةَ بالٍ .
وشاء سبحانه أنْ يُنوِّع في مُسْتويات حياة البشر كَيْلا يستنكفَ أحدٌ من خدمة أحد ما دام يحتاج خدماته .
ونجد النصّ التعبيري في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها هو خَيْل وبِغَال وحمير؛ وقد جعل الحق سبحانه البغال في الوسط؛ لأنها ليست جنساً بل تأتي من جنسين مختلفين .
ويُنبِّهنا الحق سبحانه في آخر الآية إلى أن ذلك ليس نهاية المَطَاف؛ بل هناك ما هو أكثر ، فقال :
{ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 8] .
وجعل الحق سبحانه البُراق خادماً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل بساط الريح خادماً لسليمان عليه السلام ، وإذا كانت مثل تلك المُعْجزات قد حدثتْ لأنبياء؛ فقد هدى البشر إلى أنْ يبتكروا من وسائل المواصلات الكثير من عربات تجرُّها الجِيَاد إلى سيارات وقطارات وطائرات .

وما زال العلم يُطوِّر من تلك الوسائل ، ورغم ذلك فهناك مَنْ يقتني الخيْل ويُربّيها ويُروِّضها ويجريّها لجمال منظرها .
وإذا كانت تلك الوسائلُ من المواصلات التي كانت تحمل عنَّا الأثقال؛ وتلك المُخْترعات التي هدانا الله إياها؛ فما بالُنَا بالمواصلات في الآخرة؟ لا بد أن هناك وسائلَ تناسب في رفاهيتها ما في الآخرة من متاعٍ غير موجود في الدنيا؛ ولذلك يقول في الآية التالية : { وعلى الله قَصْدُ . . . } .

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9)

والسبيل هو الطريق؛ والقَصْد هو الغاية ، وهو مصدر يأخذون منه القول (طريق قاصد) أي : طريق لا دورانَ فيه ولا التفاف . والحق سبحانه يريد لنا أنْ نصلَ إلى الغاية بأقلِّ مجهود .

ونحن في لغتنا العاميّة نسأل جندي المرور « هل هذا الطريق ماشي؟ » رغم أن الطريق لا يمشي ، بل أنت الذي تسير فيه ، ولكنك تقصد أن يكون الطريق مُوصِّلاً إلى الغاية . وأنت حين تُعجِزك الأسباب تقول « خلِّيها على الله » أي : أنك ترجع بما تعجزك أسبابه إلى المُسبِّب الأعلى .

وهكذا يريد المؤمن الوصول إلى قَصْده ، وهو عبادة الله وُصولاً إلى الغاية ، وهي الجنة ، جزاءً على الإيمان وحُسْن العمل في الدنيا .

وأنت حين تقارن مَجْرى نهر النيل تجد فيه التفافاتٍ وتعرُّجات؛ لأن الماء هو الذي حفر طريقه؛ بينما تنظر إلى الريَّاح التوفيقي مثلاً فتجده مستقيماً؛ ذلك أن البشر هم الذين حفروه إلى مَقْصد معين . وحين يكون قَصْد السبيل على الله؛ فالله لا هَوى له ولا صاحبَ ، ولا ولدَ له ، ولا يحابي أحداً ، وكلُّ الخَلْق بالنسبة له سواء؛ ولذلك فهو حين يضع طريقاً فهو يضعُه مستقيماً لا عِوجَ فيه؛ وهو الحق سبحانه القائل : { اهدنا الصراط المستقيم } [الفاتحة : 6] .

أي : الطريق الذي لا التواءَ فيه لأيِّ غَرَض ، بل الغرض منه هو الغاية بأيسرَ طريق .

وقول الحق سبحانه هنا :

{ وعلى الله قَصْدُ السبيل . . . } [النحل : 9] .

يجعلنا نعود بالذاكرة إلى ما قاله الشيطان في حواره مع الله قال : { فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين } [ص : 82-83] .

وردَّ الحق سبحانه : { قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ } [الحجر : 41] .

والحق أيضاً هو القائل : { إِنَّ عَلَيْنَا للهدى } [الليل : 12] .

أي : أنه حين خلق الإنسان أوضح له طريق الهداية ، وكذلك يقول سبحانه : { وَهَدَيْنَاهُ النجدين } [البلد : 10] .

أي : أن الحق سبحانه أوضح للإنسان طُرق الحق من الباطل ، وهكذا يكون قوله هنا :

{ وعلى الله قَصْدُ السبيل } [النحل : 9] .

يدلُّ على أن الطريق المرسوم غايتُه موضوعة من الله سبحانه ، والطريق إلى تلك الغاية موزونٌ من الحق الذي لا هَوى له ، والخَلْق كلهم سواء أمامه .

وهكذا . . فعلى المُفكِّرين ألاَّ يُرهِقوا أنفسهم بمحاولة وَضْع تقنين من عندهم لحركة الحياة ، لأن واجدَ الحياة قد وضع لها قانون صيانتها ، وليس أدلّ على عَجْز المفكرين عن وضع قوانين تنظيم حياة البشر إلا أنهم يُغيِّرون من القوانين كل فَتْرة ، أما قانون الله فخالد باقٍ أبداً ، ولا استدراكَ عليه .

ولذلك فمِنَ المُريح للبشر أنْ يسيروا على منهج الله والذي قال فيه الحق سبحانه حكماً عليهم أنْ يُطبِّقوه؛ وما تركه الله لنا نجتهد فيه نحن .

وقوله الحق :

{ وعلى الله قَصْدُ السبيل . . . } [النحل : 9] .

أي : أنه هو الذي جعل سبيلَ الإيمان قاصداً للغاية التي وضعها سبحانه ، ذلك أن من السُّبل ما هو جائر؛ ولذلك قال :

{ وَمِنْهَا جَآئِرٌ .

. . } [النحل : 9] .

ولكي يمنع الجَوْر جعل سبيلَ الإيمان قاصداً ، فهو القائل : { وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض . . . } [المؤمنون : 71] .

بينما السبيل العادلة المستقيمة هي السبيل المُتكفّل بها سبحانه ، وهي سبيل الإيمان ، ذلك أن من السُّبل ما هو جائر أي : يُطِيل المسافة عليك ، أو يُعرِّضك للمخاطر ، أو توجد بها مُنْحنيات تُضِل الإنسانَ ، فلا يسيرُ إلى الطريق المستقيم .

ونعلم أن السبيل تُوصِّل بين طرفين (من وإلى) وكل نقطة تصل إليها لها أيضاً (من وإلى) وقد شاء الحق سبحانه ألاَّ يقهرَ الإنسانَ على سبيل واحد ، بل أراد له أنْ يختار ، ذلك أن التسخير قد أراده الله لغير الإنسان مِمَّا يخدم الإنسان .

أما الإنسان فقد خلق له قدرة الاختيار ، ليعلم مَنْ يأتيه طائعاً ومَنْ يعصي أوامره ، وكل البشر مَجْموعون إلى حساب ، ومَن اختار طريق الطاعة فهو مَنْ يذهب إلى الله مُحباً ، ويُثبِت له المحبوبية التي هي مراد الحق من خَلْق الاختيار ، لكن لو شاء أنْ يُثبِتَ لنفسه طلاقة القَهْر لخَلقَ البشر مقهورين على الطاعة كما سخَّر الكائنات الأخرى .

والحق سبحانه يريد قلوباً لا قوالب؛ ولذلك يقول في آخر الآية :

{ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } [النحل : 9] .

وكل أجناس الوجود كما نعلم تسجد لله : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } [الإسراء : 44] .

وفي آية أخرى يقول : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السماوات والأرض والطير صَآفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ } [النور : 41] .

إذن : لو شاء الحق سبحانه لهدى الثقلين أي : الإنس والجن ، كما هدى كُلَّ الكائنات الأخرى ، ولكنه يريد قلوباً لا قوالبَ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { هُوَ الذي أَنْزَلَ . . . } .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10)

وقوله :

{ أَنْزَلَ مِنَ السماء مَآءً . . . } [النحل : 10] .

يبدو قولاً بسيطاً؛ ولكن إنْ نظرنا إلى المعامل التي تُقطِّر المياه وتُخلِّصها من الشوائب لَعلِمْنَا قَدْر العمل المبذول لنزول الماء الصافي من المطر .

والسماء كما نعلم هي كل ما يعلونا ، ونحن نرى السحاب الذي يجيء نتيجة تبخير الشمس للمياه من المحيطات والبحار ، فيتكوَّن البخار الذي يتصاعد ، ثم يتكثَّف ليصيرَ مطراً من بعد ذلك؛ وينزل المطر على الأرض .

ونعلم أن الكرة الأرضية مُكوَّنة من محيطات وبحار تُغطِّي ثلاثة أرباع مساحتها ، بينما تبلغ مساحة اليابسة رُبْع الكرة الأرضية؛ فكأنه جعل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية لخدمة رُبْع الكرة الأرضية .

ومن العجيب أن المطر يسقط في مواقع قد لا تنتفع به ، مثل هضاب الحبشة التي تسقط عليها الأمطار وتصحب من تلك الهضاب مادة الطمي لِتُكوِّن نهر النيل لنستفيد نحن منه .

ونجد الحق سبحانه يقول : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ } [النور : 43] .

وهنا يقول الحق سبحانه : { هُوَ الذي أَنْزَلَ مِنَ السماء مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ } [النحل : 10] .

ولولا عملية البَخْر وإعادة تكثيف البخار بعد أن يصير سحاباً؛ لَمَا استطاع الإنسانُ أنْ يشربَ الماء المالح الموجود في البحار ، ومن حكمة الحق سبحانه أن جعل مياه البحار والمحيطات مالحةً؛ فالمِلْح يحفظ المياه من الفساد .

وبعد أن تُبخِّر الشمسُ المياه لتصير سحاباً ، ويسقط المطر يشرب الإنسانُ هذا الماء الذي يُغذِّي الأنهار والآبار ، وكذلك ينبت الماء الزرع الذي نأكل منه .

وكلمة { شَجَرٌ } تدلُّ على النبات الذي يلتفُّ مع بعضه . ومنها كلمة « مشاجرة » والتي تعني التداخل من الذين يتشاجرون معاً .

والشجر أنواع؛ فيه مغروس بمالك وهو مِلْك لِمَنْ يغرسه ويُشرِف على إنباته ، وفي ما يخرج من الأرض دون أنْ يزرعه أحد وهو مِلْكية مشاعة ، وعادة ما نترك فيه الدَّواب لترعى ، فتأكل منه دون أنْ يردَّها أحد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ فِيهِ تُسِيمُونَ } [النحل : 10] .

من سَام الدابة التي تَرْعى في المِلْك العام ، وساعة ترعى الدابة في المِلْك العام فهي تترك آثارها

من مَسَارب وعلامات . ويُسَمُّون الأرضَ التي يوجد بها نبات ولا يقربها حيوان بأنها « روضة أنُف » بمعنى أن أحداً لم يَأتِ إليها أو يَقربها؛ كأنها أنفت أنْ يقطف منها شيء .
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ . . . . } .

يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11)

وهكذا يُعلِمنا الله أن النبات لا ينبت وحده ، بل يحتاج إلى مَنْ يُنبِته ، وهنا يَخصُّ الحق سبحانه ألواناً من الزراعة التي لها أَثَر في الحياة ، ويذكر الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من كل الثمرات .
والزيتون كما نعلم يحتوي على مواد دُهْنية؛ والعنب يحتوي على مواد سُكرية ، وكذلك النخيل الذي يعطي البلح وهو يحتوي على مواد سُكرية ، وغذاء الإنسان يأتي من النشويات والبروتينات .
وما ذكره الحق سبحانه أولاً عن الأنعام ، وما ذكره عن النباتات يُوضِّح أنه قد أعطى الإنسان مُكوِّنات الغذاء؛ فهو القائل : { والتين والزيتون * وَطُورِ سِينِينَ * وهذا البلد الأمين * لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } [التين : 1-4] .
أي : أنه جعل للإنسان في قُوته البروتينات والدُّهنيات والنشويات والفيتامينات التي تصون حياته .
وحين يرغب الأطباء في تغذية إنسان أثناء المرض؛ فهم يُذِيبون العناصر التي يحتاجها للغذاء في السوائل التي يُقطِّرونها في أوردته بالحَقْن ، ولكنهم يخافون من طول التغذية بهذه الطريقة؛ لأن الأمعاء قد تنكمش .
ومَنْ يقومون بتغذية البهائم يعلمون أن التغذية تتكَّون من نوعين؛ غذاء يملأ البطن؛ وغذاء يمدُّ بالعناصر اللازمة ، فالتبن مثلا يملأ البطن ، ويمدُّها بالألياف التي تساعد على حركة الأمعاء ، ولكن الكُسْب يُغذِّي ويضمن السِّمنة والوَفْرة في اللحم .
وحين يقول الحق سبحانه :
{ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب وَمِن كُلِّ الثمرات } [النحل : 11] .
فعليك أنْ تستقبلَ هذا القول في ضَوْء قَوْل الحق سبحانه : { أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون } [الواقعة : 64] .
ذلك أنك تحرثُ الأرض فقط ، أما الذي يزرع فهو الحق سبحانه؛ وأنت قد حرثتَ بالحديد الذي أودعه الله في الأرض فاستخرجْتَه أنت؛ وبالخشب الذي أنبته الله؛ وصنعتَ أنت منهما المحراث الذي تحرث به في الأرض المخلوقة لله ، والطاقة التي حرثتَ بها ممنوحة لك من الله .

ثم يُذكِّرك الله بأن كُلَّ الثمرات هي من عطائه ، فيعطف العام على الخاص؛ ويقول :

{ وَمِن كُلِّ الثمرات } [النحل : 11] .

أي : أن ما تأخذه هو جزء من كل الثمرات؛ ذلك أن الثمرات كثيرة ، وهي أكثر من أن تُعَد .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [النحل : 11] .

أي : على الإنسان أنْ يُعمِلَ فكره في مُعْطيات الكون ، ثم يبحث عن موقفه من تلك المُعْطيات ، ويُحدِّد وَضْعه ليجد نفسه غير فاعل؛ وهو قابل لأنْ يفعَل .

وشاء الحق سبحانه أن يُذكِّرنا أن التفكُّر ليس مهمةَ إنسان واحد بل مهمة الجميع ، وكأن الحق سبحانه يريد لنا أنْ تتسانَد أفكارنا؛ فَمْن عنده لَقْطة فكرية تؤدي إلى الله لا بُدَّ أنْ يقولها لغيره .

ونجد في القرآن آيات تنتهي بالتذكُّر والتفكُّر وبالتدبُّر وبالتفقُّه ، وكُلٌّ منها تؤدي إلى العلم اليقيني؛ فحين يقول « يتذكرون » فالمعنى أنه سبق الإلمام بها؛ ولكن النسيان محاها؛ فكأن مِنْ مهمتك أنْ تتذكَّر .

أما كلمة « يتفكرون » فهي أُمّ كل تلك المعاني؛ لأنك حين تشغل فكرك تحتاج إلى أمرين ، أنْ تنظرَ إلى مُعْطيات ظواهرها ومُعْطيات أدبارها .

ولذلك يقول الحق سبحانه : { أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن } [النساء : 82] .

وهذا يعني ألاَّ تأخذ الواجهة فقط ، بل عليك أنْ تنظرَ إلى المعطيات الخلفية كي تفهم ، وحين تفهم تكون قد عرفتَ ، فالمهمة مُكوَّنة من أربع مراحل؛ تفكُّر ، فتدبُّر ، فتفقُّه؛ فمعرفة وعِلْم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَسَخَّرَ لَكُمُ اليل . . . } .

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12)

ونعلم أن الليل والنهار آيتان واضحتان؛ والليل يناسبه القمر ، والنهار تناسبه الشمس ، وهم جميعاً متعلقون بفعل واحد ، وهم نسق واحد ، والتسخير يعني قَهْر مخلوق لمخلوق؛ لِيُؤدِّي كُلٌّ مهمته . وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر؛ كُلٌّ له مهمة ، فالليل مُهِمته الراحة .

قال الحق سبحانه : { وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [القصص : 73] .

والنهار له مهمة أنْ تكدحَ في الأرض لتبتغي رِزْقاً من الله وفَضْلاً ، والشمس جعلها مصدراً للطاقة والدِّفْء ، وهي تعطيك دون أنْ تسألَ ، ولا تستطيع هي أيضاً أن تمتنعَ عن عطاء قَدَّره الله .

وهي ليست مِلْكاً لأحد غير الله؛ بل هي من نظام الكون الذي لم يجعل الحق سبحانه لأحد قدرةً

عليه ، حتى لا يتحكَّم أحدٌ في أحدٍ ، وكذلك القمر جعل له الحق مهمة أخرى .

وإياك أنْ تتوهَم أن هناك مهمة تعارض مهمة أخرى ، بل هي مهام متكاملة . والحق سبحانه هو القائل : { والليل إِذَا يغشى * والنهار إِذَا تجلى * وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى } [الليل : 1-4] .

أي : أن الليل والنهار وإنْ تقابلا فليسَا متعارضين؛ كما أن الذكر والأنثى يتقابلان لا لتتعارض مهمة كل منهما بل لتتكامل .

ويضرب الحق سبحانه المثل لِيُوضّح لنا هذا التكامل فيقول : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ } [القصص : 72] .

وأيُّ إنسان إنْ سهر يومين متتابعين لا يستطيع أنْ يقاومَ النوم؛ وإن أدَّى مهمة في هذين اليومين؛ فقد يحتاج لراحة من بعد ذلك تمتدُّ أسبوعاً؛ ولذلك قال الله : { وَجَعَلْنَا اليل لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً } [النبأ : 10-11] .

والإنسان إذا ما صلَّى العشاء وذهب إلى فراشه سيستيقظ حَتْماً قبل الفجر وهو في قِمّة النشاط؛ بعد أنْ قضى ليلاً مريحاً في سُبَاتٍ عميق؛ لا قلقَ فيه .

ولكن الإنسان في بلادنا استورد من الغرب حثالة الحضارة من أجهزة تجعله يقضي الليل ساهراً ، ليتابع التليفزيون أو أفلام الفيديو أو القنوات الفضائية ، فيقوم في الصباح مُنْهكاً ، رغم أن أهل تلك البلاد التي قدَّمتْ تلك المخترعات؛ نجدهم وهم يستخدمون تلك المخترعات يضعونها في موضعها الصحيح ، وفي وقتها المناسب؛ لذلك نجدهم ينامون مُبكِّرين ، ليستيقظوا في الفجر بهمَّة ونشاط .

ويبدأ الحق سبحانه جملة جديدة تقول :

{ والنجوم مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ . . } [النحل : 12] .

نلحظ أنه لم يَأْتِ بالنجوم معطوفةً على ما قبلها ، بل خَصَّها الحق سبحانه بجملة جديدة على الرغم من أنها أقلُّ الأجرام ، وقد لا نتبيَّنها لكثرتها وتعدُّد مواقعها ولكِنَّا نجد الحق يُقسِم بها فهو القائل : { فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ } [الواقعة : 75-76] .

فكلُّ نجم من تلك النجوم البعيدة له مُهمة ، وإذا كنتَ أنت في حياتك اليومية حين ينطفيء النور تذهب لترى : ماذا حدث في صندوق الأكباس الذي في منزلك؛ ولكنك لا تعرف كيف تأتيك الكهرباء إلى منزلك ، وكيف تقدَّم العلم ليصنعَ لك المصباح الكهربائي .

وكيف مدَّتْ الدولة الكهرباء من مواقع توليدها إلى بيتك .

وإذا كنتَ تجهل ما خَلْف الأثر الواحد الذي يصلك في منزلك ، فما بالك بقول الحق سبحانه :

{ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم } [الواقعة : 75] .

وهو القائل : { وَعَلاَمَاتٍ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ } [النحل : 16] .

وقد خصَّها الحق سبحانه هنا بجملة جديدة مستقلة أعاد فيها خبر التسخير ، ذلك أن لكلٍّ منها منازلَ ، وهي كثيرة على العَدِّ والإحصاء ، وبعضها بعيد لا يصلنا ضوؤه إلا بعد ملايين السنين .

وقد خصَّها الحق سبحانه بهذا الخبر من التسخير حتى نتبينَ أن لله سراً في كل ما خلق بين السماء والأرض .

ويريد لنا أن نلتفتَ إلى أن تركيبات الأشياء التي تنفعنا مواجهةً وراءها أشياء أخرى تخدمها .

ونجد الحق سبحانه وهو يُذيّل الآية الكريمة بقوله :

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [النحل : 12] .

ونعلم أن الآيات هي الأمورُ العجيبة التي يجب ألاَّ يمرَّ عليها الإنسان مراً مُعرِضاً؛ بل عليه أنْ يتأملَها ، ففي هذا التأمل فائدة له؛ ويمكنه أنْ يستنبطَ منها المجاهيل التي تُنعِّم البشر وتُسعِدهم .

وكلمة { يَعْقِلُونَ } تعني إعمالَ العقل ، ونعلم أن للعقل تركيبةً خاصة؛ وهو يستنبط من المُحسّات الأمورَ المعنوية ، وبهذا يأخذ من الملوم نتيجةً كانت مجهولةً بالنسبة له؛ فيَسعد بها ويُسعد بها مَنْ حوله ، ثم يجعل من هذا المجهول مقدمةً يصل بها إلى نتيجة جديدة .

وهكذا يستنبط الإنسان من أسرار الكون ما شاء له الله أنْ يستنبطَ ويكتشف من أسرار الكون .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي . . . . } .

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13)

وكلمة { ذَرَأَ } تعني أنه خلق خَلْقاً يتكاثر بذاته؛ إما بالحَمْل للأنثى من الذَّكَر؛ في الإنسان أو الحيوان والنبات؛ وإما بواسطة تفريخ البيض كما في الطيور .

وهكذا نفهم الذَّرْءَ بمعنى أنه ليس مطلقَ خَلْق؛ بل خلق بذاته في التكاثر بذاته ، والحق سبحانه قد خلق آدم أولاً ، ثم أخرج منه النسل ليتكاثر النسلُ بذاته حين يجتمع زوجان ونتجا مثيلاً لهما ، ولذلك قال الحق سبحانه : { فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين } [المؤمنون : 14] .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يفيض على عباده بأن يُعطِيهم صفة أنهم يخلقون ، ولكنهم لا يخلقون كخَلْقه؛ فهو قد خلق آدم ثم أوجدهم من نسله . والبشر قد يخلقون بعضاً من مُعِدات وأدوات حياتهم ، لكنهم لا يخلقون كخَلْق الله؛ فهم لا يخلقون من معدوم؛ بل من موجود ، والحق سبحانه يخلق من المعدوم مَنْ لا وجود له؛ وهو بذلك أحسَنُ الخالقين .

والمَثل الذي أضربه دائماً هو الحبة التي تُنبِت سبْعَ سنابل وفي كل سُنْبلة مائة حَبّة؛ وقد أوردها الحق سبحانه ليشوّق للإنسان عملية الإنفاق في سبيل الله ، وهذا هو الخَلْق الماديّ الملموس؛ فمن حَبَّة واحدة أنبت سبحانه كل ذلك .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأرض مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ . . . } [النحل : 13] .

أي : ما خلق لنا من خَلْق متكاثر بذاته تختلف ألوانه . واختلاف الألوان وتعدُّدها دليل على طلاقة قدرة الله في أن الكائنات لا تخلق على نَمَطٍ واحد .

ويعطينا الحق سبحانه الصورة على هذا الأمر في قوله سبحانه : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ الناس والدوآب والأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء إِنَّ الله عَزِيزٌ غَفُورٌ } [فاطر : 27-28] .

وأنت تمشي بين الجبال ، فتجدها من ألوان مختلفة؛ وعلى الجبل الواحد تجد خطوطاً تفصل بين طبقاتٍ مُتعدّدة ، وهكذا تختلف الألوان بين الجمادات وبعضها ، وبين النباتات وبعضها البعض ، وبين البشر أيضاً .

وإذا ما قال الحق سبحانه : { إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء . . . } [فاطر : 28] .

فلَنا أن نعرفَ أن العلماء هنا مقصودٌ بهم كُلّ عالم يقف على قضية كونية مَرْكوزة في الكون أو نزلتْ من المُكوِّن مباشرة .

ولم يقصد الحق سبحانه بهذا القول علماء الدين فقط ، فالمقصود هو كل عالم يبحث بحثاً ليستنبط به معلوماً من مجهول ، ويُجلّي أسرار الله في خلقه . وقد أراد صلى الله عليه وسلم أن يفرق فَرْقاً واضحاً في هذا الأمر ، كي لا يتدخل علماء الدين في البحث العلميّ التجريبيّ الذي يفيد الناس ، ووجد صلى الله عليه وسلم الناس تُؤبّر النخيل؛ بمعنى أنهم يأتون بطَلْع الذُّكورة؛ ويُلقِّحون النخيل التي تتصف بالأنوثة ، وقال : لو لم تفعلوا لأثمرتْ .

ولما لم تثمر النخيل ، قَبِل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر؛ وأمر بإصلاحه وقال القولة الفصل « أنتم أعلم بشئون دنياكم » .

أي : أنتم أعلم بالأمور التجريبية المعملية ، ونلحظ أن الذي حجز الحضارة والتطوُّر عن أوربا لقرون طويلة؛ هو محاولة رجال الدين أنْ يحجُروا على البحث العلمي؛ ويتهموا كُلَّ عالم تجريبيّ بالكفر .

ويتميز الإسلام بأنه الدين الذي لم يَحُلْ دون بَحْث أي آية من آيات الله في الكون ، ومن حنان الله أنْ يُوضِّح لخَلْقه أهمية البحث في أسرار الكون ، فهو القائل : { وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف : 105] .

أي : عليك أيُّها المؤمن ألاَّ تُعرِض عن أيّ آية من آيات الله التي في الكون؛ بل على المؤمن أنْ يُعمِلَ عقله وفِكْره بالتأمُّل ليستفيد منها في اعتقاده وحياته . يقول الحق : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي

الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق . . } [فصلت : 53] .
أما الأمور التي يتعلَّق بها حساب الآخرة؛ فهي من اختصاص العلماء الفقهاء .
ويذيل الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :
{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ } [النحل : 13] .
وبعد ذلك يعود الحق سبحانه إلى التسخير ، فيقول : { وَهُوَ الذي سَخَّرَ . . . } .

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14)

والتسخير كما علمنا من قَبْل هو إيجاد الكائن لمهمة لا يستطيع الكائن أنْ يتخلَّف عنها ، ولا اختيارَ له في أنْ يؤدِّيها أو لا يُؤدِّيها . ونعلم أن الكون كله مُسخَّر للإنسان قبل أنْ يُوجدَ؛ ثم خلق الله الإنسان مُخْتاراً .
وقد يظن البعض أن الكائنات المُسخَّرة ليس لها اختيار ، وهذا خطأ؛ لأن تلك الكائنات لها اختيار حَسمتْه في بداية وجودها ، ولنقرأْ قوله الحق : { إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا . . . } [الأحزاب : 72] .
وهكذا نفهم أن الحق سبحانه خيَّر خلقه بين التسخير وبين الاختيار ، إلا أن الكائنات التي هي ما دون الإنسان أخذتْ اختيارها مرَّة واحدة؛ لذلك لا يجب أنْ يُقال : إن الحق سبحانه هو الذي قهرها ، بل هي التي اختارتْ من أول الأمر؛ لأنها قدرتْ وقت الأداء ، ولم تقدر فقط وقت التحمل كما فعل الإنسان ، وكأنها قالت لنفسها : فلأخرج من باب الجَمال؛ قبل أن ينفتحَ أمامي باب ظلم النفس .
ونجد الحق سبحانه يصف الإنسان : { إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً } [الأحزاب : 72] .
فقد ظلم الإنسانُ نفسَه حين اختار أنْ يحملَ الأمانة؛ لأنه قدر وقت التحمُّل ولم يقدر وقت الأداء . وهو جَهُول لأنه لم يعرف كيف يُفرِّق بين الأداء والتحمُّل ، بينما منعت الكائنات الأخرى نفسها من أن تتحمَّل مسئولية الأمانة ، فلم تظلم نفسها بذلك .
وهكذا نصل إلى تأكيد معنى التسخير وتوضيحه بشكل دقيق ، ونعرف أنه إيجاد الكائن لمهمة لا يملك أن يتخلَّف عنها؛ أما الاختيار فهو إيجاد الكائن لِمُهِمة له أنْ يُؤدِّيها أو يتخلَّف عنها .
وأوضحنا أن المُسخَّرات كان لها أنْ تختارَ من البداية ، فاختارتْ أن تُسخِّر وألاَّ تتحملَ الأمانة ، بينما أخذ الإنسان المهمةَ ، واعتمد على عقله وفِكْره ، وقَبِل أن يُرتِّب أمور حياته على ضوء ذلك .
ومع ذلك أعطاه الله بعضاً من التسخير كي يجعل الكون كله فيه بعض من التسخير وبعض من الاختيار؛ ولذلك نجد بعضاً من الأحداث تجري على الإنسان ولا اختيارَ له فيها؛ كان يمرضَ أو

تقع له حادثة أو يُفلس .

ولذلك أقول : إن الكافر مُغفّل لاختياره؛ لأنه ينكر وجود الله ويتمرَّد على الإيمان ، رغم أنه لا يقدر أن يصُدَّ عن نفسه المرض أو الموت .

وفي الآية التي نحن بصددها الآن يقول الحق سبحانه :

{ وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر } [النحل : 14] .

فهذا يعني أنه هو الذي خلق البحر ، لأنه هو الذي خلق السماوات والأرض؛ وجعل اليابسة ربع مساحة الأرض؛ بينما البحار والمحيطات تحتل ثلاثة أرباع مساحة الأرض .

أي : أنه يُحدِّثنا هنا عن ثلاثة أرباع الأرض ، وأوجد البحار والمحيطات على هيئة نستطيع أن نأخذَ منها بعضاً من الطعام فيقول :

{ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .

. . } [النحل : 14] .

ومن بعض عطاءات الحق سبحانه أن يأتي المَدُّ أحياناً ثم يَعْقبه الجَزْر؛ فيبقى بعض من السمك على الشاطيء ، أو قد تحمل موجة عفيّة بعضاً من السمك وتلقيه على الشاطئ .

وهكذا يكون العطاء بلا جَهْد من الإنسان ، بل إن وجودَ بعض من الأسماك على الشاطيء هو الذي نبَّه الإنسان إلى أهمية أنْ يحتالَ ويصنع السِّنارة؛ ويغزل الشبكة؛ ثم ينتقل من تلك الوسائل البدائية إلى التقنيّات الحديثة في صيد الأسماك .

لكن الحلية التي يتم استخراجها من البحر فهي اللؤلؤ ، وهي تقتضي أن يغوصَ الإنسان في القاع ليلتقطها . ويلفتنا الحق سبحانه إلى أسرار كنوزه فيقول : { لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثرى } [طه : 6] .

وكل كنوز الأمم توجد تحت الثَّرى . ونحن إنْ قسمنا الكرة الأرضية كما نقسم البطيخة إلى قِطَع كالتي نُسمِّيها « شقة البطيخ » سنجد أن كنوز كل قطعة تتساوى مع كنوز القطعة الأخرى في القيمة النفعية؛ ولكن كُلّ عطاء يوجد بجزء من الأرض له ميعاد ميلاد يحدده الحق سبحانه .

فهناك مكان في الأرض جعل الله العطاء فيه من الزراعة؛ وهناك مكان آخر صحراوي يخاله الناس بلا أيِّ نفع؛ ثم تتفجَّر فيه آبار البترول ، وهكذا .

وتسخير الحق سبحانه للبحر ليس بإيجاده فقط على الهيئة التي هو عليها؛ بل قد تجد له أشياء ومهام أخرى مثل انشقاق البحر بعصا موسى عليه السلام؛ وصار كل فِرْق كالطَّوْد العظيم .

ومن قبل ذلك حين حمل اليَمَّ موسى عليه السلام بعد أن ألقتْه أمه فيه بإلهام من الله : { فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل . . . } [طه : 39] .

وهكذا نجد أن أمراً من الله قد صدر للبحر بأن يحملَ موسى إلى الشاطيء فَوْر أنْ تُلقيَه أمه فيه .

وهكذا يتضح لنا معنى التسخير للبحر في مهام أخرى ، غير أنه يوجد به السمك ونستخرج منه الحُليّ . ونعلم أن ماءَ البحر مالح؛ عكس ماء النهر وماء المطر؛ فالمائيّة تنقسم إلى قِسْمين؛ مائية عَذْبة ، ومائية مِلْحية .

وقوله الحق عن ذلك : { وَمَا يَسْتَوِي البحران هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا . . . } [فاطر : 12] .

ويسمُّونهم الاثنين على التغليب في قوله الحق : { مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ } [الرحمن : 19] .

والمقصود هنا الماء العَذْب والماء المالح ، وكيف يختلطان ، ولكن الماء العَذْب يتسرَّب إلى بطن الأرض ، وأنت لو حفرتَ في قاع البحر لوجدتَ ماء عَذْباً ، فالحق سبحانه هو الذي شاء ذلك وبيَّنه في قوله : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرض } [الزمر : 21] .

وهنا يقول سبحانه :

{ وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً . . . } [النحل : 14] .

واللحم إذا أُطلِق يكون المقصود به اللحم المأخوذ من الأنعام ، أما إذا قُيّد ب « لحم طري » فالمقصود هو السمك ، وهذه مسألة من إعجازية التعبير القرآني؛ لأن السمك الصالح للأكل يكون طَرّياً دائماً .

ونجد مَنْ يشتري السمك وهو يَثْني السمكة ، فإنْ كانت طريَّة فتلك علامةٌ على أنها صالحةٌ للأكل ، وإنْ كانت لا تنثني فهذا يعني أنها فاسدة ، وأنت إنْ أخرجتَ سمكة من البحر تجد لحمها طَرّياً؛ فإنْ ألقيتَها في الماء فهي تعود إلى السباحة والحركة تحت الماء؛ أما إن كانت ميتة فهي تنتفخ وتطفو .

لذلك « نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أكل السمك الطَّافي لأنه المَيْتة » ، وتقييد اللحم هنا بأنه طريّ كي يخرجَ عن اللحم العادي وهو لَحْم الأنعام؛ ولذلك نجد العلماء يقولون : مَنْ حلفَ ألاَّ يأكل لَحْماً؛ ثم أكل سمكاً فهو لا يحنث؛ لأن العُرْف جرى على أن اللحم هو لَحْم الأنعام .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية عن تسخير البحر :

{ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا . . . } [النحل : 14] .

وهكذا نجد أن هذه المسألة تأخذ جهداً؛ لأنها رفاهية؛ أما السمك فقال عنه مباشرة :

{ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً . . . } [النحل : 14] .

والأكْل أمر ضروري لذلك تكفّله الله وأعطى التسهيلات في صَيْده ، أما الزينة فلكَ أنْ تتعبَ لتستخرجه ، فهو تَرَفٌ . وضروريات الحياة مَجْزولة؛ أما تَرَف الحياة فيقتضي منك أنْ تغطسَ في الماء وتتعبَ من أجله .

وفي هذا إشارة إلى أن مَنْ يريد أنْ يرتقيَ في معيشته؛ فَلْيُكثِر من دخله ببذل عرقه؛ لا أنْ يُترِف معيشته من عرق غيره .

ويقول سبحانه :

{ تَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا . . . } [النحل : 14] .

والحِلْية كما نعلم تلبسها المرأة . والمَلْحظ الأدنى هنا أن زينةَ المرأة هي من أجلْ الرجل؛ فكأن الرجلَ هو الذي يستمتع بتلك الزينة ، وكأنه هو الذي يتزّين . أو : أن هذه المُسْتخرجات من البحر ليست مُحرَّمة على الرجال مِثْل الذهب والحرير؛ فالذهب والحرير نَقْد؛ أما اللؤلؤ فليس نَقْداً .

واللبس هو الغالب الشائع ، وقد يصِحّ أنْ تُصنعَ من تلك الحلية عَصاً أو أي شيء مما تستخدمه .

ويتابع سبحانه في نفس الآية :

{ وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ } [النحل : 14] .

ولم تكُن هناك بواخر كبيرة كالتي في عصرنا هذا بل فُلُك صغيرة . ونعلم أن نوحاً عليه السلام هو أول مَنْ صنع الفُلْك ، وسَخِر منه قومه؛ ولو كان ما يصنعه أمراً عادياً لَمَا سَخِروا منه .

وبطبيعة الحال لم يَكُنْ هناك مسامير لذلك ربطها بالحبال؛ ولذلك قال الحق سبحانه عنه : { وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ } [القمر : 13] .

وكان جَرْي مركب نوح بإرادة الله ، ولم يكُنْ العلْم قد تقدَّم ليصنع البشر المراكب الضخمة التي تنبّأ بها القرآن في قوله الحق : { وَلَهُ الجوار المنشئات فِي البحر كالأعلام } [الرحمن : 24] .

ونحن حين نقرؤها الآن نتعجَّب من قدرة القرآن على التنبؤ بما اخترعه البشر؛ فالقرآن عالم بما يَجِدّ؛ لا بقهريات الاقتدار فقط؛ بل باختيارات البشر أيضاً .

وقوله الحق :

{ وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ .

. . } [النحل : 14] .

والمَاخِر هو الذي يشق حلزومه الماء ، والحُلْزوم هو الصدر . ونجد مَنْ يصنعون المراكب يجعلون المقدمة حادةً لتكون رأس الحربة التي تشق المياه بخرير .

وفي هذه الآية امتنَّ الحق سبحانه على عباده بثلاثة أمور : صيد السمك ، واستخراج الحُليّ ، وسَيْر الفلْك في البحر؛ ثم يعطف عليهم ما يمكن أن يستجدّ؛ فيقول :

{ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . . } [النحل : 14] .

وكأن البواخر وهي تشقّ الماء ويرى الإنسان الماءَ اللين ، وهو يحمل الجسم الصَّلْب للباخرة

فيجد فيه متعة ، فضلاً عن أن هذه البواخر تحمل الإنسانَ من مكان إلى مكان .

ويُذيّل الحق سبحانه الآية بقوله :

{ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل : 14] .

ولا يُقال ذلك إلا في سَرْد نعمة آثارُها واضحة ملحوظة تستحقّ الشكر من العقل العادي والفطرة العادية ، وشاء سبحانه أنْ يتركَ الشُّكر للبشر على تلك النعم ، ولم يُسخرهم شاكرين .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { وألقى فِي الأرض . . . } .

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15)

وهكذا يدلُّنا الحق سبحانه على أن الأرض قد خُلِقت على مراحل ، ويشرح ذلك قوله سبحانه : { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ } [فصلت : 9-10] .

وهكذا عَلِمنا أن جِرْم الأرض العام قد خُلِق أولاً؛ وهو مخلوق على هيئة الحركة؛ ولأن الحركة هي التي تأتي بالمَيدان التأرجُح يميناً وشمالاً وعدم استقرار الجِرْم على وَضْع ، لذلك شاء سبحانه أن يخلق في الأرض الرواسي لتجعلها تبدو ثابتة غير مُقلقة والرَّاسي هو الذي يَثبت .

ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الاستقرار لما خلق الله الجبال ، ولكنه خلقَ الأرض على هيئة الحركة ، ومنع أنْ تميدَ بخَلْق الجبال ليجعلَ الجبال رواسيَ للأرض .

وفي آية أخرى يقول سبحانه : { وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب } [النمل : 88] . وكلمة { وألقى } تدلُّ على أن الجبال شيء متماسك وُضِع ليستقر .

ثم يعطف سبحانه على الجبال :

{ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً } [النحل : 15] .

ولم يَأْتِ الحق سبحانه فعل يناسب الأنهار ، ومن العجيب أن الأسلوب يجمع جماداً في الجبال ، وسيولة في الأنهار ، وسبلاً أي طرقاً ، وكُلُّ ذلك :

{ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [النحل : 15] .

أي : أن الجَعْل كلَّه لعلنا نهتدي .

ونعلم أن العرب كانوا يهتدوا بالجبال ، ويجعلون منها علامات ، والمثَل هو جبل « هرشا » الذي يقول فيه الشاعر :

خُذُوا بَطْن هرشا أو قَفَاهَا فإنَّهُ ... كِلاَ جَانِبي هرشا لَهُنَّ طَرِيقُ

وأيضاً جبل التوباد كان يُعتبر علامة .

وكذلك قَوْل الحق سبحانه : { وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطور الأيمن } [مريم : 52] .

وهكذا نجد من ضمن فوائد الجبال أنها علاماتٌ تهتدي بها إلى الطرق وإلى الأماكن ، وتلك من المهام الجانبية للجبال .

أو :

{ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [النحل : 15] .

باتعاظكم بالأشياء المخلوقة لكم ، كي تهتدوا لِمَنْ أوجدها لكم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَعَلامَاتٍ وبالنجم . . . } .

وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16)

أي : أن ما تقدم من خَلْق الله هو علامات تدلُّ على ضرورة أنْ تروا المنافع التي أودعها الله فيما خلق لكم؛ وتهتدوا إلى الإيمان بإله مُوجِد لهذه الأشياء لصالحكم .

وما سبق من علامات مَقرُّه الأرض ، سواء الجبال أو الأنهار أو السُّبل؛ وأضاف الحق سبحانه لها في هذه الآية علامة توجد في السماء ، وهي النجوم .

ونعلم أن كلَّ مَنْ يسير في البحر إنما يهتدي بالنجم . وتكلم عنها الحق سبحانه هنا كتسخير مُخْتص؛ ولم يُدخِلها في التسخيرات المتعددة؛ ولأن نجماً يقود لنجم آخر ، وهناك نجوم لم يصلنا ضوؤها بعد ، وننتفع بآثارها من خلال غيرها .

ونعلم أن قريشاً كانت لها رحلتان في العام : رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف . وكانت تسلك سبلاً متعددة ، فتهتدي بالنجوم في طريقها ، ولذلك لا بد أن يكون عندها خبرة بمواقع النجوم .

ويقول الحق سبحانه :

{ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ } [النحل : 16] .

قد فضَّل الحق هذا الأسلوب من بين ثلاثة أساليب يمكن أنْ تُؤدي المعنى؛ هي : « يهتدون بالنجم » و « بالنجم يهتدون » والثالث : هو الذي استخدمه الحق فقال :

{ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ } [النحل : 16] .

وذلك تأكيد على خبرة قريش بمواقع النجوم؛ لأنها تسافر كل عام رحلتين ، ولم يكن هناك آخرون يملكون تلك الخبرة .

والضمير « هم » جاء ليعطي خصوصيتين؛ الأولى : أنهم يهتدون بالنجم لا بغيره؛ والثانية : أن قريشاً تهتدي بالنجم ، بينما غيرُها من القبائل لا تستطيع أن تهتدي به .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ . . . } .

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17)

ونعلم أن الكلام الذي يلقيه المتكلم للسامع يأخذ صوراً متعددة؛ فمرَّة يأخذ صورة الخبر ، كأن يقول : مَنْ لا يخلق ليس كَمنْ يخلق . وهذا كلام خبريّ ، يصح أنْ تُصدِّقه ، ويصحّ ألاَّ تُصدّقه . أما إذا أراد المتكلم أن يأتي منك أن التصديق ، ويجعلك تنطق به؛ فهو يأتي لك بصيغة سؤال ، لا تستطيع إلا أنْ تجيبَ عليه بالتأكيد لِمَا يرغبه المتكلِّم .

ونعلم أن قريشاً كانت تعبد الأصنام؛ وجعلوها آلهة؛ وهي لم تكلمهم ، ولم تُنزِل منهجاً ، وقالوا ما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى } [الزمر : 3] .

فلماذا إذن لا يعبدون الله مباشرة دون وساطة؟ ولماذا لا يرفعون عن أنفسهم مشقة العبادة ، ويتجهون إلى الله مباشرة؟

ثم لنسأل : ما هي العبادة؟

نعلم أن العبادة تعني الطاعة في « افعل » و « لا تفعل » التي تصدر من المعبود . وبطبيعة الحال لا توجد أوامر أو تكاليف من الأصنام لِمَنْ يعبدونها ، فهي معبودات بلا منهج ، وبلا جزاء لِمَن خالف ، وبلا ثواب لِمَنْ أطاع ، وبالتالي لا تصلح تلك الأصنام للعبادة .

ولنناقش المسألة من زاوية أخرى ، لقد أوضح الحق سبحانه أنه هو الذي خلق السماوات والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، وسخر كل الكائنات لخدمة الإنسان الذي أوكل إليه مهمة خلافته في الأرض .

وكلُّ تلك الأمور لا يدعيها أحد غير الله ، بل إنك إنْ سألتَ الكفار والمشركين عمَّن خلقهم ليقولن الله .

قال الحق سبحانه : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله } [الزخرف : 87] .

ذلك أن عملية الإيجاد والخَلْق لا يجرؤ أحدٌ أنْ يدَّعيَها إنْ لم يكُنْ هو الذي أبدعها ، وحين تسألهم : مَنْ خلق السماوات والأرض لقالوا : إنه الله .

وقد أبلغهم محمد صلى الله عليه وسلم أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض ، وأن منهجه لإدارة الكون يبدأ من عبادته سبحانه .

وما دام قد ادَّعى الحق سبحانه ذلكن ولم يوجد مَنْ ينازعه؛ فالدعوة تثبُت له إلى أنْ يوجد معارض ، ولم يوجد هذا المُعَارض أبداً .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها؛ لم يَقُل الحق سبحانه « أتجعلون مَنْ لا يخلق مِثْل من يخلق » . بل قال :

{ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [النحل : 17] .

ووراء ذلك حكمة؛ فهؤلاء الذين نزل إليهم الحديث تعاملوا مع الأصنام وكأنها الله؛ وتوهَّموا أن الله مخلوق مثل تلك الأصنام؛ ولذلك جاء القول الذي يناسب هذا التصوُّر .

والحق سبحانه يريد أنْ يبطل هذا التصوُّر من الأساس؛ فأوضح أن مَنْ تعبدونهم هم أصنام من

الحجارة وهي مادة ولها صورة ، وأنتم صنعتموها على حَسْب تصوُّركم وقدراتكم .
وفي هذه الحالة يكون المعبود أقلَّ درجة من العابد وأدنى منه؛ فضلاً عن أن تلك الأصنام لا تملك لِمَنْ يعبدها ضراً ولا نفعاً .
ثم : لماذا تدعون الله إنْ مسَّكُم ضُرٌّ؟
إن الإنسان يدعو الله في موقف الضر؛ لأنه لحظتها لا يجرؤ على خداع نفسه ، أما الآلهة التي صنعوها وعبدوها فهي لا تسمع الدعاء : { إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا استجابوا لَكُمْ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ } [فاطر : 14] .
فكيف إذن تساوون بين مَنْ لا يخلق ، ومن يخلق؟ إن عليكم أنْ تتذكَّروا ، وأنْ تتفكَّروا ، وأن تُعْمِلوا عقولكم فيما ينفعكم .
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ . . . } .

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18)

وهذه الآية سبقتْ في سورة إبراهيم؛ فقال الحق سبحانه هناك : { وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [إبراهيم : 34] .
وكان الحديث في مجال مَنْ لم يعطوا الألوهية الخالقة ، والربوبية الموجدة ، والمُمِدَّة حَقَّها ، وجحدوا كل ذلك . ونفس الموقف هنا حديث عن نفس القوم ، فيُوضِّح الحق سبحانه :
أنتم لو استعرضتم نِعمَ الله فلن تحصوها ، ذلك أن المعدود دائماً يكون مكرر الأفراد؛ ولكن النعمة الواحدة في نظرك تشتمل على نِعَم لا تُحصَى ولا تُعَد؛ فما بالك بالنِّعم مجتمعة؟
أو : أن الحق سبحانه لا يمتنُّ إلا بشيء واحد ، هو أنه قد جاء لكم بنعمة ، وتلك النعمة أفرادها كثير جداً .
ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :
{ إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 18] .
أي : أنكم رغم كُفْركم سيزيدكم من النعم ، ويعطيكم من مناط الرحمة ، فمنكم الظلم ، ومن الله الغفران ، ومنكم الكفر ومن الله الرحمة .
وكأنَّ تذييل الآية هنا يرتبط بتذييل الآية التي في سورة إبراهيم حيث قال هناك : { إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [إبراهيم : 34] .
فهو سبحانه غفور لجحدكم ونُكْرانكم لجميل الله ، وهو رحيم ، فيوالي عليكم النِّعَم رغم أنكم ظالمون وكافرون .
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { والله يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ . . } .

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (19)

والسِّر كما نعلم هو ما حبْسته في نفسك ، أو ما أسررْتَ به لغيرك ، وطلبتَ منه ألاَّ يُعلِمه لأحد . والحق سبحانه يعلم السِّر ، بل يعلم ما هو أَخْفى فهو القائل : { يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى } [طه : 7] .

أي : أنه يعلم ما نُسِره في أنفسنا ، ويعلم أيضاً ما يمكن أن يكون سِراً قبل أن نُسِرَّه في أنفسنا ، وهو سبحانه لا يعلم السِّر فقط؛ بل يعلم العَلَن أيضاً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { والذين يَدْعُونَ مِن . . } .

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20)

أي : أنهم لا يستطيعون أنْ يخلقوا شيئاً؛ بل هم يُخْلقون ، والأصنام كما قُلْنا هي أدنى مِمَّنْ يخلقونها ، فكيف يستوي أنْ يكونَ المعبود أَدْنى من العابد؟ وذلك تسفيهٌ لعبادتهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام لحظةَ أنْ حطَّم الأصنام ، وسأله أهله : مَنْ فعل ذلك بآلهتنا؟ وأجاب : { قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا } [الأنبياء : 63] .

فقالوا له : إن الكبير مجرَّد صنم ، وأنت تعلم أنه لا يقدر على شيء .

ونجد القرآن يقول لأمثال هؤلاء : { أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } [الصافات : 95] .

فهذه الآلهة إذن لا تخلق بل تُخلق ، ولكن الله هو خالق كل شيء ، وسبحانه القائل : { ياأيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب } [الحج : 73] .

ويذكر الحق سبحانه من بعد ذلك أوصاف تلك الأصنام : { أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ . . . } .

أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21)

وهم بالفعل أموات؛ لأنهم بلا حِسٍّ ولا حركة ، وقوله :

{ غَيْرُ أَحْيَآءٍ . . } [النحل : 21] .

تفيد أنه لم تكُنْ لهم حياة من قَبْل ، ولم تثبت لهم الحياة في دورة من دورات الماضي أو الحاضر أو المستقبل .

وهكذا تكتمل أوصاف تلك الأصنام ، فهم لا يخلقون شيئاً ، بل هم مخلوقون بواسطة مَنْ نحتُوهم ، وتلك الأصنام والأوثان لن تكون لها حياة في الآخرة ، بل ستكون وَقُوداً للنار .

والحق سبحانه هو القائل : { احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ } [الصافات : 22] .

وبطبيعة الحال لن تشعرَ تلك الحجارةُ ببعْث مَنْ عبدوها .
ويُصفِّي الحق سبحانه من بعد ذلك المسألة العقدية ، فيقول : { إلهكم إله وَاحِدٌ . . . } .

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22)

وقَوْله الحق :
{ إلهكم إله وَاحِدٌ . . . } [النحل : 22] .
تمنع أنْ يكونَ هناك أفراد غيره مثله ، وقد يتصوَّر البعض أنها تُساوي كلمة « أحد » . وأقول : إن كلمة « أحد » هي منع أن يكونَ له أجزاء؛ فهو مُنزَّه عن التَّكْرار أو التجزيء .
وفي هذا القول طَمْأنةٌ للمؤمنين بأنهم قد وصلوا إلى قِمَّة الفهم والاعتقاد بأن الله واحد .
أو : هو يُوضِّح للكافرين أن الله واحدٌ رغم أنوفكم ، وستعودون إليه غَصْباً ، وبهذا القول يكشف الحق سبحانه عن الفطرة الموجودة في النفس البشرية التي شهدتْ في عالم الذَّرِّ أن الله واحد لا شريك له ، وأن القيامة والبعث حَقٌّ .
ولكن الذين لا يؤمنون بالله وبالآخرة هم مَنْ ستروا عن أنفسهم فطرتهم ، فكلمة الكفر كما سبق أنْ قلنا هي ستر يقتضي مستوراً ، والكفر يستر إيمانَ الفطرة الأولى .
والذين يُنكرون الآخرة إنما يَحْرِمون أنفسهم من تصوُّر ما سوف يحدث حَتْماً؛ وهو الحساب الذي سيجازي بالثواب والحسنات على الأفعال الطيبة ، ولعل سيئاتهم تكون قليلة؛ فيجبُرها الحق سبحانه لهم وينالون الجنة .
والمُسْرفون على أنفسهم؛ يأملون أن تكون قضيةُ الدين كاذبة ، لأنهم يريدون أن يبتعدوا عن تصوُّر الحساب ، ويتمنَّوْنَ ألاَّ يوجدَ حساب .
ويَصِفُهم الحق سبحانه :
{ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ } [النحل : 22] .
أي : أنهم لا يكتفُون بإنكار الآخرة فقط؛ بل يتعاظمون بدون وجه للعظمة .
و « استكبر » أي : نصَّب من نفسه كبيراً دون أنْ يملكَ مُقوِّمات الكِبر ، ذلك أن « الكبير » يجب أن يستندَ لِمُقوِّمات الكِبَر؛ ويضمن لنفسه أنْ تظلَّ تلك المُقوِّمات ذاتيةً فيه .
ولكِنَّا نحن البشر أبناءُ أغيارٍ؛ لذلك لا يصِحُّ لنا أنْ نتكَبَّر؛ فالواحد مِنَّا قد يمرض ، أو تزول عنه أعراض الثروة أو الجاه ، فصفات وكمالات الكبر ليست ذاتية في أيٍّ مِنَّا؛ وقد تُسلب ممَّنْ فاء الله عليه بها؛ ولذلك يصبح من اللائق أن يتواضعَ كُلٌّ مِنَّا ، وأنْ يستحضرَ ربَّه ، وأنْ يتضاءلَ أمام خالقه .
فالحق سبحانه وحده هو صاحب الحق في التكبُّر؛ وهو سبحانه الذي تبلغ صفاته ومُقوِّماته منتهى

الكمال ، وهي لا تزول عنه أبداً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { لاَ جَرَمَ أَنَّ الله . . . } .

لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23)

وساعة نرى { لاَ جَرَمَ } فمعناها أنَّ ما يأتي بعدها هو حَقٌّ ثابت ، ف « لا » نافية ، و « جرم » مأخوذة من « الجريمة » ، وهي كَسْر شيء مُؤْمَن به لسلامة المجموع . وحين نقول « لا جرم » أي : أن ما بعدها حَقٌّ ثابت .

وما بعد { لاَ جَرَمَ } هنا هو : أن الله يعلم ما يُسِرون وما يُعلِنون .

وكُلُّ آيات القرآن التي ورد فيها قوله الحق { لاَ جَرَمَ } تُؤدِّي هذا المعنى ، مثل قوله الحق : { لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النار وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ } [النحل : 62] .

وكذلك قوله الحق : { لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الخاسرون } [النحل : 109] .

وقد قال بعض العلماء : إن قوله الحق { لاَ جَرَمَ } يحمل معنى « لا بُدَّ » ، وهذا يعني أن قوله الحق : { لاَ جَرَمَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . . . } [النحل : 23] . .

لا بُدَّ أن يعلم الله ما يُسِرون وما يُعلِنون ، ولا مناصَ من أن الذين كفروا هم الخاسرون . وقد حَلَّلَ العلماء اللفظ لِيصِلوا إلى أدقِّ أسراره .

وعِلْم الله لا ينطبق على الجَهْر فقط ، بل على السِّر أيضاً؛ ذلك أنه سيحاسبهم على كُلِّ الأعمال . ويُنهِي الحق سبحانه الآية بقوله :

{ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المستكبرين } [النحل : 23] .

وإذا سألنا : وما علاقةُ عِلْم الله بالعقوبة؟ ونقول : ألم يقولوا في أنفسهم : { لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ . . } [المجادلة : 8] .

وإذا ما نزل قول الحق سبحانه لِيُخبرهم بما قالوه في أنفسهم؛ فهذا دليل على أن مَنْ يُبلِغهم صادقٌ في البلاغ عن الله ، ورغم ذلك فقد استكبروا؛ وتأبَّوْا وعاندوا ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وأرادوا بالاستكبار الهرب من الالتزام بالمنهج الذي جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ . . . } .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24)

وقوله الحق :

{ مَّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ . . . } [النحل : 24] .

يُوضِّح الاستدراك الذي أجراه الله على لسان المُتكلِّم؛ ليعرفوا أن لهم رباً . ولو لم يكونوا مؤمنين

بِرَبٍّ ، لأعلنوا ذلك ، ولكنهم من غفلتهم اعترضوا على الإنزال ، ولم يعترضوا على أن لهم رباً . وهذا دليل على إيمانهم بربٍّ خالق؛ ولكنهم يعترضون على محمد صلى الله عليه وسلم وما أُنزِل إليه من الله .

و :

{ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأولين } [النحل : 24] .

والأساطير : هي الأكاذيب ، ولو كانوا صادقين مع أنفسهم لَمَا أقرُّوا بالألوهية ، ورفضوا أيضاً القول المُنْزل إليهم .

ومنهم من قال : { وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً } [الفرقان : 5] .

ولكن هناك جانب آخر كان له موقف مختلف سيأتي تبيانه من بعد ذلك ، وهم الجانب المُضَادَّ لهؤلاء؛ حيث يقول الحق سبحانه : { وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ } [النحل : 30] .

ووراء ذلك قصة تُوضِّح جوانب الخلاف بين فريق مؤمن ، وفريق كافر .

فحين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه وعشيرته إلى الإيمان بالله الواحد الذي أنزل عليه منهجاً في كتاب مُعجز ، بدأت أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم تنتشر بين قبائل الجزيرة العربية كلها ، وأرسلت كُلَّ قبيلة وفداً منها لتتعرف وتستطلع مسألة هذا الرسول .

ولكن كُفَّار قريش أرادوا أن يصدُّوا عن سبيل الله؛ فقسَّموا أنفسهم على مداخل مكة الأربعة ، فإذا سألهم سائل من وفود القبائل « ماذا قال ربكم الذي أرسل لكم رسولاً؟ » .

هنا يرد عليهم قسم الكفار الذي يستقبلهم : « إنه رسول كاذب ، يُحرِّف ويُجدِّف » . والهدف طبعاً أنْ يصُدّ الكفار وفود القبائل .

ويخبر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما حدث ، وإذا قيل للواقفين على أبواب مكة من الوفود التي جاءت تستطلع أخبار للرسول : ماذا أنزل ربُّكم؟ يردُّون « إنه يُردِّد أساطير الأولين » .

وهذا الجواب الواحد من الواقفين على أبواب مكة الأربعة يدلُّ على أنها إجابة مُتفق عليها ، وسبق الإعداد لها ، وقد أرادوا بذلك أنْ يَصرِفوا وفود القبائل عن الاستماع لرسول الله صلى الله عليه وسلم فشبَّهوا الذِّكْر المُنزَّل من الله بمثل ما كان يرويه لهم على سبيل المثال النضر ابن الحارث من قصص القدماء التي تتشابه مع قصص عنترة ، وأبي زيد الهلالي التي تروي في قُرَانا .

وهذه هي الموقعة الأولى في الأخذ والرد .

ويُعقِّب الحق سبحانه على قولهم هذا : { لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً . . . } .

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (25)

وانظر إلى قوله سبحانه :

{ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً . . . } [النحل : 25] .

لترى كيف يُوضّح الحق سبحانه أن النفس البشرية لها أحوال متعددة؛ وإذا أسرفتْ على نفسها في تلك الجوانب؛ فهي قد تُسرف في الجانب الأخلاقي؛ والجانب الاجتماعي؛ وغير ذلك ، فتأخذ وِزْر كُلّ ما تفعل .

ويُوضّح هنا الحق سبحانه أيضاً أن تلك النفس التي ترتكب الأوزار حين تُضِل نفساً غيرها فهي لا تتحمل من أوزار النفس التي أضلَّتها إلا ما نتجَ عن الإضلال؛ فيقول :

{ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ } [النحل : 25] .

ذلك أن النفس التي تمَّ إضلالها قد ترتكب من الأوزار في مجالات أخرى ما لا يرتبط بعملية الإضلال .

والحق سبحانه أعدل من أنْ يُحمّل حتى المُضِل أوزاراً لم يكُنْ هو السبب فيها؛ ولذلك قال الحق سبحانه هنا :

{ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . . } [النحل : 25] .

أي : أن المُضِلّ يحمل أوزار نفسه ، وكذلك يحمل بعضاً من أوزار الذين أضلّهم؛ تلك الأوزار الناتجة عن الإضلال .

وفي هذا مُطْلق العدالة من الحق سبحانه وتعالى ، فالذين تَمَّ إضلالهم يرتكبون نوعين من الأوزار والسيئات؛ أوزار وسيئات نتيجة الإضلال؛ وتلك يحملها معهم مَنْ أضلوهم .

أما الأوزار والسيئات التي ارتكبوها بأنفسهم دون أنْ يدفعهم لذلك مَنْ أضلُّوهم؛ فهم يتحمَّلون تَبِعاتها وحدهم ، وبذلك يحمل كُلُّ إنسان أحمال الذنوب التي ارتكبها .

وقد حسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حين قال : « والذي نفس محمد بيده ، لا ينال أحد منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، بعير له رُغَاء ، أو بقرة لها خُوَار ، أو شاة تَيْعَر » .

وقِسْ على ذلك من سرق في الطوب والأسمنت والحديد وخدع الناس .

وحين يقول الحق سبحانه :

{ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . . } [النحل : 25] .

إنما يلفتنا إلى ضرورة ألاَّ تُلهينا الدنيا عن أهمّ قضية تشغل بال الخليقة ، وهي البحث عن الخالق الذي أكرم الخَلْق ، وأعدَّ الكون لاستقبالهم .

وكان يجب على هؤلاء الذين سمعوا من كفار قريش أن يبحثوا عن الرسول ، وأن يسمعوا منه؛

فهم أُميون لم يسبق أنْ جاءهم رسول؛ وقد قال فيهم الحق سبحانه : { وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ } [البقرة : 78] .

فإذا ما جاءهم الرسول كان عليهم أنْ يبحثوا ، وأنْ يسمعوا منه لا نقلاً عن الكفار؛ ولذلك سيعاقبهم الله؛ لأنهم أهملوا قضية الدين ، ولكن العقوبةَ الشديدة ستكون لِمَنْ كان عندهم عِلْم بالكتاب .

والحق سبحانه هو القائل : { فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً . . } [البقرة : 79] .

ويَصِف الحق سبحانه مَنْ يحملون أوزارهم وبعضاً من أوزار مَنْ أضلوهم :

{ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ } [النحل : 25] .

أي : ساء ما يحملون من آثام؛ فهم لَمْ يكتفوا بأوزارهم ، بل صَدُّوا عن سبيل الله ، ومنعُوا الغير أنْ يستمعَ إلى قضية الإيمان .

ومن نتيجة ذلك أنْ يبيح مَنْ لم يسمع لنفسه بعضاً مِمَّا حرم الله؛ فيتحمل مَنْ صدَّهم عن السبيل وِزْر هذا الإضلال .

ولذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « شَرُّكم مَنْ باع دينه بِدُنْياه ، وشَرٌّ منه مَنْ باع دينه بِدُنْيا غيره » .

فمَنْ باع الدين ليتمتع قليلاً؛ يستحق العقاب؛ أما مَنْ باع دينه ليتمتعَ غيرُه فهو الذي سيجد العقاب الأشدَّ من الله .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { قَدْ مَكَرَ الذين . . . } .

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (26)

ويأتي الحق سبحانه هنا بسيرة الأولين والسُّنن التي أجراها سبحانه عليهم ، ليسلي رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ويُوضِّح له أن ما حدث معه ليس بدْعاً؛ بل سبق أنْ حدث مع مَنْ سبق من الرسل . ويُبلغه أنه لم يبعث أيَّ رسول إلا بعد تَعُمّ البَلْوى ويَطم الفساد ، ويفقد البشر المناعة الإيمانية ، نتيجة افتقاد مَنْ يؤمنون ويعملون الصالحات ، ويتواصون بالحقِّ وبالصبر .

والمَثَلُ الواضح على ذلك ما حدث لبني إسرائيل؛ الذين قال فيهم الحق سبحانه : { كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ } [المائدة : 79] .

فانصبَّ عليهم العذاب من الله ، وهذا مصير كُلِّ أمة لا تتناهى عن المنكر الظاهر أمامها .

ويقول سبحانه هنا :

{ قَدْ مَكَرَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ . . . } [النحل : 26] .

والمكر تبييت خفيّ يُبيّته الماكر بما يستر عن المَمْكُور به . ولكن حين يمكر أحد بالرسل؛ فهو يمكر بمَنْ يُؤيّده الله العالم العليم .

وإذا ما أعلم اللهُ رسولَه بالمكر؛ فهو يُلغِي كل أثر لهذا التبييت؛ فقد علمه مَنْ يقدر على إبطاله .

والحق سبحانه هو القائل : { كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي } [المجادلة : 21] .

وهو القائل : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون } [الصافات : 171-172] .

وطبَّق الحق سبحانه ذلك على رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ حين مكر به كفار قريش وجمعوا شباب القبائل ليقتلوه؛ فأغشاهم الله ولم يبصروا خروجه للهجرة ولم ينتصر عليه معسكر الكفر بأيّ وسيلة؛ لا باعتداءات اللسان ، ولا باعتداءات الجوارح .

وهؤلاء الذين يمكرون بالرسل لم يتركهم الحق سبحانه دون عقاب :

{ فَأَتَى الله بُنْيَانَهُمْ مِّنَ القواعد . . . } [النحل : 26] .

أي : أنهم إنْ جعلوا مكرهم كالبناية العالية؛ فالحقُّ سبحانه يتركهم لإحساس الأمن المُزيف ، ويحفر لهم مِنْ تحتهم ، فيخِرّ عليهم السقف الذي من فوقهم . وهكذا يضرب الله المثَل المعنوي بأمرٍ مَحَسّ .

وقوله الحق :

{ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ . . . } [النحل : 26] .

يُوضّح أنهم موجودون داخل هذا البيت ، وأن الفوقية هنا للسقف ، وهي فوقية شاءها الله ليأتيهم :

{ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ } [النحل : 26] .

وهكذا يأتي عذاب الله بَغْتة؛ ذلك أنهم قد بيَّتوا ، وظنوا أن هذا التبييت بخفاء يَخْفَى عن الحَيّ القيوم .

ولَيْتَ الأمرَ يقتصر على ذلك؛ لا بل يُعذّبهم الله في الآخرة أيضاً : { ثُمَّ يَوْمَ القيامة . . . } .

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (27)

وهكذا يكون العذاب في الدنيا وفي الآخرة ، ويَلْقوْن الخِزْي يوم القيامة . والخِزْي هو الهوان والمَذلّة ، وهو أقوى من الضرب والإيذاء؛ ولا يتجلَّد أمامه أحدٌ؛ فالخِزْي قشعريرة تَغْشَى البدن؛ فلا يُفلت منها مَنْ تصيبه .

وإنْ كان الإنسان قادراً على أنْ يكتمَ الإيلام؛ فالخِزْي معنى نفسي ، والمعاني النفسية تنضح على البشرة؛ ولا يقدر أحد أنْ يكتم أثرها؛ لأنه يقتل خميرة الاستكبار التي عاش بها الذي بيَّت ومكر

.

ويُوضِّح الحق سبحانه هذا المعنى في قوله عن القرية التي كان يأتيها الرزق من عند الله ثم كفرت بأنعم الله؛ فيقول : { وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ } [النحل : 112] .

أي : كأن الجسد كله قد سار مُتلِكاً لحاسة التذوق ، وكأن الجوع قد أصبح لباساً؛ يعاني منه صاحبه؛ فيجوع بقفاه ، ويجوع بوجهه ، ويجوع بذراعه وجلده وخطواته ، وبكل ما فيه .

وساعة يحدث هذا الخِزي فكُلُّ خلايا الاستكبار تنتهي ، خصوصاً أمام مَنْ كان يدَّعي عليهم الإنسان أن عظمته وتجبّره وغروره باقٍ ، وله ما يسنده .

ويتابع سبحانه متحدياً :

{ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ } [النحل : 27] . أي : أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم؛ فجعلتم من أنفسكم شُقَّة ، وجعلتم من المؤمنين شُقَّة أخرى ، وكلمة { تُشَاقُّونَ } مأخوذة من « الشق » ويقال : « شَقَّ الجدار أو شَقَّ الخشب » والمقصود هنا أنْ جعلتم المؤمنين ، ومَنْ مع الرسول في شُقَّة تُعادونها ، وأخذتُم جانب الباطل ، وتركتُم جانب الحق .

وهنا يقول مَنْ آتاهم الله العلم :

{ قَالَ الذين أُوتُواْ العلم إِنَّ الخزي اليوم والسواء عَلَى الكافرين } [النحل : 27] .

وكأن هذا الأمر سيصير مشهداً بمحضر الحق سبحانه بين مَنْ مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيحضره الذين أتاهم الله العلم .

والعلم كما نعلم يأتي من الله مباشرة؛ ثم يُنقَل إلى الملائكة؛ ثم يُنقَل من الملائكة إلى الرُّسل ، ثم يُنقل من الرُّسُل إلى الأُمم التي كلَّفَ الحق سبحانه رسله أنْ يُبلِّغوهم منهجه .

وكَما شهدتْ الدنيا سقوط المناهج التي اتبعوها من أهوائهم ، وسقوط مَنْ عبدوهم من دون الله سيشهد اليوم الآخر الخِزْي والسوء وهو يحيط بهم ، وقد يكون الخِزْي من هَوْل الموقف العظيم ، ويحمي الله مَنْ آمنوا به بالاطمئنان .

ونعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال : « ألا هل بلغت ، اللهم فأشهد » .

وكما بلَّغَ رسولُ الله أمته واستجابتْ له؛ فقد طلب منهم أيضاً أن يكونوا امتداداً لرسالته ، وأَنْ يُبلِّغوها للناس ، ذلك أن الحق سبحانه قد منع الرسالات من بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . وصار عن مسئولية الأمة المحمدية أنْ تُبلِّغ كل مَنْ لم تبلغه رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « نَضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ، وأدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فَرُبَّ مُبلَّغ أَوْعَى مِن سامع » .

والحق سبحانه هو القائل : { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً *

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرسول لَوْ تسوى بِهِمُ الأرض . . . } [النساء : 41-42] .
أي : يتمنوْنَ أنْ يصيروا تُرَاباً ، كما قال تعالى في موقع آخر : { إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الكافر ياليتني كُنتُ تُرَاباً } [النبأ : 40] .
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة . . . } .

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28)

يقول تعالى :
{ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ . . . } [النحل : 28] .
أي : تتوفّاهم في حالة كَوْنهم ظالمين لأنفسهم ، وفي آية أخرى قال الحق تبارك وتعالى : { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [النحل : 118] .
ومعلوم أن الإنسان قد يظلم غيره لحَظِّ نفسه ولصالحها . . فكيف يظلم هو نفسه ، وهذا يسمونه الظلم الأحمق حين تظلم نفسك التي بين جنبيك . . ولكن كيف ذلك؟
نعرف أن العدو إذا كان من الخارج فسهْلٌ التصدي له ، بخلاف إذا جاءك من نفسك التي بين جَنْبَيْك ، فهذا عدو خطير صَعْب التصدِّي له ، والتخلّص منه .
وهنا نطرح سؤالاً : ما الظلم؟ الظلم أنْ تمنعَ صاحب حَقٍّ حَقَّه ، إذن : ماذا كان لنفسك عليك حتى يقال : إنك ظلمتها بمنعها حَقِّها؟
نقول : حين تجوع ، ألاَ تأكل؟ وحين تعطش ألاَ تشرب؟ وحين تُرْهق من العمل ألاَ تنام؟
إذن : أنت تعطي نفسك مطلوباتها التي تُريحها وتسارع إليها ، وكذلك إذا نِمْتَ وحاولوا إيقاظك للعمل فلم تستيقظ ، أو حاولوا إيقاظك للصلاة فتكاسلت ، وفي النهاية كانت النتيجة فشلاً في العمل أو خسارة في التجارة . . الخ .
إذن : هذه خسارة مُجمعة ، والخاسر هو النفس ، وبهذا فقد ظلم الإنسانُ نفسه بما فاتها من منافع في الدنيا ، وقِسْ على ذلك أمور الآخرة .
وانظر هنا إلى جُزْئيات الدنيا حينما تكتمل لك ، هل هي نهاية كل شيء ، أم بنهايتها يبتديء شيء؟ بنهايتها يبتديء شيء ، ونسأل : الشيء الذي سوف يبدأ ، هل هو صورة مكررة لما انتهى في الدنيا؟
ليس كذلك ، لأن المنتهي في الدنيا مُنقطع ، وقد أخذت حَظِّي منه على قَدْر قدراتي ، وقدراتي لها إمكانات محدودة . . أما الذي سيبدأ أي في الآخرة ليس بمُنْتهٍ بل خالد لا انقطاع له ، وما فيه من نعيم يأتي على قَدْر إمكانات المنعِم ربك سبحانه وتعالى .
إذن : أنت حينما تُعطِي نفسك متعة في الدنيا الزائلة المنقطعة ، تُفوِّت عليها المتعة الباقية في

الآخرة . . وهذا مُنتهى الظلم للنفس .

ونعود إلى قوله تعالى :

{ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة . . . } [النحل : 28] .

أثبتت هذه الآية التوفّي للملائكة . . والتوفّي حقيقة لله تعالى ، كما جاء في قوله : { الله يَتَوَفَّى الأنفس . . . } [الزمر : 42] .

لكن لما كان الملائكة مأمورين ، فكأن الله تعالى هو الذي يتوفَّى الأنفُسَ رغم أنه سبحانه وتعالى قال : { الله يَتَوَفَّى الأنفس } [الزمر : 42] .

وقال : { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ } [السجدة : 11] .

وقال : { تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا . . . } [الأنعام : 61] .

إذن : جاء الحَدثُ من الله تعالى مرة ، ومن رئيس الملائكة عزرائيل مرة ، ومن مُسَاعديه من الملائكة مرة أخرى ، إذن : الأمر إما للمزاولة مباشرة ، وإما للواسطة ، وإما للأصل الآمر .

وقوله تعالى :

{ تَتَوَفَّاهُمُ . . . } [النحل : 28] .

معنى التوفّي من وفَّاه حقَّه أي : وفَّاه أجله ، ولم ينقص منه شيئاً ، كما تقول للرجل وَفَّيتُك دَيْنك .

. أي : أخذت ما لك عندي .

{ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ . . . } [النحل : 28] .

نلاحظ أنها جاءت بصيغة الجمع ، و { ظَالِمِي } يعني ظالمين و { أَنْفُسِهِمْ } جمع ، وحين يُقَابَل الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحاداً أي : أن كلاً منهم يظلم نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

{ فَأَلْقَوُاْ السلم . . . } [النحل : 28] .

أي : خضعوا واستسلموا ولم يَعُدْ ينفعهم تكبّرهم وعجرفتهم في الدنيا . . ذهب عنهم كل هذا بذَهَاب الدنيا التي راحتْ من بين أيديهم . وما داموا ألقوا السَّلم الآن ، إذن : فقد كانوا في حرب قبل ذلك كانوا في حرب مع أنفسهم وهم أصحاب الشِّقاق في قوله تعالى : { تُشَاقُّونَ } [النحل : 27] .

أي : تجعلون هذا في شِقٍّ ، وهذا في شِقٍّ ، وكأن الآية تقول : لقد رفعوا الراية البيضاء وقالوا : لا جَلَد لنا على الحرب .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

{ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سواء . . } [النحل : 28] .

هذا كقوله تعالى في آية أخرى : { ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } [الأنعام : 23] .

والواقع أنهم بعد أنْ ألقَوا السلم ورفعوا الراية البيضاء واستسلموا ، أخذهم موقف العذاب فقالوا محاولين الدفاعَ عن أنفسهم :

{ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سواء . . } [النحل : 28] .

وتعجب من كَذِب هؤلاء على الله في مثل هذا الموقف ، على مَنْ تكذبون الآن؟!

فيرد عليهم الحق سبحانه :

{ بلى . . } [النحل : 28] .

وهي أداةُ نفي للنفي السابق عليها ، ومعلومٌ أن نَفْي النفي إثبات ، ف { بلى } تنفي :

{ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سواء . . } [النحل : 28] .

إذن : معناها . . لا . . بل عملتم السوء . ثم يقول الحق سبحانه :

{ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل : 28] .

ومن رحمة الله تعالى أنه لم يكتَفِ بالعلم فقط ، بل دوَّن ذلك عليهم وسَجَّله في كتاب سَيُعرض عليهم يوم القيامة ، كما قال تعالى : { وكفى بِنَا حَاسِبِينَ } [الأنبياء : 47] .

وقال : { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً * اقرأ كتابك كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً } [الإسراء : 13-14] .

ويحلو للبعض أنْ ينكر إمكانية تسجيل الأعمال وكتابتها . . ونقول لهؤلاء : تعالوا إلى ما توصل إليه العقل البشريّ الآن من تسجيل الصور والأصوات والبصمات وغيرها . . وهذا كله يُسهِّل علينا هذه المسألة عندما نرقي إمكانات العقل البشري إلى الإمكانات الإلهية التي لا حدود لها . فلا وجه إذن لأنْ ننكر قدرة الملائكة « رقيب وعتيد » في تسجيل الأعمال في كتاب يحفظ أعماله ويُحصى عليه كل كبيرة وصغيرة . ثم يقول تعالى : { فادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ . . . } .

فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29)

سبق أنْ قُلْنا في شرح قوله تعالى في وصف جهنم : { لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ } [الحجر : 44] .

أي : أن لكل جماعة من أهل المعصية باباً معلوماً . . فبابٌ لأهل الربا . . وبابٌ لأهل الرِّشوة . . وباب لأهل النفاق وهكذا . . ولك أن تتصور ما يُلاقيه مَنْ يجمع بين هذه المعاصي!! إنه يدخل هذا الباب ثم يخرج منه ليدخل باباً آخر . . حقاً ما أتعس هؤلاء!

وهنا يقول تعالى :

{ فادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ } [النحل : 29] .

فجاءت أيضاً بصورة الجمع . إذن : كل واحد منكم يدخل من بابه الذي خُصِّص له . ثم يقول سبحانه :

{ فَلَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين } [النحل : 29] .

والمثوى هو مكان الإقامة ، وقال تعالى في موضع آخر : { لاَ جَرَمَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المستكبرين } [النحل : 23] .

فتكبَّر واستكبر وكل ما جاء على وزن (تفعَّل) يدل على أن كِبْرهم هذا غير ذاتيّ؛ لأن الذي يتكبر حقّاً يتكّبر بما فيه ذاتيّاً لا يسْلُبه منه أحد ، إنما مَنْ يتكبر بشيء لا يملكه فتكبّره غيرُ حقيقيّ ، وسرعان ما يزول ويتصاغر هؤلاء بما تكبَّروا به في الدنيا ، وبذلك لا يكون لأحد أنْ يتكبّر لأن الكبرياءَ الحقيقي لله عزَّ وجل .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا . . . } .

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30)

وقد سبق أنْ تحدثنا عن قوله تعالى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأولين } [النحل : 24] .

فهذه مشاهدة ولقطات تُبيّن الموقف الذي انتهى بأنْ أقروا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

وهذه الآياتُ نزلتْ في جماعة كانوا داخلين مكة . . وعلى أبوابها التي يأتي منها أهل البوادي ، وقد قسَّم الكافرون أنفسهم على مداخل مكة ليصدوا الداخلين إليها عن سماع خبر أهل الإيمان بالنبي الجديد .

وكان أهل الإيمان من المسلمين يتحيَّنون الفرصة ويخرجون على مشارف مكة بحجة رَعْي الغنم مثلاً ليقابلوا هؤلاء السائلين ليخبروهم خبر النبي صلى الله عليه وسلم وخبر دعوته .

مما يدلُّ على أن الذي يسأل عن شيء لا يكتفي بأول عابر يسأله ، بل يُجدِّد السؤال ليقف على المتناقضات . . فحين سألوا الكافرين قالوا : { قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأولين } [النحل : 24] .

فلم يكتفوا بذلك ، بل سألوا أهل الإيمان فكان جوابهم :

{ قَالُواْ خَيْراً . . . } [النحل : 30] .

هذا لنفهم أن الإنسانَ إذا صادف شيئاً له وجهتان متضادتان فلا يكتفي بوجهة واحدة ، بل يجب أن يستمع للثانية ، ثم بعد ذلك للعقل أن يختار بين البدائل .

إذن : حينما سأل الداخلون مكة أهل الكفر : { مَّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأولين } [النحل : 24] .

وحينما سألوا أهلَ الإيمان والتقوى :

{ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً } [النحل : 30] .

ونلاحظ هنا في { وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا . . } [النحل : 30] .

أن الحق سبحانه لم يوضح لنا مَنْ هم ، ولم يُبيّن هُويَّتهم ، وهذا يدلُّنا على أنهم كانوا غير قادرين على المواجهة ، ويُدارون أنفسهم لأنهم ما زالوا ضِعَافاً لا يقدرون على المواجهة .

وقد تكرر هذا الموقف موقف السؤال إلى أنْ تصل إلى الوجهة الصواب حينما عَتَب الحق تبارك وتعالى على نبي من أنبيائه هو سيدنا داود عليه السلام في قوله تعالى : { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخصم إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب * إِذْ دَخَلُواْ على دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ فاحكم بَيْنَنَا بالحق وَلاَ تُشْطِطْ واهدنآ إلى سَوَآءِ الصراط * إِنَّ هَذَآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخطاب } [ص : 21-23] .

فماذا قال داود عليه السلام؟ { قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعَاجِهِ } [ص : 24] .

وواضحٌ في حكم داود عليه السلام تأثُّره بقوله (له تسع وتسعون) ولنفرض أنه لم يكُنْ عنده شيء ، ألم يظلم أخاه بأخْذ نعجته؟! إذن : تأثر داود بدعوى الخصم ، وأدخل فيه حيثية أخرى ، وهذا خطأ إجرائي في عَرْض القضية؛ لأن (تسع وتسعون) هذه لا دَخْل لها في القضية . . بل هي لاستمالة القاضي وللتأثير على عواطفه ومنافذه ، ولبيان أن الخَصْم غني ومع ذلك فهو طماع ظالم .

وسرعان ما اكتشف داود عليه السلام خطأه في هذه الحكومة ، وأنها كانت فتنة واختباراً من الله :

{ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ . . . } [ص : 24] .

أي : اختبرناه كي نُعلِّمه الدرس تطبيقاً . . أيحكم بالحق ويُراعي جميع نواحي القضية أم لا؟

وانظر هنا إلى فطنة النبوة ، فسرعان ما عرف داود ما وقع فيه واعترف به ، واستغفر ربّه وخَرَّ له راكعاً مُنيباً .

وقال تعالى : { فاستغفر رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ } [ص : 24] .

إذن : الشاهد هنا أنه كان على داود عليه السلام أن يستمع إلى الجانب الآخر والطرف الثاني في الخصومة قبل الحكم فيها .

وقوله تعالى :

{ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً . . . } [النحل : 30] .

ما هو الخير؟ الخير كُلُّ ما تستطيبه النفس بكل مَلكَاتها . . لكن الاستطابة قد تكون موقوتة بزمن ، ثم تُورث حَسْرة وندامة . . إذن : هذا ليس خيراً؛ لأنه لا خيرَ في خير بعده النارُ ، وكذلك لا شَرَّ في شر بعده الجنة .

إذن : يجب أن نعرف أن الخير يظل خُيْراً دائماً في الدنيا ، وكذلك في الآخرة ، فلو أخذنا مثلاً متعاطي المخدرات نجده يأخذ متعة وقتية ونشوة زائفة سرعان ما تزول ، ثم سرعان ما ينقلب هذا الخير في نظره إلى شر عاجل في الدنيا وآجل في الآخرة .

إذن : انظر إلى عمر الخير في نفسك وكيفيته وعاقبته . . وهذا هو الخير في قوله تعالى :

{ قَالُواْ خَيْراً } [النحل : 30] .

إذن : هو خير تستطيبه النفس ، ويظل خيراً في الدنيا ، ويترتب عليه خير في الآخرة ، أو هو موصول بخير الآخرة . . ثم فسَّره الحق تبارك وتعالى في قوله سبحانه :

{ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ . . . } [النحل : 30] .

ونفهم من هذه الآية أنه على المؤمن ألاَّ يترك الدنيا وأسبابها ، فربما أخذها منك الكافر وتغلَّب عليك بها ، أو يفتنك في دينك بسببها ، فمَنْ يعبد الله أَوْلى بسرِّه في الوجود ، وأسرارُ الله في الوجود هي للمؤمنين ، ولا ينبغي لهم أن يتركوا الأخذ بأسباب الدنيا للكافرين .

اجتهد أنت أيها المؤمن في أسباب الدنيا حتى تأمنَ الفتنة من الكافرين في دُنْياك . . ولا يخفي ما نحن فيه الآن من حاجتنا لغيرنا ، مما أعطاهم الفرصة ليسيطروا على سياساتنا ومقدراتنا .

لذلك يقول سبحانه :

{ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ } [النحل : 30] .

أي : يأخذون حسناتهم ، وتكون لهم اليَدُ العليا بما اجتهدوا ، وبما عَمِلوا في دنياهم ، وبذلك ينفع الإنسانُ نفسه وينفع غيره ، وكلما اتسعت دائرة النفع منك للناس كانت يدك هي العليا ، وكان ثوابك وخَيْرك موصولاً بخير الآخرة .

لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة » .

ومن هذه الآية أيضاً يتضح لنا جانب آخر ، هو ثمرة من ثمرات الإحسان في الدنيا وهي الأمن .

. فمَنْ عاش في الدنيا مستقيماً لم يقترف ما يُعَاقب عليه تجدْه آمناً مطمئناً ، حتى إذا داهمه شر أو مكروه تجده آمنا لا يخاف ، لأنه لم يرتكب شيئاً يدعو للخوف .

خُذْ مثلاً اللص تراه دائماً مُتوجِّساً خائفاً ، تدور عَيْنه يميناً وشمالاً ، فإذا رأى شرطياً هلع وترقَّب وراح يقول في نفسه : لعله يقصدني . . أما المستقيم فهو آمن مطمئن .

ومن ثمرات هذا الإحسان وهذه الاستقامة في الدنيا أن يعيش الإنسان على قَدْر إمكاناته ولا يُرهق نفسه بما لا يقدر عليه ، وقديماً قالوا لأحدهم : قد غلا اللحم ، فقال : أَرْخِصوه ، قالوا : وكيف لنا ذلك؟ قال : ازهدوا فيه .

وقد نظم ذلك الشاعرُ فقال :

وَإِذَا غَلاَ شَيءٌ عَلَيَّ تركْتُه ... فيكونُ أرخصَ ما يكونُ إِذَا غَلاَ

ولا تَقُلْ : النفس توَّاقة إليه راغبة فيه ، فهي كما قال الشاعر :

وَالنفْسُ رَاغِبةٌ إِذَا رغَّبْتَها ... وَإِذَا تُرَدّ إلى قَلِيل تَقْنَعُ

وفي حياتنا العملية ، قد يعود الإنسان من عمله ولَمَّا ينضج الطعام ، ولم تُعَد المائدة وهو جائع ، فيأكل أيَّ شيء موجود وتنتهي المشكلة ، ويقوم هذا محل هذا ، وتقنعُ النفسُ بما نالتْه .

ولكي يعيش الإنسان على قَدْر إمكاناته لا بُدَّ له أنْ يوازن بين دَخْله ونفقاته ، فمَنْ كان عنده عُسْر في دَخْله ، أو ضاقت عليه منافذ الرزق لا بُدَّ له من عُسْر في مصروفه ، ولا بُدَّ له أنْ يُضيِّق على النفس شهواتها ، وبذلك يعيش مستوراً ميسوراً ، راضي النفس ، قرير العين .

والبعض في مثل هذه المواقف يلجأ إلى الاستقراض للإنفاق على شهوات نفسه ، وربما اقترض ما يتمتع به شهراً ، ويعيش في ذلة دَهْراً؛ لذا من الحكمة إذن قبل أن تسأل الناس القرض سَلْ نفسك أولاً ، واطلب منها أن تصبر عليك ، وأن تُنظرك إلى ساعة اليُسْر ، ولا تُلجئك إلى مذلَّة السؤال . . وقبل أن تلوم مَنْ منعك لُمْ نفسك التي تأبَّتْ عليك أولاً .

وما أبدع شاعِرنا الذي صاغ هذه القيم في قوله :

إِذَا رُمْتَ أنْ تستقرضَ المالَ مُنفِقاً ... على شَهَواتِ النفسِ فِي زَمَنِ العُسْر

فَسَلْ نفسَكَ الإنفاقَ من كَنْز صَبْرِها ... عليْكَ وإنظاراً إلى سَاعةِ اليُسْرِ

فَإِنْ فعلْتَ كنتَ الغني ، وإنْ أبَتْ ... فكُل مَنُوع بعدها وَاسِعُ العُذْر

ثم يقول الحق سبحانه :

{ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ } [النحل : 30] .

والخير في الآخرة من الله ، والنعيم فيها على قَدْر المنعِم تبارك وتعالى ، دون تعب ولا كَدٍّ ولا عمل .

ومعلوم أن كلمة : { قَالُواْ خَيْراً . . . } [النحل : 30] .

التي فسَّرها الحق تبارك وتعالى بقوله :

{ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ . . } [النحل : 30] .

تقابلها كلمة « شر » ، هذا الشر هو ما جاء في قول الكافرين : { مَّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأولين } [النحل : 24] .

فهؤلاء قالوا خيراً ، وأولئك قالوا شراً .

ولكن إذا قيل : ذلك خير من ذلك ، فقد توفر الخير في الاثنين ، إلا أن أحدهما زاد في الخيرية عن الآخر ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير » .

لذلك لما قال :

{ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ } [النحل : 30] .

قال : { وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ } [النحل : 30] .

أي : خير من حسنة الدنيا ، فحسنة الدنيا خير ، وأخير منها حسنة الآخرة .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

{ وَلَنِعْمَ دَارُ المتقين } [النحل : 30] .

أي : دار الآخرة .

ثم أراد الحق تبارك وتعالى أن يعطينا صورة موجزة عن دار المتقين كأنها برقية ، فقال سبحانه : { جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا . . . } .

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31)

والجنات : تعني البساتين التي بها الأشجار والأزهار والثمار والخضرة ، مما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذُن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . . ليس هذا وفقط . . هذه الجنة العمومية التي يراها كل مَنْ يدخلها . . بل هناك لكل واحد قصر خاص به ، بدليل قوله تعالى : { وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الفوز العظيم } [الصف : 12] .

إذن : هنا قَدْر مشترك للجميع :

{ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار } [النحل : 31] .

ومعنى قوله تعالى : { جَنَّاتُ عَدْنٍ . . . } [النحل : 31] .

أي : جنات إقامة دائمة؛ لأن فيها كل ما يحتاجه الإنسان ، فلا حاجه له إلى غيرها . . هَبْ أنك دخلْتَ أعظم حدائق وبساتين العالم هايد بارك مثلاً فقصارى الأمر أنْ تتنزَّه به بعض الوقت ، ثم يعتريك التعب ويصيبك المَلل والإرهاق فتطلب الراحة من هذه النزهة . . أما الجنة فهي جنة عدن ، تحب أن تقيم فيها إقامة دائمة .

ويصف الحق سبحانه هذه الجنات فيقول :

{ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار } [النحل : 31] .

وفي آية أخرى يقول سبحانه : { تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار } [التوبة : 100] .

ومعنى « تجري تحتها » أي : أنها تجري تحتها ، وربما تأتي من مكان آخر . . وقد يقول هنا قائل : يمكن أن يُمنع عنك جريان هذه الأنهار؛ لذلك جاءت الآية :

{ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار } [النحل : 31] .

أي : ذاتية في الجنة لا يمنعها عنك مانع .

ثم يقول تعالى :

{ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤونَ . . } [النحل : 31] .

والمشيئة هنا ليست بإرادة الدنيا ومشيئتها ، وإنما مشيئة بالمزاج الخصب الذي يتناسب مع الآخرة ونعيمها . . فمثلاً : إذا دخلتَ على إنسان رقيق الحال فَلَك مشيئة على قدر حالته ، وإذا دخلتَ على أحد العظماء أو الأثرياء كانت لَكَ مشيئة أعلى . . وهكذا .

إذن : المشيئات النفسية تختلف باختلاف المشَاء منه ، فإذا كان المشَاء منه هو الله الذي لا يُعجزه شيء تكون مشيئتُك مُطلقة ، فالمشيئة في الآية ليستْ كمشيئة الدنيا؛ لأن مشيئة الدنيا تتحدَّد ببيئة الدنيا . . أما مشيئة الآخرة فهي المشيئة المتفتحة المتصاعدة المرتقية كما تترقى المشيئات عند البشر في البشر حَسْب مراتبهم ومراكزهم .

ويُرْوى أنه لما أُسِرَتْ بنت أحد ملوك فارس عند رجل ، وأرادوا شراءها منه وعرضوا عليه ما يريد ، فقال : أريد فيها ألف دينار ، فأعطوه الألف دينار وأخذوها منه . . فقال له أحدهم : إنها ابنةُ الملك ، ولو كنت طلبتَ منه كذا وكذا لم يبخل عليك فقال : والله لو علمتُ أن وراء الألف عدداً لَطلبْته . . فقد طلب قصارى ما وصل إليه علمه .

لذلك لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يشرح لنا هذا النص القرآني :

{ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤونَ . . . } [النحل : 31] .

وكذلك قوله تعالى : { وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس وَتَلَذُّ الأعين وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [الزخرف : 71] .

قال : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قَلْب بشر » .

إذن : تحديد الإطار للآية بقدر ما هم فيه عند ربهم .

{ كَذَلِكَ يَجْزِي الله المتقين } [النحل : 31] .

أي : هكذا الجزاء الذي يستحقونه بما قدموا في الدنيا ، وبما حرَمَوا منه أنفسهم من مُتَع حرام . . وقد جاء الآن وقْتُ الجزاء ، وهو جزاءٌ أطول وأَدْوم؛ لذلك قال الحق تبارك وتعالى في آية أخرى : { كُلُواْ واشربوا هَنِيئَاً بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الأيام الخالية } [الحاقة : 24] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { الذين تَتَوَفَّاهُمُ . . . } .

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32)

أي : المتقون هم الذين تتوفاهم الملائكة طيبين .

ومعنى :

{ تَتَوَفَّاهُمُ } [النحل : 32] .

أي : تأتي لقبْض أرواحهم ، وهنا نَسَب التوفّي إلى جملة الملائكة ، كأنهم جنود ملَك الموت الأصيل عزرائيل ، وقد سبق أنْ قُلْنا : إن الحق تبارك وتعالى مرةً ينسب التوفّي إلى الملائكة ، ومرة ينسبه إلى مَلك الموت : { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ . . } [السجدة : 11] .

ومرّة ينسبه إلى نفسه سبحانه : { الله يَتَوَفَّى } [الزمر : 42] .
ذلك لأن الله سبحانه هو الآمر الأعلى ، وعزرائيل مَلكُ الموت الأصيل ، والملائكة هم جنوده الذين يُنفّذون أوامره .
وقوله : { طَيِّبِينَ . . } [النحل : 32] .
تقابل الآية السابقة : { الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ } [النحل : 28] . والطيّب هو الشيء الذي يوجد له خيرٌ دائم لا ينقطع ولا ينقلب خَيْره هذا شراً ، وهو الشيء الذي تستريح له النفس راحة تنسجم منها كل مَلكاتها ، بشرط أن يكون مستمراً إلى خَيْرٍ منه ، ولا يستمر إلى خَيْرٍ منه وأحسن إلا طَيِّب القيم وطَيِّب الدين ، أما غير ذلك فهو طيب موقوتٌ سرعان ما يُهجر .
ولذلك حينما يدَّعي اثنان المحبة في الله نقول : هذه كلمة تُقال ، ومِصْداقها أن ينمو الودُّ بينكما كل يوم عن اليوم الذي قبله؛ لأن الحب للدنيا تشوبه الأطماع والأهواء ، فترى الحب ينقص يوماً بعد يوم ، حَسْب ما يأخذ أحدهما من الآخر ، أما المتحابان في الله فيأخذان من عطاء لا ينفد ، هو عطاء الحق تبارك وتعالى ، فإنْ رأيت اثنين يزداد وُدّهما فاعلم أنه وُدٌّ لله وفي الله ، على خلاف الوُد لأغراض الدنيا فهو وُدٌّ سرعان ما ينقطع .
هل هناك أطيب من أنهم طهَّروا أنفسهم من دَنَس الشرك؟ وهل هناك أطيبُ من أنهم اخلصوا عملهم لله ، وهل هناك أطيب من أنهم لم يُسْرفوا على أنفسهم في شيء؟
وحَسْب هؤلاء من الطيب أنهم ساعة يأتي مَلَكُ الموت يمرُّ عليهم شريط أعمالهم ، ومُلخّص ما قدّموه في الدنيا ، فيرْون خَيْراً ، فتراهم مُستبشرين فرحين ، يبدو ذلك على وجوههم ساعة الاحتضار ، فتراه أبيضَ الوجه مُشْرقاً مبتسماً ، عليه خاتمة الخير والطيب والسعادة؛ ذلك لما عاينه من طيب عمله ، ولما يستبشر به من الجزاء عند الله تبارك وتعالى .
وعلى عكس هذه الحالة تماماً نرى أهل الشقاوة ، وما هُمْ عليه ساعةَ الغرغرة من سواد الوجه ، وسُوء الخاتمة ، والعياذ بالله .
{ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ } [النحل : 32] .
أي : حينما تتوفّاهم الملائكة يقولون لهم سلام؛ لأنكم خرجتم من الدنيا بسلام ، وستُقبِلون على الآخرة بسلام ، إذن : سلام الطيبين سلامٌ موصول من الدنيا إلى الآخرة ، سلامٌ مُترتّب على سلامة دينكم في الدنيا ، وسلامة إقبالكم على الله ، دون خوف في الآخرة .
وهنا سلام آخر جاء في قول الحق تبارك وتعالى : { وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ }

[الزمر : 73] .

ثم يأتي السلام الأعلى عليهم من الله تبارك وتعالى؛ لأن كل هذه السلامات لهؤلاء الطيبين مأخوذة من السلام الأعلى : { سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ } [يس : 58] .

وهل هناك افضل وأطيب من هذا السلام الذي جاء من الحق تبارك وتعالى مباشرة .

وتعجب هنا من سلام أهل الأعراف على المؤمنين الطيبين وهم في الجنة ، ونحن نعرف أن أهل الأعراف هم قوم تساوتْ حسناتهم وسيئاتهم فحُجِزا على الأعراف ، وهو مكان بين الجنة والنار ، والقسمة الطبيعية تقتضي أن للميزان كفتين ذكرهما الحق تبارك وتعالى في قوله : { فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ } [القارعة : 6-9] .

هاتان حالتان للميزان ، فأين حالة التساوي بين الكفتين؟ جاءت في قوله تعالى : { وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ } [الأعراف : 46] .

أي : يعرفون أهل الجنة وأهل النار : { وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الجنة أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ } [الأعراف : 46] .

ووجه العجب هنا أن أهل الأعراف في مأزق وشدّة وانشغال بما هم فيه من شدة الموقف ، ومع ذلك نراهم يفرحون بأهل الجنة الطيبين ، ويُبادرونهم بالسلام .

إذن : لأهل الجنة سلامٌ من الملائكة عند الوفاة ، وسلام عندما يدخلون الجنة ، وسلام أعلى من الله تبارك وتعالى ، وسلام حتى من أهل الأعراف المنشغلين بحالهم .

{ ادخلوا الجنة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل : 32] .

أي : لأنكم دفعتم الثمن؛ والثمن هو عملكم الصالح في الدنيا ، واتباعكم لمنهج الحق تبارك وتعالى .

وقد يرى البعض تعارضاً بين هذه الآية وبين الحديث الشريف : « لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته » .

والحقيقة أنه لا يوجد تعارضٌ بينهما ، ولكن كيف نُوفِّق بين الآية والحديث؟

الله تعالى يُوحي لرسوله صلى الله عليه وسلم الحديث كما يُوحي له الآية ، فكلاهما يصدر عن مِشْكاة واحدة ومصدر واحد . . على حَدِّ قوله تعالى : { وَمَا نقموا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ الله وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ . . . } [التوبة : 74] .

فالحَدثُ هنا واحد ، فلم يُغْنِهم الله بما يناسبه والرسول بما يناسبه ، بل هو غناء واحد وحَدث واحد ، وكذلك ليس ثمة تعارضٌ بين الآية والحديث . . كيف؟

الحق تبارك وتعالى كلَّف الإنسان بعد سِنِّ الرُّشْد والعقل ، وأخذ يُوالي عليه النعم منذ صِغَره ، وحينما كلَّفه كلَّفه بشيء يعود على الإنسان بالنفع والخير ، ولا يعود على الله منه شيء ، ثم بعد

ذلك يُجازيه على هذا التكليف بالجنة .

إذن : التكليف كله لمصلحة العبد في الدنيا والآخرة . إذن : تشريع الجزاء من الله في الآخرة هو مَحْضُ الفضل من الله ، ولو أطاع العبدُ رَبّه الطاعة المطلوبة منه في الأفعال الاختيارية التكليفية لما وَفّى نِعَم الله عليه ، وبذلك يكون الجزاء في الجنة فَضْلاً من الله ومنَّة .

أو : أنهم حينما قالوا :

{ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل : 32] .

يريدون أن عملهم سبب عاديّ لدخول الجنة ، ثم يكتسبونها بفضل الله . . فتجمع الآية بين العمل والفضل معاً؛ لذلك فإن الحق تبارك وتعالى يُقوّي هذا بقوله تعالى : { قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } [يونس : 58] .

فهم لم يفرحوا بالعمل لأنه لا يَفِي بما هم فيه من نعمة ، بل الفرحة الحقيقية تكون بفضل الله ورحمته ، وفي الدعاء : « اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل » .

وأخيراً . . هل كانوا يعملون هكذا من عند أنفسهم؟ لا . . بل بمنهج وضعه لهم ربّهم تبارك وتعالى . . إذن : بالفضل لا بمجرد العمل . . ومثال ذلك : الوالد عندما يقول لولده : لو اجتهدت هذا العام وتفوقت سأعطيك كذا وكذا . . فإذا تفوَّق الولد كان كل شيء لصالحه : النجاح والهدية .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ . . . } .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33)

بعد أن عرضتْ الآيات جزاء المتقين الذين قالوا خيراً ، عادتْ لهؤلاء الذين قالوا { أَسَاطِيرُ الأولين } الذين يُصادمون الدعوة إلى الله ، ويقفون منها موقف العداء والكَيْد والتربُّص والإيذاء .

وهذا استفهام من الحق تبارك وتعالى لهؤلاء : ماذا تنتظرون؟! بعدما فعلتم بأمر الدعوة وما صَدْدتُم الناس عنها ، ماذا تنتظرون؟ أتنتظرون أنْ تَرَوْا بأعينكم ، ليس أمامكم إلا أمران : سيَحُلاَّن بكم لا محالة :

إما أنْ تأتيكم الملائكة فتتوفاكم ، أو يأتي أمرُ ربّك ، وهو يوم القيامة ولا ينجيكم منها إلا أنْ تؤمنوا ، أم أنكم تنتظرون خيْراً؟! فلن يأتيكم خير أبداً . . كما قال تعالى في آيات أخرى : { أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ } [النحل : 1] .

وقال : { اقتربت الساعة } [القمر : 1] .

وقال : { اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ } [الأنبياء : 1] .

إذن : إنما ينتظرون أحداثاً تأتي لهم بشَرٍّ : تأتيهم الملائكة لقبْض أرواحهم في حالة هم بها ظالمون لأنفسهم ، ثم يُلْقون السَّلَم رَغْماً عنهم ، أو : تأتيهم الطامة الكبرى وهي القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

{ كَذَلِكَ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ } [النحل : 33] .

أي : ممَّن كذَّب الرسل قبلهم . . يعني هذه مسألة معروفة عنهم من قبل :

{ وَمَا ظَلَمَهُمُ الله } [النحل : 33] .

أي : وما ظلمهم الله حين قدَّر أنْ يُجازيهم بكذا وكذا ، وليس المراد هنا ظلمهم بالعذاب؛ لأن العذاب لم يحُلّ بهم بعد .

{ ولكن كَانُواْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [النحل : 33] .

وهذا ما نُسمِّيه بالظلم الأحمق؛ لأن ظلم الغير قد يعود على الظالم بنوع من النفع ، أما ظُلْم النفس فلا يعود عليها بشيء؛ وذلك لأنهم أسرفوا على أنفسهم في الدنيا فيما يخالف منهج الله ، وبذلك فَوَّتوا على أنفسهم نعيم الدنيا ونعيم الآخرة ، وهذا هو ظلمهم لأنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ . . . } .

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (34)

أي : أنهم لما ظلموا أنفسهم أصابهم جزاء ذلك ، وسُمِّي ما يُفعل بهم سيئة؛ لأن الحق تبارك وتعالى يُسمّي جزاء السيئة سيئة في قوله : { وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا } [الشورى : 40] .

ويقول تعالى : { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . . . } [النحل : 126] .

وهذه تُسمّى المشاكلة ، أي : أن هذه من جنس هذه .

وقوله تعالى : { مَا عَمِلُواْ } العمل هو مُزَاولة أيّ جارحة من الإنسان لمهمتها ، فكُلُّ جارحة لها مهمة . الرِّجْل واليد والعَيْن والأُذن . . الخ . فاللسان مهمته أن يقول ، وبقية الجوارح مهمتها أنْ تفعل . إذن : فاللسان وحده أخذ النصف ، وباقي الجوارح أخذتْ النصف الآخر؛ ذلك لأن حصائد الألسنة عليها المعوّل الأساسي .

فكلمة الشهادة : لا إله إلا الله لا بُدَّ من النطق بها لنعرف أنه مؤمن ، ثم يأتي دَوْر الفعل ليُساند هذا القول؛ لذا قال تعالى : { يأيها الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } [الصف : 2-3] .

وبالقول تبلُغ المناهج للآذان . . فكيف تعمل الجوارح دون منهج؟ ولذلك فقد جعل الحق تبارك وتعالى للأذن وَضْعاً خاصاً بين باقي الحواس ، فهي أول جارحة في الإنسان تؤدي عملها ، وهي الجارحة التي لا تنقضي مهمتها أبداً . . كل الجوارح لا تعمل مثلاً أثناء النوم إلا الأذن ، وبها يتم

الاستدعاء والاستيقاظ من النوم .

وإذا استقرأت آيات القرآن الكريم ، ونظرت في آيات الخلق ترى الحق تبارك وتعالى يقول : { والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل : 78] .

ثم هي آلة الشهادة يوم القيامة : { حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم . . } [فصلت : 20] .

ولذلك يقول الحق سبحانه : { فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً } [الكهف : 11] .

ومعنى : ضربنا على آذانهم ، أي : عطلنا الأذن التي لا تعطل حتى يطمئن نومهم ويستطيعوا الاستقرار في كهفهم ، فلو لم يجعل الله تعالى في تكوينهم الخارجي شيئاً معيناً لما استقر لهم نوم طوال 309 أعوام .

ويقول الحق تعالى :

{ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [النحل : 34] .

بماذا استهزأ الكافرون؟ استهزأوا بالبعث والحساب وما ينتظرهم من العذاب ، فقالوا كما حكى القرآن : { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَآؤُنَا الأولون } [الصافات : 16-17] .

وقالوا : { أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [السجدة : 10] .

ثم بلغ بهم الاستهزاء أن تعجَّلوا العذاب فقالوا : { فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين } [الأعراف : 70] .

وقالوا : { أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً } [الإسراء : 92] .

وهل يطلب أحد من عدوه أن يُنزِل به العذاب إلا إذا كان مستهزئاً؟

فقال لهم الحق تبارك وتعالى : إنكم لن تقدروا على هذا العذاب الذي تستهزئون به . فقال : { وَحَاقَ بِهِم . . . } [النحل : 34] .

أي : أحاط ونزل بهم ، فلا يستطيعون منه فراراً ، ولا يجدون معه منفذاً للفكاك ، كما في قوله تعالى : { والله مِن وَرَآئِهِمْ مُّحِيطٌ } [البروج : 20] .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ . . . } .

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (35)

نلاحظ أنه ساعة أنْ يأتيَ الفعل نصاً في مطلوبه لا يُذكر المتعلق به . . فلم يَقُلْ : أشركوا بالله . . لأن ذلك معلوم ، والإشراك معناه الإشراك بالله ، لذلك قال تعالى هنا :

{ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ . . . } [النحل : 35] .

ثم يورد الحق سبحانه قولهم :

{ لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ ولا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ } [النحل : 35] .

إنهم هنا يدافعون عن أنفسهم ، وهذه هي الشفاعة التي يُعلّق عليها الكفار خطاياهم شماعة أن الله كتب علينا وقضى بكذا وكذا .

فيقول المسرف على نفسه : ربُّنا هو الذي أراد لي كذا ، وهو الذي يهدي ، وهو الذي يُضل ، وهو الذي جعلني ارتكب الذنوب ، إلى آخر هذه المقولات الفارغة من الحق والنهاية؛ فلماذا يعذبني إذن؟

وتعالوا نناقش صاحب هذه المقولات ، لأن عنده تناقضاً عقلياً ، والقضية غير واضحة أمامه . . ولكي نزيل عنه هذا الغموض نقول له : ولماذا لم تقُل : إذا كان الله قد أراد لي الطاعة وكتبها عليَّ ، فلماذا يثيبني عليها . . هكذا المقابل . . فلماذا قُلْت بالأولى ولم تقُلْ بالثانية؟!

واضح أن الأولى تجرُّ عليك الشر والعذاب ، فوقفتْ في عقلك . . أما الثانية فتجرُّ عليك الخير ، لذلك تغاضيت عن ذِكْرها .

ونقول له : هل أنت حينما تعمل أعمالك . . هل كلها خير؟ أم هل كلها شَرّ؟ أَمَا منها ما هو خير ، ومنها ما هو شر؟

والإجابة هنا واضحة . إذن : لا أنت مطبوع على الخير دائماً ، ولا أنت مطبوع على الشرِّ دائماً ، لذلك فأنت صالح للخير ، كما أنت صالح للشر .

إذن : هناك فَرْق بين أن يخلقك صالحاً للفعل وضِدّه ، وبين أنْ يخلقك مقصوراً على الفعل لا ضده ، ولما خلقك صالحاً للخير وصالحاً للشر أوضح لك منهجه وبيَّنَ لك الجزاء ، فقال : اعمل الخير . . والجزاء كذا ، واعمل الشر . . والجزاء كذا . . وهذا هو المنهج .

ويحلو للمسرف على نفسه أنْ يقولَ : إن الله كتبه عليَّ . . وهذا عجيب ، وكأنِّي به قد اطَّلع على اللوح المحفوظ ونظر فيه ، فوجد أن الله كتب عليه أن يشرب الخمر مثلاً فراحَ فشربها؛ لأن الله كتبها عليه .

ولو أن الأمر هكذا لكنتَ طائعاً بشُرْبك هذا ، لكن الأمر خلاف ما تتصور ، فأنت لا تعرف أنها كُتِبت عليك إلا بعد أنْ فعلتَ ، والفعل منك مسبوق بالعزم على أنْ تفعلَ ، فهل اطلعتَ على اللوح المحفوظ كي تعرف ما كتبه الله عليك؟

وانتبه هنا واعلم أن الله تعالى كتب أزلاً؛ لأنه علم أنك تفعل أجلاً ، وعِلْم الله مُطْلق لا حدودَ له

.

ونضرب مثلاً ولله المثل الأعلى الوالد الذي يلاحظ ولده في دراسته ، فيجده مُهملاً غير مُجدٍّ فيتوقع فشله في الامتحان .

. هل دخل الوالد مع ولده وجعله يكتب خطأ؟ لا . . بل توقّع له الفشل لعلمه بحال ولده ، وعدم استحقاقه للنجاح .

إذن : كتب الله مُسبْقاً وأزلاً؛ لأنه يعلم ما يفعله العبد أصلاً . . وقد أعطانا الحق تبارك وتعالى صورة أخرى لهذا المنهج حينما وجَّه المؤمنين إلى الكعبة بعد أنْ كانت وجْهتهم إلى بيت المقدس ، فقال تعالى : { قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السمآء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ } [البقرة : 144] .

ثم أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : { سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا } [البقرة : 142] .

جاء الفعل هكذا في المستقبل : سيقول . . إنهم لم يقولوا بَعْد هذا القول ، وهذا قرآن يُتلَى على مسامع الجميع غير خافٍ على أحد من هؤلاء السفهاء ، فلو كان عند هؤلاء عقل لَسكتُوا ولم يُبادروا بهذه المقولة ، ويُفوّتوا الفرصة بذلك على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى صِدْق القرآن الكريم .

كان باستطاعتهم أن يسكتوا ويُوجّهوا للقرآن تهمة الكذب ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

وبذلك تمَّتْ إرادة الله وأمره حتى على الكافرين الذين يبحثون عن مناقضة في القرآن الكريم .

وهذه الآية : { وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ } [النحل : 35] .

تشرح وتُفسِّر قول الله تعالى : { سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ } [الأنعام : 148] .

فهنا { سَيَقُولُ } وفي الآية الأخرى { قَالَ } ؛ لنعلم أنه لا يستطيع أحد معارضة قَوْل الله تعالى ، أو تغيير حكمه .

ثم يقول تعالى :

{ نَّحْنُ ولا آبَاؤُنَا . . . } [النحل : 35] .

لماذا لم يتحدث هؤلاء عن أنفسهم فقط؟ ما الحكمة في دفاعهم عن آبائهم هنا؟ الحكمة أنهم سيحتاجون لهذه القضية فيما بعد وسوف يجعلونها حُجَّة حينما يقولون : { إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ } [الزخرف : 22] . إذن : لا حُجَّة لهؤلاء الذين يُعلِّقون إسرافهم على أنفسهم على شماعة القدر ، وأن الله تعالى كتب عليهم المعصية؛ لأننا نرى حتى من المسلمين مَنْ يتكلم بهذا الكلام ، ويميل إلى هذه الأباطيل ، ومنهم مَنْ تأخذه الجُرْأة على الله عز

وجل فيُشبّه هذه القضية بقول الشاعر :

أَلْقَاهُ في اليَمِّ مَكتُوفاً وَقَالَ لَهُ ... إيَّاكَ إيَّاكَ أنْ تبتلَّ بالماءِ

وما يفعل هذا إلا ظالم!! تعالى الله وتنزَّه عن قَوْل الجُهَّال والكافرين ، وأيضاً هناك مَنْ يقول : إن الإنسان هو الذي خلق الفعل ، ويعارضهم آخرون يقولون : لا بل رَبَّنا هو الذي يخلق الفِعْل .

نقول لهم جميعاً : افهموا ، ليس هناك في الحقيقة خلافٌ . . ونسأل : ما هو الفعل؟ الفعل توجيه جارحة لحدثٍ ، فأنت حينما تُوجِّه جارحة لحدثٍ ، ما الذي فعلته أنت؟ هل أعطيتَ لليد مثلاً قوة الحركة بذاتها؟ أم أن إرادتك هي التي وجَّهَتْ حركتها؟

والجارحة مخلوقة لله تعالى ، وكذلك الإرادة التي حكمتْ على الجارحة مخلوقة لله أيضاً .

. إذن : ما فعلته أنت ما هو إلا أن وجَّهْتَ المخلوق لله إلى مَا لا يحب الله في حالة المعصية وإلى ما يحبه الله في حالة الطاعة .

كذلك لا بُدَّ أن نلاحظ أن لله تعالى مرادات كونية ومرادات شرعية . . فالمراد الكونيّ هو ما يكون فِعلاً ، كُلُّ ما تراه في الكون أراد الله أن يكون . والمراد الشرعي : هو طَلَبُ الشيء لمحبوبيته .

ولنأخذ مثلاً لتوضيح ذلك : كُفْر الكافر ، أراد الله كَوْنياً أن يكون ، لأنه خلقه مختاراً وقال : { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف : 29] .

وطالما خلقك الله مختاراً تستطيع أن تتوجه إلى الإيمان ، أو تتوجه إلى الكفر ، ثم كفرتَ . إذن : فهل كفرتَ غَصْباً عنه وعلى غير مُراده سبحانه وتعالى؟ حاشا لله ومعنى ذلك أن كُفْر الكافر مُراد كونيّ ، وليس مراداً شرعياً .

وبنفس المقياس يكون إيمان المؤمن مُراداً كونياً ومُراداً شرعياً ، أما كفر المؤمن ، المؤمن حقيقة لم يكفر . إذن : هو مراد شرعي وكذلك مراد كوني ، وهكذا ، فلا بُدَّ أن نُفرِّق بين المراد كونياً والمراد شرعياً .

ولذلك لما حدثت ضجة في الحرم المكي منذ سنوات ، وحدث فيه إطلاق للنار وترويع للآمنين ، قال بعضهم : كيف يحدث هذا وقد قال تعالى : { وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً } [آل عمران : 97] .

وها هو الحال قَتْل وإزعاج للآمنين فيه؟!

والحقيقة أن هؤلاء خلطوا بين مراد كوني ومراد شرعي ، فالمقصود بالآية : فَمْن دخله فأمِّنوه . أي : اجعلوه آمناً ، فهذا مطلَب من الله تبارك وتعالى ، وهو مراد شرعي قد يحدث وقد لا يحدث . . أما المراد الكوني فهو الذي يحدث فعلاً . وبذلك يكون ما حدث في الحرم مراداً كونياً ، وليس مراداً شرعياً .

ثم يقول تعالى على لسانهم :

{ وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ . . . } [النحل : 35] .

وقد ورد توضيح هذه الآية في قوله تعالى : { مَا جَعَلَ الله مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ ولكن الذين كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ على الله الكذب وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ } [المائدة : 103] .

ثم يقول تعالى مقرراً :

{ كذلك فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . } [النحل : 35] أي : هذه سُنَّة السابقين المعاندين .

{ فَهَلْ عَلَى الرسل إِلاَّ البلاغ المبين } [النحل : 35] .

البلاغ هو ما بين عباد الله وبين الله ، وهو بلاغ الرسل ، والمراد به المنهج « افعل أو لا تفعل » . ولا يقول الله لك ذلك إلا وأنت قادر على الفِعْل وقادر على التَّرْك .

لذلك نرى الحق تبارك وتعالى يرفع التكليف عن المكْره فلا يتعلق به حكم؛ لأنه في حالة الإكراه قد يفعل ما لا يريده ولا يُحبه ، وكذلك المجنون والصغير الذي لم يبلغ التعقل ، كُلُّ هؤلاء لا يتعلق بهم حكْم . . لماذا؟ لأن الله تعالى يريد أن يضمن السلامة لآلة الترجيح في الاختيار . . وهي العقل .

وحينما يكون الإنسان محلَّ تكليف عليه أنْ يجعلَ الفيصل في :

{ فَهَلْ عَلَى الرسل إِلاَّ البلاغ المبين } [النحل : 35] .

بلاغ المنهج بافعل ولا تفعل؛ لذلك استنكر القرآن الكريم على هؤلاء الذين جاءوا بقول من عند أنفسهم دون رصيد من المبلّغ صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى في حَقِّ هؤلاء : { وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرحمن مَا عَبَدْنَاهُمْ . . . } [الزخرف : 19-20] .

فأنكر عليهم سبحانه ذلك ، وسألهم : { أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ } [الزخرف : 21] .

وخاطبهم سبحانه في آية أخرى : { أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ } [القلم : 37] .

وكلمة { البلاغ المبين } أي : لا بُدَّ أن يُبَلِّغ المكَلَّف ، فإنْ حصل تقصير في ألاَّ يُبَلَّغ المكلَّف يُنسَب التقصير إلى أهل الدين الحق ، المنتسبين إليه ، والمُنَاط بهم تبليغ هذا المنهج لمنْ لَمْ يصلْه .

وقد وردت الأحاديث الكثيرة في الحَثِّ على تبليغ دين الله لمن لم يصِلْه الدين .

كما قال صلى الله عليه وسلم : « بلِّغُوا عَنِّي ولو آية » وقوله صلى الله عليه وسلم : « نَضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعَاهَا ثم أدّاها إلى من لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلّغٍ أَوْعَى من سامع » .

قال تعالى : { وَلَقَدْ بَعَثْنَا . . } .

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36)

فالحق سبحانه يقول هنا :

{ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً . . . } [النحل : 36] .

وفي آية أخرى يقول سبحانه : { مِن كُلِّ أُمَّةٍ } [النحل : 84] .

فهذه لها معنى ، وهذه لها معنى . . فقوله : { مِن كُلِّ أُمَّةٍ } [النحل : 84] .

أي : من أنفسهم ، منهم خرج ، وبينهم تربَّى ودَرَج ، يعرفون خِصَاله وصِدْقه ومكانته في قومه .

أما قوله تعالى : { فِي كُلِّ أُمَّةٍ } [النحل : 36] .

ف « في » هنا تفيد الظرفية . أي : في الأمة كلها ، وهذه تفيد التغلغل في جميع الأمة . . فلا يصل البلاغ منه إلى جماعة دون أخرى ، بل لا بُدَّ من عموم البلاغ لجميع الأمة .

وكذلك يقول تعالى مرة : { أَرْسَلْنَا . . . } [الحديد : 26] .

ومرة أخرى يقول :

{ بَعَثْنَا } [النحل : 36] .

وهناك فرق بين المعنيين ف { أَرْسَلْنَا } تفيد الإرسال ، وهو : أن يتوسط مُرْسَل إلى مُرْسَل إليه .

أما { بَعَثْنَا } فتفيد وجود شيء سابق اندثر ، ونريد بعثه من جديد .

ولتوضيح هذه القضية نرجع إلى قصة آدم عليه السلام حيث عَلّمه الله الأسماء كلها ، ثم أهبطه من الجنة إلى الأرض . وقال : { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } [البقرة : 38] .

وقال في آية أخرى : { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى } [طه : 123] .

إذن : هذا منهج من الله تعالى لآدم عليه السلام والمفروض أن يُبلِّغ آدم هذا المنهج لأبنائه ، والمفروض في أبنائه أن يُبلِّغوا هذا المنهج لأبنائهم ، وهكذا ، إلا أن الغفلة قد تستحوذ على المبلِّغ للمنهج ، أو عدم رعاية المبلِّغ للمنهج فتنطمس المناهج ، ومن هنا يبعثها الله من جديد ، فمسألة الرسالات لا تأتي هكذا فجأة فجماعة من الجماعات ، بل هي موجودة منذ أول الخلق . فالرسالات إذن بَعْثٌ لمنهج إلهي ، كان يجب أنْ يظلَّ على ذكر من الناس ، يتناقله الأبناء عن الآباء ، إلا أن الغفلة قد تصيب المبلّغ فلا يُبلّغ ، وقد تصيب المبلَّغ فلا يلتزم بالبلاغ؛ لذلك يجدد الله الرسل .

وقد وردت آياتٌ كثيرة في هذا المعنى ، مثل قوله تعالى : { وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ } [فاطر : 24] .

وقوله : { ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } [الأنعام : 131] .
وقوله : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً } [الإسراء : 15] .
لذلك نرى غير المؤمنين بمنهج السماء يَضعُون لأنفسهم القوانين التي تُنظِّم حياتهم ، أليس لديهم قانون يُحدِّد الجرائم ويُعاقب عليها؟ فلا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإبلاغ .
ومن هنا تأتي أهمية وَضْع القوانين ونشرها في الصحف والجرائد العامة ليعلمها الجميع ، فلا يصح أنْ نعاقبَ إنساناً على جريمة هو لا يعلم أنها جريمة ، فلا بُدَّ من إبلاغه بها أولاً ، ليعلم أن هذا العمل عقوبته كذا وكذا ، ومن هنا تُقام عليه الحُجة .
وهنا أيضاً نلاحظ أنه قد يتعاصر الرسولان ، ألم يكُنْ إبراهيم ولوط متعاصريْن؟ ألم يكُنْ شعيب وموسى متعاصريْن؟ فما عِلَّة ذلك؟
نقول : لأن العالمَ كان قديماً على هيئة الانعزال ، فكُلّ جماعة منعزلة في مكانها عن الأخرى لعدم وجود وسائل للمواصلات ، فكانت كل جماعة في أرض لا تدري بالأخرى ، ولا تعلم عنها شيئاً .

ومن هنا كان لكُلِّ جماعة بيئتُها الخاصة بما فيها من عادات وتقاليد ومُنكَرات تناسبها ، فهؤلاء يعبدون الأصنام ، وهؤلاء يُطفِّفون الكيل والميزان ، وهؤلاء يأتون الذكْران دون النساء .
إذن : لكل بيئة جريمة تناسبها ، ولا بُدَّ أن نرسل الرسل لمعالجة هذه الجرائم ، كُلّ في بلد على حِدَة .
لكن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كانت على موعد مع التقاءات الأمكنة مع وجود وسائل المواصلات ، لدرجة أن المعصية تحدث مثلاً في أمريكا فنعلم بها في نفس اليوم . . إذن :
أصبحتْ الأجواء والبيئات واحدة ، ومن هنا كان منطقياً أن يُرْسلَ صلى الله عليه وسلم للناس كافة ، وللأزمنة كافة .
وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذه الشمولية بقوله : { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً . . } [سبأ : 28] .
أي : للجميع لم يترك أحداً ، كما يقول الخياط : كففْتُ القماش أي : جمعتُ بعضه على بعض ، حتى لا يذهبَ منه شيءٌ .
ثم يقول الحق سبحانه :
{ أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت . . . } [النحل : 36] .
هذه هي مهمة الرسل :
{ أَنِ اعبدوا الله . . . } [النحل : 36] .

والعبادة معناها التزامٌ بأمر فيُفعل ، ويُنهي عن أمر فلا يُفعل؛ لذلك إذا جاء مَنْ يدَّعي الألوهية وليس معه منهج نقول له : كيف نعبدك؟ وما المنهج الذي جِئْتَ به؟ بماذا تأمرنا؟ عن أي شيءٍ تنهانا؟

فهنا أَمْر بالعبادة ونَهْي عن الطاغوت ، وهذا يُسمُّونه تَحْلِية وتَخْلِيةً : التحلية في أنْ تعبدَ الله ، والتخلية في أنْ تبتعدَ عن الشيطان .

وعلى هذين العنصرين تُبنَى قضية الإيمان حيث نَفْي في : « أشهد أن لا إله » . . وإثبات في « إلا الله » ، وكأن الناطق بالشهادة ينفي التعدُّد ، ويُثبت الواحدانية لله تعالى ، وبهذا تكون قد خلَّيْتَ نفسك عن الشرك ، وحَلَّيْتَ نفسك بالوحدانية .

ولذلك سيكون الجزاء عليها في الآخرة من جنس هذه التحلية والتخلية؛ ولذلك نجد في قول الحق تبارك وتعالى : { فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار . . . } [آل عمران : 185] .

أي : خُلِّي عن العذاب . { وَأُدْخِلَ الجنة . . } [آل عمران : 185] .

أي : حُلِّي بالنعيم .

وقوله سبحانه :

{ واجتنبوا الطاغوت } [النحل : 36] .

أي : ابتعدوا عن الطاغوت . . فيكون المقابل لها : تقرَّبوا إلى الله و { الطاغوت } فيها مبالغة تدل على مَنْ وصل الذِّرْوة في الطغيان وزادَ فيه . . وفَرْق بين الحدث المجرَّد مثل طغى ، وبين المبالغة فيه مثل (طاغوت) ، وهو الذي يَزيده الخضوعُ لباطله طُغْياناً على باطل أعلى .

ومثال ذلك : شاب تمرَّد على مجتمعه ، وأخذ يسرع الشيء التافه القليل ، فوجد الناس يتقرَّبون إليه ويُداهنونه اتقاء شره ، فإذا به يترقَّى في باطله فيشتري لنفسه سلاحاً يعتدي به على الأرواح ، ويسرق الغالي من الأموال ، ويصل إلى الذروة في الظلم والاعتداء ، ولو أخذ الناس على يده منذ أول حادثة لما وصل إلى هذه الحال .

ومن هنا وجدنا الديات تتحملها العاقلة وتقوم بها عن الفاعل الجاني ، ذلك لما وقع عليها من مسئولية تَرْك هذا الجاني ، وعدم الأخذ على يده وكَفِّه عن الأذى .

ونلاحظ في هذا اللفظ (الطاغوت) أنه لما جمعَ كلَّ مبالغة في الفعل نجده يتأبَّى على المطاوعة ، وكأنه طاغوت في لفظه ومعناه ، فنراه يدخل على المفرد والمثنى والجمع ، وعلى المذكر والمؤنث ، فنقول : رجل طاغوت ، وامرأة طاغوت ، ورجلان طاغوت ، وامرأتان طاغوت ، ورجال طاغوت ، ونساء طاغوت ، وكأنه طغى بلفظه على جميع الصَّيغ .

إذن : الطاغوت هو الذي إذا ما خضع الناس لِظُلمه ازداد ظلماً . ومنه قوله تعالى : { فاستخف قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ . . . } [الزخرف : 54] .

فقد وصل به الحال إلى أن ادعى الألوهية ، وقال : { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي . . . } [القصص : 38] .

ويُحكَى في قصص المتنبّئين أن أحد الخلفاء جاءه خبر مُدَّعٍ للنبوة ، فأمرهم ألاَّ يهتموا بشأنه ، وأن يتركوه ، ولا يعطوا لأمره بالاً لعله ينتهي ، ثم بعد فترة ظهر آخر يدَّعي النبوة ، فجاءوا بالأول ليرى رأيه في النبي الجديد : ما رأيك في هذا الذي يدعي النبوة؟! أيُّكم النبي؟ فقال : إنه كذاب فإني لم أرسل أحداً!! ظن أنهم صدقوه في ادعائه النبوة ، فتجاوز هذا إلى ادعاء الألوهية ، وهكذا الطاغوت .

وقد وردت هذه الكلمة { الطاغوت } في القرآن ثماني مرات ، منها ستة تصلح للتذكير والتأنيث ، ومرة وردتْ للمؤنث في قوله تعالى : { والذين اجتنبوا الطاغوت أَن يَعْبُدُوهَا . . } [الزمر : 17] .

ومرة وردتْ للمذكر في قوله تعالى : { يُرِيدُونَ أَن يتحاكموا إِلَى الطاغوت وَقَدْ أمروا أَن يَكْفُرُواْ بِهِ . . . } [النساء : 60] .

وفي اللغة كلمات يستوي فيها المذكر والمؤنث ، مثل قَوْل الحق تبارك وتعالى : { وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً . . . } [الأعراف : 146] .

وقوله : { قُلْ هذه سبيلي . . . } [يوسف : 108] .

فكلمة « سبيل » جاءت مرَّة للمذكَّر ، ومرَّة للمؤنث .

ثم يقول تعالى :

{ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى الله وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة . . . } [النحل : 36] .

وقد أخذت بعضهم هذه الآية على أنها حُجَّة يقول من خلالها : إن الهداية بيد الله ، وليس لنا دَخْل في أننا غير مهتدين . . إلى آخر هذه المقولات .

نقول : تعالوا نقرأ القرآن . . يقول تعالى : { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى } [فصلت : 17] .

ولو كانت الهداية بالمعنى الذي تقصدون لَمَا استحبُّوا العَمى وفضَّلوه ، لكن « هديناهم » هنا بمعنى : دَلَلْناهم وأرشدناهم فقط ، ولهم حَقّ الاختيار ، وهم صالحون لهذه ولهذه ، والدلالة تأتي للمؤمن وللكافر ، دلَّ الله الجميع ، فالذي أقبل على الله بإيمان به زاده هُدًى وآتاه تقواه ، كما قال تعالى : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17] .

ومن هذا ما يراه البعض تناقضاً بين قوله تعالى :

{ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ . . . } [القصص : 56] .

وقوله : { وَإِنَّكَ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [الشورى : 52] .

حيث نفى الحق سبحانه عن الرسول صلى الله عليه وسلم الهداية في الأولى ، وأثبتها له في الثانية . نلاحظ أن الحدث هنا واحد وهو الهداية ، والمتحدَّث عنه واحد هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكيف يثبت حَدَثٌ واحد لمُحْدِثٍ واحد مرّة ، وينفيه عنه مرّة؟!

لا بُدَّ أن تكون الجهة مُنفكّة . . في : { إِنَّكَ لاَ تَهْدِي . . . } [القصص : 56] .

أي : لا تستطيع أنْ تُدخِل الإيمان في قلب مَنْ تحب ، ولكن تدلُّ وترشد فقط ، أما هداية الإيمان فبيد الله تعالى يهدي إليه مَنْ عنده استعداد للإيمان ، ويَصْرف عنها مَنْ أعرض عنه ورفضهُ .

وكأن الله تعالى في خدمة عبيده ، مَنْ أحب شيئاً أعطاه إياه ويسَّره له ، وبذلك هدى المؤمن للإيمان ، وختم على قَلْب الكافر بالكفر .

إذن : تأتي الهداية بمعنيين : بمعنى الدلالة والإرشاد كما في الآية السابقة ، وبمعنى المعونة وشَرْح الصدر للإيمان كما في قوله تعالى : { ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ . . } [القصص : 56] .

وقوله : { زَادَهُمْ هُدًى . . } [محمد : 17] .

فقوله تعالى :

{ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى الله . . . } [النحل : 36] .

أي : هداية إيمان ومعونةٍ بأن مكَّن المنهج في نفسه ، ويسَّره له ، وشرح به صدره .

{ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة . . } [النحل : 36] .

حقَّتْ : أي أصبحتْ حقاً له ، ووجبتْ له بما قدَّم من أعمال ، لا يستحق معها إلا الضلالة ، فما حقَّتْ عليهم ، وما وجبتْ لهم إلا بما عملوا .

وهذه كقوله تعالى : { إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } [الأنعام : 144] .

أيُّهما أسبق : عدم الهداية من الله لهم ، أم الظلم منهم؟

واضح أن الظلم حدث منهم أولاً ، فسمَّاهم الله ظالمين ، ثم كانت النتيجة أنْ حُرموا الهداية .

وتذكر هنا مثالاً كثيراً ما كررناه ليرسخَ في الأذهان ولله المثل الأعلى هَبْ أنك سائر في طريق تقصد بلداً ما ، فصادفك مُفْترق لطرق متعددة ، وعلامات لاتجاهات مختلفة ، عندها لجأتَ لرجل المرور : من فضل أريدُ بلدة كذا ، فقال لك : من هنا . فقلت : الحمد لله ، لقد كِدْتُ أضلَّ الطريق ، وجزاكَ الله خيراً .

فلمَّا وجدك استقبلتَ كلامه بالرضا والحب ، وشكرْتَ له صنيعه أراد أنْ يُزيد لك العطاء . فقال لك : لكن في هذا الطريق عقبةٌ صعبة ، وسوف أصحبُك حتى تمرَّ منها بسلام .

هكذا كانت الأولى منه مُجرَّد دلالة ، أما الثانية فهي المعونة ، فلمَّا صدَّقْته في الدلالة أعانَك على المدلول . . هكذا أَمْرُ الرسل في الدلالة على الحق ، وكيفية قبول الناس لها .

ولك أنْ تتصور الحال لو قُلْتَ لرجل المرور هذا : يبدو أنك لا تعرف الطريق . . فسيقول لك :

إذن اتجه كما تُحِب وسِرْ كما تريد .

وكلمة « الضلالة » مبالغة من الضلال وكأنها ضلال كبير ، ففيها تضخيمٌ للفعل ، ومنها قوله تعالى : { قُلْ مَن كَانَ فِي الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً . . . } [مريم : 75] .

ثم يُقيم لنا الحق تبارك وتعالى الدليلَ على بَعْثة الرسل في الأمم السابقة لنتأكد من إخباره تعالى ، وأن الناسَ انقسموا أقساماً بين مُكذِّب ومُصدِّق ، قال تعالى :

{ فَسِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين } [النحل : 36] .

فهناك شواهد وأدلة تدل على أن هنا كان ناس ، وكانت لهم حضارة اندكتْ واندثرتْ ، كما قال تعالى في آية أخرى : { وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ } [الصافات : 137] .

فأمر الله تعالى بالسياحة في الأرض للنظر والاعتبار بالأمم السابقة ، مثل : عاد وثمود وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم .

والحق تبارك وتعالى يقول هنا :

{ فَسِيرُواْ فِي الأرض . . . } [النحل : 36] .

وهل نحن نسير في الأرض ، أم على الأرض؟

نحن نسير على الأرض . . وكذلك كان فهْمُنا للآية الكريمة ، لكن المتكلم بالقرآن هو ربُّنا تبارك وتعالى ، وعطاؤه سبحانه سيظل إلى أنْ تقومَ الساعة ، ومع الزمن تتكشف لنا الحقائق ويُثبت العلم صِدْق القرآن وإعجازه .

فمنذ أعوام كنا نظنُّ أن الأرض هي هذه اليابسة التي نعيش عليها ، ثم أثبت لنا العلم أن الهواء المحيط بالأرض (الغلاف الجوي) هو إكسير الحياة على الأرض ، وبدون لا تقوم عليها حياة ، فالغلاف الجوي جزء من الأرض .

وبذلك نحن نسير في الأرض ، كما نطق بذلك الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز .

ونقف أمام مَلْحظ آخر في هذه الآية : { فَسِيرُواْ فِي الأرض فانظروا . . . } [آل عمران : 137] .

وفي آية أخرى يقول : { قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ثُمَّ انظروا . . . } [الأنعام : 11] .

ليس هذا مجرد تفنُّن في العبارة ، بل لكل منهما مدلول خاص ، فالعطف بالفاء يفيد الترتيب مع التعقيب .

أي : يأتي النظر بعد السَّيْر مباشرة . . أما في العطف بثُم فإنها تفيد الترتيب مع التراخي . أي : مرور وقت بين الحدثَيْن ، وذلك كقوله تعالى : { ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ } [عبس : 22] .

وقول الحق سبحانه :

{ فانظروا . . . } [النحل : 36] .
فكأن الغرض من السَّيْر الاعتبار والاتعاظ ، ولا بُدَّ إذن من وجود بقايا وأطلال تدلُّ على هؤلاء السابقين المكذبين ، أصحاب الحضارات التي أصبحتْ أثراً بعد عَيْنٍ .
وها نحن الآن نفخر بما لدينا من أبنية حجرية مثل الأهرامات مثلاً ، حيث يفِد إليها السُّياح من شتى دول العالم المتقدم؛ لِيَرَوْا ما عليها هذه الحضارة القديمة من تطوُّر وتقدُّم يُعجزهم ويُحيّرهم ، ولم يستطيعوا فَكّ طلاسِمه حتى الآن .
ومع ذلك لم يترك الفراعنة ما يدل على كيفية بناء الأهرامات ، أو ما يدل على كيفية تحنيط الموتى؛ مما يدل على أن هؤلاء القوم أخذوا أَخذْة قوية اندثرتْ معها هذه المراجع وهذه المعلومات ، كما قال تعالى : { هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً } [مريم : 98] .
وقد ذكر لنا القرآن من قصص هؤلاء السابقين الكثير كما في قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد } [الفجر : 6-8] .
وقال : { وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد * الذين طَغَوْاْ فِي البلاد * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ } [الفجر : 9-13] .
هذا ما حدث للمكذِّبين في الماضي ، وإياكم أنْ تظنُّوا أن الذي يأتي بعد ذلك بمنجىً عن هذا المصير . . كلا : { إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد } [الفجر : 14] .
ثم يقول الحق سبحانه : { إِن تَحْرِصْ على . . . } .

إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (37)

يُسلِّي الحق تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويثبت له حِرْصَه على أمته ، وأنه يُحمِّل نفسه في سبيل هدايتهم فوق ما حَمَّله الله ، كما قال له في آية أخرى : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : 3] .
ويقول تعالى : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [التوبة : 128] .
ثم بعد ذلك يقطع الحق سبحانه الأمل أمام المكذبين المعاندين ، فيقول تعالى :
{ فَإِنَّ الله لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ . . . } [النحل : 37] .
أي : لا يضل إلا مَنْ لم يقبل الإيمان به فَيَدعُه إلى كفره ، بل ويطمس على قلبه غيْر مأسُوف عليه ، فهذه إرادته ، وقد أجابه الله إلى ما يريد .
{ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ . . . . } [النحل : 37] .
إذن : المسألة ليستْ مجرد عدم الهداية ، بل هناك معركة لا يجدون لهم فيها ناصراً أو معيناً يُخلِّصهم منها ، كما قال تعالى : { فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ } [الشعراء : 100-

. [101
إذن : لا يهدي الله مَن اختار لنفسه الضلال ، بل سيُعذِّبه عذاباً لا يجد مَنْ ينصُره فيه .
ثم يقول الحق سبحانه عنهم : { وَأَقْسَمُواْ بالله . . . } .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (38)

{ وَأَقْسَمُواْ بالله . . . } [النحل : 38] .
سبحان الله!! كيف تُقسِمون بالله وأنتم لا تؤمنون به؟! وما مدلول كلمة الله عندكم؟ . . هذه علامة غباء عند الكفار ودليل على أن موضوع الإيمان غير واضح في عقولهم؛ لأن كلمة الله نفسها دليلٌ على الإيمان به سبحانه ، ولا توجد الكلمة في اللغة إلا بعد وجود ما تدل عليه أولاً . . فالتلفزيون مثلاً قبل أن يوجد لم يكن له اسم ، ثم بعد أن وُجد أوجدوا له اسماً .
أذن : توجد المعاني أولاً ، ثم توضع للمعاني أسماء ، فإذا رأيت اسماً يكون معناه قبله أم بعده؟ يكون قبله . . فإذا قالوا : الله غير موجود نقول لهم : كذبتم؛ لأن كلمة الله لفظ موجود في اللغة ، ولا بُدَّ أن لها معنىً سبق وجودها .
إذن : فالإيمان سابقٌ للكفر . . وجاء الكفر منطقياً؛ لأن معنى الكفر : السَّتْر . . والسؤال إذن : ماذا ستر؟ ستر الإيمان ، ولا يستر إلا موجوداً ، وبذلك نقول : إن الكفر دليل على الإيمان .
{ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ . . . } [النحل : 38] .
أي : مبالغين في اليمين مُؤكّدينه ، وما أقربَ غباءَهم هنا بما قالوه في آية أخرى : { اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال : 32] .
فليس هذا بكلام العقلاء . وكان ما أقسموا عليه بالله أنه :
{ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ . . . } [النحل : 38] .
وهذا إنكار للبعث ، كما سبق وأنْ قالوا : { قالوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } [المؤمنون : 82] .
فيرد عليهم الحق سبحانه { بلى } .
وهي أداة لنفي السابق عليها ، وأهل اللغة يقولون : نفي النفي إثبات ، إذاً « بلى » تنفي النفي قبلها وهو قولهم :
{ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ . . . } [النحل : 38] .
فيكون المعنى : بل يبعث الله مَنْ يموت .
{ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً . . . } [النحل : 38] .

والوَعْد هو الإخبار بشيء لم يأْتِ زمنه بعد ، فإذا جاء وَعْدٌ بحدَث يأتي بَعْد ننظر فيمَنْ وعد : أقادرٌ على إيجاد ما وعد به؟ أم غير قادر؟

فإن كان غيرَ قادر على إنفاذ ما وعد به لأنه لا يضمن جميع الأسباب التي تعينه على إنفاذ وعده ، قُلْنا له قُلْ : إنْ شاء الله . . حتى إذا جاء موعد التنفيذ فلم تَفِ بوعدك التمسْنا لك عُذْراً ، وحتى لا تُوصف ساعتها بالكذب ، فقد نسبتَ الأمر إلى مشيئة الله .

والحق تبارك وتعالى لا يمنعنا أن نُخطِّط للمستقبل ونعمل كذا ونبني كذا . . خَطِّط كما تحب ، واعْدُدْ للمستقبل عِدَته ، لكن أردف هذا بقولك : إنْ شاء الله؛ لأنك لا تملك جميع الأسباب التي تمكِّن من عمل ما تريد مستقبلاً ، وقد قال الحق تبارك وتعالى : { وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . . }

[الكهف : 23-24] .

ونضرب لذلك مثلاً : هَبْ أنك أردتَ أن تذهب غداً إلى فلان لتكلمه في أمر ما . . هل ضمنت لنفسك أن تعيش لغد؟ وهل ضمنت أن هذا الشخص سيكون موجوداً غداً؟ وهل ضمنتَ ألا يتغير الداعي الذي تريده؟ وربما توفرت لك هذه الظروف كلها ، وعند الذهاب أَلَمَّ بك عائق منعك من الذهاب . إذن : يجب أن نُردف العمل في المستقبل بقولنا : إن شاء الله .

أما إذا كان الوعد من الله تعالى فهو قادر سبحانه على إنفاذ ما يَعِد به؛ لأنه لا قوة تستطيع أن تقفَ أمام مُراده ، ولا شيءَ يُعجزه في الأرض ولا في السماء ، كان الوعد منه سبحانه (حقاً) أنْ يُوفّيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

{ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ } [النحل : 38] .

أي : لا يعلمون أن الله قادر على البعث ، كما قال تعالى : { وقالوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . . . } [السجدة : 10] .

وقال : { وقالوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً } [الإسراء : 49] .

فقد استبعد الكفار أمر البعث؛ لأنهم لا يتصورون كيف يبعث الله الخلْق من لَدُن آدم عليه السلام حتى تقوم الساعة . . ولكن لِمَ تستبعدون ذلك؟ وقد قال تعالى : { مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ . . . } [لقمان : 28] .

فالأمر ليس مزاولة يجمع الله سبحانه بها جزئيات البشر كل على حدة . . لا . . ليس في الأمر مزاولة أو معالجة تستغرق وقتاً . { إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [يس : 82] .

ونضرب لذلك مثلاً ولله المثل الأعلى فنحن نرى مثل هذه الأوامر في عالم البشر عندما يأتي

المعلّم أو المدرب الذي يُدرِّب الجنود نراه يعلِّم ويُدرِّب أولاً ، ثم إذا ما أراد تطبيق هذه الأوامر فإنه يقف أمام الجنود جميعاً وبكلمة واحدة يقولها يمتثل الجميع ، ويقفون على الهيئة المطلوبة ، هل أمسك المدرب بكل جندي وأوقفه كما يريد؟! لا . . بل بكلمة واحدة تَمَّ له ما يريد .

وكأن انضباط المأمور وطاعته للأمر هو الأصل ، كذلك كل الجزئيات في الكون منضبطة لأمره سبحانه وتعالى . . هي كلمة واحدة بها يتم كل شيء . . فليس في الأمر مُعَالجة ، لأن المعالجة أنْ يُباشر الفاعل بجزئيات قدرته جزئيات الكائن ، وليس البعث هكذا . . بل بالأمر الانضباطي : كن .

ولذلك يقول تعالى :

{ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ } [النحل : 38] .

نقول : الحمد لله أن هناك قليلاً من الناس يعلمون أمر البعث ويؤمنون به .

ثم يقول الحق سبحانه : { لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذي . . . } .

لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (39)

فمعنى قوله تعالى :

{ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ . . } [النحل : 39] . أي : من أمر البعث؛ لأن القضية لا تستقيم بدون البعث والجزاء؛ ولذلك كنت في جدالي للشيوعيين أقول لهم : لقد أدركتم رأسماليين شرسين ومفترين ، شربوا دم الناس وعملوا كذا وكذا . . فماذا فعلتُم بهم؟ يقولون : فعلنا بهم كيت وكيت ، فقلت : ومن قبل وجود الشيوعية سنة 1917 ، ألم يكن هناك ظلمة مثل هؤلاء؟ قالوا : بلى .

قلت : إذن من مصلحتكم أن يوجد بعث وحساب وعقاب لا يفلت منه هؤلاء الذين سبقوكم ، ولم تستطيعوا تعذيبهم .

ثم يأتي فَصْل الخطاب في قوله تعالى :

{ وَلِيَعْلَمَ الذين كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ } [النحل : 39] . أي : كاذبين في قولهم : { لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ . . . } [النحل : 38] .

وذلك علم يقين ومعاينة ، ولكن بعد فوات الأوان ، فالوقت وقت حساب وجزاء لا ينفع فيه الاعتراف ولا يُجدي التصديق ، فالآن يعترفون بأنهم كانوا كاذبين في قَسَمهم : لا يبعث الله مَنْ يموت وبالغوا في الأَيمان وأكَّدوها؛ ولذلك يقول تعالى عنهم في آية أخرى : { وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الحنث العظيم } [الواقعة : 46] .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ . . . } .

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40)

إذن : أمر البعث ليس علاجاً لجزئيات كل شخص وضمّ أجزائه وتسويته من آدم حتى قيام الساعة ، بل المسألة منضبطة تماماً مع الأمر الإلهي (كُنْ) .

وبمجرد صدوره ، ودون حاجة لوقت ومُزاولة يكون الجميع ماثلاً طائعاً ، كل واحد منتظرٌ دوره ، منتظر الإشارة؛ ولذلك جاء في الخبر : « أمور يبديها ولا يبتديها » .

فالأمر يتوقف على الإذن : اظهر يظهر .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى من يعد القنبلة الزمنية مثلاً ، ويضبطها على وقت معين . . تظل القنبلة هذه إلى وقت الانفجار الذي وُضِع فيها ، ثم تنفجر دون تدخُّل من صناعها . . مجرد الإذن لها بالانفجار تنفجر .

وحتى كلمة (كُنْ) نفسها تحتاج لزمن ، ولكن ليس هناك أقرب منها في الإذن . . وإن كان الأمر في حقِّه تعالى لا يحتاج إلى كُنْ ولا غيره .

ثم يقول الحق سبحانه : { والذين هَاجَرُواْ فِي الله . . . } .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41)

المهاجرون قوم آمنوا بالله إيماناً صار إلى مرتبة من مراتب اليقين جعلتهم يتحمَّلون الأذى والظلم والاضطهاد في سبيل إيمانهم ، فلا يمكن أن يُضحِّي الإنسان بماله وأهله ونفسه إلا إذا كان لأمر يقينيّ .

وقد جاءت هذه الآية بعد آية إثبات البعث الذي أنكره الكافرون وألحُّوا في إنكاره وبالغوا فيه ، بل وأقسموا على ذلك : { وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ . . } [النحل : 38] .

وهم يعلمون أن من الخلق مَنْ يُسيء ، ومنهم من يُحسِن ، فهل يعتقدون في عُرْف العقل أن يتركَ الله من أساء ليُعربد في خَلْق الله دون أن يُجازيه؟

ذلك يعني أنهم خائفون من البعث ، فلو أنهم كانوا محسنين لَتَمنَّوا البعث ، أمَا وقد أسرفوا على أنفسهم إسرافاً يُشفِقون معه على أنفسهم من الحساب والجزاء ، فمن الطبيعي أنْ يُنكروا البعث ، ويلجأوا إلى تمنية أنفسهم بالأماني الكاذبة ، ليطمئنوا على أن ما أخذوه من مظالم الناس ودمائهم وكرامتهم وأمنهم أمرٌ لا يُحاسبون عليه .

وإذا كانوا قد أنكروا البعث ، ويوجد رسول ومعه مؤمنون به يؤمنون بالبعث والجزاء إيماناً يصل إلى درجة اليقين الذي يدفعهم إلى التضحية في سبيل هذا الإيمان . . إذن : لا بُدَّ من وجود

معركة شرسة بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، معركة بين الحق والباطل .
ومن حكمة الله أن ينشر الإسلام في بدايته بين الضعفاء ، حتى لا يظن ظَانٌّ أن المؤمنين فرضوا إيمانهم بالقوة ، لا . . هؤلاء هم الضعفاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، والكفار هم السادة . . إذن : جاء الإسلام ليعاند الكبارَ الصناديدَ العتاة .
وكان من الممكن أن ينصرَ الله هؤلاء الضعفاء ويُعلي كلمة الدين من البداية ، ولكن أراد الحق تبارك وتعالى أن تكون الصيحةُ الإيمانية في مكَّة أولاً؛ لأن مكة مركز السيادة في جزيرة العرب ، وقريش هم أصحاب المهابة وأصحاب النفوذ والسلطان ، ولا تقوى أيَّ قبيلة في الجزيرة أن تعارضها ، ومعلوم أنهم أخذوا هذه المكانة من رعايتهم لبيت الله الحرام وخدمتهم للوافدين إليه .
فلو أن الإسلام اختار بقعة غير مكة لَقَالوا : إن الإسلام استضعفَ جماعة من الناس ، وأغرَاهم بالقول حتى آمنوا به . لا ، فالصيحة الإسلاميةُ جاءت في أُذن سادة قريش وسادة الجزيرة الذين أمَّنهم الله في رحلة الشتاء والصيف ، وهم أصحاب القوة وأصحاب المال .
وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم ينصر الله دينه في بلد السادة؟ نقول : لا . . الصيحة في أذن الباطل تكون في بلد السادة في مكة ، لكن نُصْرة الدين لا تأتي على يد هؤلاء السادة ، وإنما تأتي في المدينة .
وهذا من حكمة الله تعالى حتى لا يقول قائل فيما بعد : إن العصبية لمحمد في مكة فرضتْ الإيمان بمحمد .

. لا بل يريد أن يكون الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم هو الذي خلق العصبية لمحمد ، فجاء له بعصبية بعيدة عن قريش ، وبعد ذلك دانتْ لها قريش نفسها .
وما دامت هناك معركة ، فمَن المطحون فيها؟ المطحون فيها هو الضعيف الذي لا يستطيع أنْ يحميَ نفسه . . وهؤلاء هم الذين ظُلِموا . . ظُلِموا في المكان الذي يعيشون فيه؛ ولذلك كان ولا بُدَّ أن يرفع الله عنهم هذا الظلم .
وقد جاء رَفْع الظلم عن هؤلاء الضعفاء على مراحل . . فكانت المرحلة الأولى أن ينتقلَ المستضعفون من مكة ، لا إلى دار إيمان تحميهم وتساعدهم على نَشْر دينهم ، بل إلى دار أَمْن فقط يأمنون فيها على دينهم . . مجرد أَمْن يتيح لهم فرصة أداء أوامر الدين .
ولذلك استعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاد كلها لينظر أيَّ الأماكن تصلح دار أَمْن يهاجر إليها المؤمنون بدعوته فلا يعارضهم أحد ، فلم يجد إلا الحبشة؛ ولذلك قال عنها : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » .
وتكفي هذه الصفة في ملك الحبشة ليهاجر إليه المؤمنون ، ففي هذه المرحلة من نُصْرة الدين لا

نريد أكثر من ذلك ، وهكذا تمت الهجرة الأولى إلى الحبشة .
ثم يسَّر الله لدينه أتباعاً وأنصاراً التقوْا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعوه على النُّصْرة والتأييد ، ذلكم هم الأنصار من أهل المدينة الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة ومَهَّدوا للهجرة الثانية إلى المدينة ، وهي هجرةٌ هذه المرة إلى دار أَمْن وإيمان ، يأمن فيها المسلمون على دينهم ، ويجدون الفرصة لنشره في رُبُوع المعمورة .
ونقف هنا عند قوله تعالى :
{ والذين هَاجَرُواْ . . . } [النحل : 41] .
ومادة هذا الفعل : هجر . . وهناك فَرْق بين هجر وبين هاجر :
هجر : أن يكره الإنسانُ الإقامةَ في مكان ، فيتركه إلى مكان آخر يرى انه خَيْرٌ منه ، إنما المكان نفسه لم يكرهه على الهجرة . . أي المعنى : ترك المكان مختاراً .
أما هاجر : وهي تدل على المفاعلة من الجانبين ، فالفاعل هنا ليس كارهاً للمكان ، ولكن المفاعلة التي حدثتْ من القوم هي التي اضطرتْه للهجرة . . وهذا ما حدث في هجرة المؤمنين من مكة؛ لأنهم لم يتركوها إلى غيرها إلاَّ بعد أن تعرضوا للاضطهاد والظُّلْم ، فكأنهم بذلك شاركوا في الفعل ، فلو لم يتعرَّضوا لهم ويظلموهم لما هاجروا .
ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :
{ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ . . . } [النحل : 41] .
وينطبق هذا المعنى على قول المتنبي :
إِذَا ترحلْتَ عن قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا ... ألاَّ تُفارِقهم فَالرَّاحِلُون هُمُوا
يعني : إذا كنت في جماعة وأردْتَ الرحيل عنهم ، وفي إمكانهم أن يقدموا لك من المساعدة ما يُيسِّر لك الإقامة بينهم ولكنهم لم يفعلوا ، وتركوك ترحل مع مقدرتهم ، فالراحلون في الحقيقة هم ، لأنهم لم يساعدوك على الإقامة .

كذلك كانت الحال عندما هاجر المؤمنون من مكة؛ لأنه أيضاً لا يعقل أن يكره هؤلاء مكة وفيها البيت الحرام الذي يتمنى كل مسلم الإقامة في جواره .
إذن : لم يترك المهاجرون مكة ، بل اضطروا إلى تركها وأجبروا عليه ، وطبيعي إذن أن يلجأوا إلى دار أخرى حتى تقوى شوكتهم ثم يعودون للإقامة ثانية في مكة إقامة طبيعية صحيحة .
ثم إن الحق تبارك وتعالى قال :
{ والذين هَاجَرُواْ فِي الله . . . } [النحل : 41] .
ونلاحظ في الحديث الشريف الذي يوضح معنى هذه الآية : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر

إليه » .

فما الفرق هنا بين : هاجر في الله ، وهاجر إلى الله؟

هاجر إلى مكان تدل على أن المكان الذي هاجر إليه افضل من الذي تركه ، وكأن الذي هاجر منه ليس مناسباً له .

أما هاجر في الله فتدل على أن الإقامة السابقة كانت أيضاً في الله . . إقامتهم نفسها في مكة وتحمُّلهم الأذى والظلم والاضطهاد كانت أيضاً في الله .

أما لو قالت الآية « هاجروا إلى الله » لدلَّ ذلك على أن إقامتهم الأولى لم تكن لله . . إذن : معنى الآية :

{ هَاجَرُواْ فِي الله . . . } [النحل : 41] .

أي : أن إقامتهم كانت لله ، وهجرتهم كانت لله .

ومثل هذا قوله تعالى : { وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ . . . } [آل عمران : 133] .

أي : إذا لم تكونوا في مغفرة فسارعوا إلى المغفرة ، وفي الآية الأخرى : { يُسَارِعُونَ فِي الخيرات . . } [المؤمنون : 61] .

ذلك لأنهم كانوا في خير سابق ، وسوف يسارعون إلى خير آخر . . أي : أنتم في خير ولكن سارعوا إلى خير منه .

وهناك ملمح آخر في قوله تعالى :

{ والذين هَاجَرُواْ . . } [النحل : 41] .

نلاحظ أن كلمة « الذين » جمع . . لكن هل هي خاصة بمَنْ نزلت فيهم الآية؟ أم هي عامة في كُلِّ مَنْ ظُلِم في أيِّ مكان في الله ثم هاجر منه؟

الحقيقة أن العبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهي عامة في كل مَنْ انطبقت عليه هذه الظروف ، فإن كانت هذه الآية نزلت في نفر من الصحابة منهم : صُهيب ، وعمار ، وخباب ، وبلال ، إلا أنها تنتظم غيرهم مِمَّن اضطروا إلى الهجرة فِراراً بدينهم .

« ونعلم قصة صهيب رضي الله عنه وكان رجلاً حداداً لما أراد أنْ يهاجر بدينه ، عرض الأمر على قريش : والله أنا رجل كبير السِّنِّ ، إنْ كنت معكم فلن أنفعكم ، وإنْ كنت مع المسلمين فلن أضايقكم ، وعندي مال . . خذوه واتركوني أهاجر ، فرضَوْا بذلك ، وأخذوا مال صُهَيب وتركوه لهجرته .

ولذلك قال له صلى الله عليه وسلم : » ربح البيع يا صُهَيْب «

أي : بيعة رابحة .

ويقول له عمر رضي الله عنه : « نِعْم العبدُ صُهيب ، لو لم يخَفِ الله لم يَعْصِه » .

وكأن عدم عصيانه ليس خوفاً من العقاب ، بل حُبّاً في الله تعالى ، فهو سبحانه لا يستحق أنْ يُعصى .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

{ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدنيا حَسَنَةً . . } [النحل : 41] .

نُبوِّئ ، مثل قوله تعالى : { وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت . . } [الحج : 26] .

أي : بيَّنا له مكانه ، ونقول : باء الإنسان إلى بيته إذا رجع إليه ، فالإنسان يخرج للسعي في مناكب الأرض في زراعة أو تجارة ، ثم يأوي ويبوء إلى بيته ، إذن : باء بمعنى رجع ، أو هو مسكن الإنسان ، وما أعدَّه الله له .

فإنْ كان المؤمنون سيخرجون الآن من مكة مغلوبين مضطهدين فسوف نعطيهم ونُحِلهم ونُنزِلهم منزلةً أحسن من التي كانوا فيها ، فقد كانوا مُضطهدين في مكة ، فأصبحوا آمنين في المدينة ، وإنْ كانوا تركوا بلدهم فسوف نُمهّد لهم الدنيا كلها ينتشرون فيها بمنهج الله ، ويجنُون خير الدنيا كلها ، ثم بعد ذلك نُرجعهم إلى بلدهم سادة أعزَّة بعد أن تكون مكة بلداً لله خالصة من عبادة الأوثان والأصنام . . هذه هي الحسنة في الدنيا .

ثم يقول تعالى :

{ وَلأَجْرُ الآخرة أَكْبَرُ . . } [النحل : 41] .

ما ذكرناه من حسنة الدنيا وخيرها للمؤمنين هذا من المعجِّلات للعمل ، ولكن حسنات الدنيا مهما كانت ستؤول إلى زوال ، إما أنْ تفارقها ، وإما أن تُفارقك ، وقد أنجز الله وَعْده للمؤمنين في الدنيا ، فعادوا منتصرين إلى مكة ، بل دانتْ لهم الجزيرة العربية كلها بل العالم كله ، وانساحوا في الشرق في فارس ، وفي الغرب في الرومان ، وفي نصف قرن كانوا سادة العالم أجمع .

وإنْ كانت هذه هي حسنة الدنيا المعَجَّلة ، فهناك حسنة الآخرة المؤجلة :

{ وَلأَجْرُ الآخرة أَكْبَرُ . . . } [النحل : 41] .

أي : أن ما أعدَّ لهم من نعيم الآخرة أعظم مما وجدوه في الدنيا .

ولذلك كان سيدنا عمر رضي الله عنه إذا أعطى أحد الصحابة نصيب المهاجرين من العطاء يقول له : « بارك الله لك فيه . . هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ادخر لك في الآخرة اكبر من هذا » . فهذه حسنة الدنيا .

{ وَلأَجْرُ الآخرة أَكْبَرُ . . } [النحل : 41] .

وساعة أنْ تسمع كلمة (أكبر) فاعلم أن مقابلها ليس أصغر أو صغير ، بل مقابلها (كبير) فتكون حسنة الدنيا التي بوَّأهم الله إياها هي (الكبيرة) ، لكن ما ينتظرهم في الآخرة (أكبر) . وكذلك قد تكون صيغةُ أفعل التفضيل أقلَّ في المدح من غير أفعل التفضيل . . فمن أسماء الله الحسنى (الكبير) في حين أن الأكبر صفةٌ من صفاته تعالى ، وليس اسماً من أسمائه ، وفي شعار

ندائنا لله نقول : الله اكبر ولا نقول : الله كبير . . ذلك لأن كبير ما عداه يكون صغيراً . . إنما أكبر ، ما عداه يكون كبيراً ، فنقول في الأذان : الله أكبر لأن أمور الدنيا في حَقِّ المؤمن كبيرة من حيث هي وسيلة للآخرة .

فإياك أنْ تظنَّ أن حركةَ الدنيا التي تتركها من أجل الصلاة أنها صغيرة ، بل هي كبيرة بما فيها من وسائل تُعينك على طاعة الله ، فبها تأكل وتشرب وتتقوَّى ، وبها تجمع المال لِتسُدَّ به حاجتك ، وتُؤدِّي الزكاة إلى غير ذلك ، ومن هنا كانت حركة الدنيا كبيرة ، وكانت الصلاة والوقوف بين يدي الله أكبر .

ولذلك حينما قال الحق تبارك وتعالى : { ياأيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع . . } [الجمعة : 9] .

أخرجنا بهذا النداء من عمل الدنيا وحركتها ، ثم قال : { فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله . . . } [الجمعة : 10] .

فأمرنا بالعودة إلى حركة الحياة؛ لأنها الوسيلةُ للدار الآخرة ، والمزرعة التي نُعد فيها الزاد للقاء الله تعالى . . إذن : الدنيا أهم من أنْ تُنسَى من حيث هي معونة للآخرة ، ولكنها أتفَهُ من أن تكونَ غاية في حَدِّ ذاتها .

ثم يقول الحق سبحانه : { لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ . . } [النحل : 41] .

الخطاب هنا عن مَنْ؟ الخطاب هنا يمكن أن يتجه إلى ثلاثة أشياء :

يمكن أنْ يُراد به الكافرون . . ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون عاقبة الإيمان وجزاء المؤمنين لآثروه على الكفر .

ويمكن أنْ يُراد به المهاجرون . . ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون لازدادوا في عمل الخير .

وأخيراً قد يُرَاد به المؤمن الذي لم يهاجر . . ويكون المعنى : لو كان يعلم نتيجة الهجرة لسارع إليها .

وهذه الأوجه التي يحتملها التعبير القرآني دليل على ثراء الأداء وبلاغة القرآن الكريم ، وهذا ما يسمونه تربيب الفوائد .

ثم يقول الحق سبحانه : { الذين صَبَرُواْ . . . } .

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42)

الحق تبارك وتعالى يريد أن يعطينا تشريحاً لحال المهاجرين ، فقد ظُلِموا واضْطهِدوا وأُوذُوا في سبيل الله ، ولم يفتنهم هذا كله عن دينهم ، بل صبروا وتحمَّلُوا ، بل خرجوا من أموالهم وأولادهم ، وتركوا بلدهم وأرضهم في سبيل دينهم وعقيدتهم ، حدث هذا منهم اتكالاً على أن الله تعالى لن

يُضيّعهم .

ولذلك جاء التعبير القرآني هكذا { صَبَرُواْ } بصيغة الماضي ، فقد حدث منهم الصبر فعلاً ، كأن الإيذاء الذي صبروا عليه فترة مضتْ وانتهت ، والباقي لهم عِزّة ومنَعة وقوة لا يستطيع أحد أنْ يضطهدهم بعد ذلك ، وهذه من البشارات في الأداء القرآني .

أما في التوكل ، فقال تعالى في حقهم :

{ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [النحل : 42] .

بصيغة المضارع؛ لأن التوكُّل على الله حدث منهم في الماضي ، ومستمرون فيه في الحاضر والمستقبل ، وهكذا يكون حال المؤمن .

وبعد ذلك تكلَّم القرآن الكريم عن قضية وقف منها الكافرون أيضاً موقف العناد والمكابرة والتكذيب ، وهي مسألة إرسال الرسل ، فقال تعالى : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ . . . } .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43)

وقد اعترض المعاندون من الكفار على كون الرسول بشراً . وقالوا : إذا أراد الله أن يرسل رسولاً فينبغي أن يكون مَلَكاً فقالوا : { وَلَوْ شَآءَ الله لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً . . } [المؤمنون : 24] .

وكأنهم استقلُّوا الرسالة عن طريق بشر؛ وهذا أيضاً من غباء الكفر وحماقة الكافرين؛ لأن الرسول حين يُبلّغ رسالة الله تقع على عاتقه مسئوليتان : مسئولية البلاغ بالعلم ، ومسئولية التطبيق بالعمل ونموذجية السلوك . . فيأمر بالصلاة ويُصلّي ، وبالزكاة ويُزكّي ، وبالصبر ويصبر ، فليس البلاغ بالقول فقط ، لا بل بالسلوك العمليّ النموذجيّ .

ولذلك كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان خلقه القرآن » .

وكان قرآناً يمشي على الأرض ، والمعنى : كان تطبيقاً كاملاً للمنهج الذي جاء به من الحق تبارك وتعالى .

ويقول تعالى في حقّه صلى الله عليه وسلم : { لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ . . } [الأحزاب : 21] .

فكيف نتصور أن يكون الرسول مَلَكاً؟ وكيف يقوم بهذه الرسالة بين البشر؟ قد يؤدي الملك مهمة البلاغ ، ولكن كيف يُؤدّي مهمة القدوة والتطبيق العملي النموذجي؟ كيف ونحن نعلم أن الملائكة خَلْق جُبِلوا على طاعة الله : { لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم : 6] .

ومن أين تأتيه منافذ الشهرة وهو لا يأكل ولا يشرب ولا يتناسل؟

فلو جاء مَلَك برسالة السماء ، وأراد أن ينهى قومه عن إحدى المعاصي ، ماذا نتوقع؟ نتوقع أن

يقول قائلهم : لا . . لا أستطيع ذلك ، فأنت ملَك ذو طبيعة علوية تستطيع ترْك هذا الفعل ، أما أنا فلا أستطيع .

إذن : طبيعة الأُسْوة تقتضي أن يكون الرسول بشراً ، حتى إذا ما أمر كان هو أول المؤتمرين ، وإذا ما نهى كان هو أول المنتهين .

ومن هنا كان من امتنان الله على العرب ، ومن فضله عليهم أنْ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . } [التوبة : 128] .

فهو أولاً من أنفسكم ، وهذه تعطيه المباشرة ، ثم هو بشر ، ومن العرب وليس من أمة أعجمية . . بل من بيئتكم ، ومن نفس بلدكم مكة ومن قريش؛ ذلك لتكونوا على علم كامل بتاريخه وأخلاقه وسلوكه ، تعرفون حركاته وسكناته ، وقد كنتم تعترفون له بالصدق والأمانة ، وتأتمنونه على كل غَال ونفيس لديكم لعلمكم بأمانته ، فكيف تكفرون به الآن وتتهمونه بالكذب؟!

لذلك رَدَّ عليهم الحق تبارك وتعالى في آية أخرى فقال : { وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً } [الإسراء : 94] .

فالذي صَدَّكم عن الإيمان به كَوْنه بشراً!!

ثم نأخذ على هؤلاء مأخذاً آخر؛ لأنهم تنازلوا عن دعواهم هذه بأنْ يأتيَ الرسول من الملائكة وقالوا : { لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] .

فهذا تردُّد عجيب من الكفار ، وعدم ثبات على رأي .

. مجرد لَجَاجة وإنكار ، وقديماً قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً .

ويرد عليهم القرآن : { قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً } [الإسراء : 95] .

فلو كان في الأرض ملائكة لنزَّلنا لهم ملكاً حتى تتحقَّق الأُسْوة .

إذن : لا بُدَّ في القدوة من اتحاد الجنس . . ولنضرب لذلك مثلاً : هَبْ أنك رأيتَ أسداً يثور ويجول في الغابة مثلاً يفترس كُلَّ ما أمامه ، ولا يستطيع أحد أنْ يتعرَّض له . . هل تفكر ساعتها أن تصير أسداً؟ لا . . إنما لو رأيتَ فارساً يمسك بسيفه ، ويطيح به رقاب الأعداء . . ألا تحب أن تكون فارساً؟ بلى أحب .

فهذه هي القدوة الحقيقية النافعة ، فإذا ما اختلف الجنس فلا تصلح القدوة .

وهنا يردُّ الحق تبارك وتعالى على افتراءات الكفار بقوله تعالى :

{ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ . . . } [النحل : 43] .

أي : أنك يا محمد لَسْتَ بَدْعاً في الرسل ، فَمْن سبقوك كانوا رجالاً طيلة القرون الماضية ، وفي موكب الرسالات جميعاً .

وجاءتْ هنا كلمة { رِجَالاً } لتفيد البشرية أولاً كجنس ، ثم لتفيد النوع المذكَّر ثانياً؛ ذلك لأن طبيعة الرسول قائمة على المخالطة والمعاشرة لقومه . . يظهر للجميع ويتحدث إلى الجميع . . أما المرأة فمبنية على التستُّر ، ولا تستطيع أن تقوم بدور الأُسْوة للناس ، ولو نظرنا لطبيعة المرأة لوجدنا في طبيعتها أموراً كثيرة لا تناسب دور النبوة ، ولا تتمشَّى مع مهمة النبي ، مثل انقطاعها عن الصلاة والتعبد لأنها حائض أو نُفَساء .

كذلك جاءت كلمة { رِجَالاً } مُقيَّدة بقوله :

{ نوحي إِلَيْهِمْ . . . } [النحل : 43] .

فالرسول رجل ، ولكن إياك أنْ تقول : هو رجل مثْلي وبشر مثْلي . . لا هناك مَيْزة أخرى أنه يُوحَى إليه ، وهذه منزلة عالية يجب أن نحفظها للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ثم يقول الحق سبحانه :

{ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 43] .

أي : إذا غابتْ عنكم هذه القضية ، قضية إرسال الرسل من البشر ولا أظنها تغيب لأنها عامة في الرسالات كلها . وما كانت لتخفَى عليكم خصوصاً وعندكم أهل العلم بالأديان السابقة ، مثل ورقة بن نوفل وغيره ، وعندكم أهل السِّيَر والتاريخ ، وعندكم اليهود والنصارى . . فاسألوا هؤلاء جميعاً عن بشرية الرسل .

فهذه قضية واضحة لا تُنكر ، ولا يمكن المخالفة فيها . . وماذا سيقول اليهود والنصارى؟ . . موسى وعيسى . . إذنْ بشر .

وقوله تعالى :

{ إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 43] .

يوحي بأنهم يعلمون ، وليس لديهم شَكٌّ في هذه القضية . . مثل لو قلتَ لمخاطبك : اسأل عن كذا إنْ كنت لا تعرف . . هذا يعني أنه يعرف ، أما إذا كان في القضية شَكٌّ فنقول : اسأل عن كذا دون أداة الشرط . . إذن : هم يعرفون ، ولكنه الجدال والعناد والاستكبار عن قبول الحق .

بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44)

استهل الحق سبحانه الآية بقوله :

{ بالبينات والزبر . . . } [النحل : 44] .

ويقول أهل اللغة : إن الجار والمجرور لا بُدَّ له من متعلق . . فبماذا يتعلق الجار والمجرور هنا؟ قالوا : يجوز أنْ يتعلّق بالفعل (نُوحِي) ويكون السياق : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحِي إليهم بالبينات والزبر .

وقد يتعلق الجار والمجرور بأهل الذكر . . فيكون المعنى : فاسألوا أهل الذكر بالبينات والزبر ،

فهذان وجهان لعودة الجار والمجرور .

والبينات : هي الأمر البيّن الواضح الذي لا يشكُّ فيه أحد . . وهو إما أن يكون أمارة ثُبوت صِدْق الرسالة كالمعجزة التي تتحدى المكذِّبين أنْ يأتوا بمثلها . . أو : هي الآيات الكونية التي تلفِتُ الخَلْق إلى وجود الخالق سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهارَ والشمس والقمر والنجوم .

أما الزُّبُر ، فمعناها : الكتب المكتوبة . . ولا يُكتب عادة إلا الشيء النفيس مخافة أنْ يضيعَ ، وليس هنا أنفَسُ مما يأتينا من منهج الله لِيُنظِّم لَنا حركة حياتنا .

ونعرف أن العرب قديماً كانوا يسألون عن كُلِّ شيء مهما كان حقيراً ، فكان عندهم عِلمٌ بالسهم ومَنْ أول صانع لها ، وعن القوس والرَّحْل ، ومثل هذه الأشياء البسيطة . . ألاَ يسألون عن آيات الله في الكون وما فيها من أسرار وعجائب في خَلْقها تدلُّ على الخالق سبحانه وتعالى؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزّلَ إِلَيْهِمْ . . } [النحل : 44] .

كلمة الذكر وردتْ كثيراً في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة ، وأَصلْ الذكر أنْ يظلَّ الشيءُ على البال بحيث لا يغيب ، وبذلك يكون ضِدّه النسيان . . إذن : عندنا ذِكْر ونسيان . . فكلمة « ذكر » هنا معناها وجود شيء لا ينبغي لنا نسيانه . . فما هو؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق آدم عليه السلام أخذ العهد على كُلِّ ذرّة فيه ، فقال تعالى : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ } [الأعراف : 172] .

وأخْذ العهد على آدم هو عَهْد على جميع ذريته ، ذلك لأن في كُلِّ واحد من بني آدم ذَرَّة من أبيه آدم . . وجزءاً حيّاً منه نتيجة التوالُد والتناسُل من لَدُن آدم حتى قيام الساعة ، وما دُمْنا كذلك فقد شهدنا أخذ العهد : { أَلَسْتُ بِرَبّكُمْ } .

وكأن كلمة (ذكر) جاءت لتُذكّرنا بالعهد المطمور في تكويننا ، والذي ما كان لنا أنْ ننساه ، فلما حدث النسيان اقتضى الأمرُ إرسالَ الرسل وإنزالَ الكتب لتذكّرنا بعهد الله لنا : { أَلَسْتُ بِرَبّكُمْ قَالُواْ بلى } [الأعراف : 172] .

ومن هنا سَمّينا الكتب المنزلة ذكراً ، لكن الذكْر يأتي تدريجياً وعلى مراحل . . كلُّ رسول يأتي ليُذكَّر قومه على حَسْب ما لديهم من غفلة .

. أما الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم الذي جاء للناس كافّة إلى قيام الساعة ، فقد جاء بالذكر الحقيقي الذي لا ذِكْر بعده ، وهو القرآن الكريم .

وقد تأتي كلمة (الذكْر) بمعنى الشَّرَف والرِّفْعة كما في قوله تعالى للعرب : { لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ

كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ } [الأنبياء : 10] وقد أصبح للعرب مكانة بالقرآن ، وعاشت لغتهم بالقرآن ، وتبوءوا مكان الصدارة بين الأمم بالقرآن .

وقد يأتي الذكْر من الله للعبد ، وقد يأتي من العبد لله تعالى كما في قوله سبحانه : { فاذكروني أَذْكُرْكُمْ . . } [البقرة : 152] .

والمعنى : فاذكروني بالطاعة والإيمان أذكركم بالفيوضات والبركة والخير والإمداد وبثوابي .

وإذا أُطلقت كلمة الذكر انصرفت إلى ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه الكتاب الجامع لكُلِّ ما نزل على الرسُل السابقين ، ولكل ما تحتاج إليه البشرية إلى أنْ تقومَ الساعة .

كما أن كلمة كتاب تطلق على أي كتاب ، لكنها إذا جاءت بالتعريف (الكتاب) انصرفت إلى القرآن الكريم ، وهذا ما نسميه (عَلَم بالغلبة) .

والذكْر هو القرآن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو معجزته الخالدة في الوقت نفسه ، فهو منهج ومعجزة ، وقد جاء الرسُل السابقون بمعجزات لحالها ، وكتب لحالها ، فالكتاب منفصل عن المعجزة .

فموسى كتابه التوراة ومعجزته العصا ، وعيسى كتابه ومنهجه الإنجيل ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فمعجزته هي نفس كتاب منهجه ، لا ينفصل أحدهما عن الآخر لتظلّ المعجزة مُسَاندة للمنهج إلى قيام الساعة .

وهذا هو السِّر في أن الحق تبارك وتعالى تكفل بحفظ القرآن وحمايته ، فقال تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9] .

أما الكتب السابقة فقد عُهد إلى التابعين لكل رسول منهم بحِفْظ كتابه ، كما قال تعالى : { إِنَّآ أَنزَلْنَا التوراة فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النبيون الذين أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ والربانيون والأحبار بِمَا استحفظوا مِن كِتَابِ الله . . . } [المائدة : 44] .

ومعنى اسْتُحفِظوا : أي طلبَ الله منهم أنْ يحفظوا التوراة ، وهذا أمْرُ تكليف قد يُطاع وقد يُعصى ، والذي حدث أن اليهود عَصَوْا وبدّلوا وحَرَّفوا في التوراة . . أما القرآن فقد تعهَّد الله تعالى بحفْظه ولم يترك هذا لأحد؛ لأنه الكتاب الخاتَم الذي سيصاحب البشرية إلى قيام الساعة .

ومن الذِّكْر أيضاً ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم مع القرآن ، وهو الحديث الشريف ، فللرسول مُهمة أخرى ، وهي منهجه الكلاميّ وحديثه الشريف الذي جاء من مِشْكاة القرآن مبيّناً له ومُوضّحاً له . . . كما قال صلى الله عليه وسلم : « أَلاَ وإِنِّي قد أُوتيتُ القرآن ومِثْله معه ، يُوشك رجل شبعان يتكيء على أريكته يُحدِّث بالحديث عنِّي فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حَلَّلْناه ، وما وجدنا فيه من حرام حَرَّمناه ، أَلاَ وإنَّه ليس كذلك » .

ويقول الحق سبحانه :

{ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .

. } [النحل : 44] .

إذن : جاء القرآن كتابَ معجزة ، وجاء كتابَ منهج ، إلا أنه ذكر أصول هذا المنهج فقط ، ولم يذكر التعريفات المنهجية والشروح اللازمة لتوضيح هذا المنهج ، وإلاَّ لَطالتْ المسألة ، وتضخَّم القرآن وربما بَعُد عن مُرَاده .

فجاء القرآن بالأصول الثابتة ، وترك للرسول صلى الله عليه وسلم مهمة أنْ يُبيِّنه للناس ، ويشرحه ويُوضِّح ما فيه .

وقد يظن البعض أن كُلَّ ما جاءتْ به السُّنة لا يلزمنا القيام به؛ لأنه سنة يُثَاب مَنْ فعلها ولا يُعاقب مَنْ تركها . . نقول : لا . . لا بُدَّ أن نُفرِّق هنا بين سُنّية الدليل وسُنّية الحكم ، حتى لا يلتبس الأمر على الناس .

فسُنّية الدليل تعني وجود فَرْض ، إلا أن دليله ثابت من السنة . . وذلك كبيان عدد ركعات الفرائض : الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فهذه ثابتة بالسنة وهي فَرْض .

أما سُنيّة الحكم : فهي أمور وأحكام فقهية وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يُثَاب فاعلها ولا يُعاقب تاركها . . فحين يُبيِّن لنا الرسول بسلوكه وأُسْوته حُكْماً ننظر : هل هي سُنّية الدليل فيكون فَرْضاً ، أم سُنّية الحكم فيكون سُنة؟ ويظهر لنا هذا أيضاً من مواظبة الرسول على هذا الأمر ، فإنْ واظب عليه والتزمه فهو فَرْض ، وإنْ لم يواظب عليه فهو سُنة .

إذن : مهمة الرسول ليست مجرد مُنَاولة القرآن وإبلاغه للناس ، بل وبيان ما جاء فيه من المنهج الإلهي ، فلا يستقيم هنا البلاغ دون بيان . . ولا بُدَّ أن نفرّق بين العطائين : العطاء القرآني ، والعطاء النبوي .

ويجب أن نعلم هنا أن من المَيْزات التي مُيِّز بها النبي صلى الله عليه وسلم عن سائر إخوانه من الرُّسُل ، أنه الرسول الوحيد الذي أمنه الله على التشريع ، فقد كان الرسل السابقون يُبلِّغون أوامر السماء فَقط وانتهتْ المسألة ، أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد قال الحق تبارك وتعالى في حقِّه : { وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا . . } [الحشر : 7] .

إذن : أخذ مَيْزة التشريع ، فأصبحت سُنّته هي التشريع الثاني بعد القرآن الكريم .

ثم يقول تعالى :

{ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [النحل : 44] .

يتفكرون . . في أي شيء؟ يتفكرون في حال الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، حيث لم يُؤْثَر عنه أنه كان خطيباً أو أديباً شاعراً ، ولم يُؤْثَر عنه أنه كان كاتباً مُتعلِّماً . . لم يُعرف عنه هذا

أبداً طيلة أربعين عاماً من عمره الشريف ، لذلك أمرهم بالتفكُّر والتدبُّر في هذا الأمر .
فليس ما جاء به محمد عبقرية تفجَّرت هكذا مرَّة واحدة في الأربعين من عمره ، فالعمر الطبيعي للعبقريات يأتي في أواخر العِقْد الثاني وأوائل العِقْد الثالث من العمر .
ولا يُعقل أنْ تُؤجّل العبقرية عند رسول الله إلى هذا السن وهو يرى القوم يُصْرعون حوله . .
فيموت أبوه وهو في بطن أمه ، ثم تموت أمه وما يزال طفلاً صغيراً ، ثم يموت جَدُّه ، فمَنْ يضمن له الحياة إلى سِنِّ الأربعين ، حيث تتفجَّر عنده هذه العبقرية؟!
إذن : تفكَّروا ، فليستْ هذه عبقرية من محمد ، بل هي أمْر من السماء؛ ولذلك أمره ربُّه تبارك وتعالى أن يقول لهم :

{ قُل لَّوْ شَآءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [يونس : 16] .

فكان عليكم أنْ تفكِّروا في هذه المسألة . . ولو فكرتُمْ فيها كان يجب عليكم أنْ تتهافتوا على الإسلام ، فأنتم أعلم الناس بمحمد ، وما جرَّبتم عليه لا كذباً ولا خيانةً ، ولا اشتغالاً بالشعر أو الخطابة ، فما كان لِيْصدق عندكم ويكذب على الله .
ولا بُدَّ أن نُفرّق بين العقل والفكر . فالعقل هو الأداة التي تستقبل المحسَّات وتُمَيِّزها ، وتخرج منها القضايا العامة التي ستكون هي المباديء التي يعيش الإنسان عليها ، والتي ستكون عبارة عن معلومات مُخْتزنة ، أما الفكر فهو أن تفكر في هذه الأشياء لكي تستنبط منها الحكم .
والله سبحانه وتعالى ترك لنا حُرية التفكير وحرية العقل في أمور دنيانا ، لكنه ضبطنا بأمور قَسْرية يفسَد العالم بدونها ، فالذي يفسد العالم أن نترك ما شرعه الله لنا . . والباقي الذي لا يترتب عليه ضرر يترك لنا فيه مجالاً للتفكير والتجربة؛ لأن الفشل فيه لا يضر .
فما أراده الله حُكْماً قسْرياً فرضه بنصِّ صريح لا خلافَ فيه ، وما أراده على وجوه متعددة يتركه للاجتهاد حيث يحتمل الفعل فيه أوجهاً متعددة ، ولا يؤدي الخطأ فيه إلى فساد .
فالمسألة ميزان فكري يتحكم في المحسَّات ويُنظم القضايا ، لنرى أولاً ما يريده الله بتاً وما يريده اجتهاداً ، وما دام اجتهاداً فما وصل إليه المجتهد يصح أنْ يعبد الله به ، ولكن آفة الناس في الأمور الاجتهادية أن منهم مَنْ يتهم مخالفه ، وقد تصل الحال بهؤلاء إلى رَمْي مخالفيهم بالكفر والعياذ بالله .
ونقول لمثل هذا : اتق الله ، فهذا اجتهادٌ مَنْ أصاب فيه فَلَهُ أجران ، ومَنْ أخطأ فله أجر . .
ولذلك نجد من العلماء مَنْ يعرف طبيعة الأمور الاجتهادية فنراه يقول : رَأْيي صواب يحتمل الخطأ ، ورَأْي غيري خطأ يحتمل الصواب . وهكذا يتعايش الجميع وتُحتَرم الآراء .
ومن رحمة الله بعباده أن يأمرهم بالتفكُّر والتدبُّر والنظر؛ ذلك لأنهم خَلْقه سبحانه ، وهم أكرم

عليه من أنْ يتركهم للضلال والكفر ، بعد أن أكرمهم بالخَلْق والعقل ، فأراد سبحانه أن يكرمهم إكراماً آخر بالطاعة والإيمان .

وكأنه سبحانه يقول لهم : رُدُّوا عقولكم ونفوسكم عن كبرياء الجدل ولَجَج الخصومة ، وإنْ كنتم لا تؤمنون بالبعث في الآخرة ، وبما أُعدَّ للظالمين فيها من عقاب ، فانظروا إلى ما حدث لهم وما عُجِّل لهم من عذاب في الدنيا .

انظروا للذين سبقوكم من الأمم المكذَّبة وما آل إليه مصيرهم ، أم أنتم آمنون من العذاب ، بعيدون عنه؟!

ثم يقول تبارك وتعالى : { أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ . . . } .

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45)

قوله تعالى :

{ أَفَأَمِنَ . . . } [النحل : 45] .

عبارة عن همزة الاستفهام التي تستفهم عن مضمون الجملة بعدها . . أما الفاء بعدها فهي حَرْف عَطْف يعطف جملة على جملة . . إذن : هنا جملة قبل الفاء تقديرها : أجهلوا ما وقع لمخالفي الأنبياء السابقين من العذاب ، فأمِنُوا مكر الله؟

أي : أن أَمْنهم لمكر الله ناشيءٌ عن جهلهم بما وقع للمكَذِّبين من الأمم السابقة .

ثم يقول تعالى :

{ مَكَرُواْ السيئات . . . . } [النحل : 45] .

المكر : هو التبييت الخفيّ للنيْل ممَّنْ لا يستطيع مجابهته بالحق ومجاهرته به ، فأنت لا تُبيِّت لأحد إلا إذا كانت قدرتُك عاجزة عن مُصَارحته مباشرة ، فكوْنُك تُبيِّت له وتمكر به دليل على عَجْزك؛ ولذلك جعلوا المكر أول مراتب الجُبْن؛ لأن الماكر ما مكر إلا لعجزه عن المواجهة ، وعلى قَدْر ما يكون المكْر عظيماً يكون الضعف كذلك .

وهذا ما نلحظه من قوله تعالى في حَقِّ النساء : { كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ . . } [يوسف : 28] .

وقال في حَقِّ الشيطان : { إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً } [النساء : 76] .

فالمكر دليل على الضعف ، وما دام كَيْدهُن عظيماً إذن : ضَعْفُهن أيضاً عظيم ، وكذلك في كيد الشيطان .

وقديماً قالوا : إياك أنْ يملكَك الضعيف؛ ذلك لأنه إذا تمكَّن منك وواتَتْه الفرصة فلن يدعَكَ تُفلت منه؛ لأنه يعلم ضعفه ، ولا يضمن أن تُتاحَ له الفرصة مرة أخرى؛ لذلك لا يضيعها على

عكس القويّ ، فهو لا يحرص على الانتقام إذا أُتيحَتْ له الفرصة وربما فَوَّتها لقُوته وقُدرته على خَصْمه ، وتمكّنه منه في أيّ وقت يريد ، وفي نفس المعنى جاء قول الشاعر :

وَضَعِيفة فإذَا أَصَابتْ فُرْصةً ... قتلَتْ كذلِكَ قُدرةُ الضُّعَفاءِ

إذن : قدرة الضعفاء قد تقتل ، أما قدرة القويّ فليستْ كذلك .

ثم لنا وقْفة أخرى مع المكْر ، من حيث إن المكر قد ينصرك على مُساويك وعلى مثلك من بني الإنسان ، فإذا ما تعرضْتَ لمن هو أقوى منك وأكثر منك حَيْطة ، وأحكم منك مكْراً ، فربما لا يُجدِي مكرُك به ، بل ربما غلبك هو بمكْره واحتياطه ، فكيف الحال إذا كَان الماكر بك هو ربِّ العالمين تبارك وتعالى؟

وصدق الله العظيم حيث قال : { وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الماكرين } [الأنفال : 30] .

وقال : { وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ } [فاطر : 43] .

فمكْر العباد مكشوف عند الله ، أما مكْرُه سبحانه فلا يقدر عليه أحد ، ولا يحتاط منه أحد؛ لذلك كان الحق سبحانه خَيْر الماكرين .

والمكْر السَّيء هو المكْر البطَّال الذي لا يكون إلا في الشر ، كما حدث من مَكْر المكذِّبين للرسل على مَرِّ العصور ، وهو أن تكيد للغير كيْداً يُبطل حَقّاً .

وكل رسول قابله قومه المنكرون له بالمكر والخديعة ، دليل على أنهم لا يستطيعون مواجهته مباشرة ، وقد تعرَّض الرسول صلى الله عليه وسلم لمراحل متعددة من الكَيْد والمكْر والخديعة ، وذلك لحكمة أرادها الحق تبارك وتعالى وهي أن يُوئس الكفار من الانتصار عليه صلى الله عليه وسلم ، فقد بيَّتوا له ودَبَّروا لقتله ، وحَاكُوا في سبيل ذلك الخطط ، وقد باءتْ خُطتهم ليلة الهجرة بالفشل .

وفي مكيدة أخرى حاولوا أن يَسْحروه صلى الله عليه وسلم ، ولكن كشف الله أمرهم وخيَّب سعيهم . . إذن : فأيّ وسيلة من وسائل دَحْض هذه الدعوة لم تنجحوا فيها ، ونصره الله عليكم . كما قال تعالى : { كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي . . . } [المجادلة : 21] .

وقوله تعالى :

{ أَن يَخْسِفَ الله بِهِمُ الأرض . . . } [النحل : 45] .

الخسْف : هو تغييب الأرض ما على ظهرها . . فالخسفَ الشيء أيْ : غاب في باطن الأرض ، ومنه خُسوف القمر أي : غياب ضَوْئه . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى عن قارون : { فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض } [القصص : 81] .

وهذا نوع من العذاب الذي جاء على صُور متعددة كما ذكرها القرآن الكريم : { فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض

وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا . . } [العنكبوت : 40] .

هذه ألوان من العذاب الذي حاقَ بالمكذبين ، وكان يجب على هؤلاء أن يأخذوا من سابقيهم عبرة وعظة ، وأنْ يحتاطوا أن يحدث لهم كما حدث لسابقيهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

{ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ } [النحل : 45] .

والمراد أنهم إذا احتاطوا لمكْر الله وللعذاب الواقع بهم ، أتاهم الله من وجهة لا يشعرون بها ، ولم تخطُر لهم على بال ، وطالما لم تخطُرْ لهم على بال ، إذن : فلم يحتاطوا لها ، فيكون أَخْذهم يسيراً ، كما قال تعالى : { فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ . . . } [الحشر : 2] .

ويتابع الحق سبحانه ، فيقول : { أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي . . . } .

أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46)

التقلب : الانتقال من حال إلى حال ، أو من مكان إلى مكان ، والانتقال من مكان الإقامة إلى مكان آخر دليلُ القوة والمقدرة ، حيث ينتقل الإنسان من مكانه حاملاً متاعه وعَتَاده وجميع ما يملك؛ لينشيء له حركةَ حياة جديدة في مكانه الجديد .

إذن : التقلُّب في الحياة مظهر من مظاهر القوة ، بحيث يستطيع أن يقيم حياة جديدة ، ويحفظ ماله في رحلة تقلُّبه . . ولا شكَّ أن هذا مظهر من مظاهر العزة والجاه والثراء لا يقوم به إلا القوي .

ولذلك نرى في قول الحق تبارك وتعالى عن أهل سبأ : { وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القرى التي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السير سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ * فَقَالُواْ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا } [سبأ : 18-19] .

فهؤلاء قوم جمع الله لهم ألواناً شتى من النعيم ، وأمَّن بلادهم وأسفارهم ، وجعل لهم محطات للراحة أثناء سفرهم ، ولكنهم للعجب طلبوا من الله أن يُباعد بين أسفارهم ، كأنهم أرادوا أنْ يتميزوا عن الضعفاء غير القادرين على مشقة السفر والترحال ، فقالوا : { بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا } [سبأ : 19] .

حتى لا يقدر الضعفاء منهم على خَوْض هذه المسافات .

إذن : الذي يتقلَّب في الأرض دليل على أن له من الحال حال إقامة وحال ظَعْن وقدرة على أن ينقل ما لديه ليقيم به في مكان آخر؛ ولذلك قالوا : المال في الغربة وطن . . ومَنْ كان قادراً يفعل ما يريد .

والحق سبحانه يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : { لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَرُواْ فِي البلاد } [آل عمران : 196] .

فلا يخيفنك انتقالهم بين رحلتي الشتاء والصَّيْف ، فالله تعالى قادر أن يأخذَهم في تقلُّبهم .
وقد يُراد تقلّبهم في الأفكار والمكْر السيء بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته كما في قوله تعالى : { لَقَدِ ابتغوا الفتنة مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأمور } [التوبة : 48] .
فقد قعدوا يُخطّطون ويمكُرون ويُدبِّرون للقضاء على الدعوة في مَهْدها .
ويقول تعالى :
{ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ } [النحل : 46] .
المعجز : هو الذي لا يمَكِّنك من أنْ تغلبه ، وهؤلاء لن يُعجِزوا الله تعالى ، ولن يستطيعوا الإفلاتَ من عذابه؛ لأنهم مهما بَيَّتوا فتبييتهم وكَيْدهم عند الله . . أما كيْد الله إذا أراد أنْ يكيد لهم فلن يشعروا به : { وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله } [الأنفال : 30] .
وقال : { إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً } [الطارق : 15-17] .
فمَنْ لا يستطيع أن يغلبك يخضع لك ، وما دام يخضع لك يسيطر عليه المنهج الذي جِئْتَ به .
وقد يكون العجز أمام القوىّ دليلَ قوة ، كما عجز العرب أمام تحدِّي القرآن لهم ، فكان عجزهم أمام كتاب الله دليلَ قوتهم في المجال الذي تحدَّاهم القرآن فيه؛ لأن الله تعالى حين يتحدَّى وحين يُنازل لا ينازل الضعيف ، لا بل ينازل القوي في مجال هذا التحدِّي .

أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (47)

التخوُّف : هو الفزع من شيء لم يحدث بعد ، فيذهب فيه الخيال مذاهبَ شتَّى ، ويتوقع الإنسان ألواناً متعددة من الشر ، في حين أن الواقع يحدث على وجه واحد .
هَبْ أنك في انتظار حبيب تأخَّر عن موعد وصوله ، فيذهب بك الخيال والاحتمال إلى أمور كثيرة . . يا تُرى حدث كذا أو حدث كذا ، وكل خيال من هذه الخيالات له أثر ولذعة في النفس ، وبذلك تكثر المخاوف ، أما إن انتظرتَ لتعرفَ الواقع فإنْ كان هناك فزع كان مرة واحدة .
ولذلك يقولون في الأمثال : (نزول البلا ولا انتظاره) ذلك لأنه إنْ نزل سينزل بلون واحد ، أما انتظاره فيُشيع في النفس ألواناً متعددة من الفزع والخوف . . إذن : التخُّوف أشدُّ وأعظم من وقوع الحَدث نفسه .
وكان هذا الفزع يعتري الكفار إذا ما عَلِموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية من السَّرايا ، فيتوقع كل جماعة منهم أنها تقصدهم ، وبذلك يُشيع الله الفزع في نفوسهم جميعاً ، في حين أنها خرجتْ لناحية معينة .
وبعض المفسرين قال : التخوُّف يعني التنقُّص بأنْ ينقص الله من رُقْعة الكفر بدخول القبائل في

الإسلام قبيلةً بعد أخرى ، فكلُّ واحدة منها تنقص من رقعة الكفر . . كما جاء في قوله تعالى : { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الخوف والجوع وَنَقْصٍ مِّنَ الأموال والأنفس والثمرات . . . } [البقرة : 155] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى في تذييل هذه الآية :

{ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 47] .

وهل هذا التذييل مناسب للآية وما قبلها من التهديد والوعيد؟ فالعقل يقول : إن التذييل المناسب لها : إن ربكم لشديد العقاب مثلاً .

لكن يجب هنا أنْ نعلمَ أن هذا هو عطاء الربوبية الذي يشمل العباد جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، فالله تعالى استدعى الجميع للدنيا ، وتكفَّل للجميع بما يحفظ حياتهم من شمس وهواء وأرض وسماء ، لم تُخلَق هذه الأشياء لواحد دون الآخر ، وقد قال تعالى : { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ } [الشورى : 20] .

وكأن في الآية لَوْناً من ألوان رحمته سبحانه بخَلْقه وحِرْصه سبحانه على نجاتهم؛ لأنه يُنبِّههم إلى ما يمكن أن يحدث لَهم إذا أصرُّوا على كفرهم ، ويُبصِّرهم بعاقبة كفرهم ، والتبصرة عِظَة ، والعِظَة رأفة بهم ورحمة حتى لا ينالهم هذا التهديد وهذا الوعيد .

ومثال هذا التذييل كثير في سورة الرحمن ، يقول الحق تبارك وتعالى : { رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 17-18] .

فهذه نعمة ناسبت قوله تعالى : { فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 18] .

وكذلك في قوله تعالى : { مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ } [الرحمن : 19-20] .

فهذه نعمة من نعم الله ناسبت تذييل الآية : { فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 21] .

أما في قوله تعالى : { كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 26-28] .

فما النعمة في { كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ } ؟ هل الموت نعمة؟!

نعم ، يكون الموت نعمة من نِعَم الله على عباده؛ لأنه يقول للمحسن : سيأتي الموت لتلقَى جزاء إحسانك وثواب عملك ، ويقول أيضاً للكافر : انتبه واحذر . . الموت قادم ، كأنه سبحانه يُوقِظ الكفار ويَعِظهم لينتهوا عما هم فيه . . أليست هذه نعمة من نعم الله ورحمة منه سبحانه بعباده؟

وكذلك انظر إلى قول الحق تبارك وتعالى : { يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ *

فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 35-36] .

فأيّ نعمة في : { يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ } [الرحمن : 35] .

أيُّ نعمة في هذا العذاب؟

نعم المتدبّر لهذه الآية يجد فيها نعمة عظيمة؛ لأن فيها تهديداً ووعيداً بالعذاب إذا استمروا على ما هم فيه من الكفر . . ففي طيَّاتها تحذير وحِرْص على نجاتهم كما تتوعد ولدك : إذا أهملتَ دروسك ستفشل وأفعل بك كذا وكذا . وأنت ما قلت ذلك إلا لحِرصك على نجاحه وفلاحه .

إذن : فتذييل الآية بقوله :

{ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 47] .

تذييل مناسب لما قبلها من التهديد والوعيد ، وفيها بيان لرحمة الله التي يدعو إليها كلاً من المؤمن والكافر .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ إلى مَا خَلَقَ . . } .

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48)

قوله تعالى :

{ أَوَلَمْ يَرَوْاْ . . . } [النحل : 48] .

المعنى : أَعَمُوا ولم يَرَوْا ولم يتدبروا فيها خلق الله؟

{ مِن شَيْءٍ } [النحل : 48] .

كلمة شيء يسمونها جنس الأجناس ، و { مِن } تفيد ابتداء ما يُقال له شيء ، أي : أتفه شيء موجود ، وهذا يسمونه أدنى الأجناس . . وتفيد أيضاً العموم فيكون :

{ مِن شَيْءٍ . . . } [النحل : 48] .

أي : كل شيء .

فانظر إلى أيّ شيء في الوجود مهما كان هذا الشيء تافهاً ستجد له ظِلاً :

{ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلاَلُهُ . . . } [النحل : 48] .

يتفيأ : من فاءَ أي : رجع ، والمراد عودة الظل مرة أخرى إلى الشمس ، أو عودة الشمس إلى الظل .

فلو نظرنا إلى الظل نجده نوعين : ظل ثابت مستمر ، وظل مُتغيّر ، فالظل الثابت دائماً في الأماكن التي لا تصل إليها أشعة الشمس ، كقاع البحار وباطن الأرض ، فهذا ظِلٌّ ثابت لا تأتيه أشعة الشمس في أي وقت من الأوقات .

والظلّ المتحرك الذي يُسمّى الفَيْء لأنه يعود من الظل إلى الشمس ، أو من الشمس إلى الظل ،

إذن : لا يُسمَّى الظل فَيْئاً إلا إذا كان يرجع إلى ما كان عليه .
ولكن . . كيف يتكّون الظل؟ يتكّون الظل إذا مَا استعرض الشمسَ جسم كثيف يحجب شعاع الشمس ، فيكون ظِلاً له في الناحية المقابلة للشمس ، هذا الظل له طُولان وله استواء واحد . طول عند الشروق إلى أنْ يبلغَ المغرب ، ثم يأخذ في التناقص مع ارتفاع الشمس ، فإذا ما استوتْ الشمس في السماء يصبح ظِلّ الشيء في نفسه ، وهذه حالة الاستواء ، ثم تميل الشمس إلى الغروب ، وينعكس طول الظلّ الأول من ناحية المغرب إلى ناحية المشرق .
ويلفتنا الحق تبارك وتعالى إلى هذه الآية الكونية في قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً } [الفرقان : 45-46] .
ذلك لأنك لو نظرتَ إلى الظلِّ وكيف يمتدُّ ، وكيف ينقبض وينحسر لوجدتَ شيئاً عجيباً حقاً . . ذلك لأنك تلاحظ الظل في الحالتين يسير سَيْراً انسيابياً .
ما معنى : (انسيابي) ؟ هو نوع من أنواع الحركة ، فالحركة إما حركة انسيابية ، أو حركة عن توالي سكونات بين الحركات .
وهذه الأخيرة نلاحظها في حركة عقارب الساعة ، وهي أوضح في عقرب الثواني منها في عقرب الدقائق ، ولا تكاد تشعر بها في عقرب الساعات . . فلو لاحظت عقرب الثواني لوجدتَه يسير عن طريق قفزات منتظمة ، تكون حركة فسكوناً فحركة ، وهكذا . .
ومعنى ذلك أنه يجمع الحركة في حال سكونه ، ثم ينطلق بها ، وبذلك تمرُّ عليه لحظة لم يكن مُتحركاً فيها ، وهذا ما نسميه بالحركة القفزية . . هذه الحركة لا تستطيع رَصْدها في عقرب الساعات؛ لأن القفزة فيه دقيقة لدرجة أن العين المجردة تعجز عن رَصْدها وملاحظتها ، هذه هي الحركة القفزية .

أما الحركة الانسيابية ، فتعني أن كل جزء من الزمن فيه جزء من الحركة . . أي : حركة مستمرة ومُوزّعة بانتظام على الزمن .
ونضرب لذلك مثلاً بنمو الطفل . . الطفل الوليد ينمو باستمرار ، لكن أمه لملازمتها له لا تلاحظ هذا النمو؛ لأن نظرها عليه دائماً . . فكيف تكون حركة النمو في الطفل؟ هل حركة قفزية يتجمع فيها نمو الطفل كل أسبوع أو كل شهر مثلاً ، ثم ينمو طَفْرة واحدة؟
لو كان نموه هكذا لَلاَحظنا نمو الطفل ، لكنه ليس كذلك ، بل ينمو بحركة انسيابية تُوزّع المِلّي الواحد من النمو على طول الزمن . فلا نكاد نشعر بنموه .
وهكذا حركة الشمس حركة انسيابية ، بحيث تُوزع جزئيات الحركة على جُزئيات الزمن ، فالشمس ليست مركونة إلى ميكانيكا تتحرك عن التروس كالساعة مثلاً ، لا . . بل مركونة إلى

أمر الله ، موصولة بكُنْ الدائمة .
وكأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يلِفتَ خَلْقه إلى ظاهرة كونية في الوجود مُحسّة ، يدركها كلٌّ مِنّا في ذاته ، وفيما يرى من المرائي ، ومن هذه المظاهر ظاهرة الظَلّ التي يعجز الإنسان عن إدراك حركته .
وفي آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى : { وَظِلالُهُم بالغدو والآصال } [الرعد : 15] .
فالحق سبحانه يريد أن يُعمم الفكرة التسبيحية في الكون كله ، كما قال تعالى : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . . } [الإسراء : 44] .
فكل ما يُطلَق عليه شيء فهو يُسبِّح مهما كان صغيراً .
وقوله تعالى :
{ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلاَلُهُ عَنِ اليمين والشمآئل . . . } [النحل : 48] .
لنا هنا وقفة مع الأداء القرآني ، حيث أتى باليمين مُفْرداً ، في حين أتى بالشمائل على صورة الجمع؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى لما قال :
{ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إلى مَا خَلَقَ الله مِن شَيْءٍ . . . } [النحل : 48] .
أتى بأقلّ ما يُتصوَّر من مخلوقاته سبحانه { مِن شَيْءٍ . . . } وهو مفرد ، ثم قال سبحانه :
{ ظِلاَلُهُ . . } [النحل : 48] .
بصيغة الجمع . أي : مجمع هذه الأشياء ، فالإنسان لا يتفيأ ظِلّ شيء واحد ، لا . . بل ظِلّ أشياء متعددة .
و { مِن } هنا أفادت العموم :
{ مِن شَيْءٍ . . } [النحل : 48] .
أي : كل شيء . فليناسب المفرد جاء باليمين ، وليناسب الجمع جاء بالشمائل .
ثم يقول تعالى :
{ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ } [النحل : 48] .
فما العلاقة بين حركة الظلّ وبين السجود؟
معنى : سُجّداً أي : خضوعاً لله ، وكأن حركة الظل وامتداده على امتداد الزمن دليلٌ على أنه موصول بالمحرك الأعلى له ، والقائل الأعلى ل « كُنْ » ، والظل آية من آياته سبحانه مُسخّرة له ساجدة خاضعة لقوله : كُنْ فيكون .
وقلنا : إن هناك فرقاً بين الشيء تُعِده إعداداً كَوْنياً ، والشيء تُعِده إعداداً قدرياً . . فصانع القنبلة الزمنية يُعِدُّها لأنْ تنفجرَ في الزمن الذي يريده ، وليس الأمر كذلك في إعداد الكون . الكون أعدّه الله إعداداً قدرياً قائماً على قوله كُنْ ، وفي انتظار لهذا الأمر الإلهي باستمرار (كن فيكون) .

وهكذا . . فليست المسألة مضبوطة ميكانيكاً ، لا . . بل مضبوطة قَدرياً .

لذلك يحلو لبعض الناس أن يقول : باقٍ للشمس كذا من السنين ثم ينتهي ضوؤها ، ويُرتّب على هذا الحكم أشياء أخرى . . نقول : لا . . ليس الأمر كذلك . . فالشمس خاضعة للإعداد القدريّ منضبطةٌ به ومنتظرة ل « كُنْ » التي يُصغِي لها الكون كله؛ ولذلك يقول تعالى : { كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ } [الرحمن : 29] .

هكذا بيَّنت الآية الكريمة أن كل ما يُقال له « شيء » يسجد لله عز وجل ، وكلمة « شيء » جاءت مُفْردة دالّة على العموم . . وقد عرفنا السجود فيما كلَّفنا الله به من ركن في الصلاة ، وهو مُنْتَهى الخضوع ، خضوع الذات من العابد للمعبود ، فنحن نخضع واقفين ، ونخضع راكعين ، ونخضع قاعدين ، ولكن أتمَّ الخضوع يكون بأنْ نسجدَ لله . . ولماذا كان أتمَّ الخضوع أن نسجدَ لله؟

نقول : لأن الإنسان له ذات عامة ، وفي هذا الذات سيد للذات ، بحيث إذا أُطلِق انصرف إلى الذات ، والمراد به الوجه؛ لذلك حينما يعبّر الحق تبارك وتعالى عن فَنَاء الوجود يقول : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . } [القصص : 88] .

وكذلك في قوله : { إِلاَّ ابتغآء وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى * وَلَسَوْفَ يرضى } [الليل : 20-21] .

فيُطلَق الوجه ويُراد به الذات ، فإذا ما سجد الوجه لله تعالى دلَّ ذلك على خضوع الذات كلها؛ لأن أشرف ما في الإنسان وجهه ، فإذا ما ألصقه بالأرض فقد جاء بمنتهى الخضوع بكل ذاته للمعبود عز وجل .

كما دَلَّتْ الآية على أن الظل أيضاً يسجد لربه وخالقه سبحانه ، والظلال قد تكون لجمادات كالشجر مثلاً ، أو بناية أو جبل ، وهذه الأشياء الثابتة يكون ظِلّها أيضاً ثابتاً لا يتحرك ، أما ظِلّ الإنسان أو الحيوان فهو ظل متحرك ، وقد ضرب لنا الحق تبارك وتعالى مثلاً في الخضوع التام بالظلال؛ لأن ظل كل شيء لا يفارق الأرض أبداً ، وهذا مثال للخضوع الكامل .

ثم يرتفع الحق تبارك وتعالى بمسألة السجود من الجمادات في الظلال في قوله : { وَظِلالُهُم بالغدو والآصال } [الرعد : 15] .

يعني الذوات تسجد ، وكذلك الظلال تسجد؛ ولذلك يتعجب بعض العارفين من الكافر . . يقول : أيها الكافر ظِلُّك ساجد وأنت جاحد . . جاء هذا الترقِّي في قوله تعالى : { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ . . . } .

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49)

فأجناس الكون التي يعرفها الإنسان أربعة : إما جماد ، فإذا وجدتَ خاصية النمو كان النبات ، وإذا وجدتَ خاصية الحركة والحسّ كان الحيوان ، فإذا وجدتَ خاصية الفِكْر كان الإنسان ، وإذا

وجدتَ خاصية العلم الذاتي النوراني كان المَلَك . . هذه هي الأجناس التي نعرفها .
الحق تبارك وتعالى ينقلُنا هنا نَقْلة من الظلال الساجدة ، للجمادات الثابتة ، إلى الشيء الذي يتحرك ، وهو وإنْ كان مُتحركاً إلا أن ظلّه أيضاً على الأرض ، فإذا كان الحق سبحانه قد قال : { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض . . } [النحل : 49] .
فقد فصَّل هذا الإجمال بقوله :
{ مِن دَآبَّةٍ والملائكة . . . } [النحل : 49] .
أي : من أقلّ الأشياء المتحركة وهي الدابة ، إلى أعلى الأشياء وهي الملائكة . .
وقد يقول قائل : وهل ما في السماوات وما في الأرض يسجد لله؟
نقول له : نعم . . لأنك فسرتَ السجود فيك أنت بوضْع جبهتك على الأرض ، ليدلّ على أن الذات بعلُوّها ودنُوّها ساجدة لله خاضعة تمام الخضوع ، حيث جعلتَ الجبهة مع القدم .
والحق تبارك وتعالى يريد منّا أن نعرف استطراق العبودية في الوجود كله؛ لأن الكافر وإنْ كانَ مُتمرِّداً على الله فيما جعل الله له فيه اختيارا ، في أنْ يؤمن أو يكفر ، في أن يطيع أو يعصي ، ولكن الله أعطاه الاختيار .
نقول له : إنك قد ألِفْتَ التمرّد على الله ، فطلب منك أن تؤمن لكنك كفرتَ ، وطلبَ منك يا مؤمن أن تطيعَ فعصيتَ ، إذن : فلكَ إلْفٌ بالتمرّد على الحق . . ولكن لا تعتقد أنك خرجتَ من السجود والخضوع لله؛ لأن الله يُجري عليك أشياء تكرهها ، ولكنها تقع عليك رغم أنفك وأنت خاضع .
وهذا معنى قوله تعالى في الآية السابقة : { وَهُمْ دَاخِرُونَ } [النحل : 48] .
أي : صاغرون مُستذلّون مُنقَادُونَ مع أنهم أَلِفُوا التمرُّد على الحق سبحانه .
وإلا فهذا الذي أَلِف الخروج عن مُرادات الله فيما له فيه اختيار ، هل يستطيع أنْ يتأبَّى على الله إذا أراد أنْ يُمرضه ، أو يُفقره ، أو يميته؟
لا ، لا يستطيع ، بل هو داخر صاغر في كل ما يُجريه عليه من مقادير ، وإنْ كان يأباها ، وإنْ كان قد أَلِف الخروج عن مُرادات الله .
إذن : ليس في كون الله شيء يستطيع الخروج عن مرادات الله؛ لأنه ما خرج عن مرادات الله الشرعية في التكليف إلا بما أعطاه الله من اختيار ، وإلا لو لم يُعْطه الاختيار لما استطاع التمرّد ، كما في المرادات الكونية التي لا اختيارَ فيها .
لذلك نقول للكافر الذي تمرّد على الحق سبحانه : تمرّد إذا أصابك مرض ، وقُلْ : لن أمرض ، تمرَّد على الفقر وقُلْ : لن أفتقر . . وما دُمْتَ لا تقدر وسوف تخضع راغماً فلتخضعْ راضياً وتكسب الأمر ، وتنتهي مشكلة حياتك ، وتستقبل حياة أخرى أنظف من هذه الحياة .

وقوله تعالى :

{ مِن دَآبَّةٍ . . . } [النحل : 49] .

هو كل ما يدبّ على الأرض ، والدَّبُّ على الأرض معنا الحركة والمشي . . وقوله :

{ والملائكة . . . } [النحل : 49] .

أي : أن الملائكة لا يُقال لها دابة؛ لأن الله جعل سَعْيها في الأمور بأجنحة فقال تعالى : { أولي أَجْنِحَةٍ مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ . . } [فاطر : 1] .

وقال في آية أخرى : { وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ . . . } [الأنعام : 38] .

فخلق الله الطائر يطير بجناحيه مقابلاً للدابة التي تدب على الأرض ، فاستحوذ على الأمرين : الدابة والملائكة .

و { مَا } في الآية تُطلق على غير العالمين وغير العاقلين؛ ذلك لأن أغلبَ الأشياء الموجودة في الكون ليس لها عِلْم أو معرفة؛ ولذلك قال تعالى في آية أخرى : { إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا . . } [الأحزاب : 72] .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

{ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ } [النحل : 49] .

أي : أن الملائكة الذين هم أعلى شيء في خَلْق الله لا يستكبرون؛ لأن علوّهم في الخَلْق من نورانية وكذا وكذا لا يعطيهم إدلالاً على خالقهم سبحانه؛ لأن الذي أعطاهم هذا التكريم هو الله سبحانه وتعالى .

وما دام الله هو الذي أعطاهم هذا التكريم فلا يجوز الإدلال به؛ لأن الذي يُدِلُّ إنما يُدِلُّ بالذاتيات غير الموهوبة ، أما الشيء الموهوب من الغير فلاَ يجوز أن تُدِلَّ به على مَنْ وهبه لك .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { لَّن يَسْتَنكِفَ المسيح أَن يَكُونَ عَبْداً للَّهِ وَلاَ الملائكة المقربون . . } [النساء : 172] .

فلن يمتنعوا عن عبادة الله والسجود له رغم أن الله كرَّمهم ورفعهم .

ثم يقول تعالى : { يَخَافُونَ رَبَّهُمْ . . } .

يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (50)

ما هو الخوف؟ الخوف هو الفزع والوجَلَ ، والخوف والفزع والوجل لا يكون إلا من ترقب شيء من أعلى منك لا تقدر أنت على رَفْعه ، ولو أمكنك رَفْعه لما كان هناك داعٍ للخوف منه؛ لذلك فالأمور التي تدخل في مقدوراتك لا تخاف منها ، تقول : إنْ حصل كذا افعل كذا . . الخ :

وإذا كان الملائكة الكرام : { لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحريم : 6] .
فما داعي الخوف إذن؟ نقول : إن الخوف قد يكون من تقصير حدث منك تخاف عاقبته ، وقد يكون الخوف عن مهابة للمخُوف وإجلاله وتعظيمه دون ذنب ودون تقصير ، ولذلك نجد الشاعر العربي يقول في تبرير هذا الخوف :

أَهَابُكَ إِجْلاَلاً ومَا بِكَ قُدْرة ... عليَّ ولكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُها

إذن : مرّة يأتي الخوف لتوقُّع أذى لتقصير منك ، ومرَّة يأتي لمجرد المهابة والإجلال والتعظيم .
وقوله تعالى :
{ مِّن فَوْقِهِمْ } [النحل : 50] .
ما المراد بالفوْقية هنا؟ نحن نعرف أن الجهات ستّ : فوق ، وتحت ، ويمين ، وشمال ، وأمام ، وخلف . . بقيتْ جهة الفَوقْية لتكون هي المسيطرة؛ ولذلك حتى في بناء الحصون يُشيّدونها على الأماكن العالية لتتحكم بعلُوّها في متابعة جميع الجهات .
إذن : فالفوقية هي محلّ العُلو ، وهذه الفوقية قد تكون فوقية مكان ، أو فوقية مكانة .
فالذي يقول : إنها فوقية مكان ، يرى أن الله في السماء ، بدليل أن الجارية التي سُئِلت : أين الله؟ أشارتْ إلى السماء ، وقالت : في السماء .
فأشارت إلى جهة العُلُو؛ لأنه لا يصح أن نقول : إن الله تحت ، فالله سبحانه مُنزَّه عن المكان ، وما نُزِّه عن المكان نُزِّه عن الزمان ، فالله عز وجل مُنزَّه عن أنْ تُحيّزه ، لا بمكان ولا بزمان؛ لأن المكان والزمان به خُلِقاً . . فمَن الذي خلق الزمان والمكان؟
إذن : ما داما به خُلِقاً فهو سبحانه مُنزَّه عن الزمان والمكان .
وهم قالوا بأن الفوقية هنا فوقية حقيقية . . فوقية مكان ، أي : أنه تعالى أعلى مِنّا . . ونقول لمن يقول بهذه الفوقية : الله أَعْلى مِنّا . . من أيّ ناحية؟ من هذه أم من هذه؟
إذن : الفوقية هنا فوقية مكانة ، بدليل أننا نرى الحرس الذين يحرسون القصور ويحرسون الحصون يكون الحارس أعلى من المحروس . . فوقه ، فهو فوقه مكاناً ، إنما هل هو فوقه مكانة؟ بالطبع لا .
وقوله تعالى :
{ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [النحل : 50] .
وهذه هي الطاعة ، وهي أن تفعلَ ما أُمِرتْ به ، وأنْ تجتنبَ ما نُهيتَ عنه ، ولكن الآية هنا ذكرت جانباً واحداً من الطاعة ، وهو :
{ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [النحل : 50] .
ولم تقُلْ الآية مثلاً : ويجتنبون ما ينهوْنَ عنه ، لماذا؟ . . نقول : لأن في الآية ما يسمونه بالتلازم

المنطقي ، والمراد بالتلازم المنطقي أن كلَّ نهي عن شيء فيه أمر بما يقابله ، فكل نهي يؤول إلى أمر بمقابله .

فقوله سبحانه :

{ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [النحل : 50] .

تستلزم منطقياً « ويجتنبون ما يُنهَوْن عنه » وكأن الآية جمعت الجانبين .

والحق سبحانه وتعالى خلق الملائكة لا عمل لهم إلا أنهم هُيِّموا في ذات الله ، ومنهم ملائكة مُوكّلون بالخلق ، وهم : { فالمدبرات أَمْراً } [النازعات : 5] .

ويقول تعالى : { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله . . } [الرعد : 11] .

ومنهم : { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ } [الانفطار : 10-11] .

إذن : فهناك ملائكة لها علاقة بِنَا ، وهم الذين أمرهم الحق سبحانه أن يسجدوا لآدم حينما خلقه الله ، وصوَّره بيده ، ونفخ فيه من رُوحه . . وكأن الله سبحانه يقول لهم : هذا هو الإنسان الذي ستكونون في خدمته ، فالسجود له بأمر الله إعلانٌ بأنهم يحفظونه من أمر الله ، ويكتبون له كذا ، ويعملون له كذا ، ويُدبِّرون له الأمور . . الخ .

أما الملائكة الذين لا علاقة لهم بالإنسان ، ولا يدرون به ، ولا يعرفون عنه شيئاً ، هؤلاء المعْنِيون في قوله سبحانه لإبليس : { أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين } [ص : 75] .

أي : أستكبرتَ أنْ تسجدَ؟ أم كنتَ من الصِّنْف الملَكي العالي؟ . . هذا الصنف من الملائكة ليس لهم علاقة بالإنسان ، وكُلُّ مهمتهم التسبيح والذكْر ، وهم المعنيون بقوله تعالى : { يُسَبِّحُونَ اليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ } [الأنبياء : 20] .

كلُّ شيء إذن في الوجود خاضع لمرادات الحق سبحانه منه ، إلا ما استثنى الله فيه الإنسان بالاختيار ، فالله سبحانه لم يقهر أحداً ، لا الإنسان ولا الكون الذي يعيش فيه ، فقد عرض الله سبحانه الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبيْنَ أن يحملنها وأشفقْنَ منها . . وكأنها قالت : لا نريد أن نكون مختارين ، بل نريد أن نكون مُسخَّرين ، ولا دَخْلَ لنا في موضوع الأمانة والتكليف!!

لماذا إذن يأبى الكون بسمائه وأرضه تحمُّل هذه المسئولية؟

نقول : لأن هناك فَرْقاً بين تقبُّل الشيء وقت تحمُّله ، والقدرة على الشيء وقت أدائه . . هناك فَرْق . . عندنا تحمُّل وعندنا أداء . . وقد سبق أنْ ضربنا مثلاً لتحمُّل الأمانة وقُلْنا : هَبْ أن إنساناً أراد أن يُودع عندك مبلغاً من المال مخافة تبديده لتحفظه له لحين الحاجة إليه ، وأنت في هذا الوقت قادر على التحمل وتنوي أداء أمانته إليه عند طلبها وذمَّتك قوية ، ونيتك صادقة .

وهذا وقت تحمُّل الأمانة ، فإذا ما جاء وقت الأداء ، فربما تضطرك الظروف إلى إنفاق هذا المال ، أو يعرض لك عارضٌ يمنعك من الأداء أو تتغيّر ذمتك .

إذن : وقت الأداء شيء آخر .

لذلك ، فالذي يريد أنْ يُبريء ذمته لا يضمن وقت الأداء ويمتنع عن تحمُّل الأمانة ويقول لنفسه : لا ، إن كنت أضمن نفسي وقت التحمل فلا أضمن نفسي وقت الأداء .

هذا مثال لما حدثَ من السماء والأرض والجبال حينما رفضت تحمُّل الأمانة ، ذلك لأنها تُقدّر مسئوليتها وثقلها وعدم ضمان القيام بحقها ، لذلك رفضت تحمُّلها من بداية الأمر .

وكذلك يجب أن يكون الإنسان عاقلاً عند تحمُّل الأمانات؛ ولذلك يقول تعالى : { وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً } [الأحزاب : 72] .

ما الذي جهله الإنسان؟ جهل تقدير حالة وقت أداء الأمانة ، فظلم نفسه ، ولو أنه خرج من باب الجمال كما يقولون لَقالَ : يا ربِّ اجعلني مثل السماء والأرض والجبال ، وما تُجريه عليَّ ، فأنا طَوْع أمرك .

ولذلك ، فمن عباد الله مَنْ قَبِل الاختيار وتحمَّل التكليف ، ولكنه خرج عن اختياره ومراده لمراد ربِّه وخالقه ، فقال : يا رب أنت خلقْتَ فينا اختياراً ، ونحن به قادرون أن نفعل أو لا نفعل ، ولكنَّا تنازلنا عن اختيارنا لاختيارك ، وعن مرادنا لمرادك ، ونحن طَوْع أمرك . . هؤلاء هم عباد الله الذين استحقوا هذه النسبة إليه سبحانه وتعالى .

إذن : هناك فَرْق بين مَنْ يفعل اختياراً مع قدرته على ألاَّ يفعل ، وبين مَنْ يفعل بالقهر والتسخير . . فالأول مع أنه قادر ألاَّ يفعل ، فقد غلَّب مُراد ربِّه في التكليف على مراد نفسه في الاختيار .

ثم ينتقل الحق تبارك وتعالى إلى قمة القضايا العقدية بالنسبة للإنسان ، فيقول تعالى : { وَقَالَ الله لاَ تَتَّخِذُواْ . . . } .

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51)

وقد جاء النهي في الآية نتيجة خروج الإنسان عن مُراد ربِّه سبحانه ، فالعجيب أن البشر والجن أيضاً يعني الثقلين هم المختارون في الكون كله ، اختيار في أشياء وقَهْر في أشياء أخرى . . ومع ذلك لم يشذّ من خَلْق الله غيرهما .

فالسموات والأرض والجبال كان لها اختيار ، وقد اختارت التسخير ، وانتهت المسألة في بداية الأمر ، ومع ذلك فهي مُسخَّرة وتُؤدِّي مهمتها لخدمة الإنسان ، فالشمس لم تعترض يوماً ولم ترفض . . فهي تشرق على المؤمن كما تشرق على الكافر . . وكذلك الهواء والأرض والدابة الحلوب ، وكل ما في كون الله مُسخَّر للجميع . . إذن : كل هذه الأشياء لها مهمة ، وتؤدي

مُهمتها على أكمل وجه .
ولذلك يقول تعالى في حقِّ هذه الأشياء : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب . . . } [الحج : 18]
هكذا بالإجماع ، لا يتخلّف منها شئ عن مُراد ربه .
فما الحال في الإنسان؟ يقول تعالى : { وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس } [الحج : 18] .
ولم يَقُلْ : والناس . ثم قال : { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب } [الحج : 18] .
هذا هو الحال في الإنسان المكرّم الذي اختاره الله وترك له الاختيار . . إنما كل الأجناس مُؤدّيه واجبها؛ لأنها أخذتْ حظّها من الاختيار الأول ، فاختارت أن تكون مُسخَّرة ، وأن تكون مقهورة .
فالإنسان . . واحد يقول : لا إلهَ في الوجود . . العالم خُلِق هكذا بطبيعته ، وآخر يقول : بل هناك آلهة متعددة؛ لأن العالم به مصالح كثيرة وأشياء لا ينهض بها إله واحد . . يعني : إله للسماء ، وإله للأرض ، وإله للشمس . . الخ .
إذن : هذا رأي في العالم أشياء كثيرة بحيث لا ينهض بها في نظره إله واحد ، ونقول له : أنت أخذتَ قدرة الإله من قدرة الفردية فيك . . لا . . خُذها من قدرة من : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى : 11] .
لأن القدرة الإلهية لا تعالج الأشياء كما تفعل أنت ، وتحتاج إلى مجهود وعمل . . بل في حقّه تعالى يتم هذا كله بكلمة كُنْ . . كُنْ كذا وانتهت المسألة .
ونعجب من تناقض هؤلاء ، واحد يقول : الكون خُلِق هكذا لحاله دون إله . والآخر يقول : بل له آلهة متعددة . . نقول لهم : أنتم متناقضون ، فتعالَوْا إلى دين الله ، وإلى الوسطية التي تقول بإله واحد ، لا تنفي الألوهية ولا تثبت التعددية .
فإنْ كنتَ تظنُّ أن دولابَ الكون يقتضي أجهزة كثيرة لإدارته ، فاعلم أن الله تعالى لا يباشر تدبير أمر الكون بعلاج . . يفعل هذه ويفعل هذه ، كما يُزاول البشر أعمالهم ، بل يفعلها ب « كُنْ »؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي : « يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وحيَّكم وميتكم ، ورطبكم ويابسكم اجتمعوا في صعيد واحد ، فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته ، فأعطيت كل سائل منكم ما سأل ما نقص ذلك من مُلْكي إلا كما لو أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه ، ذلك بأنِّي جواد ماجد ، افعل ما أريد ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إنما أمري بشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون » .

فيا مَنْ تُشفْق على الإله الواحد أن يتعبَ من إدارته للكون بشتى نواحيه ، ارتفع بمستوى الألوهية عن أمثال البشر؛ لأن الله تعالى لا يباشر سلطانه علاجاً في الكون ، وإنما يباشره بكلمة

« كُنْ » .

إذن : إله واحد يكفي ، وما دُمْنا سلَّمنا بإله واحد ، فإياك أن تقول بتعدُّد الآلهة . . وإذا كان الحق تبارك وتعالى نفى إلهين اثنين ، فنَفْي ما هو أكثر من ذلك أَوْلَى . . واثنان أقل صُور التعدد .

ومعنى { إلهين } أي : معبودين ، فيكون لهما أوامر ونواه ، والأوامر والنواهي تحتاج إلى طاعة ، والكون يحتاج إلى تدبير ، فأيُّ الإلهين يقوم بتدبير أمور الكون؟ أم أنه يحتاج إلى مُسَاعد؟ إنْ كان يحتاج إلى مساعد فهذا نقْص فيه ، ولا يصلح أن يكون إلهاً .

وكذلك إنْ تخصَّص كُلٌّ منهما في عمل ما ، هذا لكذا وهذا لكذا ، فقد أصبح أحدهما عاجزاً فيما يقوم به الآخر . . وأي ناحية إذن من نواحي الحياة تكون هي المسيطرة؟ ومعلوم أن نواحي الحياة مشتركة ومتشابكة .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ . . . } [المؤمنون : 91] .

وقال : { لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا } [الأنبياء : 22] .

فكيف الحال إذا أراد الأول شيئاً ، وأراد الآخر ألاَّ يكون هذا الشيء؟ فإنْ كان الشيء كان عجزاً في الثاني ، وإن لم يكُن كان عجزاً في الأول . . إذن : فقوة أحدهما عَجْز في الآخر .

ونلحظ في قوله تعالى :

{ وَقَالَ الله لاَ تَتَّخِذُواْ إلهين اثنين } [النحل : 51] .

عظة بليغة ، كأنه سبحانه حينما دعانا إلى توحيده يقول لنا : أريحوا أنفسكم بالتوحيد ، وقد أوضح الحق سبحانه وتعالى هذه الراحة في قوله : { ضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحمد للَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } [الزمر : 29] .

يعني رجل خُلِّص لسيد واحد ، ورجل أسياده كثيرون ، وهم شركاء مختلفون ، فإنْ أرضى هذا أغضب ذاك ، وإن احتاجه أحدهما تنازعه الآخر . فهو دائماً مُتْعبٌ مُثقَلٌ ، أما المملوك لسيد واحد فلا يخفي ما فيه من راحة .

ففي أمره سبحانه بتوحيده راحةٌ لنا ، وكأنه سبحانه يقول : لكم وِجْهة واحدة تكفيكم كُلَّ الجهات ، وتضمن لكم أن الرضا واحد ، وأن البُغْض واحد .

إذن : فطلبُه سبحانه راحةٌ لنا؛ لذلك قبل أن يطلبها مِنّا شهد بها لذاته تعالى ، فقال : { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ }

[آل عمران : 18] .

فلو قال معترض : كيف يشهد لذاته؟ نقول : نعم ، يشهد لذاته سبحانه؛ لأنه لا أحدَ غيره . .

لا أحد معه ، فشهادة الذات للذات هنا شيء طبيعي . . وكأنه سبحانه يقول : لا أحدَ غيري ، وإنْ كان هناك إله غيري فَلْيُرِني نفسه ، وليُفصِح عن وجوده .

أنا الله خلقت الكون وأخذته وفعلتُ كذا وكذا ، فإما أنْ أكون صادقاً فيما قلت وتنتهي المسألة ، وإما أنْ أكون غير صادق ، وهناك إله آخر هو الذي خلق . . فأين هو؟ لماذا لا يعارضني؟ وهذا لم يحدث ولم ينازع الله في خَلْقه أحد ، وحين تأتي الدعوى بلا معاند ولا معارض تَسْلَم لصاحبها .

فإنْ قال قائل : لعل الآلهة الأخرى لم تَدْرِ بأن أحداً قد أخذ منهم الألوهية ، فإنْ كان الأمر كذلك فهم لا يصلُحون للألوهية لعدم درايتهم ، وإنْ دَرَوْا ولم يعارضوا فهُمْ جُبناء لا يستحقون هذه المكانة .

وبشهادته سبحانه لذاته بأنه لا إله إلا هو أقبل على خَلْق الخَلْق؛ لأنه مادام يعرف أنه لا إله غيره ، فإذا قال : « كن » فهو واثق أنه سيكون .

ولذلك ساعة يحكم الله حُكْماً غيبياً يقول : أنا حكمت هذا الحكم مع أنكم مختارون في أنْ تفعلوا أو لا تفعلوا ، ولكني حكمتُ بأنكم لا تفعلون ، وما دُمْتُ حكمت بأنكم لا تفعلون ولكم قدرة أن تفعلوا ، ولكن ما فعلتم ، فهذا دليل على أنه لا إله غيري يُعينكم على أنْ تفعلوا .

ثم شهدتْ الملائكة على شهادة الذات ، وشهد أولو العلم شهادةَ الاستدلال ، كما قال تعالى : { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم . . } [آل عمران : 18] .

لنا هنا وَقْفة مع قوله تعالى :

{ إلهين اثنين . . . } [النحل : 51] .

فعندنا العدد ، وعندنا المعدود ، فإذا قُلْنا مثلاً : قابلت ثلاثة رجال ، فكلمة « ثلاثة » دلتْ على العدد ، وكلمة « رجال » دلَّتْ على جنس المعدود ، وهكذا في جميع الأعداد ما عدا المفرد والمثنى ، فلفظ كل منهما يدل على العدد والمعدود معاً .

كما لو قلت : إله . فقد دلَّتْ على الوحدة ، ودلتْ على الجنس ، وكذلك « إلهين » دلَّتْ على المثنى وعلى جنس المعدود .

ولذلك كان يكفي في الآية الكريمة أن يقول تعالى : لا تتخذوا إلهين؛ لأنها دلَّتْ على العدد وعلى المعدود معاً ، ولكن الحق تبارك وتعالى أراد هذا تأكيداً للأمر العقديّ لأهميته .

ومن أساليب العرب إذا أحبُّوا تأكيد الكلام أن يأتوا بعده بالمراد . فيقولون : فلان قسيم وسيم ، وفلان حَسن بَسَن ، وفلان شيطان ليطان ، يريدون تأكيد الصفة . . وكذلك في قوله : { إلهين } فقط تثبت الألوهية ، ولتأكيد هذه القضية العقدية لأنها أهمّ القضايا بالنسبة للإنسان ، وهي قضية القمة ، فقال تعالى :

{ إلهين اثنين } [النحل : 51] .

وكذلك أيضاً في قوله :

{ إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ } [النحل : 51] .

فجاء بقوله تعالى { وَاحِدٌ } لتأكيد وحدانية الله تعالى .

وفي الآية مَلْحظ آخر يجب تأمّله ، وهو أن الكلام هنا في حالة الغيبة :

{ إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ } [النحل : 51] .

فكان القياس في اللغة هنا أن يقول : « فإياه فارهبون » .

ولكن وراء تحويل السياق من الغيبة إلى المجابهة للمتكلم قال :

{ فَإِيَّايَ فارهبون } [النحل : 51] .

وهذا وراءه حكمة ، ومَلْحظ بلاغي ، فبعد أنْ أكَّد الألوهية بقوله تعالى :

{ إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ } [النحل : 51] .

صَحَّ أنْ يُجابِهَهم بذاته؛ لأن المسألة ما دامتْ مسألة رَهْبة ، فالرهبة من المتكلم خير من الرهبة من الغائب . . وكأن السياق يقول : ها هو سبحانه أمامك ، وهذا أَدْعى للرهْبة .

وكذلك في فاتحة الكتاب نقرأ : { الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يَوْمِ الدين } [الفاتحة : 2-4] .

ولم يَقُلْ : إياه نعبد ، متابعة للغيبة ، بل تحوَّل إلى ضمير الخطاب فقال : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } [الفاتحة : 5] .

ذلك لأن العبد بعد أن استحضر صفة الجلال والعظمة أصبح أَهْلاً للمواجهة والخطاب المباشر مع الله عز وجل .

فقوله :

{ فَإِيَّايَ فارهبون } [النحل : 51] .

بعد ما استحضر العبد عظمة ربه ، وأقرّ له بالوحدانية وعَلِم أنه إله واحد ، وليس إلهين . واحد يقول : نُعذّبه . والآخر يقول : لا .

ليس الأمر كذلك ، بل إله واحد بيده أنْ يُعذّب ، وبيده أنْ يعفو ، فناسب السياق هنا أنْ يُواجههم فيقول :

{ فَإِيَّايَ فارهبون } [النحل : 51] .

ثم يقول تعالى : { وَلَهُ مَا فِي السماوات والأرض . . . } .

وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52)

عندنا هنا اللام . . وقد تكون (اللام) للمِلْك كما في الآية . وكما في : المال لزيد ، وقد تكون للتخصيص إذا دخلتْ اللام على ما لا يملك ، كما نقول : اللجام للفرس ، والمفتاح للباب ، فالفرس لا يملك اللجام ، والباب لا يملك المفتاح . فهذه للتخصيص .

والحق سبحانه يقول هنا :

{ وَلَهُ مَا فِي السماوات والأرض . . . } [النحل : 52] .

وفي موضع آخر يقول : { لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض } [يونس : 68] .

وكذلك في : { يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السماوات والأرض } [الحشر : 24] .

ومرة يقول : { يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض } [الجمعة : 1] .

حينما تكون اللام للملكية قد يكون المملوك مختلفاً ففي قوله :

{ مَا فِي السماوات والأرض . . . } [النحل : 52] .

يعني : القدر المشترك الموجود فيهما . أي : الأشياء الموجودة في السماء وفي الأرض .

أما في قوله : { مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض } [يونس : 68] .

أي : الأشياء الموجودة في السماء وليست في الأرض ، والأشياء الموجودة في الأرض وليست في السماء ، أي : المخصَّص للسماء والمخصَّص للأرض ، وهذا ما يُسمُّونه استيعاب الملكية .

وما دام سبحانه له ما في السموات وما في الأرض ، فليس لأحد غيره مِلْكية مستقلة ، وما دام ليس لأحد غيره ملكية مستقلة . إذن : فليس له ذاتية وجود؛ لأن وجوده الأول موهوبٌ له ، وما به قيام وجوده موهوب له . . ولذلك يقولون : مَنْ أراد أن يعاند في الألوهية يجب أن تكون له ذاتية وجود . . وليست هذه إلا لله تعالى .

ونضرب لذلك مثلاً بالولد الصغير الذي يعاند أباه ، وهو ما يزال عَالةً عليه . فيقول له : انتظر إلى أن تكبر وتستقلّ بأمرك . . فإذا ما شَبَّ الولد وبلغ وبدأ في الكَسْب أمكن له الاعتماد على نفسه ، والاستغناء عن أبيه .

لذلك نقول لمن يعاند في الألوهية : أنت لا تقدر؛ لأن وجودك هِبَة ، وقيام وجودك هِبَة ، كل شيء يمكن أنْ يُنزع منك .

ولذلك ، فالحق سبحانه وتعالى يُنبّهنا إلى هذه المسألة في قوله تعالى : { كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى } [العلق : 6-7] .

فهذا الذي رأى نفسه استغنى عن غيره من وجهة نظره إنما هل استغنى حقاً؟ . . لا . لم يستغن ، بدليل أنه لا يستطيع أنْ يحتفظَ بما يملك .

قوله تعالى :

{ وَلَهُ مَا فِي السماوات والأرض . . . } [النحل : 52] .

الذي له ما في السموات والأرض ، وبه قيام وجوده بقيوميته ، فهو سبحانه يُطمئِنك ويقول لك

: أنا قيُّوم يعني : قائم على أمرك . . ليس قائماً فقط . . بل قيُّوم بالمبالغة في الفِعْل ، وما دام هو سبحانه القائم على أمرك إيجاداً من عَدَم ، وإمداداً من عُدم . إذن : يجب أن تكون طاعتُك له سبحانه لا لغيره .

وفي الأمثال يقولون « اللي ياكل لقمتي يسمع كلمتي » فإذا كنتَ أنت عالة في الوجود .

. وجودك من الله ، وإمدادك من الله ، وإبقاء مُقوِّمات حياتك من الله؛ لذلك قال تعالى :

{ وَلَهُ الدين وَاصِباً } [النحل : 52] .

أي : هذه نتيجة؛ لأن لله ما في السموات والأرض ، فَلَه الدين واصباً ، أي : له الطاعة والخضوع دائماً مستمراً ، ومُلْك الله دائم ، وهو سبحانه لا يُسلم مُلْكَه لأحد ، ولا تزال يد الله في مُلْكه . . وما دام الأمر هكذا فالحق سبحانه يسألهم :

{ أَفَغَيْرَ الله تَتَّقُونَ } [النحل : 52] .

والهمزة هنا استفهام للإنكار والتوبيخ ، فلا يجوز أنْ تتقيَ غير الله ، لأنه حُمْق لا يليق بك ، وقد علمتَ أن لله ما في السموات وما في الأرض ، وله الطاعة الدائمة والانقياد الدائم ، وبه سبحانه قامت السموات والأرض ومنه سبحانه الإيجاد من عَدَم والإمداد من عُدم .

إذن : فمن الحُمْق أنْ تتقي غيره ، وهو أَوْلى بالتقوى ، فإنِ اتقيتُم غيره فذلك حُمْق في التصرّف يؤدّي إلى العطَب والهلاك ، إنِ اغتررتم بأن الله تعالى أعطاكم نِعَماً لا تُعَدُّ ولا تُحصَى .

ومن نعم الله أن يضمن لعباده سلامة الملكَات وما حولها ، فلو سَلِم العقل مثلاً سَلِمت وصَحَّتْ الأمور التي تتعلق به ، فيصحّ النظام ، وتصحّ التصَرُّفات ، ويصحّ الاقتصاد . . وهذه نعمة . فالنعمة تكون للقلب وتكون للقالب ، فللقالب المتعة المادية ، وللقلب المتعة المعنوية . . وأهم المتَع المعنوية التي تريح القالب أن يكون للإنسان دينٌ يُوجّهه . . أن يكون له ربٌّ قادر ، لا يُعجِزه شيء ، فإنْ ضاقتْ به الدنيا ، وضاقتْ به الأسباب فإن له رباً يَلجأ إليه فيُسعفه ويكيفه ، وهذه هي الراحة الحقيقة .

وقد ضمن لنا الحق سبحانه وتعالى سلامة القالب بما أودع في الكون من مُقوِّمات الحياة في قوله :

{ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا . . } [فصلت : 10] .

أي : اطمئنوا إلى هذا الأمر ، فالله سبحانه لا يريد منكم إلا أنْ تُعمِلوا عقولكم المخلوقة لله لِتُفكِّروا في المادة المخلوقة لله ، وتنفعلوا لها بالطاقة المخلوقة لله في جوارحكم ، وسوف تجدون كلَّ شيء مُيسَّراً لكم . . فالله تعالى ما أراد منكم أنْ تُوجِدوا رزقاً ، وإنما أراد أن تُعمِلوا العقل ، وتتفاعلوا مع مُعْطيات الكون .

ولكن كيف يتفاعل الإنسان في الحياة؟

هناك أشياء في الوجود خلقها الله سبحانه برحمته وفضله ، فهي تفعل لك وإنْ لم تطلب منها أن

تفعل ، فأنت لا تطلب من الشمس أنْ تطلُع عليك ، ولا من الهواء أنْ يَهُبَّ عليك . . الخ .
وهناك أشياء أخرى تفعل لك إنْ طلبتَ منها ، وتفاعلتَ معها ، كالأرض إنْ فعلتَ بيدك فحرثْتَ وزرعْتَ ورويْتَ تعطيك ما تريد .
وفي هذا المجال من التفاعل يتفاضل الناس ، لا يتفاضلون فيما يُفعل لهم دون انفعال منهم . . لا بل ارتقاء الناس وتفاضُلهم يكون بالأشياء التي تنفعل لهم إنْ فعلوا . . أما الأخرى فتَفعل لكل الناس ، فالشمس والهواء والمياه للجميع ، للمؤمن وللكافر في أيّ مكان .

إذن : يترقَّى الإنسان بالأشياء التي خلقها الله له ، فإذا انفعل معها انفعلتْ له ، وإذا تكاسل وتخاذل لم تُعْطِه شيئاً ، ولا يستفيد منها بشيء . . ولذلك قد يقول قائل : الكافر عنده كذا وكذا ، ويملك كذا وكذا ، وهو كافر . . ويتعجّب من القدر الذي أَعطَى هذا ، وحرَم المؤمن الموحد منه .
نقول له : نعم أخذ ما أخذ؛ لأنه يشترك معك فيما يُفعل لك وإنْ لم تطلب ، ويزيد عليك أنه يعمل ويكدّ وينفعل مع الكون وما أعطاه الله من مُقوِّمات وطاقة ، فتنفعل معه وتعطيه ، في حين أنك قاعد لا هِمَّة لك .
وكذلك قد يتسامى الارتقاء في الإنسان ، فيجعل الشيء الذي يُفعل له دون أن يطلب منه أي : الشيء المسخَّر له يجعله ينفعل له ، كما نرى فيما توصَّل إليه العلم من استخدام الطاقة الشمسية مثلاً في تسخين المياه . . هذه الطاقة مُسخَّرة لنا دون جَهْد مِنّا ، ولكن ترقِّي الإنسان وطموحه أوصله إلى هذا الارتقاء . . وكُلُّ هذه نِعَم من الله؛ ولذلك قال تعالى : { وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ . . . } .

وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53)

أمدَّنا الله سبحانه بهذه النعم رحمة منه وفضلاً . . نِعَم تترى لا تُعَد ولا تُحْصَى ، ولكن لرتابة النعمة وحلولها في وقتَها يتعوّدها الإنسان ، ثم يذهل عن المنعم سبحانه .
ونستطيع أن نضرب لذلك مثلاً بالولد الذي تعطيه مصروفه مثلاً كل أول شهر ، تجده لا يحرص على أنْ يلقاك بعد ذلك إلا كل أول شهر ، إنما إذا عوَّدته أن يأخذ مصروفه كل يوم تراه في الصباح يحوم حولك ، ويُظهِر لك نفسه ليُذكِّرك بالمعلوم .
إذن : رتابة النعمة قد تُذهِلك عن المُنعِم ، فلا تتذكره إلا حين الحاجة إليه؛ لذا يُنبِّهنا الحق تبارك وتعالى : إذا أعطيتُ لكم نعمة فإياكم أنْ تغتروا بها . . إياكم أن تُذهِلكم النعمة عن المنعم؛ لأنكم سوف تحكمون على أنفسكم أنه لا مُنعِم غيري ، بدليل أنني إذا سلبْتُ النعمة منكم فلن تجدوا غيري تلجأون إليه فستقولون : يا ربّ يا ربّ .

فأنت ستكون شاهداً على نفسك ، لن تكذب عليها ، فَلِمَنْ تتوجّه إذا أصابك فقر؟ ولمن تتوجَّه إذا أصابك مرض؟ لن تتوجّه إلا إلى الله تقول : يا رب .

{ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ } [النحل : 53] .

فترة الضُّر التي تمرُّ بالإنسان هي التي تلفته إلى الله ، والحاجة هي التي تُلجئه إلى المصدر الحقيقي للإمداد ، فإذا كانت النعمة قد تُذهِله وتُنسِيه ، فالضر يُذكِّره بربّه الذي يملك وحده كَشْف الضر عنه .

ولذلك ، فالناس أصحاب اليقين في الله تعالى ساعةَ أنْ يصيبهم ضُرٌّ ، يقول : ذكَّرتني بك يا ربّ ، يأخذها على أنها نعمة . . كأنها نجدة نجدتْه مما هو فيه من غفلة . . يا ربّ أنت ذكّرتني بك . . أنا كنتُ ناسياً ذاهلاً . . كنت في غفلة .

وساعةَ أنْ يعودَ ويشعر بالتقصير يرفع الله عنه البلاء؛ وذلك يُرفع القضاء عن العبد إنْ رضي به وعلم أن فيه خيراً له .

ولذلك ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يُنبّهنا لهذه الأحداث التي تصيبنا ، فإياكم أن تستقبلوها بالجزع والفزع . . ولكن استقبلوها بالإيمان والرضا ، واعلموا أن ربكم يغار عليكم ، وهو بهذه الأحداث يلفتكم إليه قهراً عنكم؛ لكي تعودوا إليه وتلجأوا إليه . . لكي تقولوا يا رب .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رب العزة في الحديث القدسي : « مِنْ عبادي مِنْ أحبهم فأنا أبتليهم ليقولوا يا رب . . . » .

ويقول تعالى في الآية الأخرى : { فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ . . . } [الأنعام : 43] .

أي : أنه سبحانه يريد منا إذا نزل بنا بلاء وبأس أنْ نتضرّع إليه سبحانه؛ لأن الضراعة إلى الله لَفْتة وتذكير به . . والنبي صلى الله عليه وسلم يُرشِدنا إلى هذه الحقيقة ، فالمصاب الحقيقي ليس مَنْ نزل به ضُرٌّ أو أصابه بلاء . . لا . . بل المصاب الحقيقي مَنْ حُرِم الثواب .

إذن : نقول لمن عنده نعمة : احذر أن تُنسيك النعمة وتُذهلك عن المنعم ، أما صاحب البلاء والضر ، فسوف يردُّك هذا البلاء ، ويُذكّرك هذا الضرّ بالله تعالى ، ولن تجدَ غيره تلجأ إليه .

فقوله تعالى :

{ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ } [النحل : 53] .

أي : تضْرَعون بصراخ وصوت عالٍ كخُوار البقر ، لا يُسرّهِ أحد ولا يستحي منه أنْ يُفتضح أمره أمام مَنْ تكبّر عليهم . . ويا ليتكم حين ينتابكم مثل ذلك تعتبرون به وتتعِظُون ، وتقولون في لحظة من اللحظات : سوف تلجئنا الأحداث إلى ربنا . . بل بالعكس حينما نكشف عنكم الضر سوف تعودون إلى ما كنتم عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

{ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر . . . . } .

ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54)

فمن الناس مَنْ إذا أصابه الله بضُرٍّ أو نزل به بأْسٌ تضرّع وصرخ ولجأ إلى الله ودعاه ، وربما سالتْ دموعه ، وأخذ يُصلّي ويقول : يا فلان ادْعُ لي الله وكذا وكذا . . فإذا ما كشف الله عنه ضُرَّه عاود الكَرّة من جديد؛ لذلك يقول تعالى في آية أخرى : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ . . . } [يونس : 12] .

ومن لُطْف الأداء القرآني هنا أن يقول :

{ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } [النحل : 54] .

أي : جماعة منكم وليس كلكم ، أما الباقي فيمكن أنْ يثبتُوا على الحق ، ويعتبروا بما نزل بهم فلا يعودون . . فالناس إذن مختلفون في هذه القضية : فواحد يتضرّع ويلتفت إلى الله من ضُرٍّ واحد أصابه ، وآخر يلتفت إلى الله من ضُرّيْن ، وهكذا .

وقد وجدنا في الأحداث التي مرَّتْ ببلادنا على أكابر القوم أحداثاً عظاماً تلفتهم إلى الله ، فرأينا مَنْ لا يعرف طريق المسجد يُصلّي ، ومَنْ لا يفكر في حج بيت الله ، ويسرع إليه ويطوف به ويبكى هناك عند الملتزم ، وما ألجأهم إلى الله ولفتهم إليه سبحانه إلا ما مرَّت بهم من أحداث .

أليست هذه الأحداث ، وهذه الأزمات والمصائب خيراً في حقهم؟ . . بلى إنها خير .

وأيضاً قد يُصاب الإنسان بمرض يُلِمّ به ، وربما يطول عليه ، فيذهب إلى الأطباء ، ويدعو الله ويلجأ إليه ، ويطلب من الناس الدعاء له بالشفاء ، ويعمل كذا وكذا . . فإذا ما كشف الله عنه المرض وأَذِن له بالشفاء قال : أنا اخترتُ الطبيب الحاذق ، الطبيب النافع ، وعملتُ وعملتُ . سبحان الله!

لماذا لا تترك الأمر لله ، وتُعفِي نفسك من هذه العملية؟

وفي قوله تعالى :

{ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } [النحل : 54] .

صمام أَمْن اجتماعي في الكون ، يقول للناس : إياكم أن تأخذوا على غيركم حين تُقدمون إليهم جميلاً فيُنكرونه . . إياكم أنْ تكُفوا عن عمل الجميل على غيركم؛ لأن هذا الإنكار للجميل قد فعلوه مع أعلى منكم ، فعلوه مع الله سبحانه ، فلا يُزهدك إنكارهم للجميل في فِعْله ، بل تمسَّك به لتكون من أهله .

والحق تبارك وتعالى يضرب لنا مثلاً لإنكار الجميل في قصة سيدنا موسى عليه السلام : { ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كالذين آذَوْاْ موسى فَبرَّأَهُ الله مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ الله وَجِيهاً } [الأحزاب : 69] .

فقد اتهمه قومه وقعدوا يقولون فيه كذباً وبُهْتاناً ، فقال موسى : يا ربّ أسألك ألاَّ يُقَال فيَّ ما ليس فيَّ . . فقال تعالى لموسى : أنا لم افعل ذلك لنفسي ، فكيف أفعلها لك؟

ولماذا لم يفعلها الحق سبحانه لنفسه؟ . . لم يفعلها الحق سبحانه لنفسه ليعطينا نحن أُسْوة في تحمُّل هذا الإنكار ، فقد خلق الله الخَلْق ورزقهم ووَسِعهم ، ومع ذلك كفروا به ، ومع ذلك ما يزال الحق سبحانه خالقاً رازقاً واسعاً لهم .

إذن : في الآية تقنين وأمان للمجتمع أن يتفشى فيه مرض الزُّهْد في عمل الخير .

وقَوْل الحق سبحانه :

{ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } [النحل : 54] .

تشمل الآية مَنْ أنكر الجميل من المؤمنين ، ومن الكافرين .

ولكن لماذا يشركون؟

يقول الحق تبارك وتعالى : { لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ . . . } .

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55)

أي : مُسْتعظمين كقارون الذي قال : { إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي } [القصص : 78] .

أخذتُ هذا بَجْهدي وعملي . . ومثله مَنْ تقول له : الحمد لله الذي وفَّقك في الامتحان ، فيقول : أنا كنت مُجِداً . . ذاكرتُ وسهرتُ . . نعم أنت ذاكرتَ ، وأيضاً غيرك ذاكر وجَدَّ واجتهد ، ولكن أصابه مرض ليلة الامتحان فأقعده ، وربما كنت مثله .

فهذه نغمة مَنْ أَنكر الفضل ، وتكبَّر على صاحب النعمة سبحانه .

وقوله :

{ لِيَكْفُرُواْ . . . } [النحل : 55] .

هل فعلوا ذلك ليكفروا ، فتكون اللام للتعليل؟ لا بل قالوا : اللام هنا لام العاقبة . . ومعناها أنك قد تفعل شيئاً لا لشيء ، ولكن الشيء يحدث هكذا ، وليس في بالك أنت . . إنما حصل هكذا .

ومثال هذه اللام في قوله تعالى في قصة موسى وفرعون : { فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً . . } [القصص : 8] .

ففرعون حينما أخذ موسى من البحر وتبنَّاه وربَّاه ، هل كان يتبنَّاه ليكون له عدواً؟ لا . . إنما هكذا كانت النهاية ، لكي يثبت الحق سبحانه أنهم كانوا مُغفَّلين ، وأن الله حالَ بين قلوبهم وبين ما يريدون . . إذن : المسألة ليستْ مرادة . . فقد أخذْته وربَّيته في الوقت الذي تقتل فيه الأطفال . . ألم يخطر ببالك أن أحداً خاف عليه ، فألقاه في البحر؟!

لذا يقول تعالى : { وَاعْلَمُواْ أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ . . } [الأنفال : 24] .

وكذلك أم موسى : { وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم . . . } [القصص : 7] .

كيف يقبل هذا الكلام؟ وأنَّ للأم أن ترمي ولدها في البحر إنْ خافت عليه؟! كيف يتأتَّى ذلك؟! ولكن حالَ الله بين أم موسى وبين قلبها ، فذهب الخوف عليه ، وذهب الحنان ، وذهبت الرأفة ، ولم تكذّب الأمر الموجّه إليها ، واعتقدت أن نجاة وليدها في هذا فألقتْه .

وقوله : { فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 55] .

أي : اكفروا بما آتيناكم من النعم ، وبما كشفنا عنكم من الضر ، وتمتعوا في الدنيا؛ لأنني لم اجعل الدنيا دار جزاء ، إنما الجزاء في الآخرة .

وكلمة { تَمَتَّعُواْ } هنا تدل على أن الله تعالى قد يُوالي نعمه حتى على مَنْ يكفر بنعمته ، وإلاَّ فلو حَجَب عنهم نِعَمه فلن يكون هناك تمتُّع .

ويقول تعالى :

{ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 55] .

أي : سوف تروْنَ نتيجة أعمالكم ، ففيها تهديد ووعيد .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ . . . } .

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56)

أي : الذين يكفرون بالله ويتخذون الأصنام والشركاء ، يجعلون لها نصيباً .

وقول الحق سبحانه :

{ لاَ يَعْلَمُونَ . . } [النحل : 56] .

ما العلم؟

العلم أن تعرفَ قضية ، هذه القضية صِدْق أي : مطابقة للواقع وتستطيع أن تُدلِّل عليها ، فإذا اختلّ واحد منها لم تكُنْ علماً . . وهؤلاء حينما جعلوا للأصنام نصيباً ، فقد أَتَوْا بأشياء لا وجودَ لها في الواقع ولا في العلم ، وليست حقائق . . وهل للأصنام وجود؟ وهل عليها دليل؟ قال تعالى : { إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ الله بِهَا مِن سُلْطَانٍ . . . } [النجم : 23] .

هذه الأصنام ليست لها وجود في الحقيقة ، وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه : { وَجَعَلُواْ للَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً فَقَالُواْ هذا للَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إلى الله وَمَا كَانَ للَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إلى شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ } [الأنعام : 136] .

حتى لمَّا جعلوا للأصنام نصيباً جعلوه مما رزقهم الله ، أَلاَ جعلتم نصيب الأصنام مما تعطيكم الأصنام؟ ونصيب الله مما رزقكم الله؟ فهذا اعتراف منكم بعجز أصنامكم ، وأنكم أخذتم رزق الله

وجعلتموه لأصنامكم .

وهذا دليل على أن الأصنام لا تعطيكم شيئاً ، وشهادة منكم عليهم . . وهل درت الأصنام بهذا؟

إذن :

{ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ . . . } [النحل : 56] .

أي : للأصنام؛ لأنها لا وجودَ لها في الحقيقة ، وهم يأخذون ما رزقناهم ، ويجعلونه لأصنامهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

{ تالله لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ } [النحل : 56] .

التاء هنا في { تالله } للقسم أي : والله لَتُسْأَلُنَّ عما افتريتم من أمر الأصنام . والافتراء : هو الكذب المتعمد .

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57)

ساعة أنْ تسمع كلمة { سُبْحَانَهُ } فاعلم أنها تنزيهٌ لله تعالى عَمّا لا يليق ، فهي هنا تنزيهٌ لله سبحانه وتعالى عما سبق من نسبة البنات له . . تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً . . أي : تنزيهاً لله عن أن يكونَ له بنات .

فهل يمكن أن يكون له أولاد ذكور؟

إنهم جعلوا لله البنات ، وجعلوا لأنفسهم الذكور ، وهذه قسمة قال عنها القرآن الكريم : { أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى } [النجم : 21-22] .

أي : جائرة .

لم تجعلوها عادلة ، يعني لي ولد ولكم ولد ، ولي بنت ولكم بنت ، إنما تجعلون لله مَا تكرهون وهي البنات لله ، وتجعلون لكم ما تحبون . . لذلك كان في جَعْلهم لله البنات عيبان :

الأول : أنهم نَسبُوا لله الولد ولو كان ذكراً فهو افتراء باطل يتنزه الله عنه .

الثاني : أنهم اختاروا أخسَّ الأنواع في نظرهم . . ولا يستطيع أحد أن يقول : إن البنات أخسُّ الأنواع . . لماذا؟

لأن بالبنات يكون بقاء النوع؛ ولذلك قال العباس : لو سمع الله ما قال الناس في الناس لما كان الناس . . أي : لو استجاب الله لرغبة الناس في أنهم لا يريدون البنات فاستجاب ولم يُعْطهم . . ماذا سيحدث؟ سينقطع النسل ، فهذا مطْلَب غبيّ ، فالبنت هي التي تَلِد الولد ، وبها بقاء النوع واستمرار النسل .

وقوله تعالى :

{ سُبْحَانَهُ . . . } [النحل : 57] .

أي : تنزيهاً له أن يكون له ولد ، وتنزيهاً له سبحانه أن يكون له أخسَّ النوعين في نظرهم وعرفهم ، وقد قال عنهم القرآن في الآية التالية : { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يتوارى مِنَ القوم مِن سواء مَا بُشِّرَ بِهِ . . } [النحل : 58-59] .

ولذلك فالحق تبارك وتعالى حينما يُحدِّثنا عن الإنجاب يقول : { لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً . . } [الشورى : 49-50] .

أول ما بدأ الحق سبحانه بدأ بالإناث . . ثم أعطانا هذه الصورة من الخَلْق : إناث ، ذكور ، ذكور وإناث ، عقيم . . إذن : هِبَات الله تعالى لها أربعة أنواع ، ومن هنا كان العُقْم أيضاً هبةً من الله لحكمة أرادها سبحانه . . لكن الناس لا تأخذ العُقْم على أنه هِبَة . . لكن تأخذه على أنه نِقْمة وغضب .

لماذا؟ لماذا تأخذه على أنه نِقْمة وبلاء؟ فربما وهبك الولد ، وجاء عاقّاً ، كالولد الذي جاء فتنة لأبويْه ، يدعوهما إلى الكفر .

ولو أن صاحب العقم رضي بما قسمه الله له من هبة العقم واعتبره هبة ورضي به لرأى كل ولد في المجتمع ولده من غير تعب في حَمْله وولادته وتربيته . فيرى جميع الأولاد من حوله أولاده ويعطف الله قلوبهم إليه كأنه والدهم . . وكأن الحق تبارك وتعالى يقول له : ما دُمْتَ رضيتَ بهبة الله لك في العقم لأجعلنَّ كل ولدٍ ولداً لك .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

{ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ } [النحل : 57] .

أي : من الذّكْران؛ لأن الولد عِزْوة لأبيه ينفعه في الحرب والقتال وينفعه في المكاثرة . . الخ إنما البنت تكون عالةً عليه؛ ولذلك قال تعالى بعد هذا : { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ . . . } .

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58)

نعرف أن البشارة تكون بخير ، فكان يجب عليهم أن يستقبلوها استقبالَ البشارة ، ولكنهم استقبلوها استقبال الناقمين الكارهين لما بُشّروا به ، فتجد وجه الواحد منهم .

{ مُسْوَدّاً . . . } [النحل : 58] .

ومعنى اسوداد الوجه انقباضه من الغيظ؛ لذلك يقول تعالى :

{ وَهُوَ كَظِيمٌ . . . } [النحل : 58] .

الكظم هو كَتْم الشيء .

ولذلك يقول تعالى في آية أخرى : { والكاظمين الغيظ . . } [آل عمران : 134] .

وهو مأخوذ من كَظْم القِرْبة حين تمتليء بالماء ، ثم يكظمها أي : يربطها ، فتراها ممتلئة كأنها

ستنفجر . . هكذا الغضبان تنتفخ عروقه ، ويتوارد الدم في وجهه ، ويحدث له احتقان ، فهو مكظوم ممنوع أنْ ينفجر .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً حاله : { يتوارى مِنَ . . } .

يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59)

قوله تعالى :

{ يتوارى مِنَ القوم . . } [النحل : 59] .

أي : يتخفَّى منهم مخافَة أنْ يُقال : أنجب بنتاً .

{ مِن سواء مَا بُشِّرَ بِهِ . . } [النحل : 59] .

نلاحظ إعادة البشارة في هذه الآية أيضاً ، وكأنه سبحانه وتعالى يُحَنِّن قلبه عليها ، ويدعوه إلى الرِّفق بها .

فهو متردد لا يدري ماذا يفعل؛ لذلك يقول تعالى :

{ أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التراب . . } [النحل : 59] .

أي : ماذا يفعل فيما وُلِد له . أيحتفظ به على هُونٍ أي : هوان ومذلة أم يدسُّه في التراب أي : يدفنها فيه حية؟

{ أَلاَ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ } [النحل : 59] .

أي : ساء ما يحكمون في الحالتين . حالة الإمساك على هُون ومذلَّة ، أو حالة دَسّها في التراب ، فكلاهما إساءة . وكان بعض هؤلاء إذا وُلدتْ له بنت كرهها ، فإن أمسكها أمسكها على حال كونها ذليلةً عنده ، مُحتقرة مُهَانة ، وهي مسكينة لا ذنبَ لها .

ولذلك ، فإن المرأة العربية التي عاصرتْ هذه الأحداث فطِنَتْ إلى ما لم نعرفه نحن إلا قريباً ، حيث اكتشف العالم الحديث أن أمر إنجاب الولد أو البنت راجع إلى الرجل وليس إلى المرأة . . وكان أبو حمزة كثيراً ما يترك زوجته ويغضب منها ، لأنها لا تلد إلا البنات . . فماذا قالت هذه المرأة العربية التي هجرها زوجها؟ قالت :

مَا لأبي حمزةَ لاَ يأتِينَا ... غَضْبانَ ألاَّ نَلِدَ البَنِينا

تَاللهِ مَا ذَلكَ فِي أَيْدينا ... فَنَحنُ كَالأَرْضِ لغارسينا

نُعطِي لَهُم مِثْل الذِي أُعْطِينَا ... والحق سبحانه وتعالى حينما يريد توازناً في الكون يصنع هذا التوازن من خلال مقتضيات النفس البشرية ، ومن مقتضياتها أن يكون للإنسان جاه ، وأن يكون له عِزّ ، لكن الإنسان يخطيء في تكوين هذا الجاه والعِزّ ، فيظن أنه قادر على صنع ما يريد بأسبابه وحدها .

إنما لو علم أن تكوين الجاه والعِزّ بشيء فوق أسبابه هو ، بشيء مخلوق لله تعالى ، بقدر مخلوق لله تعالى ، لو علم هذه الحقيقة لجاء المسألة من بابها .

ذلك لأن العزة ليست بما تُنجِب . . العزة هنا لله وللرسول وللمؤمنين ، اعتزّ هنا بُعصْبة الإيمان ، اعتز بأنك في بيئة مؤمنة متكافلة ، إذا أصابك فيها ضَيْم فزِع إليك الجميع .

ولا تعتزّ بالأنسال والأنجال ، فقد يأتي الولد عاقّاً لا يُسعِف أبويْه في شدة ، ولا يعينهما في حاجة؛ ذلك لأنك لجأتَ إلى عَصَبية الدم وعَصَبيَّة الدم قد تتخلّف ، أما عَصبِيّة العقيدة وعَصَبية الإيمان والدين فلا .

ولنأخذ على ذلك مثالاً . . ما حدث بين الأنصار والمهاجرين من تكافل وتعاون فاق كُل ما يتصوره البشر ، ولم يكُنْ بينهم سوى رابطة العقيدة وعصبية الإيمان . . ماذا حدث بين هؤلاء الأفذاذ؟

وجدنا أن العصبية الإيمانية جعلت الرجل يُضحِّي بأنفَس شيء يضِنُّ به على الغير . . نتصور في هذا الموقف أن يعود الأنصار بفضل ما عندهم من نعم على إخوانهم المهاجرين ، فَمنْ كانت عنده ركوبة أو منزلة مثلاً يقول لأخيه المهاجر : تفضل اركب هذه الركوبة ، أو اجلس في هذا المنزل .

. هذا كله أمر طبيعي .

أما نعيم المرأة ، فقد طُبِع في النفس البشرية أن الإنسان لا يحب أن تتعدَّى نعمته فيها إلى غيره .

. لكن انظر إلى الإيمان ، ماذا صنع بالنفوس؟ . . فقد كان الأنصاري يقول للمهاجر : انظر لزوجاتي ، أيّهن أعجبتْك أُطلِّقها لتتزوجها أنت ، وما حمله على ذلك ليس عصبية الدم أو عَصبيّة الجنس ، بل عَصبيّة اليقين والإيمان .

ولذلك تنتفي جميع العصبيات في قصة نوح عليه السلام وولده الكافر ، حينما ناداه نوح عليه السلام : { يابني اركب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الكافرين * قَالَ سآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المآء قَالَ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله إِلاَّ مَن رَّحِمَ . . } [هود : 42-43] .

ويتمسّك نوح بولده ، ويحرص كل الحرص على نجاته فيقول : { رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق . . } [هود : 45] .

فيأتي فَصْل الخطاب في هذه القضية : { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين } [هود : 46] .

إذن : هذا الولد ليس من أهلك؛ لأن البُنُوة هنا بُنُوة العمل ، لا بُنُوة الدم والنَّسَب .

صحيح أن الإنسان يحب العزة ويطلبها لنفسه ، ولكن يجب أن تنظر كيف تكون العزة الحقيقية؟ وما أسبابها؟

خُذْ العزة بالله وبالرسول وبالبيئة الإيمانية ، يصبح كل الأولاد أولادك؛ لأنهم معك في يقينك بالله وإيمانك به سبحانه . . أما أن تعتز بطريقتك أنت ، فتطلب العزة في الولد الذكَر ، فمَنْ يُدرِيك أن تجد فيه العزة والعِزوة والمكاثرة؟!

ثم يقول الحق سبحانه : { لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ . . . } .

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60)

قوله تعالى :

{ مَثَلُ السوء . . . } [النحل : 60] .

صفة السوء أي : الصفات السيئة الخسيسة من الكفر والجحود والنكْران ، ومن عَمي البصيرة ، وغيرها من صفات السوء .

لماذا كان للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السوء؟ لأن المعادلة التي أَجْرَوْها معادلة خاطئة؛ لأن الذي لا يؤمن بالآخرة قصّر عمره . . فعُمْر الدنيا بالنسبة له قصير ، وقد قلنا : إياك أن تقيسَ الدنيا بعمرها . . ولكن قِسْ الدنيا بعمرك أنت ، فعمر الدنيا مدة بقائِكَ أنت فيها . . إنما هي باقية من بعدك لغيرك ، وليس لك أنت فيها نصيب بعد انقضاء عمرك .

إذن : عمر الدنيا عمرك أنت فيها . . عمرك : شهر ، سنة ، عشر سنوات ، مائة . . هذا هو عمر الدنيا الحقيقي بالنسبة لك أنت .

ومع ذلك ، فعمر الدنيا مهما طال مُنْتَهٍ إلى زوال ، فَمنْ لا يؤمن بالله ولا يؤمن بالآخرة قد اختار الخاسرة؛ لأنه لا يضمن أن يعيش في الدنيا حتى متوسط الأعمار . . وهَبْ أنك عِشْتَ في الدنيا إلى متوسط الأعمار ، بل إلى أرذل العمر . . وهَبْ أنك استمتعتَ في دنياك بكل أنواع المعاصي ، ماذا ستكون النهاية؟ أنْ تفوتَ هذا كله إلى الموت .

قارن إذن حال هذا بمَنْ آمن بالله وآمن بالآخرة . . نقول لمَنْ لا يؤمن بالآخرة : دنياك مظنونة ، يمكن أن تعيش فيها ، أو يعاجلك الموت . . حتى مَنْ عاش إلى متوسط الأعمار ، فالنهاية إلى زوال .

وما نِلْتَ من مُتَع في دنياك أخذتها على قَدْر إمكاناتك أنت .

إذن : أنت أخذت صفقة محدودة غير مُتيقّنة ، وتركتَ صفقة غير محدودة ومُتيقّنة . . أليستْ هذه الصفقة خاسرة؟

أما مَنْ آمن بالآخرة فقد ربحتَ صفقته ، حيث اختار حياة ممتدة يجد المتعة فيها على قَدْر إمكانات المنعِم سبحانه وتعالى .

إذن :

{ مَثَلُ السوء . . . } [النحل : 60] .

أي : الصفة شديدة السوء ، ذلك لأنهم خاسرون لا محالة .

وقوله تعالى :

{ وَلِلَّهِ المثل الأعلى . . . } [النحل : 60] .

لله الصفة العليا ، وكأن الآية تقول لك : اترك صفة السوء ، وخُذ الصفة الأعلى التي تجد المتعة فيها على قَدْر إمكانات الحق سبحانه وتعالى .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

{ وَهُوَ العزيز الحكيم } [النحل : 60] .

العزيز أي : الذي لا يُغلَب على أمره ، فإذا قيل : قد يوجد مَنْ لا يُغلب على أمره . . نعم؛ لكنه سبحانه عزيز حكيم يستعمل القهر والغلبة بحكمة .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله . . . } .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (61)

قول الحق تبارك وتعالى :

{ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس . . } [النحل : 61] .

عندنا هنا : الأَخْذ والمؤاخذة . . الأَخْذ : هو تحصيل الشيء واحتواؤه ، ويدل هذا على أن الآخذ له قدرةٌ على المستمسك بنفسه أو بغيره ، فمثلاً تستطيع حَمْل حصاة ، لكن لا تستطيع حمل حجر كبير ، وقد يكون شيئاً بسيطاً إلا أنه مربوط بغيره ومستمسك به فيُؤخَذ منه قوة .

فمعنى الأخذ : أن تحتوي الشيء ، واحتواؤك له معناه أنك أقوى من تماسكه في ذاته ، أو استمساك غيره به ، وقد يكون الأَخْذ بلا ذنب .

أما المؤاخذة فتعني : هو أخذَ منك فأنت تأخذُ منه . . ومنه قَوْل أحدنا لأخيه « لا مؤاخذة » في موقف من المواقف . . والمعنى : أنني فعلتُ شيئاً استحق عليه الجزاء والمؤاخذة ، فأقول : لا تؤاخذني . . لم أقصد .

لذلك؛ فالحق تبارك وتعالى يقول هنا :

{ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس . . . } [النحل : 61] .

ولم يَقُلْ : يأخذ الناس .

وفي آية أخرى قال تعالى : { وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [هود : 102] .

لماذا أخذها الله؟ أخذها لأنها أخذتْ منه حقوقه في أن يكون إلهاً واحداً فأنكرتها ، وحقوقه في تشريع الصالح فأنكرها .

ويُبيّن الحق سبحانه أن هذه المؤاخذة لو حدثت ستكون بسبب من الناس أنفسهم ، فيقول سبحانه :

{ بِظُلْمِهِمْ . . } [النحل : 61] .

أول الظلم أنهم أنكروا الوحدانية ، يقول تعالى : { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13] .

فكأنهم أخذوا من الله تعالى حقّه في الوحدانية ، وأخذوا من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقالوا كذاب ، وأخذوا من الكتاب فقالوا « سحر مبين » .

كل هذا ظلم . .

فالحق تبارك وتعالى لو آخذهم بما أخذوا ، أخذوا شيئاً فأخذ الله شيئاً ، لو عاملهم هذه المعاملة ما ترك على ظهرها من دابة .

لذلك نجد في آيات الدعاء : { رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا } [البقرة : 286] .

أي : أننا أخذنا منك يا ربّ الكثير بما حدث مِنّا من إسراف وتقصير وعمل على غير مقتضى أمرك ، فلا تؤاخذنا بما بدر منا .

فلو آخذ الله الناس بما اقترفوا من ظلم . .

{ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ . . } [النحل : 61] .

قد يقول قائل : الله عز وجل سَيُؤاخذ الناس بظلمهم ، فما ذنب الدابة؟ ماذا فعلت؟ نقول : لأن الدابة خُلِقَتْ من أجلهم ، وسُخِّرتْ لهم ، وهي من نعم الله عليهم ، فليست المسألة إذن نكايةً في الدابة ، بل فيمَنْ ينتفع بها ، وقد يُراد العموم لكل الخلق .

فإذا لم يؤاخذ الله الناس بظلمهم في الدنيا فهل يتركهم هكذا؟ لا بل :

{ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى . . . } [النحل : 61] .

هذا الأجل انقضاء دُنيا ، وقيام آخرة ، حتى لو لم يؤمنوا بالآخرة ، فإن الله تعالى يُمهلهم في الدنيا ، كما قال تعالى في آية أخرى :

{ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ } [الطور : 47] .

وقد يكون في هذا الأجل المسمى خير للحق ، فكثير من الصحابة كانوا يدخلون المعارك ، ويُحبون أنْ يقتلوا أهل الكفر فلاناً وفلاناً ، ثم لا يتمكنون من ذلك ولا يصيبونهم ، فيحزنون لذلك .

ولكن أَجَل هؤلاء لم يَأْتِ بَعْد ، وفي علم الله تعالى أن هؤلاء الكفار سيؤمنون ، وأن إيمانهم سينفع المسلمين ، وكأن القدر يدّخرهم : إما أنْ يؤمنوا ، وإما أن تؤمنَ ذرياتهم .

وقد آمن عمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم . ومن هؤلاء الذين نَجَوْا كان خالد بن الوليد سيف الله المسلول .

{ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ } [النحل : 61] .

أي : إذا جاءت النهاية فلا تُؤخَّر ، وهذا شيء معقول ، ولكن كيف : ولا يستقدمون؟ إذا جاء الأجل كيف لا يستقدِمون؟ المسألة إذن ممتنعة مستحيلة . . كيف إذا جاء الأجل يكون قد أتى قبل ذلك؟ . . . هذا لا يستقيم ، لكن يستقيم المعنى تماماً على أن :

{ وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ } [النحل : 61] .

ليست من جواب إذا ، بل تم الجواب عند (ساعة) ، فيكون المعنى : إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، وإذا لم يجيء لا يستقدمون . والله أعلم .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ . . . } .

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (62)

قوله تعالى :

{ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ . . . } [النحل : 62] .

الأليق أن الذي يُخرج لله يجب أن يكون من أطيب ما أعطاه الله ، فإذا أردت أن تتصدقَ تصدَّقْ بأحسن ما عندك ، أو على الأقل من أوسط ما عندك . . لكن أنْ تتصدَّق بأخسِّ الأشياء وأرذلها . . أن تتصدق مما تكرهه ، كالذي يتصدق بخبز غير جيد أو لحم تغيّر ، أو ملابس مُهَلْهَلة ، فهذا يجعل لله ما يكره .

والحقيقة أن الناس إذا وثِقوا بجزاء الله على ما يعطيه العبد لأَعطَوْا ربهم أفضل ما يُحبون . . لماذا؟ لأن ذلك دليلٌ على حبّك للآخرة ، وأنك من أهلها ، فأنت تعمرها بما تحب ، أما صاحب الدنيا المحبّ لها فيعطي أقل ما عنده؛ لأن الدنيا في نظره أهمّ من الآخرة .

وبهذا يستطيع الإنسان أنْ يقيسَ نفسه : أهو من أهل الآخرة ، أم من أهل الدنيا بما يعطي لله عز وجل؟

قوله تعالى :

{ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ . . . } [النحل : 62] .

أي : مما ذكر في الآيات السابقة من قولهم : { لِلَّهِ البنات . . } [النحل : 57] .

وأن الملائكة بنات الله ، وجعلوا بينه وبين الجنَّة نسباً ، إلى غير ذلك من أقوالهم ، وجعلوا لله البنات وهم يكرهون البنات؛ لذلك : { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ } [النحل : 58] .

والمسألة هنا ليستْ مسألة جَعْل البنات لله ، بل مُطْلق الجَعْل منهم مردود عليهم ، فلو جعلوا لله ما يحبون من الذكْران ما تُقبّل منهم أيضاً؛ لأنهم جعلوا لله ما لم يجعل لنفسه .

فالذين قالوا : عزير ابن الله . والذين قالوا : المسيح ابن الله . لا يُقبَل منهم؛ لأنهم جعلوا لله سبحانه ما لم يجعلْه لنفسه ، فهذا مرفوض ، وذلك مرفوض؛ لأننا لا نجعل لله إلا ما جعله الله لنفسه سبحانه .

فنحن نجعل لله ما نحب مما أباح الله ، كما جاء في قوله تعالى : { لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ . . . } [آل عمران : 92] .

وقوله : { وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ . . } [الإنسان : 8] .

ولذلك قال الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : { قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين } [الزخرف : 81] .

فلو كان له ولد لآمنتُ بذلك ، لكن الحقيقة أنه ليس له ولد . . إذن : ليست المسألة في جَعْل ما يكرهون لله بل في مُطْلَق الجعلْ ، ذلك لأننا عبيد نتقرّب إلى الله بالعبادة ، والعابد يتقرّب إلى المعبود بما يحب المعبود أن يتقرّب به إليه ، فلو جعل الله لنفسه شيئاً فهو على العين والرأس ، كما في أمره أن ننفق مما نُحب ، ومن أجود ما نملك .

ولذلك قوله تعالى : { لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ } [آل عمران : 92] .

رَاعِ حق الفقير وضرورة أنْ تجعله كنفسك ، لا يكُنْ هيّناً عليك فتعطيه أردأ ما عندك . . والحق تبارك وتعالى لما أراد أن نتقرّب إليه بالنّسُك وذَبْح الهَدْي والأضاحي قال :

{ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ البآئس الفقير } [الحج : 28] .

لأنك إذا علمتَ أنك ستأكل منها سوف تختار أجود ما عندك .

وقوله تعالى :

{ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب . . } [النحل : 62] .

الكذب : قضية ينطق بها اللسان ليس لها واقع في الوجود ، أي مخالفة للواقع المشهود به من القلب . . ولماذا يشهد عليه القلب؟

قالوا : لأنه قد يطابق الكلام الواقع ، ونحكم عليه مع ذلك بالكذب ، كما جاء في قوله تعالى : { إِذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ } [المنافقون : 1] .

بالله ، أهذه القضية صِدْق أم لا؟ إنها قضية صادقة . . أنت رسول الله وقد وافق كلامهم ما يعلمه الله . . فلماذا شهد عليهم الحق تبارك وتعالى أنهم (كاذبون) ؟

وفي أيّ شيء هم كاذبون؟

قالوا : الحقيقة أنهم صادقون في قولهم : إنك لرسول الله ، ولكنهم كذبوا في شهادتهم : { نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله . . . } [المنافقون : 1] .

لأنهم لا يشهدون فعلاً؛ لأن الشهادة تحتاج أنْ يُواطئَ القلبُ اللسانَ ويسانده ، وهذه الشهادة منهم من اللسان فقط لا يساندها القلب .

الإنسان عُرْضة لأن يقول الصدق مرة والكذب مرة ، لكن هؤلاء بمجرد أن يقولوا (نشهد) فهم كاذبون ، وهذا معنى :

{ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب } [النحل : 62] .

لأنهم حينما يقولون مثلاً : العزير ابن الله ، المسيح ابن الله ، الملائكة بنات الله . هذه كلها قضايا باطلة ليس لها واقع يوافق منطوق اللسان . . فألسنتهم تصف الكذب .

وإنْ أردتَ أن تعرف الكذب الذي لا يطابق الواقع فاستمع إليه فبمجرد أنْ يُقال تعلم أنه كذب . . مثل ما حدث مع مُسيْلمة الذي ادَّعى النبوة ، مجرد أنْ قال : أنا نبي قلنا : مسيلمة الكذاب .

ويقول الحق سبحانه :

{ أَنَّ لَهُمُ الحسنى . . } [النحل : 62] .

أي : أن الكذب في قولهم (لهم الحسنى) فهذا اغترار وتمنٍّ على الله دون حق ، ومثل هذه المقولة في سورة الكهف ، في قصةِ أصحاب الجنتين ، يقول تعالى : { وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً * وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً } [الكهف : 35-36] .

فهذه مقولات ثلاث كاذبة :

قوله : { مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً } [الكهف : 35] .

هذه الأولى ، فكم من أشياء تغيَّرت ، ومن يضمن لك بقاء ما أنت فيه ، والحق تبارك وتعالى يقول في آية أخرى : { إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلاَ يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كالصريم } [القلم : 17-20] .

الكذبة الثانية : { وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً } [الكهف : 36] .

فقد أنكر الساعة .

الكذبة الثالثة : { وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً } [الكهف : 36] .

وهذا هو الشاهد في الآية هنا ، ففيها اغترار وتمنٍّ على الله دون حقٍّ ، كمن ادعوْا أن لهم الحسنى ، وهم ليسوا أهلاً لها .

وفي موضع آخر تأتي نفس المقولة :

{ لاَّ يَسْأَمُ الإنسان مِن دُعَآءِ الخير وَإِن مَّسَّهُ الشر فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إلى ربي إِنَّ لِي عِندَهُ للحسنى } [فصلت : 49-50] .

وهكذا الإنسان في طَبْعه أنه لا يسأم من طلب الخير ، وكلما وصل فيه إلى مرتبة تمنّى أعلى منها ، يقنط إنْ مسَّه شر ، وإنْ رفع الله عنه ورحمه قال : هذا لي . . أنا استحقه ، وأنا جدير به . . ألاَ قلتَ : هذا فضل من الله ونعمة ، ثم بعد ذلك هو يتمنى على الله الأماني ويقول : { إِنَّ لِي عِندَهُ للحسنى } [فصلت : 50] .

ويُروى أن سيدنا داود عليه السلام مع ما أعطاه الله من المُلْك والعظمة أنه صعد يوماً سطح منزله ، فابتلاه الله بسِرْب من الجراد الذهب ، فحينما رآه داود جعل يجمع منه في ثوبه ، فقال له ربه : ألم أُغْنِك يا داود؟ قال : نعم ولكن لا غِنَى لي عن فضلك .

وقوله تعالى :

{ لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النار . . . } [النحل : 62] .

لا جرم : أي حقاً أن لهم النار على ما تقدم منهم أن جعلوا لله ما يكرهون ، وتصف ألسنتهم الكذب ، وهذه أفعال يستحقون النار عليها .

وكلمة { لاَ جَرَمَ } منها جارم بمعنى مجرم ، فالمعنى : لا جريمة في عقاب هؤلاء ، لأنه لا يُقال على عقوبة الجريمة أنها جريمة . . إذن : لها معنيان ، لا بُدَّ أن لهم النار ، أو لا جريمة في أن لهم النار جزاء أعمالهم .

{ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ } [النحل : 62] .

جاءت في كلمة مُفْرطون عدة قراءات : مفرَطون ، مفرِطون ، مفرِّطون ، مفرَّطون . وجمعيها تلتقي في المعنى .

نحن حينما نصلي على جنازة مثلاً ، إذا كان الميت مكلّفاً نقول في الدعاء له : « اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه . . اللهم إنْ كان مُحسناً فزِدْ في إحسانه ، وإنْ كان مُسِيئاً فتجاوز عن سيئاته » .

فإنْ كان صغيراً غير مُكلَّف قُلْنا في الدعاء له « اللهم اجعله فرَطاً وذخراً » . فما معنى فرَطاً هنا؟

معناه : أن يكون الطفل فَرَطاً لأبويه ومُقدّمة لهما إلى الجنة . . يمرُّ بين يديْ والديْه ويسبقهما إلى الجنة ، وكأنه يقدم عليهما لِيُمهد لهما الطريق ليغفر الله لهما . . إذن : معنى مُفْرطون أي مُقدِّمون . ولكن إلى النار .

ومنه قوله تعالى عن فرعون : { يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة . . } [هود : 98] .

أي : يتقدمهم إلى النار . . كما كنتَ مُقدّماً عليهم ، وإماماً لهم في الدنيا ، فسوف تتقدمهم هنا وتسبقهم إلى النار .

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63)

نعلم أن الحق سبحانه وتعالى يُقسِم بما يشاء على ما يشاء ، أما نحن فلا نقسم إلا بالله ، وفي الحديث الشريف : « مَنْ كان حالفاً ، فليحلف بالله أو ليصمت » .

والحق تبارك وتعالى هنا يحلف بذاته سبحانه { تالله } ، مثل : والله وبالله .

وقد جاء القسم لتأكيد المعنى؛ ولذلك يقول أحد الصالحين : من أغضب الكريم حتى ألجأه أن يقسم؟!

وقد يؤكد الحق سبحانه القسم بذاته ، أو القسم ببعض خَلْقه ، وقد ينفي القسم وهو يُقسِم ، كما في قوله تعالى : { لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد } [البلد : 1] .

وقوله : { فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ } [الواقعة : 75-76] .

ومعنى : لا أقسم أن هذا الأمر واضح جَليّ وضوحاً لا يحتاج إلى القسم ، ولو كنت مُقسِماً لأقسمتُ به ، بدليل قوله : { وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ } [الواقعة : 76] .

إذن : الحق سبحانه يُقسِم بذاته ليؤكد لنا الأمر تأكيداً ، وتأكيد الأمر عند الحكم في القضاء مَثلاً : إما بالإقرار ، وإما باليمين . . فإذا ما أقسمت له وحلفتَ فقد سددْتَ عليه منافذ التكذيب .

والحق سبحانه يقول :

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ } [النحل : 63] .

أي : لسْتَ بِدْعاً في أنْ تُكذَّب من قومك ، فهذه طبيعة الذين يستقبلون الدعوة من الله على ألسنة الرسل؛ لأن الرسل لا يرسلهم الله إلا حينما يطمّ الفساد ويعُم .

ومعنى إرسال الرسل إذن أنه لا حَلَّ إلا أنْ تتدخلَ السماء؛ ذلك لأن الإنسان فيه مناعات يقينية في ذاته ، وهي نفسه اللوامة التي تلومه إذا أخطأ وتُعدِّل من سلوكه ، فهي رادع له من نفسه . فإذا ما تبلَّدتْ هذه النفس ، وتعوَّدتْ على الخطأ قام المجتمع من حولها بهذه المهمة ، فمَنْ لا تُردِعه نفسه اللوامة يُردعه المجتمع من حوله . . فإذا ما فسدَ المجتمع أيضاً ، فماذا يكون الحل؟ الحل أن تتدخل السماء لإنقاذ هؤلاء .

إذن : تتدخل السماء بإرسال الرسل حينما يعُمّ الفسادُ المجتمعَ كله؛ ولذلك فأمة محمد صلى الله عليه وسلم من شرفها عند ربها أنْ قال لهم : أنتم مأمونون على رعاية منهجي في ذواتكم ، لوَّامون لأنفسكم ، آمرون بالمعروف ، ناهون عن المنكر في غيركم؛ لذلك لن أرسل فيكم رسولاً آخر ، فأنتم سوف تقومون بهذه المهمة .

لذلك قال الحق سبحانه : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر .

. . } [آل عمران : 110] .

فقد آمن أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أن تكون حارسة لمنهجه ، إما بالنفس اللوامة ، وإما بالمجتمع الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر ، وهذا شرف عظيم لهذه الأمة .

إذن : يأتي الرسول حينما يعُمُّ الفساد . . فما معنى الفساد؟ . . الفساد : أن تُوجد مصالح طائفة على حساب طائفة أخرى ، فأهل الفساد والمنتفعون به إذا جاءهم رسول ليُخلِّص الناس من فسادهم ، كيف يقابلونه؟ أيقابلونه بالترحاب؟ بالطبع لا .

. لا بُدّ وأن يقابلوه بالكراهية والإنكار ، ويعلنوا عليه الحرب دفاعاً عن مصالحهم .

ويُتبع الحق سبحانه هذا بقوله :

{ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ . . } [النحل : 63] .

هنا يتدخل الشيطان ، ويُزيّن لأهل الفساد أعمالهم ، ويحثّهم على محاربة الرسل؛ فهؤلاء الذين سيقضون على نفوذكم ، سوف يأخذون ما في أيديكم من مُتَع الدنيا ، سوف يهزُّون مراكزكم ، ويحطُّون من مكانتكم بين الناس . . هؤلاء سوف يرفعون عليكم السِّفْلة والعبيد . .

وهكذا يتمسَّك أهل الفساد والظلم بظلمهم ، ويعضون عليه بالنواجذ ، ويقفون من الرسل موقف العداء ، فوطِّنْ نفسك على هذا ، فلن تُقابلَ من السادة إلا بالجحود وبالإنكار وبالمحاربة .

ثم يقول تعالى :

{ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم . . . } [النحل : 63] .

أي : في الآخرة ، فما دام الشيطان تولاَّهم في الدنيا ، وزيَّن لهم ، وأغراهم بعداء الرسل ، فَلْيتولَّهم الآن ، وليدافع عنهم يوم القيامة . . وقد عرض لنا القرآن الكريم هذا الموقف في قوله تعالى : { كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكفر فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بريء مِّنكَ إِنِي أَخَافُ الله رَبَّ العالمين } [الحشر : 16] .

وفي جدالهم يوم القيامة مع الشيطان يقولون له : أنت أغويتَنا وزيَّنْتَ لنا . . ماذا يقول؟ يقول : { وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ . . } [إبراهيم : 22] .

والسلطان هنا : إمّا بالحجة التي تُقنع ، وإما بالقهر والغلبة والقوة التي تفرض ما تريد ، وليس للشيطان شيء من ذلك . . لا يملك حُجة يُقنعك بها لتفعل ، ولا يملك قوة يُجبرك بها أنْ تفعل وأنت كاره .

وهكذا يجادلهم الشيطان ويردُّ عليهم دعواهم ، فليس له عليكم سلطان ، بل مجرد الإشارة أوقعتْكم في المعصية .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه : { وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليوم مِنَ الناس وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ الفئتان نَكَصَ على عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّيۤ بريء مِّنْكُمْ إِنِي أرى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِي أَخَافُ الله . . } [الأنفال : 48] .

وقوله :

{ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [النحل : 63] .

يَصف العذاب هنا بأنه أليم شديد مُهلِك ، وقد وصف الله العذاب بأنه أليم ، عظيم ، مُهين ، شديد . . والعذاب شعور بالألم وإحساسٌ به ، وقد توصَّل العلماء إلى أن الإحساس كله في الجلد؛ لذلك قال الحق سبحانه لِيُديمَ على هؤلاء العذاب : { كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب . . } [النساء : 56] .

وهكذا يستمر العذاب باستمرار الجلود وتبديلها .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب . . } .

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64)

فالكتاب هو القرآن الكريم .

وقَوْل الحق سبحانه :

{ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذي اختلفوا فِيهِ . . } [النحل : 64] .

دليل على أن أتباع الرسل السابقين نشأ بينهم خلاف ، فأيُّ خلاف هذا طالما أنهم تابعون لنبي واحد؟ ما سببه؟

قالوا : سبب هذا الخلاف ما يُسمُّونه بالسلطة الزمنية . . ولتوضيح معنى السلطة الزمنية نضرب مثلاً بواحد كان شيخاً لطريقة مثلاً ، بواحد كان شيخاً لطريقة مثلاً ، فلما مات تنازع الخلافة أبناؤه من بعده . . كُلٌ يريدها له ، وأخذ يجمع حوله مجموعة من أتباع أبيه . . فلو كانت الخلافة هذه واضحة في أذهانهم ما حدث هذا الخلاف .

وكذلك السلطة الزمنية حدثت في أتباع الرسل الذين أخذوا يكتبون الصكوك ، ويذكرون ما يحبون وما يرونه صواباً من وجهة نظرهم ، كل هؤلاء كان لهم نفوذ بما نُسميه السلطة الزمنية .

فكيف إذن يتركون محمداً صلى الله عليه وسلم يأخذ منهم هذه السلطة ، ويُضيع عليهم ما هم فيه من سيادة ، فقد جاء الرسول صلى الله عليه وسلم لِيُبيّن لهم . أي : يردّهم إلى جَادّة الحق ، وإلى الطريق المستقيم .

وقوله تعالى :

{ وَهُدًى وَرَحْمَةً . . } [النحل : 64] .

الهدى : معناه بيان الطريق الواضح للغاية النافعة ، والطريق لا يكون واضحاً إلا إذا خَلا من

الصِّعاب والعقبات ، وخلا أيضاً من المخاوف ، فهو طريق واضح مأمون سهل ، وأيضاً يكون قصيراً يُوصّلك إلى غايتك من أقصر الطرق .

وضد الهدى : الضلال . وهو أنْ يُضلّك ، فإنْ أردتَ طريقاً وجَّهك إلى غيره ، ودَلّك على سواه ، أو دَلّك على طريق به مخاوف وعقبات .

أما الرحمة ، فقد وصف الحق تبارك وتعالى القرآن بأنه رحمة فقال : { وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . . . } [الإسراء : 82] . فكيف يكون القرآن شفاءً؟ وكيف يكون رحمة؟

الشفاء : إذا أصابنا داء ربنا سبحانه وتعالى يقول : طيّبوا داءكم وداووا أمراضكم بكذا وكذا ، ورُدُّوا الحكم إلى الله . . هذا شفاء .

أما الرحمة : فهي أن يمنع أن يأتي الداء مرة أخرى ، فتكون وقاية تقتلع الداء من أصله فلا يعود .

ومِثْل هذا يحدث في عالم الطب ، فقد تذهب إلى طبيب لِيُعالجك من داء معين . . بثور في الجلد مثلاً ، فلا يهتم إلا بما يراه ظاهراً ، ويصف لك ما يداوي هذه البثور . . ثم بعد ذلك تُعاودك مرة أخرى .

أما الطبيب الحاذق الماهر فلا ينظر إلى الظاهر فقط ، بل يبحث عن سببه في الباطن ، ويحاول أن يقتلع أسباب المرض من جذورها ، فلا تُعاودك مرة أخرى .

ولذلك ، لو نظرنا إلى قصة أيوب عليه السلام وما ابتلاه الله به نرى فيها مثالاً رائعاً لعلاج الظاهر والباطن معاً ، فقد ابتلاه ربُّه ببلاء ظهر أثره على جسمه واضحاً ، ولما أذن له سبحانه بالشفاء قال له :

{ اركض بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ } [ص : 42] .

(مُغْتَسَلٌ) : أي . يغسل ويُزيل ما عندك من آثار هذا البلاء .

(وَشَرَابٌ) : أي . شراب يشفيك من أسباب هذا البلاء فلا يعود .

وكذلك الحال في علاج المجتمع ، فقد جاء القرآن الكريم وفي العَالَم فساد كبير ، وداءاتٌ متعددة ، لا بُدَّ لها من منهج لشفاء هذه الداءاتِ ، ثم نعطيها مناعاتٍ تمنع عودة هذه الداءات مرة أخرى .

وقوله تعالى :

{ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [النحل : 64] .

أي : أن هذا القرآن فيه هدى ورحمة لِمَنْ آمن بك وبرسالتك؛ لأن الطبيب الذي ضربناه مثلاً هنا لا يعالج كل مريض ، بل يعالج مَنْ وثق به ، وذهب إليه وعرض عليه نفسه ففحصه الطبيب

وعرف عِلّته .

وهكذا القرآن الكريم يسمعه المؤمن به ، فيكون له هدىً ورحمة ، ويترك في نفسه إشراقات نورانية تتسامى به وترتفع إلى أعلى الدرجات ، في حين يسمعه آخر فلا يَعي منه شيئاً ، ويقول كما حكى القرآن الكريم : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً . . . } [محمد : 16] .

وقال : { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ . . } [فصلت : 44] . { والذين لاَ يُؤْمِنُونَ في آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . } [فصلت : 44] .

إذن : فالقرآن واحد ، ولكن الاستقبال مختلف .

ثم يقول الحق سبحانه : { والله أَنْزَلَ مِنَ . . . } .

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65)

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية ينقلنا إلى آية مادية مُحسّة لا ينكرها أحد ، وهي إنزال المطر من السماء ، وإحياء الأرض الميتة بهذا المطر؛ ليكون ذلك دليلاً محسوساً على قدرته تعالى ، وأنه مأمون على خَلْقه .

وكأنه سبحانه يقول لهم : إذا كنتُ أنا أعطيكم كذا وكذا ، وأُوفّر لكم الأمر المادي الذي يفيد عنايتي بكم ، فإذا أنزلتُ لكم منهجاً ينفعكم ويُصلح أحوالكم فصدّقوه .

فهذا دليل ماديّ مُحَسّ يُوصِّلهم إلى تصديق المنهج المعنوي الذي جاء على يد الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : { وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . . } [الإسراء : 82] .

وقوله : { والله أَنْزَلَ مِنَ السمآء مَآءً . . . } [النحل : 65] .

هذه آية كونية مُحسَّة لا ينكرها أحد .

ثم يقول : { فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَآ . . . } [النحل : 65] .

موت الأرض ، أي حالة كَوْنها جدباء مُقفرة لا زرعَ فيها ولا نبات ، وهذا هو الهلاك بعينه بالنسبة لهم ، فإذا ما أجدبتْ الأرض استشرفوا لسحابة ، لغمامة ، وانتظروا منها المطر الذي يُحيي هذه الأرض الميتة . . يُحييها بالنبات والعُشْب بعد أنْ كانت هامدة ميتة .

فلو قبض ماء السماء عن الأرض لَمُتُّمْ جوعاً ، فخذوا من هذه الآية المحسَّة دليلاً على صدق الآية المعنوية التي هي منهج الله إليكم على يد رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكما أمِنْتَني على الأولى فأْمَنّي على الثانية .

وقوله : { إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [النحل : 65] .

مع أن هذه الآية تُرَى بالعين ولا تُسْمع ، قال القرآن :

{ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [النحل : 65] .

. . لماذا؟

قالوا : لأن الله سبحانه أتى بهذه الآية لِيلْفتَهم إلى المنهج الذي سيأتيهم على يد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا المنهج سَيُسمع من الرسول المبلّغ لمنهج الله .

مثال ذلك أيضاً في قوله تعالى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ } [القصص : 71] .

فالضياء يُرى لا يُسمع . . لكنه قال : { أَفَلاَ تَسْمَعُونَ } لأنه يتكلم عن الليل ، ووسيلة الإدراك في الليل هي السمع .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِنَّ لَكُمْ فِي . . . } .

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66)

الكون الذي خلقه الله تعالى فيه أجناس متعددة ، أدناها الجماد المتمثل في الأرض والجبال والمياه وغيرها ، ثم النبات ، ثم الحيوان ، ثم الإنسان .

وفي الآية السابقة أعطانا الحق تبارك وتعالى نموذجاً للجماد الذي اهتزَّ بالمطر وأعطانا النبات ، وهنا تنقلنا هذه الآية إلى جنس أعلى وهو الحيوان .

{ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً . . . } [النحل : 66] .

والمقصود بالأنعام : الإبل والبقر والغنم والماعز ، وقد ذُكِرتْ في سورة الأنعام في قوله تعالى : { ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإبل اثنين وَمِنَ البقر اثنين . . . } [الأنعام : 143-144] .

هذه هي الأنعام .

وقوله سبحانه : { لَعِبْرَةً } العِبْرة : الشيء الذي تعتبرون به ، وتستنجون منه ما يدلكم على قدرة الصانع الحكيم سبحانه وتعالى ، وتأخذون من هذه الأشياء دليلاً على صِدْق منهجه سبحانه فتصدقونه .

ومن معاني العبرة : العبور والانتقال من شيء لآخر . . أي : أن تأخذ من شيء عبرة تفيد في شيء آخر . ومنها العَبْرة (الدمعة) ، وهي : شيء دفين نبهْتَ عنه وأظهرتَهُ .

والمراد بالعبرة في خلق الأنعام :

{ نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ } [النحل : 66] .

مادة : سقى جاءت في القرآن مرة « سقى » . ومرة « أَسْقى » ، وبعضهم قال : إن معناهما

واحد ، ولكن التحقيق أن لكل منهما معنًى ، وإن اتفقا في المعنى العام . سقى : كما في قوله تعالى : { وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً } [الإنسان : 21] .

أي : أعطاهم ما يشربونه . . ومضارعه يَسقي . ومنها قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام : { فسقى لَهُمَا . . . } [القصص : 24] .

أما أسقى : كما في قوله تعالى : { فَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَآ أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ } [الحجر : 22] .

فمعناه أنه سبحانه أنزل الماء من السماء لا يشربه الناس في حال نزوله ، ولكن ليكون في الأرض لمن أراد أنْ يشربَ . . فالحق تبارك وتعالى لم يفتح أفواه الناس أثناء نزول المطر ليشربوا منه . . لا . . بل هو مخزون في الأرض لمن أراده . والمضارع من أَسْقى : يُسقي .

إذن : هناك فَرْق بين الكلمتين ، وإنِ اتفقنا في المعنى العام . . وفرْق بين أن تُعطي ما يُستفَادُ منه في ساعته ، مثل قوله : { وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ . . } [الإنسان : 21] .

وبين أنْ تعطي ما يمكن الاستفادة منه فيما بعد كما في قوله : { فَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ } [الحجر : 22] .

لذلك يقولون : إن الذي يصنع الخير قد يصنعه عاجلاً ، فيعطي المحتاج مثلاً رغيفاً يأكله ، وقد يصنعه مؤُجّلاً فيعطيه ما يساعده على الكسْب الدائم ليأكل هو متى يشاء من كسْبه .

والحق تبارك وتعالى أعطانا هذه الفكرة في سورة الكهف ، في قصة ذي القرنين ، قال تعالى :

{ حتى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً } [الكهف : 93] .

فما داموا لا يفقهون قَوْلاً . . فكيف تفاهم معهم ذو القرنين ، وكيف قالوا : { ياذا القرنين إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأرض فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً على أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً } [الكهف : 94] .

نقول : الذي يريد أن يفعل الخير والمعروف يسعى إليه ويحتال للوصول إليه وكأنه احتال أنْ يفهمهم ، وصبر عليهم حتى توصّل إلى طريقة للتفاهم معهم ، في حين أنه كان قادراً على تركهم والانصراف عنهم ، وحُجّته أنهم لا يفقهون ولا يتكلمون .

فلما أراد ذو القرنين أن يبني لهم السد لن يَبْنِ هو بنفسه ، بل علَّمهم كيف يكون البناء ، حتى يقوموا به بأنفسهم متى أرادوا ولا يحتاجون إليه . . فقال : { آتُونِي زُبَرَ الحديد حتى إِذَا ساوى بَيْنَ الصدفين قَالَ انفخوا حتى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً } [الكهف : 96] .

إذن : علَّمهم وأحسن إليهم إحساناً دائماً لا ينتهي .

وقوله : { مِّمَّا فِي بُطُونِهِ . . . } [النحل : 66] .

أي : مما في بطون الأنعام ، فقد ذكَّر الضمير في (بطونه) باعتبار إرادة الجنس .

وقد أراد الحق سبحانه أن يخرج هذا اللبن :

{ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً } [النحل : 66] .

والفَرْث في كرش الحيوان من فضلات طعامه .

فالعبرة هنا أن الله تعالى أعطانا من بين الفَرْث ، وهو رَوَثُ الأنعام وبقايا الطعام في كرشها ، وهذا له رائحة كريهة ، وشكل قذر مُنفّر ، ومن بين دم ، والدم له لونه الأحمر ، وهو أيضاً غير مستساغ؛ ومنهما يُخرِج لنا الخالق سبحانه لبناً خالصاً من الشوائب نقياً سليماً من لون الدم ورائحة الفَرْث .

ومَنْ يقدر على ذلك إلا الخالق سبحانه؟

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله واصفاً هذا اللبن :

{ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ } [النحل : 66] .

أي : يسيغه شاربه ويستلذّ به ، ولا يُغَصُّ به شاربه ، بل هو مُسْتساغ سَهْل الانزلاق أثناء الشُّرْب؛ لأن من الطعام أو الشراب ما يحلو لك ويسُوغ وتهنأ به ، ولكنه قد لا يكون مريئاً .

ولذلك ، فالحق سبحانه يقول : { فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً } [النساء : 4] .

هنيئاً أي : تستلِذّون به ، ومريئاً : أي نافعاً للجسم ، يمري عليك؛ لأنك قد تجد لَذة في شيء أثناء أَكْله أو شُرْبه ، ثم يسبِّب لك متاعب فيما بَعْد ، فهو هَنِيءٌ ولكنه غير مَرِيء .

فاللبن من نِعَم الله الدالة على قدرته سبحانه ، وفي إخراجه من بين فَرْث ودم عبرة وعِظَة ، وكأن الحق سبحانه يعطينا هذه العبرة لينقلنا من المعنى الحسيّ الذي نشاهده إلى المعنى القيميّ في المنهج ، فالذي صنع لنا هذه العبرة لإصلاح قالبنا قادرٌ على أن يصنعَ لنا من المنهج ما يُصلِح قلوبنا .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمِن ثَمَرَاتِ . . . } .

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67)

ثمرات النخيل هي : البلح . والأعناب هو : العنب الذي نُسمّيه الكَرْم . والتعبير القرآني هنا وإن امتنَّ على عباده بالرزق الحسن ، فإنه لا يمتنّ عليهم بأن يتخذوا من الأعناب سكراً : أي مُسْكِراً ، ولكن يعطينا الحق سبحانه هنا عبرةً فقد نزلتْ هذه الآيات قبل تحريم الخمر .

وكأن الآية تحمل مُقدّمة لتحريم الخمر الذي يستحسنونه الآن ويمتدحونه؛ ولذلك يقول العلماء : إن الذي يقرأ هذه الآية بفِطنة المستقْبِل عن الله يعلم أن لله حُكْماً في السَّكر سيأتي .

كيف توصَّلوا إلى أن لله تعالى حُكْماً سيأتي في السَّكر؟

قالوا : لأنه قال في وصف الرزق بأنه حسن ، في حين لم يَصِفْ السَّكر بأنه حسن ، فمعنى ذلك أنه ليس حسناً؛ ذلك لأننا نأكل ثمرات النخيل (البلح) كما هو ، وكذلك نأكل العنب مباشرة دون تدخُّل مِنّا فيما خلق الله لنا .

أما أنْ نُغيّر من طبيعته حتى يصير خمراً مُسْكراً ، فهذا إفساد في الطبيعة التي اختارها الله لنا لتكون رزقاً حَسناً .

وكأنه سبحانه يُنبّه عباده ، أنَا لا أمتنُّ عليكم بما حرَّمْتُ ، فأنا لم أُحرِّمه بَعْد ، فاجعلوا هذا السَّكر كما ترونه متعةً لكم ، ولكن خذوا منه عبرة أَنِّي لم أَصِفْه بالحُسْن؛ لأنه إنْ لم يكُنْ حَسَناً فهو قبيح ، فإذا ما جاء التحريم فقد نبهتكم من بداية الأمر .

ثم يقول تعالى :

{ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [النحل : 67] .

لأن العقل يقتضي أنْ نُوازِنَ بين الشيئين ، وأن نسأل : لماذا لم يوصف السَّكر بأنه حَسَن؟ . . أليس معناه أن الله تعالى لا يحب هذا الأمر ولا يرضاه لكم؟

إذن : كأن في الآية نيّة التحريم ، فإذا ما أنزل الله تحريم الخمر كان هذا تمهيداً له .

والآية هي : الأمر العجيب الذي يُنبئكم الله الذي خلق لكم هذه الأشياء لسلامة مبانيكم وقوالبكم المادية ، قادر ومأمون على أن يُشرّع لكم ما يضمن سلامة معانيكم وقلوبكم القيمية الروحية .

ثم يقول الحق سبحانه : { وأوحى رَبُّكَ . . } .

وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68)

النحل خَلْق من خَلْق الله ، وكل خَلْق لله أودع الله فيه وفي غرائزه ما يُقيم مصالحه ، يشرح ذلك قوله تعالى : { الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى } [الأعلى : 2-3] .

أي : خلق هذه كذا ، وهذه كذا حَسْب ما يتناسب مع طبيعته؛ ولذلك تجد ما دون الإنسان يسير على منهج لا يختلف . . فالإنسان مثلاً قد يأكل فوق طاقته ، وقد يصل إلى حَدِّ التُّخْمة ، ثم بعد ذلك يشتكي مرضاً ويطلب له الدواء .

أما الحيوان فإذا ما أكل وجبته ، وأخذ ما يكفيه فلا يزيد عليه أبداً ، وإنْ أجبرته على الأكل؛ ذلك لأنه محكوم بالغريزة الميكانيكية ، وليس له عقل يختار به .

وضربنا مثلاً للغريزة في الحيوان بالحمار الذي يتهمونه دائماً ويأخذونه مثلاً للغباء ، إذا سُقْتَه ليتخطى قناة ماء مثلاً وجدته ينظر إليها وكأنه يقيس المسافة بدقة . . فإذا ما وجدها في مقدوره قفزها دون تردد ، وإذا وجدها فوق طاقته ، وأكبر من قدرته تراجع ولم يُقدِم عليها ، وإنْ ضربتَه وصِحْتَ به . . فلا تستطيع أبداً إجباره على شيء فوق قدرته .

ذلك لأنه محكوم بالغريزة الآلية التي جعلها الله سبحانه فيه ، على خلاف الإنسان الذي يفكر في مثل هذه الأمور ليختار منها ما يناسبه ، فهذه تكون كذا ، وهذه تكون كذا ، فنستطيع أن نُشبّه هذه الغريزة في الحيوان بالعقل الإلكتروني الذي لا يعطيك إلا ما غذَّيته به من معلومات . . أما العقل البشري الرباني فهو قادر على التفكير والاختيار والمفاضلة بين البدائل .

يقول الحق سبحانه :

{ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل . . . } [النحل : 68] .

الحق تبارك وتعالى قد يمتنّ على بعض عبادة ويُعلّمهم لغة الطير والحيوان ، فيستطيعون التفاهم معه ومخاطبته كما في قصة سليمان عليه السلام . . والله سبحانه الذي خلقها وأبدعها يُوحِي إليها ما يشاء . . فما هو الوحي؟

الوحي : إعلام من مُعْلِم أعلى لمُعْلَم أدنى بطريق خفيّ لا نعلمه نحن ، فلو أعلمه بطريق صريح فلا يكون وَحْياً .

فالوَحْي إذن يقتضي : مُوحِياً وهو الأعلى ، ومُوحَىً إليه وهو الأَدْنَى ، ومُوحًى به وهو المعنى المراد من الوَحْي .

والحق تبارك وتعالى له طلاقة القدرة في أنْ يُوحي ما يشاء لما يشاء من خَلْقه . . وقد أوحى الحق سبحانه وتعالى إلى الجماد في قوله تعالى : { إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا } [الزلزلة : 1-5] .

أعلمها بطريق خفيّ خاص بقدرة الخالق في مخلوقه .

وهنا أوحى الله إلى النحل .

وأوحى الله إلى الملائكة : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الذين آمَنُواْ . . . } [الأنفال : 12] .

وأوحى إلى الرسل : { إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إلى نُوحٍ والنبيين مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَآ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وعيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ . . . }

[النساء : 163] .

وأوحى إلى المقربين من عباده : { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي . . } [المائدة : 111] .

وقد أوحى إليهم بخواطر نورانية تمرُّ بقلوبهم

وأوحى سبحانه إلى أم موسى : { وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ . . } [القصص : 7] .

هذا هو وَحْي الله إلى ما يشاء من خَلْقه : إلى الملائكة ، إلى الأرض ، إلى الرسل ، إلى عباده المقرّبين ، إلى أم موسى ، إلى النحل . . الخ .

وقد يكون الوحي من غيره سبحانه ، ويُسمَّى وَحْياً أيضاً ، كما في قوله تعالى : { وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ . . } [الأنعام : 121] .

وقوله : { يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً . . } [الأنعام : 112] .

لكن إذا أُطلِقَتْ كلمة (الوَحْي) مُطْلقاً بدون تقييد انصرفتْ إلى الوحي من الله إلى الرسل؛ لذلك يقول علماء الفقه : الوحي هو إعلامُ الله نبيه بمنهجه ، ويتركون الأنواع الأخرى : وَحْي الغرائز ، وَحْي التكوين ، وَحْي الفطرة . . الخ .

وقوله : { أَنِ اتخذي مِنَ الجبال بُيُوتاً وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } [النحل : 68] .

كثير من الباحثين شغوفون بدراسة النحل ومراحل حياته منذ القدم ، ومن هؤلاء باحث تتبّع المراحل التاريخية للنحل ، فتوصّل إلى أن النحل أول ما وُجِد عاش في الجبال ، ثم اتخذ الشجر ، وجعل فيها أعشاشه ، ثم اتخذ العرائش التي صنعها له البشر ، وهي ما نعرفه الآن باسم الخلية الصناعية أو المنحل ، ووَجْه العجب هنا أن هذا الباحث لا يعرف القرآن الكريم ، ومع ذلك فقد تطابق ما ذهب إليه مع القرآن تمام التطابق .

وكذلك توصَّل إلى أن أقدمَ أنواع العسل ما وُجِد في كهوف الجبال ، وقد تَوصَّلوا إلى هذه الحقيقة عن طريق حَرْق العسل وتحويله إلى كربون ، ثم عن طريق قياس إشعاع الكربون يتم التوصّل إلى عمره . . وهكذا وجدوا أن عسل الكهوف أقدم أنواع العسل ، ثم عسل الشجر ، ثم عسل الخلايا والمناحل .

إذن : أوحى الله تعالى إلى النحل بطريق خفيّ لا نعلمه نحن ، وعملية الوحي تختلف باختلاف الموحِي والموحَي إليه ، ويمكن أنْ نُمثّل هذه العملية بالخادم الفَطِن الذي ينظر إليه سيده مُجرد نظرة فيفهم منها كل شيء : أهو يريد الشراب؟ أم يريد الطعام؟ أم يريد كذا؟

ثم يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ كُلِي مِن . . . } .

ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)

عِلّة كَوْن العسل فيه شفاء للناس أنْ يأكلَ النحل من كُلِّ الثمرات ذلك لأن تنوُّع الثمرات يجعل العسل غنيّاً بالعناصر النافعة ، فإذا ما تناوله الإنسان ينصرف كل عنصر منه إلى شيء في الجسم ، فيكون فيه الشفاء بإذن الله .

ولكن الآن ماذا حدث؟ نرى بعض الناس يقول : أكلتُ كثيراً من العسل ، ولم أشعر له بفائدة . . نقول : لأننا تدخّلنا في هذه العملية ، وأفسدنا الطبيعة التي خلقها الله لنا . . فالأصل أن نتركَ النحل يأكل من كُلّ الثمرات . . ولكن الحاصل أننا نضع له السكر مثلاً بدلاً من الزَّهْر والنوار الطبيعي ، ولذلك تغيّر طعم العسل ، ولم تَعُدْ له مَيْزته التي ذكرها القرآن الكريم .

لذلك؛ فالمتتبع لأسعار عسل النحل يجد تفاوتاً واضحاً في سعره بين نوع وآخر ، ذلك حَسْب جودته ومدى مطابقته للطبيعة التي حكاها القرآن الكريم .

والحق سبحانه يقول :

{ فاسلكي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً . . } [النحل : 69] .

أي : تنقّلي حُرّة بين الأزهار هنا وهناك؛ ولذلك لا نستطيع أنْ نَبني للنحل بيوتاً يقيم فيها ، لا بُدَّ له من التنقُّل من بستان لآخر ، فإذا ما جَفَّتْ الزراعات يتغذَّى النحل من عسله ، ولكن الناس الآن يأخذون العسل كله لا يتركون له شيئاً ، ويضعون مكانه السكر ليتغذَّى منه طوال هذه الفترة .

وقوله تعالى : { ذُلُلاً . . } [النحل : 69] .

أي : مُذلَّلة مُمهّدة طيّعة ، فتخرج النحل تسعى في هذه السُّبل ، فلا يردها شيء ، ولا يمنعها مانع ، تطير هنا وهناك من زهرة لأخرى ، وهل رأيت شجرة مثلاً رَدَّتْ نحلة؟! . . لا . . قد ذَلَّلَ الله لها حياتها ويسَّرها .

ومن حكمته تعالى ورحمته بنا أنْ ذلَّلَ لنا سُبُل الحياة . . وذلَّل لنَا ما ننتفع به ، ولولا تذليله هذه الأشياء ما انتفعنا بها . . فنرى الجمل الضخم يسوقه الصبي الصغير ، ويتحكَّم فيه يُنيخه ، ويُحمّله الأثقال ، ويسير به كما أراد ، في حين أنه إذا ثار الجمل أو غضب لا يستطيع أحدٌ التحكم فيه . . وما تحكَّم فيه الصبي الصغير بقوته ولكن بتذليل الله له .

أما الثعبان مثلاً فهو على صِغَر حجمه يمثِّل خطراً يفزع منه الجميع ويهابون الاقتراب منه ، ذلك لأن الله سبحانه لم يُذلِّله لنا ، فأفزعنا على صِغَر حجمه . . كذلك لو تأمنا البرغوث مثلاً . . كم هو صغير حقير ، ومع ذلك يقضّ مضاجعنا ، ويحرمنا لذة النوم في هدوء . . فهل يستطيع أحدٌ أنْ يُذلِّل له البرغوث؟!

وفي ذلك حكمة بالغة وكأن الحق سبحانه يقول لنا : إذا ذللتُ لكم شيئاً ، ولو كان اكبر المخلوقات كالجمل والفيل تستطيعون الانتفاع به ، وإن لم أذلِّله لكم فلا قدرة لكم على تذليله مهما كان حقيراً صغيراً . . إذن : الأمور ليست بقدرتك ، ولكن خُذْها كما خلقها الله لك .

{ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا . . } [النحل : 69] .

ذلك أن النحلة تمتصّ الرحيق من هنا ومن هنا ، ثم تتم في بطنها عملية طَهْي ربانية تجعل من هذا الرحيق شَهْداً مُصفًّى؛ لأنه قد يظن أحدهم أنها تأخذ الرحيق ، ثم تتقيؤه كما هو . . فلم يَقُلْ القرآن : من أفواهها ، بل قال : من بطونها . . هذا المعمل الإلهي الذي يعطينا عسلاً فيه شفاء للناس .

{ شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ . . } [النحل : 69] .

ما دام النحل يأكل من كُلّ الثمرات ، والثمرات لها عطاءاتٌ مختلفة باختلاف مادتها ، واختلاف ألوانها ، واختلاف طُعومها وروائحها . . إذن : لا بُدَّ أن يكون شراباً مختلفاً ألوانه .

{ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ . . . } [النحل : 69] .

لذلك وجدنا كثيراً من الأطباء ، جزاهم الله خيراً يهتمون بعسل النحل ، ويُجْرون عليه كثيراً من التجارب لمعرفة قيمته الطبية ، لكن يعوق هذه الجهود أنهم لا يجدون العسل الطبيعي كما خلقه الله .

ومع ذلك ومع تدخّل الإنسان في غذاء النحل بقيت فيه فائدة ، وبقيت فيه صفة الشفاء ، وأهمها امتصاص المائية من الجسم ، وأيّ ميكروب تريد أنْ تقضيَ عليه قم بامتصاص المائية منه يموت فوراً .

فإذا ما توفَّر لنا العسل الطبيعي الذي خلقه الله تجلَّتْ حكمة خالقه فيه بالشفاء ، ولكنه إذا تدخّل الإنسان في هذه العملية أفسدها . . فالكون كله الذي لا دَخْلَ للإنسان فيه يسير سَيْراً مستقيماً لا يتخلَّف ، كالشمس والقمر والكواكب . . الخ إلا الإنسان فهو المخلوق الوحيد الذي يخرج عن منهج الله .

فالشيء الذي لك دَخْلٌ فيه ، إما أنْ تتدخّل فيه بمنهج خالقه أو تتركه؛ لأنك إذا تدخلْتَ فيه بمنهج خالقه يعطيك السلامة والخير ، وإنْ تدخلْتَ فيه بمنهجك أنت أفسدتَه .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرض قالوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ } [البقرة : 11] .

إنهم لا يعرفون . . لا يُفرّقون بين الفساد والصلاح .

وفي القرآن أمثلة للناس الذين يُفسِدون في الأرض ويحسَبون أنهم يُحسِنون صُنْعاً ، يقول تعالى : { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً } [الكهف : 103-104] .

فالذي اخترع السيارة وهذه الآلات التي تنفث سمومها وتُلوّث البيئة التي خلقها الله . . صحيح وفَّر لنا الوقت والمجهود في الحمل والتنقُّل ، ولكن انظر إلى ما أصاب الناس من عَطَب بسبب هذه الآلات . . انظر إلى عوادم السيارات وآثارها على صحة الإنسان .

كان يجب على مخترع هذه الآلات أنْ يوازنَ بين ما تؤديه من منفعة وما تُسبِّبه من ضرر ، وأضاف إلى الأضرار الصحية ما يحدث من تصادمات وحوادث مُروّعة تزهق بسببها الأرواح . . وبالله هل رأيت أن تصادمَ جملان في يوم من الأيام . . فلا بُدَّ إذن أن نقيسَ المنافع والأضرار قبل أنْ نُقدِم على الشيء حتى لا نُفسد الطبيعة التي خلقها الله لنا .

وقوله تعالى :

{ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ . . . . } [النحل : 69] .

الناس : جَمْعٌ مختلفُ الداءات باختلاف الأفراد وتعاطيهم لأسباب الداءات ، فكيف يكون هذا الشراب شفاءٌ لجميع الداءات على اختلاف أنواعها؟ . . نقول : لأن هذا الشراب الذي أعدَّه الله لنا بقدرته سبحانه جاء مختلفاً ألوانه . . من رحيق مُتعدِّد الأنواع والأشكال والطُّعوم والعناصر . . ليس مزيجاً واحداً يشربه كل الناس ، بل جاء مختلفاً متنوعاً باختلاف الناس ، وتنوّع الداءات عندهم . . وكأن كل عنصر منه يُداوِي داءً من هذه الدَّاءات .

وقوله تعالى :

{ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [النحل : 69] . التفكّر : أنْ تُفكّر فيما أنت بصدده لتستنبطَ منه شيئاً لستَ بصدده ، وبذلك تُثري المعلومات؛ لأن المعلومات إذا لم تتلاقح ، إذا لم يحدث فيها توالد تقف وتتجمّد ، ويُصاب الإنسان بالجمود الطموحي ، وإذا أصيب الإنسان بهذا الجمود توقّف الارتقاء؛ لأن الارتقاءات التي نراها في الكون هي نتيجة التفكُّر وإعمال العقل .

لذلك فالحق سبحانه يُنبّهنا حينما نمرُّ على ظاهرة من ظواهر الكون ، ألا نمر عليها غافلين مُعرضين ، بل نفكر فيها ونأخذها بعين الاعتبار . . يقول تعالى : { وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف : 105] .

ففي الآية حَثٌّ على التفكّر في ظواهر الكون ، وفيها تحذير من الإعراض والغفلة عن آيات الله ، فبالفكر نستنبط من الكون ما نستفيد به .

ولو أخذنا مثلاً الذي اخترع الآلة البخارية . . كيف توصل إلى هذا الاختراع الذي أفاد البشرية؟ نجد أنه توصل إليه حينما رأى القِدْر الذي يغلي على النار يرتفع غطاؤه مع بخار الماء المتصاعد أثناء الغليان . . فسأل نفسه : لماذا يرتفع الغطاء؟ واستعمل عقله وأعمل تفكيره حتى توصَّل إلى قوة البخار المتصاعد ، واستطاع توظيف هذه القوة في تسيير ودفع العربات .

وكذلك أرشميدس وغيره كثيرون توصلوا بالاعتبار والتفكُّر في ظواهر الكون ، إلى قوانين في الطبيعة أدت إلى اختراعات نافعة نتمتع نحن بها الآن ، فالذي اخترع العجلة ، كم كانت مشقة الإنسان في حَمْل الأثقال؟ وما أقصى ما يمكن أنْ يحمله؟ فبعد أنْ اخترعوا العجلات واستُخدِمت في الحمل تمكّن الإنسان من حَمْل وتحريك أضعاف أضعاف ما كان يحمله .

الذي اخترع خزانات المياه . . كم كانت المشقة في استخراج الماء من البئر؟ أو من النهر؟ فبعد عمل الخزانات وضَخّ المياه أصبحنا نجد الماء في المنازل بمجرد فَتْح الصنبور .

هذه كلها ثمرات العقل حينما يتدبَّر ، وحينما يُفكِّر في ظواهر الكون ، ويستخدم المادة الخام التي خلقها الله وحثَّنا على التفكُّر فيها والاستنباط منها . . وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لقد

أعطيتكم ضروريات الحياة ، فإنْ أردتُم ترفَ الحياة وكمالياتها فاستخدموا نعمة العقل والتفكير والتدبّر لتصلوا إلى هذه الكماليات .

وهنا الحق سبحانه يلفتنا لَفْتةً أخرى . . وهي أنه سبحانه يجعل من المحسّات ما يُقرّب لنا المعنويّات ليلفتنا إلى منهجه سبحانه؛ ولذلك ينقلنا هذه النَّقْلة من المحسوس إلى المعنوي ، فيقول تعالى : { والله خَلَقَكُمْ . . . } .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70)

قوله : { والله خَلَقَكُمْ . . } [النحل : 70] .

هذه حقيقة لا يُنكرها أحد ، ولم يَدّعِها أحدٌ لنفسه ، وقد أمدّكم بمقوّمات حياتكم في الأرض والنبات والحيوان ، والأنعام التي تعطينا اللبن صافياً سائغاً للشاربين ، ثم النحل الذي فيه شفاء للناس .

فالحق سبحانه أعطانا الحياة ، وأعطانا مُقوّمات الحياة ، وأعطانا ما يُزيل معاطبَ الحياة . . وما دُمْتم صدَّقتم بهذه المحسَّات فاسمعوا :

{ والله خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر . . . } [النحل : 70] .

وساعة أن نسمع (خلقكم) ، فنحن نعترف أن الله خلقنا ، ولكنْ كيف خلقنا؟ هذه لا نعرفها نحن؛ لأنها ليستْ عملية معملية . . فالذين خلق هو الحق سبحانه وحده ، وهو الذي يُخبرنا كيف خلق . . أما أنْ يتدخَّل الإنسان ويُقحِمَ نفسه في مسألة لا يعرفُها ، فنرى مَنْ يقول إن الإنسان أَصلُه قرد . . إلى آخر هذا الهُراء الذي لا أَصْلَ له في الحقيقة .

ولذلك ، فالحق سبحانه يقول لنا : إذا أردتُمْ أن تعرفوا كيف خُلِقْتُم فاسمعوا مِمَّنْ خلقكم . . إياكم أنْ تسمعوا من غيره؛ ذلك لأنني : { مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ } [الكهف : 51] .

هذه عملية لم يُطلع الله عليها أحداً : { وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً } [الكهف : 51] .

أي : ما اتخذتُ مساعداً يعاونني في مسألة الخَلْق .

وما هو المضلّ؟ المضِلّ هو الذي يقول لك الكلام على أنه حقيقة ، وهو يُضلُّك .

إذن : ربنا سبحانه وتعالى هنا يعطينا فكرة مُقدّماً : احذروا ، فسوف يأتي أناس يُضلونكم في موضوع الخَلْق ، وسوف يُغيّرون الحقيقة ، فإياكم أنْ تُصدِّقوهم؛ لأنهم ما كانوا معي وقت أنْ خلقتكم فيدَّعُون العلم بهذه المسألة .

ونفس هذه القضية في مسألة خَلْق السموات والأرض ، فالله سبحانه هو الذي خلقهما ، وهو سبحانه الذي يُخبرنا كيف خلق .

فحين يقول سبحانه :

{ والله خَلَقَكُمْ . . } [النحل : 70] .

فعلينا أن نقول : سَمْعاً وطاعة ، وعلى العين والرأس . . يا ربِّ أنت خلقتنا ، وأنت تعلم كيف خلقتنا ، ولا نسأل في هذا غيرك ، ولا نُصدِّق في هذا غير قَوْلك سبحانك .

ثم يقول تعالى :

{ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ . . } [النحل : 70] .

أي : منه سبحانه كان المبدأ ، وإليه سبحانه يعود المرجع . . وما دام المبدأ من عنده والمرجع إليه ، وحياتك بين هذين القوسين؛ فلا تتمرد على الله فيما بين القوسين؛ لأنه لا يليق بك ذلك ، فأنت منه وإليه . . فلماذا التمرد؟

ربُّنا سبحانه وتعالى هنا يُعطينا دليلاً على طلاقة قدرته سبحانه في أمر الموت ، فالموت ليس له قاعدة ، بل قد يموت الجنين في بطن أمه ، وقد يموت وهو طفل ، وقد يموت شاباً أو شيخاً ، وقد يرد إلى أرذل العمر ، أي : يعيش عمراً طويلاً . . وماذا في أرذل العمر؟!

يُرَدُّ الإنسان بعد القوة والشباب ، بعد المهابة والمكان ، بعد أنْ كان يأمر وينهي ويسير على الأرض مُخْتالاً ، يُرَدُّ إلى الضَّعْف في كل شيء ، حتى في أَمْيز شيء في تكوينه ، في فكره ، فبعد العِلْم والحِفْظ وقوة الذاكرة يعود كالطفل الصغير ، لا يذكر شيئاً ولا يقدر على شيء .

ذلك لتعلم أن المسألة ليست ذاتية فيك ، بل موهوبة لك من خالقك سبحانه ، ولتعلم أنه سبحانه حينما يقضي علينا بالموت فهذا رحمة بنا وستْر لنا من الضعف والشيخوخة ، قبل أن نحتاج لمن يساعدنا ويُعينُنا على أبسط أمور الحياة ويأمر فينا مَنْ كُنّا نأمره .

ومن هنا كان التوفّي نعمة من نِعَم الله علينا ، ولكي تتأكد من هذه الحقيقة انظر إلى مَنْ أمدّ الله في أعمارهم حتى بلغوا ما سماه القرآن « أرذل العمر » وما يعانونه من ضعف وما يعانيه ذووهم في خدمتهم حتى يتمنى له الوفاة أقرب الناس إليه .

الوفاة إذن نعمة ، خاصة عند المؤمن الذي قدّم صالحاً يرجو جزاءه من الله ، فتراه مُسْتبشراً بالموت؛ لأنه عمَّر آخرته فهو يُحب القدوم عليها ، على عكس المسرف على نفسه الذي لم يُعِدّ العُدّة لهذا اليوم ، فتراه خائفاً جَزِعاً لعلمه بما هو قادم عليه .

و (ثُمَّ) حَرْف للعطف يفيد الترتيب مع التراخي . . أي : مرور وقت بين الحدثين . . فهو سبحانه خلقكم ، ثم بعد وقت وتراخٍ يحدث الحدَث الثاني (يتوفّاكم) . على خلاف حرف (الفاء) ، فهو حرف عطف يفيد الترتيب مع التعقيب أي : تتابع الحدثين ، كما في قوله تعالى : { أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ } [عبس : 21] .

فبعد الموت يكون الإقبار دون تأخير .

وقوله تعالى : { وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر . . . } [النحل : 70] .

وأرذل العمر : أردؤه وأقلّه وأخسُّه؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخرج الإنسان من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، فقال : { والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة . . . } [النحل : 78] .

وهذه هي وسائل العلم في الإنسان ، فإذا رُدَّ إلى أرذل العمر فقدتْ هذه الحواسّ قدرتها ، وضَعُفَ عملها ، وعاد الإنسان كما بدأ لا يعلم شيئاً بعد ما أصابه من الخَرف والهرم ، فقد توقفتْ آلات المعرفة ، وبدأ الإنسان ينسى ، وتضعف ذاكرته عن استرجاع ما كان يعلمه .

وقوله : { لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً . . } [النحل : 70] .

لذلك يُسمُّون هذه الحواس الوارث .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

{ إِنَّ الله عَلِيمٌ قَدِيرٌ } [النحل : 70] .

لأنه سبحانه بيده الخَلْق من بدايته ، وبيده سبحانه الوفاة والمرجع ، وهذا يتطلَّب عِلْماً ، كما قال سبحانه : { أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ . . } [الملك : 14] .

فلا بُدَّ من عِلم ، لأن الذي يصنع صَنْعة لا بُدَّ أن يعرفَ ما يُصلحها وما يُفسِدها ، وذلك يتطلَّب قدرة للإدراك ، فالعلم وحده لا يكفي .

ثم يقول الحق سبحانه : { والله فَضَّلَ . . } .

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71)

لو نظرنا إلى الكون من حولنا لوجدنا أننا لا نتساوى إلا في شيء واحد فقط ، هو أننا عبيدٌ لله . . نحن سواسية في هذه فقط ، وما دون ذلك فنحن مختلفون فيه ، تختلف ألواننا ، تختلف أجسامنا . . صورنا . . مواهبنا . . أرزاقنا .

والعجيب أن هذا الاختلاف هو عَيْنُ الاتفاق؛ ذلك لأن الاختلاف قد ينشأ عنه الاتفاق ، والاتفاق قد ينشأ عنه الاختلاف .

مثلاً : إذا دخلتَ أنت وصديقك أحد المطاعم وطلبتما دجاجة . . أنت بطبيعتك تحب صدر الدجاجة وصديقك يحب جزاءً آخر منها . . هذا خلاف . . فساعة أن يأتي الطعام تجد هذا الخلاف هو عين الوفاق حيث تأخذ أنت ما تحب ، وهو كذلك . . هذا خلاف أدى إلى وفاق . . فلو فرضنا أن كلانا يحب الصدر مثلاً . . هذا وفاق قد يؤدي إلى خلاف إذا ما حضر الطعام وجلسنا : أينا يأخذ الصدر؟!

فالحق سبحانه وتعالى خلقنا مختلفين في أشياء ، وأراد أن يكون هذا الاختلاف تكاملاً فيما بيننا .

. فكيف يكون التكامل إذن؟

هل نتصور مثلاً أن يُوجَد إنسان مجمعاً للمواهب ، بحيث إذا أراد بنا بيت مثلاً كان هو المهندس الذي يرسم ، والبنَّاء الذي يبني ، والعامل الذي يحمل ، والنجار والحداد والسباك . . الخ . هل نتصور أن يكون إنسان هكذا؟ . . لا . .

ولكن الخالق سبحانه نثَر هذه المواهب بين الناس نَثْراً لكي يظل كل منهم محتاجاً إلى غيره فيما ليس عنده من مواهب ، وبهذا يتم التكامل في الكون .

إذن : الخلاف بيننا هو عَين الوفاق ، وهو آية من آياته سبحانه وحكمة أرادها الخالق جَلَّ وعَلا ، فقال : { وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ } [هود : 118] .

فقد خلقنا هكذا .

وإلا فلو اتحدنا واتفقنا في المواهب ، فهل يعقل أن نكون جميعاً فلاسفة ، أطباء ، علماء ، فمَنْ يبني؟ ومَنْ يزرع؟ ومَنْ يصنع؟ . . الخ .

إذن : من رحمة الله أنْ جعلنا مختلفين متكاملين .

فالحق سبحانه يقول :

{ فِي الرزق . . . } [النحل : 71] .

ينظر الناس إلى الرزق من ناحية واحدة ، فهو عندهم المال ، فهذا غنيّ وهذا فقير . . والحقيقة أن الرزق ليس المال فقط ، بل كُلّ شيء تنتفع به فهو رِزْقك . . فهذا رِزْقه عقله ، وهذا رِزْقه قوته العضلية . . هذا يفكر وهذا يعمل .

إذن : يجب ألاَّ ننظر إلى الرزق على أنه لَوْن واحد ، بل ننظر إلى كل ما خلق الله لخَلْقه من مواهب مختلفة : صحة ، قدرة ، ذكاء ، حِلْم ، شجاعة . . كل هذا من الرزق الذي يحدث فيه التفاضل بين الناس .

والحق سبحانه وتعالى حينما تعرَّض لقضية الرزق جعل التفاضل هنا مُبْهماً ، ولم تحدد الآية مَنِ الفاضل ومَنِ المفضول ، فكلمة بَعْضٍ مُبْهمة لنفهم منها أن كل بعض منَ الأبعاض فاضل في ناحية ، ومفضول في ناحية أخرى .

. فالقوي فاضل على الضعيف بقوته ، وهو أيضاً مفضول ، فربما كان الضعيف فاضلاً بما لديه من علم أو حكمة . . وهكذا .

إذن : فكلُّ واحد من خَلْق الله رَزَقه الله موهبة ، هذه الموهبة لا تتكرر في الناس حتى يتكامل الخَلْق ولا يتكررون . . وإذا وجدت موهبة في واحد وكانت مفقودة في الآخر فالمصلحة تقتضي أن يرتبط الطرفان ، لا ارتباط تفضُّل ، وإنما ارتباط حاجة . . كيف؟

القويُّ يعمل للضعيف الذي لا قوةَ له يعمل بها ، فهو إذن فاضل في قوته ، والضعيف فاضل بما

يعطيه للقوي من مال وأجر يحتاجه القوي ليقُوتَ نفسه وعياله ، فلم يشأ الحق سبحانه أنْ يجعلَ الأمر تفضُّلاً من أحدهما على الآخر ، وإنما جعله تبادلاً مرتبطاً بالحاجة التي يستبقي بها الإنسان حياته .

وهكذا يأتي هذا الأمر ضرورة ، وليس تفضَّلاً من أحد على أحد؛ لأن التفضُّل غير مُلْزَم به فليس كل واحد قادراً على أن يعطي دون مقابل ، أو يعمل دون أجر . . إنما الحاجة هي التي تحكم هذه القضية .

إذن : ما الذي ربط المجتمع؟ هي الحاجة لا التفضُّل ، وما دام العالم سيرتبط بالحاجة ، فكل إنسان يرى نفسه فاضلاً في ناحية لا يغترّ بفاضليته ، بل ينظر إلى فاضلية الآخرين عليه؛ وبذلك تندكُّ سِمَة الكبرياء في الناس ، فكلٌّ منهما يُكمل الآخر .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالباشا الغني صاحب العظمة والجاه . . والذي قد تُلْجِئه الظروف وتُحوجه لعامل بسيط يُصلح له عُطْلاً في مرافق بيته ، وربما لم يجده أو وجده مشغولاً ، فيظل هذا الباشا العظيم نَكِداً مُؤرّقاً حتى يُسعفه هذا العامل البسيط ، ويقضي له ما يحتاج إليه .

هكذا احتاج صاحب الغنى والجاه إلى إنسان ليس له من مواهب الحياة إلا أنْ يقضي مثل هذه المهام البسيطة في المنزل . . وهو في نفس الوقت فاضل على الباشا في هذا الشيء .

فالجميع إذن في الكون سواسية ، ليس فينا مَنْ بينه وبين الله سبحانه نسب أو قرابة فيجامله . . كلنا عبيد لله ، وقد نثر الله المواهبَ في الناس جميعاً ليتكاملوا فيما بينهم ، وليظل كُلٌّ منهم محتاجاً إلى الآخر ، وبهذا يتم الترابط في المجتمع .

وقد عُرِضَتْ هذه القضية في آية أخرى في قوله تعالى : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً . . } [الزخرف : 32] .

البعض يفهم أن الفقير مُسخّر للغنيّ ، لكن الحقيقة أن كلاً منهما مُسخَّر للآخر . . فالفقير مُسخّر للغني حينما يعمل له العمل ، والغني مُسخّر للفقير حينما يعطي له أجره . .

ولذلك فالشاعر العربي يقول :

النَّاسُ لِلْناسِ مِنْ بَدْوٍ وحاضرة ... بَعْضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خَدَمُ

ونضرب هنا مثلاً بأخسّ الحرف في عُرْف الناس وإنْ كانت الحِرف كلها شريفة ، وليس فيها خِسَّة طالما يقوت الإنسان منها نفسه وعياله من الحلال .

. فالخِسَّة في العاطل الأخرق الذي يُتقِن عملاً .

هذا العامل البسيط ماسح الأحذية ينظر إليه الناس على أنهم افضل منه ، وأنه أقل منهم ، ولو نظروا إلى علبة الورنيش التي يستخدمها لوجدوا كثيرين من العمال والعلماء والمهندسين والأغنياء

يعملون له هذه العلبة ، وهو فاضل عليهم جميعاً حينما يشتري علبة الورنيش هذه . . لكن الناس لا ينظرون إلى تسخير كل هؤلاء لهذا العامل البسيط .

فقوله تعالى : { لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً . . } [الزخرف : 32] .

مَنْ مِنّا يُسخّر الآخر؟! كُلٌّ منا مُسخَّر للآخر ، أنت مُسخَّر لي فيما تتقنه ، وأنا مُسخَّر لك فيما أتقنه . . هذه حكمة الله في خَلْقه ليتم التوازن والتكامل بين أفراد المجتمع .

وربُّنا سبحانه وتعالى لم يجعل هذه المهن طبيعية فينا . . يعني هذا لكذا وهذا لكذا . . لا . . الذي يرضى بقدر الله فيما يُناسبه من عمل مهما كان حقيراً في نظر الناس ، ثم يُتقن هذا العمل ويجتهد فيه ويبذل فيه وُسْعه يقول له الحق سبحانه : ما دُمْتَ رضيتَ بقدري في هذا العمل لأرفعنّك به رِفْعة يتعجَّب لها الخَلْق . .

وفعلاً تراهم ينظرون إلى أحدهم ويشيرون إليه : كان شيالاً . . كان أجيراً . . نعم كان . . لكنه رَضِي بما قسم الله وأتقن وأجاد ، فعوَّضه الله ورفعه وأعلى مكانته .

ولذلك يقولون : مَنْ عمل بإخلاص في أيّ عمل عشر سنين يُسيّده الله بقية عمره ، ومَنْ عمل بإخلاص عشرين سنة يُسيّد الله أبناءه ، ومَنْ عمل ثلاثين سنة سيَّد الله أحفاده . . لا شيء يضيع عند الله سبحانه .

فليس فينا أَعْلى وأَدْنى ، وإياك أنْ تظنَّ أنك أعلى من الناس ، نحن سواسية ، ولكن مِنَّا من يُتقِن عمله ، ومِنَّا مَنْ لا يتقن عمله؛ ولذلك قالوا : قيمة كل امرئ ما يُحسِنه .

ولا تنظر إلى زاوية واحدة في الإنسان ، ولكن انظر إلى مجموع الزوايا ، وسوف تجد أن الحق سبحانه عادلٌ في تقسيم المواهب على الناس .

وقد ذكرنا أنك لو أجريتَ معادلة بين الناس لوجدتَ مجموع كل إنسان يساوي مجموع كُلِّ إنسان ، بمعنى أنك لو أخذتَ مثلاً : الصحة والمال والأولاد والقوة والشجاعة وراحة البال والزوجة الصالحة والجاه والمنزلة . . الخ لوجدت نصيب كُلٍّ منّا في نهاية المعادلة يساوي نصيب الآخر ، فأنت تزيد عني في القوة ، وأنا أزيد عنك في العلم ، وهكذا . . لأننا جميعاً عبيدٌ لله ، ليس مِنّا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة .

وقوله تعالى :

{ فَمَا الذين فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ على مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ . . . } [النحل : 71] .

فما ملكت أيمانهم : هم العبيد المماليك . . والمعنى : أننا لم نَرَ أحداً منكم فضّله الله بالرزق ، فأخذه ووزّعه على عبيده ومماليكه ، أبداً . . لم يحدث ذلك منكم . . والله سبحانه لا يعيب عليهم هذا التصرف ، ولا يطلب منهم أنْ يُوزّعوا رزق الله على عبيدهم ، ولكن في الآية إقامةٌ للحجة عليهم ، واستدلال على سُوء فعلهم مع الله سبحانه وتعالى .

وكأن القرآن يقول لهم : إذا كان الله قد فُضَّل بعضكم في الرزق ، فهل منكم مَنْ تطوع برزق الله له ، ووزَّعه على عبيده؟ . . أبداً . . لم يحدث منكم هذا . . فكيف تأخذون حق الله في العبودية والألوهية وحقّه في الطاعة والعبادة والنذر والذبح ، وتجعلونه للأصنام والأوثان؟!

فأنتم لم تفعلوا ذلك فيما تملكون . . فكيف تسمحون لأنفسكم أنْ تأخذوا حقَّ الله ، وتعطوه للأصنام والأوثان؟

ويقول تعالى في آية أخرى : { ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ . . } [الروم : 28] .

أي : أنكم لم تفعلوا هذا مع أنفسكم ، فكيف تفعلونه مع الله؟ فهذه لَقْطة : أنكم تُعاملون الله بغير ما تُعاملون به أنفسكم :

{ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ . . . } [النحل : 71] .

أي : أنكم سوَّيتُم بين الله سبحانه وبين أصنامكم ، وجعلتموهم شركاء له سبحانه وتعالى وتعبدونهم مع الله .

والحق سبحانه وإنْ رزقنا وفضَّلَنا فقد حفظ لنا المال ، وحفظ لنا الملكية ، ولم يأمرنا أن نعطي أموالنا للناس دون عمل وتبادل منافع ، فإذا ما طلب منك أن تعطي أخاك المحتاج فوق ما افترض عليك من زكاة يقول لك : { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ . . } [البقرة : 245] .

مع أن الحق سبحانه واهب الرزق والنِّعَم ، يطلب منك أنْ تُقرِضه ، وكأنه سبحانه يحترم عملك ومجهودك ، ويحترم ملكيتك الخاصة التي وهبها لَك . . فيقول : أقرضني . لعلمه سبحانه بمكانة المال في النفوس ، وحِرْص المقرض على التأكد من إمكانية الأداء عند المقترض ، فجعل القرض له سبحانه لتثقَ أنت أيها المقرض أن الأداء مضمون من الله .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله :

{ أَفَبِنِعْمَةِ الله يَجْحَدُونَ } [النحل : 71] .

أي : بعد أنْ أنعم الله عليهم بالرزق ، ولم يطلب منهم أنْ ينثروه على الغير ، جحدوا هذه النعمة ، وأنكروا فَضْل الله ، وجعلوا له شركاء من الأصنام والأوثان ، وأخذوا حَقَّ الله في العبودية والألوهية وأعطوْهُ للأصنام والأوثان ، وهذا عَيْنُ الجحود وإنكار الجميل .

ثم يقول الحق سبحانه : { والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ . . . } .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72)

الحق سبحانه في الآية السابقة قنَّن لنا قضية القمة قضية العقيدة في أننا لا نعطي شيئاً جعله الله لنفسه سبحانه من العبودية والألوهية والطاعة وغيرها ، لا نعطيها لغيره سبحانه . . وإذا صَحَّتْ هذه القضية العَقدية صَحَّتْ كل قضايا الكون .

ثم بيَّن سبحانه أنه خلقنا من واحد ، ثم خلق من الواحد زوجة له ، ليتم التناسل والتكاثر . . إذ إن استمرارَ بقائكم خاضعٌ لأمرين :

الأمر الأول : استبقاء الحياة ، وقد ضمنه سبحانه بما أنعم به علينا من الأرزاق ، فنأكل ونشرب فنستبقي الحياة ، فبعد أنْ تحدّث عن استبقاء الحياة بالرزق في الآية السابقة ذكر :

الأمر الثاني : وهو استبقاء الحياة ببقاء النوع ، فقال سبحانه :

{ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً . . . } [النحل : 72] .

والأزواج : جمع زوج ، والزوج لا يعني الرجل فقط ، بل يعني الرجل والمرأة؛ لأن كلمة (زوج) تُطلَق على واحد له نظير من مثله ، فكلٌّ واحد منهما زَوْج . . الرجل زوج ، والمرأة زوج ، فتُطلق إذن على مُفْرد ، لكن له نظير من مثل .

و { مِّنْ أَنْفُسِكُمْ } [النحل : 72] .

أي : من نَفْس واحدة ، كما قال في آية أخرى : { خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . . } [الزمر : 6] .

يعني : أخذ قطعة من الزوج ، وخلق منها الزوجة ، كما خلق سبحانه حواء من آدم عليهما السلام .

أو : { وَخَلَقَ مِنْهَا . . } [النساء : 1] .

أي : من جنسها ، كما قال تعالى : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . } [التوبة : 128] .

أي : من جنسكم .

فالمسألة تحتمل المعنيين . . مَن اتسع ظنُّه إلى أن الله خلق حواء من ضِلع آدم أي : منه ، من بعضه فلا مانع ، ومَنْ قال : خلق الله حواء كما خلق آدم خَلْقاً مستقلاً ، ثم زَاوَج بينهما بالزواج فلا مانع . . فالأول على معنى البَعْضية ، والثاني على معنى من جنسكم .

قلنا : إن الجمع إذا قابل الجمع اقتضت القسمةُ آحاداً . . كما لو قال المعلم لتلاميذه : أخرجوا كتبكم ، فهو يخاطب التلاميذ وهم جمع . وكتبهم جمع ، فهل سيُخرِج كل تلميذ كُتب الآخرين؟! . . لا . . بل كل منهم سيُخرج كتابه هو فقط . . إذن : القسمة هنا تقتضي آحاداً . . وكذلك المعنى في قوله تعالى : { خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً . . . } [الروم : 21] .

أي : خلق لكل منكم زَوْجاً .

ولكي نتأكد من هذه الحقيقة ، وأن الخَلْق بدأ بآدم عليه السلام نردُّ الأشياء إلى الماضي ، وسوف

نجد أن كُلَّ متكاثر في المستقبل يتناقص في الماضي . . فمثلاً سُكّان العالم اليوم أكثر من العام الماضي . . وهكذا تتناقص الأعداد كلما أوغلنا في الماضي ، إلى أن نصلَ إلى إنسان واحد هو آدم عليه السلام ومعه زوجه حواء ، لأن أقلَّ التكاثر من اثنين .

إذن : قوله سبحانه : { خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . }

[النساء : 1] .

كلام صحيح يؤيّده الاستقراء والإحصاء .

لذلك يمتنُّ ربّنا سبحانه علينا أنْ خلقَ لنا أزواجاً ، ويمتنُّ علينا أن جعل هذا الزوج من أنفسنا ، وليس من جنس آخر ، لأن إلْفَ الإنسان وأنْسه لا يتم إلا بجنسه ، وهذه من أعظم نعم الله علينا ، ولك أن تتصوَّر الحال إذا جعل الله لنا أزواجاً من غير جنسنا!! كيف يكون؟!

هذا الزوج اشترك معنا في أشياء ، واختلف عنّا في شيء واحد ، اتفقنا في أشياء : فالشكل واحد ، والقالب واحد ، والعقل واحد ، والأجزاء واحدة : عينان وأذنان . . يدان ورجْلان . . الخ ، وهذا الاشتراك يُعين على الارتقاء والمودة والأنْس والألْفة .

واختلفنا في شيء واحد هو النوع : فهذا ذكر ، وهذه أنثى . إذن : جمعنا جنس ، وفرَّقنا النوع لِيتمّ بذلك التكامل الذي أراده سبحانه لعمارة الأرض .

وهناك احتمال أن يتحوَّل الذكر إلى أنثى أو الأنثى إلى ذكر ، لذلك خلق الله الاحتياط لهذه الظاهرة ، كأنْ يكونَ للرجل ثَدْي صغير ، أو غيره من الأعضاء القابلة للتحويل ، إذا ما دَعَتْ الحاجة لتغيير النوع . . فهذا تركيب حكيم وقدرة عالية .

إذن :

{ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ . . . } [النحل : 72] .

ليزداد الإلْف والمحبة والأُنْس والمودّة بينكم؛ ولذلك نجد في قصة سيدنا سليمان عليه السلام والهدهد ، حينما تفقَّد الطير وعرف غياب الهدهد قال : { لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } [النمل : 21] .

وهذا سلطان الملْك الذي أعطاه الله لسليمان . . قالوا في : { لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً . . } [النمل : 21] .

أي : يضعه في غير جنْسه . . إذن : وَضْعه في غير جنسه نوع من العذاب . . وتكون (من أنفسكم) نعمة ورحمة من الله .

وفي الآية الأخرى يذكر سبحانه عناصر ثلاثة لاستبقاء العلاقة الزوجية ، فيقول تعالى : { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لتسكنوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الروم : 21] .

ولو تأملنا هذه المراحل الثلاثة لوجدنا السكن بين الزوجين ، حيث يرتاح كُلٌّ منهما إلى الآخر ، ويطمئن له ويسعد به ، ويجد لديه حاجته . . فإذا ما اهتزتْ هذه الدرجة ونفرَ أحدهما من الآخر جاء دور المودّة والمحبة التي تُمسِك بزمام الحياة الزوجية وتوفر لكليهما قَدْراً كافياً من القبول .

فإذا ما ضعف أحدهما عن القيام بواجبه نحو الآخر جاء دور الرحمة ، فيرحم كل منهما صاحبه . . يرحم ضَعْفه . . يرحم مرضه . . وبذلك تستمر الحياة الزوجية ، ولا تكون عُرْضة للعواصف في رحلة الحياة .

فإذا ما استنفدنا هذه المراحل ، فلم يَعُدْ بينهما سَكَن ولا مودّة ، ولا حتى يرحم أحدهما صاحبه فقد استحالتْ بينهما العِشرة ، وأصبح من الحكمة مفارقة أحدهما للآخر .

وهنا شرع الحق سبحانه الطلاق ليكون حلاً لمثل هذه الحالات ، ومع ذلك جعله ربنا سبحانه أبغض الحلال ، حتى لا نقدم عليه إلا مُضطرّين مُجْبرين .

وقوله تعالى :

{ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً .

. } [النحل : 72] .

البنون هم الحلقة الأولى لاستبقاء الحياة ، والحفَدة وهم وَلَدُ الولد ، هم الحلقة الثانية لاستبقاء الحياة؛ ذلك لأن الإنسان بطبْعه يحب الحياة ويكره الموت ، وهو يراه كل يوم يحصد النفوس من حَوْله . . فإيمانه بالموت مسألة محققة ، فإذا ما تيقَّن أن الحياة تفوته في نفسه أراد أنْ يستبقيَها في وَلَده . . ومن هنا جاء حُبُّ الكثيرين مِنَّا ، للذكور الذين يُمثّلون امتداداً للآباء .

فإذا ما رزقه الله الأبناء ، وضمن له الجيل الأول تطلّع إلى أنْ يرى أبناء الأبناء؛ ليستبقي الحياة له ولولده من بعده؛ ولذلك فالشاعر الذي يخاطب ابنه يقول له :

أبُنيّ . . يَا أنَا بَعْدَمَا أَقْضِي ... وهذه هي نظرة الناس إلى الأولاد ، أنهم ذِكْر لهم بعد موتهم . . وكأن اسمه موصولٌ لا ينتهي .

ويقول الله تبارك وتعالى :

{ بَنِينَ وَحَفَدَةً . . . } [النحل : 72] .

تدلُّنا على ضرورة الحرص على اندماج الأجيال . . زوجين ، ثم أبناء وحفدة . . فما فائدة اندماج الأجيال؟ ما فائدة المعاصرة والمخالطة بين الجدِّ وحفيده؟

نلاحظ أن الوليد الصغير يبدأ عنده الإدراك بمجرد أنْ تعملَ وسائل الإدراك عنده ، فيبدأ يلتقط مِمَّنْ حوله ويتعلَّم منهم . . فإذا كان له أخوة اكبر منه تعلّم منهم مثلاً بابا . . ماما . . فإذا لم يكُنْ له أخوة نُعلّمه نحن هذه الكلمات .

ولذلك نرى الطفل الثاني أذكى من الأول ، والثالث أذكى من الثاني . . وهكذا لأنه يأخذ مِمَّنْ

قبله وممَّنْ حوله ، فيزداد بذلك إدراكه ، وتزداد خبراته ومعلوماته .
ولنتصور أن هذا الابن أصبح أباً ، وجاء الحفيد الذي يعاصر الجيلين؛ جيل الأب وجيل الجدِّ ، يشبّ الصغير في أحضانهما ، فتراه يأخذ من أبيه نشاطه في حركة الحياة وسَعْيه للرزق .
في حين أنه يأخذ من جَدِّه القيم الدينية حيث الجد في البيت باستمرار بعد أن تقدَّم به العمر فأقبل على الطاعة والعبادة . . فيسمع منه الصغير قراءة القرآن . . متى يؤذن للظهر . . يا ولد هات المصحف . . يا ولد هات السجادة لأصلي ، إلى غير هذه من الكلمات التي يأخذ منها الصغير هذه القيم .
إذن : الحفيد يلتقط لوناً من النشاط والحركة في جيل أبيه ، ويلتقط لوناً من القيم في جيل جَدِّه؛ ولذلك فإن ابتعاد الأجيال يُسبِّب نقصاً في تكوين الأطفال ، والحق سبحانه يريد أنْ تلتحمَ الأجيال لتكتمل للطفل عناصر التربية بين القيم المعنوية والحركة والنشاط .
وقوله تعالى :
{ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات . . . } [النحل : 72] .
الطيبات في الرزق الذي جعله الله لاستبقاء الحياة ، وفي الزواج الذي جعله الله لاستبقاء النوع .
ثم يقول تعالى :
{ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ الله هُمْ يَكْفُرُونَ } [النحل : 72] .
الباطل : هو الأصنام التي اتخذوها من دون الله .
وفي الآية استفهام للتعجُّب والإنكار . . كيف تكفرون بنعمة الله وقد خلقكم في البَدْء من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها .

. وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً . . وجعل بينكم سكناً ومودة ورحمة ، ثم جعل لكم البنين والحفدة ، ورزقكم من نِعم الحياة ما يستبقي حياتكم ، ومن نِعَم الأزواج ما يستبقي نوعكم ، وجعلكم في نعمة ورفاهية . . خلقكم من عدم ، وأمدَّكم من عُدم .
أبعد ذلك كله تجحدون نعمته وتكفرونها ، وبدل أنْ تُقبِلوا عليه وتلتفتوا إليه تنصرفون إلى عبادة الأصنام التي لا تضرُّ ولا تنفع . . وهل عملتْ لكم الأصنامُ شيئاً من ذلك؟! هل أنعمتْ عليكم بنعمة من هذه النعم؟!
هذه الأصنام محتاجة إليكم . . تأخذ منكم ولا تعطيكم . . فهذا مائل يريد مَنْ يقيمه . . وهذا كُسِر يحتاج لمن يُصلحه . . انقل الإله . . ضَع الإله في مكان كذا . . الخ .
ولذلك يقول تعالى في الآية بعدها : { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ . . . } .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73)

والعبادة أن يطيع العابد معبوده ، وهذه الطاعة تقتضي تنفيذ الأمر واجتناب النهي . . فهل العبادة تنفيذ الأمر واجتناب النهي فقط؟ نقول : لا بل كل حركة في الحياة تُعين على عبادة فهي عبادة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولتوضيح هذه القضية نضرب هذا المثل :

إذا أردتَ أن تُؤدّي فرض الله في الصلاة مثلاً ، فأنت تحتاج إلى قوة لتؤدي هذه الفريضة ، ولن تجد هذه القوة إلا بالطعام والشراب ، ولنأخذ أبسط ما يمكن تصوّره من الطعام . . رغيف العيش . . فانظر كم يّدٌ شاركتْ فيه منذ كان حبةَ قمح تلقى في الأرض إلى أنْ أصبح رغيفاً شهياً .

إن هؤلاء جميعاً الذين أداروا دولاب هذه العملية يُؤدّون حركة إيجابية في الحياة هي في حَدِّ ذاتها عبادة لأنها أعانتْك على عبادة .

أيضاً إذا أردت أنْ تُصلّي ، فواجب عليك أنْ تستر عورتك . . انظر إلى هذا القماش الذي لا تتم الصلاة إلا به . . كُلّ مَنْ أسهم في زراعته وصناعته حتى وصل إليك . . جميعهم يؤدون عبادة بحركتهم في صناعة هذا القماش .

إذن : كل شيء يُعينك على عبادة الله فهو عبادة ، وكل حركة في الكون تؤدي إلى شيء من هذا فهي عبادة .

والحق سبحانه وتعالى حينما استدعى المؤمنين لصلاة الجمعة ، قال سبحانه : { يأيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع . . . } [الجمعة : 9] .

لم يأخذهم من فراغ ، بل من عمل ، ولكن لماذا قال سبحانه : (وَذَرُوا البَيْعَ) . . لماذا البيع بالذات؟

قالوا : لأن البيع هو غاية كل حركات الحياة ، فهو واسطة بين مُنتج ومُسْتهلك . . ولم يَقُل القرآن : اتركوا المصانع أو الحقول ، لأن هناك أشياء لا تأتي ثمرتها في ساعتها . . فمَنْ يزرع ينتظر شهوراً ليحصد ما زرع ، والصانع ينتظر إلى أن يبيعَ صناعته . . لكن البيع صفقة حاضرة ، فهي محلّ الاهتمام . . وكذلك لم يَقُلْ : ذروا الشراء ، قالوا : لأن البائع يحب أن يبيعَ ، ولكن المشتري قد يشتري وهو كاره . . فأتى القرآن بأدقِّ شيء يمكن أن يربطك بالزمن ، وهو البيع .

فإذا ما انقضتْ الصلاة أمرنا بالعودة إلى العمل والسعي في مناكب الأرض : { فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله . . . } [الجمعة : 10] .

فقوله تعالى :

{ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله . . } [النحل : 73] .

أراد الحق سبحانه أن يتكلم عن الجهة التي يُؤثِرونها على الله . . وهي الأصنام . . فالله سبحانه الذي خلقهم ورزقهم من الطيبات ، وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً ، وجعل لهم بنين وحفدة . . كان يجب أن يعبدوه لنعمته وفَضْله . . فالذي لا يعبد الله لذاته سبحانه يعبده لنعمه وحاجته إليه

. . فعندنا عبادة للذات لأنه سبحانه يستحق العبادة لذاته ، وعبادة لصفات الذات في معطياتها ، فمَنْ لم يعبده لذاته عبده لنعمته .

وطالما أن العبادة تقتضي تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي . . فكيف تكون العبادة إذن في حق هذه الأصنام التي اتخذوها؟! كيف تعبدونها وهي لم تأمركم بشيء ولم تنهكُمْ عن شيء؟! .
وهذا أول نَقْد لعبادة غير الله من شمس أو قمر أو صنم أو شجر .
وكذلك . . ماذا تعطي الأصنام أو غيرها من معبوداتكم لمن عبدها ، وماذا أعدَّتْ لهم من ثواب؟! وبماذا تعاقب مَنْ كفر بها؟ . . إذن : فهو إله بلا منهج .
والتديّن غريزة في النفس يلجأ إليها الإنسان في وقت ضعفه وحاجته . . والله سبحانه هو الذي يحب أن نلجأ إليه وندعو ونطلب منه قضاء الحاجات . . وله منهج يقتضي مطلوبات تدكُّ السيادة والطغيان في النفوس ويقتضي تكليفات شاقة على النفس .
إذن : لجأ الكفار إلى عبادة الأصنام والأوثان لأنها آلهة بلا تكليف ، ومعبودات بلا مطلوبات .
ما أسهل أن يتمحّك إنسان في إله ويقول : أنا أعبده دون أن يأمر بشيء أو ينهى عن شيء! ما أسهل أن يُرضي في نفسه غريزة التدين بعبادة مثل هذا الإله .
لكن يجب ألاّ تنسوا أن هذا الإله الذي ليس له تكليف لن تستطيعوا أنْ تطلبوا منه شيئاً ، أو تلجأوا إليه في شدة . . فهذا غير معقول فكما أنهم لا يطلبوا منكم شيئاً ، كذلك لا يملكون لكم نَفْعاً ولا ضراً .
لذلك وجدنا الذين يدَّعُون النبوة . . هؤلاء الكذابون يُيسِّرون على الناس سُبُل العبادة ، ويُبيحون لهم ما حرَّمه الدين مثل اختلاط الرجال والنساء وغيره؛ ذلك لاستقطاب اكبر عدد ممكن من الأتباع .
فجاء مسيلمة الكذاب وأراد أن يُسهِّل على الناس التكليف فقال بإسقاط الصلاة ، وجاء الآخر فقال بإسقاط الزكاة . . وقد جذب هذا التسهيل كثيراً من المغفلين الذين يَضِيقون بالتكليف ، ويميلون لدين سَهْل يناسب هِمَمهم الدَّنية .
وهكذا وجدنا لهؤلاء الكذابين أنصاراً يُؤيّدونهم ويُناصرونهم . . ولكن سرعان ما تتكشف الحقائق ، ويقف هؤلاء المخدوعون على حقيقة أنبيائهم .
وقوله تعالى :
{ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً . . } [النحل : 73] .
نلاحظ في هذه الآية نَوْعاً من الارتقاء في الاستدلال على بطلان عبادة الأصنام؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى قال عنهم في آية أخرى : { لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ } [النحل : 20] .
فنفى عنهم القدرة على الخَلْق ، بل إنهم هم المخلوقون . . يذهب الواحد منهم فيُعجبه حجر ،

فيأخذه ويُعمل فيه مِعْوله حتى يُصوِّره على صورة ما ، ثم يتخذه إلهاً يعبده من دون الله .
فلما نفى عنهم القدرة على الخَلْق أراد هنا أنْ يترقّى في الاستدلال ، فنفى عنهم مجرد أنْ يملكوا ، فقد يملك الواحد ما لا يخلقه ، فتُقرّر الآية هنا أنهم لا يملكون . . مجرد الملك .
وقوله تعالى :
{ مِّنَ السماوات والأرض شَيْئاً .

. } [النحل : 73] .
فالرزق من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات ، ومن المصدرين يأتي رزق الله ، وبذلك يضمن لنا الحق تبارك وتعالى مُقوِّمات الحياة وضرورياتها من ماء السماء ونبات الأرض .
فإنْ أردتُمْ ترفَ الحياة فاجتهدوا فيما أعطاكم الله من مُقوِّمات الحياة لِتصلوا إلى هذا الترف .
فالرزق الحقيقي المباشر ما أنزله الله لنا من مطر السماء فأنبت لنا نبات الأرض .
ونُوضِّح ذلك فنقول : هَبْ أن عندك جبلاً من ذهب ، أو جبلاً من فضة ، وقد عضَّك الجوع في يوم من الأيام . . هل تستطيع أنْ تأكلَ من الذهب أو الفضة؟
إنك الآن في حاجة لرغيف عيش ، لا لجبل من ذهب أو فضة . . رغيف العيش الذي يحفظ لك حياتك في هذا الموقف افضل من هذا كله .
وهذا هو الرزق المباشر الذي رزقه الله لعباده ، أما المال فهو رِزْق غير مباشر ، لا تستطيع أن تأكل منه أو تعيش عليه .
وكلمة : (شَيْئَاً) أي : أقلّ ما يُقَال له شيء ، فالأصنام والأوثان لا تملك لهم رزقاً مهما قَلَّ؛ لأنه قد يقول قائل : لا يملكون رِزْقاً يكفيهم . . لا . . بل لا يملكون شيئاً .
ثم يعطينا الحق سبحانه لمحة أخرى في قوله تعالى :
{ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ } [النحل : 73] .
أي : لا يملكون لهم رِزْقاً في الحاضر ، ولن يملكوا في المستقبل ، وهذا يقطع الأمل عندهم ، فهُمْ لا يملكون اليوم ، ولن يملكوا غداً؛ ذلك لأن هناك أشياء ينقطع الحكم فيها وَقْتاً . . وأشياء مُعلّقة يمكن أن تُسْتأنفَ فيما بعد ، فهذه الكلمة :
{ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ } [النحل : 73] .
حُكْم قاطع لا استئناف له فيما بَعْد .
ولذلك؛ نجد هؤلاء الذين يُحبّون أنْ يجدوا في القرآن مَأْخذاً يجادلون في قوله تعالى : { قُلْ ياأيها الكافرون * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَاْ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ } [الكافرون : 1-5] .
فهؤلاء يرون في السورة تكراراً يتنافى وبلاغةَ القرآن الكريم . . نقول : ليس في السورة تكرار لو

تأملتُم . . ففي السورة قَطْع علاقات على سبيل التأبيد والاستمرار ، فالحق سبحانه يقول : { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } [الكافرون : 6] .

في الحاضر ، وفي المستقبل ، وإلى يوم القيامة .

فقوله : { لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ } [الكافرون : 2-3] .

وهذا قَطْع علاقات في الوقت الحاضر . . ولكن مَنْ يُدرينا لعلَّنا نستأنف علاقات أخرى فيما بعد . . فجاء قوله تعالى : { وَلاَ أَنَاَ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ } [الكافرون : 4-5] .

لا للتكرار ، ولكن لقطع الأمل في إعادة العلاقات في المستقبل ، فالقضية إذن منتهية من الآن على سبيل القَطْع .

كذلك المعنى في قوله تعالى :

{ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ . . . } [النحل : 73] .

أي : لا يستطيعون الآن ، ولا في المستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ . . . } .

فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (74)

الأمثال : جمع مِثْل ، وهو النِّد والنظير .

وفي الآية نَهْي عن أن نُشبِّه الله سبحانه بشيء آخر؛ لأن الحق تبارك وتعالى واحدٌ في ذاته ، واحد في صفاته ، واحد في أفعاله . . إياك أن تقول عن ذات : إنها تشبه ذاته سبحانه ، أو صفات تشبه صفاته سبحانه ، فإنْ وجدت صفة لله تعالى يُوجد مثلها في البشر فاعلم أنها على مقياس .

{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى : 11] .

فالحق سبحانه ينهانا أنْ نضرب له الأمثال ، إنما هو سبحانه يضرب الأمثال؛ لأنه حكيم يضرب المثَل في محلّه لِيُوضّح القضية الغامضة بالقضية المشاهدة؛ ولذلك يقول تعالى : { وَلِلَّهِ المثل الأعلى . . } [النحل : 60] .

أي : الصفة العليا في كل شيء ، فإذا وجدتَ صفات مشتركة بينكم وبين الحق سبحانه فنزِّه الله عن الشبيه والنظير والنِّد والمثيل وقل : (ليس كمثله شيء) .

فأنت موجود والله موجود ، ولكن وجودك مسبوقٌ بعدم ويلحقه العدم ، ووجوده سبحانه لا يسبقه عدم ولا يلحقه العدم .

وقد ضرب الله لنا مثلاً لنفسه سبحانه لِيُوضِّح لنا تنويره سبحانه للكون ، وليس مثَلاً لنوره كما نظنّ . . بل هو مثَل لتنويره لا لنوره .

يقول تعالى في سورة النور : { الله نُورُ السماوات والأرض مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ

المصباح فِي زُجَاجَةٍ الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يضياء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ على نُورٍ يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ الله الأمثال لِلنَّاسِ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [النور : 35] .

نور السموات والأرض؛ لأنه بالنور تكون الهداية حِسّية أو معنوية . . فالنور الحِسّيُّ مثل نور الشمس والقمر وغيرهما من مصادر الضوء . . هذا النور الحسي هو الذي يُبيّن لنا الأشياء لتسير في الكون على بصيرة وهدى . . فلو حاولتَ السَّيْر ليلاً دون ضَوْء يهديك فسوف تصطدم بالأشياء من حولك : إما أقوى منك يُحطّمك ويُؤذيك ، وإما تكون أنت أقوى منه فتُحطِّمه أنت . . فالذي يهدي خُطَاك هو النور الحسيُّ .

وقد يكون النور معنوياً ، وهو نور القيَم والأخلاق ، وهذا النور يجعلك أيضاً تسير في الحياة على بصيرة وهُدًى ، ويحميك من التخبّط في مجاهل الأفكار والنظريات ، هذا هو النور القِيَمي الذي أنزله الله لنا في كتابه الكريم ، وقال عنه : { قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكتاب وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ سُبُلَ السلام وَيُخْرِجُهُمْ مِّنِ الظلمات إِلَى النور بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [المائدة : 15-16] .

فهو نور لكن معنوي . . بالقيم والأخلاق والفضائل . . ولا تقُلْ في هذا المثل : إنه مَثَلٌ لنور الله . . بل مَثَلٌ لسلطان تنويره للكون ، ولو تأمَّلنا بقية الآية لأدركنا ذلك .

{ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ . . . } [النور : 35] .

البعض يقولون : المشكاة هي المصباح . . لا . . المشكاة هي الكُوّة أو الطاقة المسدودة في الجدار يعرفها أهل الريف في بِنَاياتهم القديمة ، وهي تجويف غير نافذ في الجدار يُوضَع فيه المصباح . { المصباح فِي زُجَاجَةٍ } [النور : 35] .

أي : ليس مصباحاً عادياً بل في زجاجة ، وهي تحمي ضَوْء المصباح أنْ يبعثره الهواء من كل ناحية ، وفي نفس الوقت تسمح له بالقدر الكافي من الهواء لاستمرار الاشتعال ، وبذلك يكون الضوء ثابتاً صافياً لا يصدر عنه دُخان يُعكِّر صَفْو الزجاجة .

وأهل الريف يعرفون شعلة الجاز التي ليس لها زجاجة ، وما يصدر عنها من دُخان أسود ضارّ . . إذن : المصباح هنا في غاية الصفاء والقوة؛ لأن الزجاجة أيضاً ليستْ زجاجة عادية ، بل زجاجة كأنها كوكب دُريٌّ ، وكَوْنها كالكوكب الدريّ يعني أنها تُضِيء بنفسها . { الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ . . . } [النور : 35] .

هذا المصباح يُوقد بزيت ليس عادياً ، بل هو زيت من زيتونه . . شجرة زيتون معتدلة المناخ . { لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ . . . } [النور : 35] .

هذا الزيت وصل من الصفاء والنقاء أنه يُضيء ، ولو لم تمسسه نار؛ ولذلك أعطانا منتهى القوة : { يَكَادُ زَيْتُهَا يضياء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ . . } [النور : 35] .

ولذلك قال تعالى في وصف هذا المصباح : { نُّورٌ على نُورٍ . . } [النور : 35] .

وبعد أنْ وقفتَ على أوصاف هذا المصباح ، وأنه يُوضَع في كُوَّة صغيرة ، بالله عليك هل يمكن وجود نقطة مظلمة في هذه الكُوّة؟

إذن : فهذا مَثَلٌ ليس لنوره سبحانه . . فنُوره لا يُدرَكُ ، وإنما هو مثَلٌ لتنويره للكون ، الذي هو كالكُوّة والطاقة في هذا المثل . . فمعنى قوله تعالى : { الله نُورُ السماوات والأرض . . } [النور : 35] .

أي : مُنّورهما ، فكما أنه لا يُعقل وجود نقطة مظلمة في هذه الكُوّة ، فكذلك نوره سبحانه وتنويره للكون . . وهذا هو النور الحسيّ الذي أمدَّ الله به الكون .

ثم تحدَّث القرآن بعد ذلك عن النور المعنوي الذي يُنزِل على عباد الله الصالحين تجليّاتٍ نورانية ، وفيُوضاتٍ ربانية نتلقّاها في بيوت الله : { فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال * رِجَالٌ . . . } [النور : 36-37] .

وهكذا نجمع بين النور الحسيّ والنور المعنوي صلى الله عليه وسلم .

ولذلك ، فأبو تمام حينما أراد أن يمدح الخليفة شبَّهه بمشاهير العرب في الشجاعة والكرم والحِلْم والذكاء ، فقال :

إقْدام عَمْرٍو في سَمَاحَةِ حَاتِمٍ ... فِي حِلْم أَحْنَفَ في ذَكَاءِ إِيَاسِ

فاعترض على هذا التشبيه أحد حُسَّاد أبي تمام ، وقال له : كيف تُشبّه الخليفة بأجلاف العرب؟ ففي جيشه ألف واحد كعمرو ، ومن خَزَنته ألف واحد كحاتم . . ولكن يخرج أبو تمام من هذا المأزق ، ويُفلِت من هذا الفخ الذي نصبه له حاسده ، قال على البديهة :

لاَ تُنكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ ... مَثَلاً شَرُوداً في النَّدى والبَاسِ

فَاللهُ قَدْ ضربَ الأقَلَّ لِنُورِه ... مثَلاً مِنَ المشْكَاةِ وَالنِّبْرَاسِ

والحق سبحانه وتعالى وإنْ نحانا نحن أن نضربَ له مثلاً لِقلَّة عِلْمنا ، فهو سبحانه القادر على ضَرْب الأمثال حتى بأقلّ المخلوقات ، وأتفهها في نظرنا .

. فيقول تعالى : { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . } [البقرة : 26] .

فلا تستقلّ أمر هذه البعوضة ، ولا تستحقر أنْ يجعلها الله مثَلاً؛ لأنه سبحانه لا يستحي أن يضرب بها المثل؛ لأن في هذه البعوضة كل أجهزة تكوين الحياة التي فيك ، وفي أضخم الحيوانات مثل الفيل والجمل؛ ولأن هذه البعوضة التي تستحقرها قد تكون أقوى منك ، وقد تُعجِزك أنت

على قوتك وحيلتك وجبروتك .

يقول تعالى : { وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب } [الحج : 73] .

بالله عليك ، هل تستطيع على قوتك وإمكاناتك أنْ تستردَ من الذبابة ما أخذتْه من طعامك؟ هل تقدر على هذه العملية؟

إذن : حينما يضرب الله لك مَثَلاً يجب أن تحترم ضَرْب الله للمثل ، وأنْ تبحثَ فيما وراء المثل من الحكمة . . وأنه سبحانه جاء بهذا المثَل لهذا المخلوق الحقير في نظرك لِيُوضِّح لك قضية غامضة يُنبِّهك إليها .

ولأهمية ضَرْب المثَل في توضيح الغامض يلجأ إليه الشعراء ليُقرِّبوا المعنى من الأفهام ، فقد يقف الشاعر أمام قضية معقدة لا يدركها إلا العقلاء ، ويريد الشاعر الوصول بها إلى أفهام العامة . . مثل قضية الحاسد الذي يُظهر بحسده مزايا محسوده ومكارمه ، فقد يتهم البريء بتهمة ظلماً ، فتكون سبباً في رِفْعته بين قومه .

أخذ الشاعر العربي هذا المعنى ، وصاغه شعراً ، وضرب له مثلاً توضيحياً ، فقال :

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلةٍ طُوِيَتْ ... أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

لَوْلاَ اشْتِعالُ النَّارِ فِيمَا جَاوِرَتْ ... مَا كانَ يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

فانظر كيف وصل بالقضية المعنوية إلى قضية عامة يعرفها الرجل العادي ، فقد يكون لديك فضيلة مكتومة مغمورة لا يعرفها أحد ، حتى تتعرض لحاسد يتهمك ويُشوِّه صورتك ، فإذا بالحقيقة تتكشف للجميع ويُظهر ما عندك من مواهب ، وما لديك من فضائل . . وما أشبه ذلك بالعود طيب الرائحة الذي لا نشمُّ رائحته إلا إذا حرقناه .

وقد كان سبب هذا المثَل الشِّعريّ أن أحد أهل الخير كان يتردد من حين لآخر على أحد بُيوت البلدة وبها عجوز مُقْعدة في حاجة إلى مساعدة ، فكان يساعدها بما يستطيع ، وكان بجوارها منزل إحدى الجميلات التي قد تكون مطمعاً . . فاستغل أحد الحُسَّاد هذه الجيرة ، واتهم الرجل الصالح بأنه يذهب إلى هذه الحسناء . . وفعلاً تتبعه الناس ، فإذا به يذهب لبيت العجوز المقعدة . . ومن هنا عرف الناس عنه فضيلةً لم يكن يعرفها أحد .

وقد رأينا على مَرَّ التاريخ مَنِ اتهِمُوا ظلماً ، وقيل في حقهم ما يندي له الجبين . . ثم أنصفهم القضاء العادل ، وأظهر أنهم أبطال يستحقون التكريم ، ولولا ما تعرضوا له من اتهام ما عرفنا مزاياهم ومكارمهم .

وقوله تعالى :

{ إِنَّ الله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 74] .

وهذه عِلّة النهي عن ضَرْب الأمثال لأننا لا نعلم ، أما الحق سبحانه وتعالى فيضرب لنا الأمثال؛

لأنه سبحانه يعلم ، ويأتي بالمثَل في محلّه .
وبعد أنْ هيّأنا ربنا سبحانه لتلقّي الأمثال ، وأعدَّ أذهاننا لاستقبال الأمثال منه سبحانه . . أتى بهذا المثل .
فيقول الحق سبحانه : { ضَرَبَ الله مَثَلاً . . . } .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (75)

الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلاً له طرفان :
الطرف الأول : عبد : أي مَوْلى ، وصفه بأنه مملوك التصرّف ، وأنه لا يقدر على شيء من العمل؛ ذلك لأن العبد قد يكون عَبْداً ولكنه يعمل ، كمَنْ تسمح له بالعمل في التجارة مثلاً وهو عبد ، وهناك العبد المكاتب الذي يتفق مع سيده على مال يُؤدّيه إليه لينال حريته ، فيتركه سيده يعمل بحريته حتى يجمعَ المال المتفق عليه . . فهذا عَبْد ، ومملوك ، ولا يقدر على شيء من السَّعْي والعمل .
والطرف الثاني : سيد حُرٌّ ، رزقه الله وأعطاه رِزْقاً حَسناً أي : حلالاً طيّباً . . ثم وفّقه الله للإنفاق منه بشتى أنواع الإنفاق : سِراً وجَهْراً . . وهذه منزلة عالية : رِزْق من الله وصفه بأنه حلال طَيب لا شُبْهة فيه ، بعد ذلك وفّقه الله للإنفاق منه . . كُلٌّ حَسْب ما يناسبه ، فمن الإنفاق ما يناسبه السِّرّ ، ومنه ما يُناسبه الجَهْر : { إِن تُبْدُواْ الصدقات فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفقرآء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ } [البقرة : 271] .
هذان هما طَرَفا المثَل المضروب لَنَا . . ويترك لنا السياق القرآني الحكْم بينهما . . وكأن الحق سبحانه يقول : أنا أرتضي حكمكم أنتم : هل يستوون؟
والحق سبحانه لا يترك لنا الجواب ، إلا إذا كان الجواب سيأتي على وَفْق ما يريد . . ولا جوابَ يُعقل لهذا السؤال إلا أن نقولَ : لا يستوون . . وكأن الحق سبحانه جعلنا ننطق نحن بهذا الحكم .
وقد ضرب الله هذا المثل لعبدة الأصنام ، الذين أكلوا رزق الله وعبدوا غيره ، فمثَّل الحق سبحانه الأصنامَ بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء .
وضرب المثل الآخر للسيد الذي رزقه الله رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سِرّاً وجَهْراً ، ألم تَرَ إلى قوله تعالى في آية أخرى : { وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً . . . } [لقمان : 20] .
ليُبين لهم خطأهم في الانصراف عن عبادة الله مع ما أعطاهم من رزق إلى عبادة الأصنام التي لا تعطيهم شيئاً .
ومن هنا تتضح الحكمة في أن الله تعالى ترك الحكم بنفسه في هذا المثَل ، وأتى به على صورة

سؤال ليأخذ الحكم من أفواههم ويشهدوا هم على أنفسهم؛ ليقطع عليهم سبيل الإنكار والجدال . ولنا هنا وَقْفة مع قوله تعالى :

{ هَلْ يَسْتَوُونَ . . . } [النحل : 75] .

فالحديث عن مُثّنى ، وكان القياس أن يقول : هل يستويان ، فلماذا عدل عن المثنى إلى الجمع؟

نقول : لأن المثل وإنْ ضُرِب بمفرد مقابل مفرد إلا أنه ينطبق على عديدين . . مفرد شائع في عديد مملوكين ، وفي عديد من السادة أصحاب الرزق الحسن ، ذلك لِيُعمّم ضَرْب المثل .

إذن : ليس في اختلاف الضمير هنا ما يتعارض وبلاغة القرآن الكريم ، بل هي دِقّة أداء؛ لأن المتكلّم هو الحق سبحانه وتعالى .

وكذلك في قوله تعالى :

{ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا . . } [الحجرات : 9] .

بعضهم يرى في الآية مَأخذاً ، حيث تتحدث عن المثنى ، ثم بضمير الجمع في (اقْتَتَلُوا) ، ثم تعود للمثنى في (بَيْنَهُمَا) .

نقول لهؤلاء : لو تدبرتُم المعنى لَعرفتم أن ما تتخذونه مأخذاً ، وتعتبرونه اختلافاً في الأسلوب هو منتهى الدقة في التعبير القرآني . . ذلك أن الحديث عن طائفتين : مُثنّى . . نعم . . فلو تقاتلا ، هل ستمسك كل طائفة سَيْفاً لتقاتل الأخرى؟

لا . . بل سيُمسِك كُلُّ جندي منها سَيْفاً . . فالقتال هناك بالمجموع . . مجموع كل طائفة لمجموع الطائفة الأخرى ، فناسب أن يقول : اقتتلوا؛ لأن القتال حركة ذاتية من كُلّ فرد في الطائفتين .

فإذا ما جاء وقت الصُلّح ، هل نصالح كل جندي من هذه على كل جندي من هذه؟ لا . . بل الصُّلْح شأْنُ السادة والزعماء والقادة لكل طائفة ، ففي الصُّلْح نعود للمثنى ، حيث ينوب هؤلاء عن طائفة ، وهؤلاء عن طائفة ، ويتم الصُّلْح بينهما .

إذن : اختلاف الضمير هنا آية من آيات الإعجاز البياني؛ لأن المتكلم هو الحق سبحانه وتعالى .

وقوله : { الحمد لِلَّهِ . . . } [النحل : 75] .

كأن الحق سبحانه يقول : الحمد لله أنْ وافقَ حُكْمكم ما أريد ، فقد نطقتُم أنتم وحكمتُمْ .

{ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } [النحل : 75] .

قوله : أكثرهم لا يعلمون يدل على أن الأقلية تعلم ، وهذا ما يُسمُّونه « صيانة الاحتمال »؛ لأنه لما نزلَ القرآن الكريم كان هناك جماعة من الكفار ومن أهل الكتاب يُفكّرون في الإيمان واعتناق هذا الدين ، فلو نفى القرآن العلم عن الجميع فسوف يُصدَم هؤلاء ، وربما صرفهم عَمّا يُفكِّرون فيه من أمر الإيمان ، فالقرآن يصون الاحتمال في أن أُنَاساً منهم عندهم عِلْم ، ويرغبون

في الإيمان .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَضَرَبَ الله مَثَلاً . . . } .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (76)

وهذا مَثَلٌ آخر لرجلين أحدهما أبكم ، والأبكم هو الذي لا يتكلم . . ولا بُدّ أن يسبق البكم صَمَمٌ؛ لأن الكلام وليد السَّمْع ، فإذا أخذنا طفلاً عربياً وربَّيناه في بيئة إنجليزية نجده يتكلم الإنجليزية ، والعكس صحيح؛ ذلك لأن الكلام ليس جنساً أو دماً أو لحماً ، بل هو وليد البيئة ، وما تسمعه الأذن ينطق به اللسان . . فإذا لم يسمع شيئاً فكيف يتكلم؟

لذلك ، فربنا سبحانه تعالى يقول عن الكفار : { صُمٌّ بُكْمٌ . . } [البقرة : 18] .

هذا الأبكم لا يقدر على شيء من العمل والنفع لك ، يقول تعالى : { وَهُوَ كَلٌّ على مَوْلاهُ . . } [النحل : 76] .

أي : عَالَة على سيده ، لا ينفع حتى نفسه ، ومع ذلك قد يكون عنده حكمة يقضي بها شيئاً لسيده ، حتى هذه ليست عنده .

{ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ . . } [النحل : 76] .

إذن : لا خيرَ فيه ، ولا منفعةَ ألبتة ، لا له ولا لغيره ، هذه صفات الرجل الأول .

فماذا عن مقابله؟

{ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بالعدل . . . } [النحل : 76] .

وهذه أول صفات الرجل الآخر ، أنه يأمر بالعدل ، وصفة الأمر بالعدل تقتضي أنه سمح منهجاً ، ووعتْهُ أذنه ، وانطلق به لسانه آمراً بالعدل ، وهذه الصفة تقابل : الأبكم الذي لا يقدر على شيء .

{ وَهُوَ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [النحل : 76] .

أي : أنه يذهب إلى الهدف مباشرة ، ومن أقصر الطرق ، وهذه تقابل : أينما يوجهه لا يَأْتِ بخير .

والسؤال هنا أيضاً : هل يستويان؟ والإجابة التي يقول بها العقل : لا .

وهذا مثَلٌ آخر للأصنام . . فهي لا تسمع ، ولا تتكلم ، ولا تُفصح ، وهي لا تقدر على شيء لا لَها ولا لعابديها . . بل هي عَالَة عليهم ، فهم الذين يأتون بها من حجارة الجبال ، وينحتونها وينصبونها ، ويُصلِحون كَسْرها ، وهكذا هم الذين يخدمونها ولا ينتفعون منها بشيء .

فإذا كنتم لا تُسوُّون بين الرجل الأول والرجل الآخر الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، فكيف تسوون بين إله له صفة الكمال المطلق ، وأصنام لا تملك لكم نفعاً ولا ضراً؟!

أو نقول : إن هذا مَثَلٌ للمؤمن والكافر ، بدليل أن الحق سبحانه في المثل السابق قال : { ضَرَبَ الله مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً . . . } [النحل : 75] .

وفي مقابله قال : { وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً . . . } [النحل : 75] .

ولم يقُلْ عبد أو رجل .

إنما هنا قال : { رَّجُلَيْنِ . . . } [النحل : 76] .

فيمكن أن نفهم منه أنه مَثَلٌ للرجل الكافر الذي يمثله الأبكم ، وللرجل المؤمن الذي يمثله مَنْ يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم .

والحق سبحانه يقول : { وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض . . . } .

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77)

أراد الحق سبحانه أنْ يُعلمنا منه عالم المُلْك ، ومنه عالم الملكوت . . عالم المُلْك هو العالم المحسّ لنا ، وعالم الملكوت المخفي عنَّا فلا نراه .

ولذلك ، فربنا سبحانه وتعالى لما تكرّم على سيدنا إبراهيم عليه السلام قال : { وَكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين } [الأنعام : 75] .

إذن : لله تعالى في كونه ظاهر وغَيْب . . الظاهر له نواميس كونية يراها كل الناس ، وله أشياء غيبيّة لا يراها أحد ، ولا يطّلع عليها . . حتى في ذاتك أنت أشياء غَيْب لا يعلمها أحد من الناس ، وكذلك عند الناس أشياء غَيْب لا تعرفها أنت . . وهذا الغيب نُسميّه : غَيْب الإنسان .

إذن : فأنا غائب عنّي أشياء ، وغيري غائب عنه أشياء . . هذا الغيب الذي لا نعرفه يَعُدّه بعض الناس نَقْصاً فينا ، وهو في الحقيقة نوع من الكمال في النفس البشرية؛ لأنك إنْ أردتَ أنْ تعلمَ غيْبَ الناس فاسمح لهم أنْ يعلموا غَيْبك .

ولو خُيّرت في هذه القضية لاخترتَ أنْ يحتفظ كلٌّ منكم بغَيْبه لا يطلع عليه أحد . . لا أعرف غَيْب الناس ، ولا يعرفون غَيْبي؛ ولذلك يقولون : « المغطى مليح » .

فسَتْر الغيب كمال في الكون؛ لأنه يُرِبّي ويُثري الفائدة فيه . . كيف؟

هَبْ أنك تعرف رجلاً مستقيماً كثير الحسنات ، ثم اطلعتَ على سيئة واحدة عنده كانت مستورة ، فسو فترى هذه السيئة كفيلة بأن تُزهّدك في كل حسناته وتُكرّهك فيه ، وتدعوك إلى النُّفْرة منه ، فلا تستفيد منه بشيء ، في حين لو سُترتْ عنك هذه السيئةُ لاستطعت الانتفاع بحسناته . .

وهكذا يُنمي الغيبُ الفائدةَ في الكون .

وفي بعض الآثار الواردة يقول الحق سبحانه : « يا ابْنَ آدمَ سترْتُ عنك وسترْتُ مِنك ، فإنْ

شئتَ فضحْنَا لك وفضحناك ، وإنْ شئت أسبلنَا عليك سِبالَ السِّتر إلى يوم القيامة » فاجعل نفسك الآن المخاطب بهذا الحديث ، فماذا تختار؟

أعتقد أن الجميع سيختار الستْر . . فما دُمْتَ تحب الستر وتكره أنْ يطلعَ الناس على غَيْبك فإياك أنْ تتطاول لتعرفَ غَيْب الآخرين .

والغيب : هو ما غاب عن المدركات المحسَّة من السمع والبصر والشَّمّ والذَّوْق ، وما غاب عن العقول من الإدراكات المعنوية .

وهناك غيْب وضع الله في كونه مقدمات تُوصّل إليه وأسباباً لئلا يكونَ غَيْباً . . كالكهرباء والجاذبية وغيرها . . كانت غَيْباً قبل أنْ تُكتشفَ . . وهكذا كل الاكتشافات والأسرار التي يكشفها لنا العلم ، كانت غَيْباً عنّا في وقت ، ثم صارت مُشَاهدة في وقت آخر .

ذلك ، لأن الحق سبحانه لا ينثر لنا كُلَّ أسرار كَوْنه مرة واحدة ، بل يُنزله بقَدرٍ ويكشفه لنا بحساب ، فيقول سبحانه : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ } [الحجر : 21] .

فالذي كان غَيْباً في الماضي أصبح ظاهراً مُشَاهداً اليوم؛ لأن الله سبحانه كشف لنا أسبابه فتوصَّلْنا إليه . . فهذا غَيْب جعل الله له مُقدَّمات يصل إليها مَنْ يبحث في الكون ، فإذا ما أذن الله به ، وحان وقت ميلاده وَفَّق الله أحد الباحثين إلى اكتشافه ، إما عن طريق البحث ، أو حتى الخطأ في المحاولة ، أو عن طريق المصادفة .

ولذلك إذا بحثتَ في كل المخترعات والمكتشفات لوجدت 90% منها جاءت مصادفة ، لم يكونوا بصدد البحث عنها أو التوصل إليها ، وهذا ما نسميه « غيب الأكوان » .

ومثال هذا الغيب : إذا كلفتَ ولدك بِحلّ تمرين هندسيٍّ . . ومعنى حَلّ التمرين أنْ يصلَ الولدُ إلى نقطة تريد أنت أنْ يصلَ إليها . . ماذا يفعل الولد؟ يأخذ ما تعطيه من مُعْطيات ، ثم يستخدم ما لديْه من نظريات ، وما يملكه من ذكاء ويستخرج منها المطلوب .

فالولد هنا لم يَأْتِ بجديد ، بل استخدم المعطيات ، وهكذا الأشياء الموجودة في الكون هي المعطيات مَنْ بحثَ فيها توصَّل إلى غيبيَّات الكون وأسراره .

وهذا النوع من الغيب يقول عنه الحق سبحانه : { الله لاَ إله إِلاَّ هُوَ الحي القيوم لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السماوات والأرض وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العلي العظيم } [البقرة : 255] .

فإذا أذنَ الله لهم تكشفتْ لهم الأسرار : إما بالبحث ، وإما بالخطأ ، أو حتى بالمصادفة . . فطالما حان وقت ميلاد هذا الغيْب واكتشافه؛ فإن صادف بَحْثاً من البشر التقيا ، وإلاَّ أظهره الله لنَا

دون بَحْث ودون سَعْي مِنَّا .

وهناك نوع آخر من الغيب ، وهو الغَيْب المطلق ، وهو غَيْب عن كل البشر استأثر الله به ، وليس له مُقدِّمات وأسباب تُوصَّل إليه ، كما في النوع الأول . . هذا الغَيْب ، قال تعالى في شأنه : { عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ . . . } [الجن : 26-27] .

فإذا ما أعلمنا الرسول غَيْباً من الغيبيات فلا نقول : إنه يعلم الغيب . . لأنه لا يعلم إلا ما أعلمه الله من الغيب . . إذن : هذا غَيْب لا يدركه أحد بذاته أبداً .

ومن هذا الغَيْب المطلق غَيْبٌ استأثر الله به ، ولا يُطلع عليه أحداً حتى الرسل . . « ولما سُئِل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الساعة ، قال : » ما المسئول عنها بأعلم من السائل « .

وفي الإسراء والمعراج يحدثنا صلى الله عليه وسلم أن الله قد أعطاه ثلاثة أوعية : وعاء أمره بتبليغه وهو وعاء الرسالة ، ووعاء خَيَّره فيه فلا يعطيه إلا لأهل الاستعداد السلوكي الذين يتقبلون أسرار الله ولا تنكرها عقولهم ، ووعاء منعه فهو خصوصية لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك يقول راوي الحديث : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني وعاءين ، أما أحدهما فقد بثثْتُه أي رويْته وقُلْته للناس ، وأما الآخر فلو بُحْت به لَقُطِع حلقومي هذا ، فهذا من الأسرار التي يختار الرسول صلى الله عليه وسلم لها مَنْ يحفظها .

قوله تعالى :

{ وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض . . } [النحل : 77] .

هذا يُسمُّونه أسلوب قَصْر بتقديم الجار والمجرور ، أي قصر غيب السموات والأرض عليه سبحانه ، فلو قلنا مثلاً : غيب السموات والأرض لله ، فيحتمل أن يقول قائل : ولغير الله ، أما :

{ وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض . . } [النحل : 77] .

أي : له وحده لا شريك له .

ومعنى السموات والأرض ، أي : وما بينهما وما وراءهما ، ولكن المشهور من مخلوقات الله : السماء ، والأرض .

ثم يقول تعالى :

{ وَمَآ أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر أَوْ هُوَ أَقْرَبُ . . . } [النحل : 77] .

جاءت الآية بهذا الغَيْب الوحيد؛ لأنه الغيب الذي استأثر الله به . . ولا يُجلّيها لوقتها إلا هو . . فناسب الحديث عن الغيب أنْ يأتيَ بهذا الغَيْب المطلق الذي لا يعلمه إلا الله .

وما هو لَمْح البصر؟

عندنا أفعال متعددة تدلّ كلّها على الرؤية العامة ، وإنْ كان لكل منها معنًى خاصٌّ بها نقول :

رأى ونظر ورَمق ولحظ ولمح . . فرأى مثلاً أي بجُمع عينه ، ورمق بأعلى ، ولحظَ بجانب ، فكلُّها مرتبطة بحركة الحدقة ، هذه الحركة ما نسميه باللمح .

إذن : لمح البصر هو تحرُّك حَدقة العين إلى ناحية الشيء المرئي . . فإنْ أردتَ أن ترى ما فوقك تحركتْ الحدقة إلى أعلى ، وإنْ أردتَ أن ترى ما هو أسفل تحركتْ الحدقة إلى أسفل وهكذا .

هذه الحركة هي لَمْح البصر ، انتقال الحدقة من وضع إلى وضع .

إذن : شبَّه الحق تبارك وتعالى أمر الساعة عنده سبحانه بلمح البصر ، ولكن اللمح حدث ، والأحداث تحتاج إلى أزمان ، وقد تطول الأزمان في ذاتها ولكنها تقصر عند الرائي .

وقد قرَّب إلينا العلم الحديث هذه القضية بما توصَّل إليه من إعادة المشاهد المصوَّرة على البطيء ليعطيك فرصة متابعتها بدقة ، فنراهم مثلاً يُعيدون لك مَشْهداً كروياً لترى كل تفاصيله ، فتجد المشهد الذي مَرّ كلمح البصر يُعرَض أمامك بطيئاً في زمن أطول ، في حين أن الزمن في السرعة يتجمع تجمّعاً لا تدركه أنت بأيّ معيار ، لا بالدقيقة ولا بالثانية .

إذن : فهي جزئيات حركة في جزئيات زمان ، فلَمْح البصر الذي هو تحرُّك حَدقة العين تحتاج لوقت ولزمن متداخل ، وليس هكذا أمْر الساعة ، بل هذا أقرب ما يعرفه الإنسان ، وأقرب تشبيه لِفَهْم أمْر الساعة بالنسبة له سبحانه .

إذا قيل لك : ما أمر فلان؟ وما شأنه؟ . تأخذ في سَرْد الأحداث . . حدث كيت وكيت . . فإذا قلنا : ما أمْر الساعة؟ ما شأنها ساعةَ تقوم ، حيث يموت الأحياء أولاً ، ثم يحيا الجميع من لَدُنْ آدم عليه السلام ثم حَشْر وحساب وثواب وعقاب .

أحداث كثيرة وعظيمة لخلْق متعددين من الإنس والجن . . يحدث هذا كله كلمح البصر بالنسبة لنا ، ولكن إياك أنْ تتصوّر أن هذا يحتاج إلى وقت بالنسبة لله سبحانه .

فالأشياء بالنسبة له سبحانه لا تعالج ، وإنما هي كُنْ فيكون ، حتى كُنْ مكوّنة من حرفين : الكاف لفظ وله زمن ، والنون لفظ وله زمن ، إنما أَمْر الساعة أقرب من الكاف والنون ، ولكن ليس هناك أقلّ من هذا في فَهْمنا .

والحق سبحانه وتعالى حينما تكلَّم عن أهل القبور ، قال : { كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا } [النازعات : 46] .

في حين أننا نرى أنهم غابوا كثيراً في قبورهم . . إذن : كيف يُقَاسُ الزمن؟ . . يُقاس بتتبُّعك للأحداث ، فحينما لا يُوجد حَدَث لا يُوجَد زمن . . وهذا ما نراه في حال النائم الذي لا يستطيع تحديد الزمن الذي نامه إلا على غالب ما يكون في البشر .

ولذلك ، في قصة أهل الكهف الذين ناموا ثلاث مائة عام وتسعة أعوام قالوا : { لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . . . } [المؤمنون : 113] .

فهذا هو الغالب في عُرْف الناس؛ ذلك لأنهم استيقظوا فلم يجدوا شيئاً حولهم يدل على زمن طويل . . الحال كما هو لم يتغيَّر فيهم شيء . . فلو استيقظوا فوجدوا أنفسهم شيوخاً بعد أن كانوا فتية لَعلِموا بمرور الزمن . . إذن : الزمن بالنسبة لعدم الحدث زمن مَلْغيّ .

أو نقول : إن أَمْر الساعة في أن الحق سبحانه يجعلها جامعة للناس إلا كلمْح البصر ، فكلّ ما يحدث فيها لا تقيسه بزمن ، لأن الذي يُقاسُ بالزمن إنما هي الأحداث الناشئة من فاعل له قدرة وقوة تتوزع على الزمن .

فلو أردْتَ نَقْل هذا الشيء من هنا إلى هنا فسوف يحتاج منك وقتاً ومجهوداً ، أما لو كلفتَ طفلاً بنقل هذا الشيء فسوف يأخذ وقتاً أكثر ويحتاج مجهوداً أكثر . . إذن : فالزمن يتناسب مع قدرة الفاعل تناسباً عكسياً .

ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم حينما حدَّث الناس بالإسراء والمعراج قالوا : أتدَّعي أنك أتيتها في ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً . . هذا لأن انتقالهم يحتاج لعلاج ومُزَاولة ، تأخذ وَقْتاً يتناسب وقدراتهم في الانتقال بالإبل من مكة إلى بيت المقدس . . ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يقل : أسريْتُ ، بل قال : أُسْرِي بي ، الذي أَسْرى به هو الله سبحانه ، فالزمن يُقاس بالنسبة للحق سبحانه وتعالى .

وكذلك إذا قِيسَ زَمن أَمْر الساعة بالنسبة لقدرته سبحانه فإنه يكون كلمح البصر ، أو هو أقرب من ذلك . . إنما هو تشبيه لِنُقرّب لكم الفهم .

وقوله : { إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [النحل : 77] .

أي : يكون أمر الساعة كذلك؛ لأن الله قادر على كل شيء ، وما دامت الأحداث تختلف باختلاف القدرات ، فقدرة الله هي القدرة العُلْيا التي لا تحتاج لزمن لفعل الأحداث .

ثم يقول الحق سبحانه : { والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ . . . } .